

اليمن في ظل الإسلام

منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول

الدكتور / عصام الدين عبد الرؤوف الفقي

دار الفكر العربي

اليمن فى ظل الإسلام

منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول

الدكتور
عصام الدين عبد الرءوف الفقى
أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية الآداب
جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكــر العـربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر
ت : ٢٦٣٨٦٨٤ - فاكس : ٢٦١٩٠٤٩



٩٥٢,٠٦ عصام الدين عبد الرءوف الفقى.

ع ص ى م اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول/ عصام الدين عبد الرءوف الفقى. – ط٢ مزيدة ومنقحة.– القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٤.

٤٠٨ ص : إيض؛ ٢٤سم.

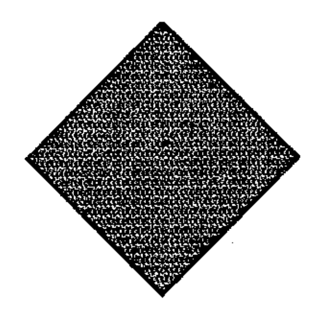
ببليوجرافية: ص ٣٧٩ – ٣٨٩.

يشتمل على جداول وملحق.

تدمك : ١ – ٠٦٧١ – ١٠ – ٩٧٧.

١– اليمن – تاريخ – العصر الإسلامى. أ– العنوان.

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وبعد، فهذا كتاب يتناول تاريخ بلاد اليمن فى العصر الإسلامى منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بنى رسول. ويرجع اهتمامى بتاريخ الإسلام فى اليمن منذ سنوات طوال، أنّى قرأت الكثير من المراجع عن هذا الموضوع، وجمعت مادة علمية عنه، ولكنى شعرت أن ما جمعته ليس كافياً، فتوقفت بعض الوقت، ولما أُعرت إلى جامعة صنعاء وجدت الفرصة مواتية لاستئناف محاولتى، وبدأت أبحث عن المخطوطات والمراجع المطبوعة التى لم تتسير لى فى مصر، وبذلت فى ذلك كل جهد، لأن الحصول على المخطوطات فى اليمن أمر شاق جداً إن لم يكن مستحيلا. ولكنى بعد جهد جهيد وعناء شديد تغلبت على هذه العقبة الكبرى، وجمعت مادة علمية غزيرة لموضوع بحثى.

ولم يكتب عن تاريخ الإسلام فى اليمن إلا القليل جداً، وفى فقرات محدودة، لذلك فإن المكتبة العربية فى حاجة ماسة إلى كتب علمية منهجية عن تاريخ الإسلام فى اليمن، لذلك حرصت فى كتابى هذا على تغطية فترة من أهم فترات تاريخ اليمن الإسلامى، وهى الفترة التى تبدأ من فجر الإسلام فى اليمن حتى قيام دولة بنى رسول، وتناولت الحياة السياسية ومظاهر الحضارة. والمعروف أن أحداً لم يكتب على الإطلاق عن الحضارة الإسلامية فى اليمن، ذلك أن الكتابة عنها من الأمور الصعبة، فلا يوجد مرجع يتحدث – ولوبالإشارة – عن جانب حضارى فى بلاد اليمن. لذلك كانت مهمتى أن أبحث فى هذا المرجع أو ذاك عن إشارات غير مباشرة أو تلميحات أو أحداث أستنتج منها مظاهر الحضارة فى هذا البلد.

ومن الصعاب التى تواجه الباحث فى تاريخ اليمن أن الحوادث كثيرة جداً ومتداخلة ومتشابكة. وما على الباحث إلا أن يتخلص من سيطرة الأحداث عليه، ويبسطها بقدر الإمكان، ويحسن عرضها، ويتوقف عند كل حادثة لمناقشتها وإبداء الرأى فيها من غير مبالغة أو مغالاة، وهذا ماحرصت عليه فى هذا الكتاب.

* * *

انتشر الإسلام فى بلاد اليمن سلمياً فى عدة سنوات، وانتشل الإسلام هذا البلد من التخلف الذى عاشت فيه، ومن الاستعمار الذى تعرضت له، ومن الصراعات القبلية العنيفة التى مزقته، ودخل اليمانية فى دين الله أفواجا، وأحيا فيهم الإسلام روحاً جديدة كما أحيا طاقتهم الكامنة، وحلت الوحدة الإسلامية محل الصراعات القبلية، وفشلت الحركات المعارضة للإسلام فى اليمن، وعاد اليمانية إلى دين الله، ولبوا نداء الخلافة فى نشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأرواحهم حتى رفعوا راية الإسلام فى كثير من بلدان العالم القديم. ودور اليمانية فى الجهاد يمثل بحق أعظم أدوار تاريخهم، ويدل دلالة قاطعة على أنهم آمنوا إيماناً قوياً بالإسلام ورسالة محمد – عليه الصلاة والسلام –. وبذلك اتسعت الدنيا أمام اليمانية فى ظل الإسلام ففتحوا البلاد، ومصروا الأمصار، وأقامت جالياتهم فى البلاد التى دخلت الإسلام حديثاً شرقاً وغرباً.

أصبحت بلاد اليمن فى ظل الإسلام ولاية من ولايات الدولة العربية الإسلامية فى عصر دول الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فى عصرهم الأول. ولكن بلاد اليمن شهدت فى عصر الولاة حركات معارضة لدولة الخلافة، منها حركات علوية ومنها حركات فرق الخوارج وانتفاضات شعبية ضد الولاة. وظل الأمر كذلك حتى عهد الخليفة المأمون إلى محمد بن زياد بحكم تهامة وزبيد. ومن ثم قامت أول دولة مستقلة ذاتياً فى اليمن عن الحكم العباسى. ولكن هذه الدولة لم تحكم بلاد اليمن كلها بل حكمت تهامة وزبيدا فقط. وقامت فى صنعاء وبعض البلاد المجاورة لها دولة بنى يعفر، تظهر الولاء للخلافة العباسية من الناحية الإسمية فقط.

على أن أول دولة مستقلة حكمت اليمن هى دولة الأئمة الزيدية فى صعدة. ومؤسس هذه الدولة هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين، قدم إلى صعدة، والتف

حوله بعض اليمانية، ونشر بينهم المذهب الزيدى، وواجه هذا الإمام الكثير من الصعاب فى إقامة دولته، وواجه الخصومة والمعارضة فى كل مكان، ولكنه فى النهاية نجح فى إقامة دولة زيدية وراثية فى أبناء الحسن أو الحسين، وسقطت هذه الدولة فى بعض فترات تاريخها، وعادت من جديد حتى قيام الثورة.

ومن الدول المستقلة التى حكمت بلاد اليمن، الدولة الإسماعيلية الأولى، وقد أسسها الداعيان ابن حوشب وعلى بن الفضل، ودانت لهما الكثير من البلدان اليمنية بالولاء والطاعة، وبشر الداعيان بقرب ظهور المهدى المنتظر فى اليمن، ونشرا مبادئ المذهب الإسماعيلى بين أنصارهم. ولكن عبيد الله المهدى ذهب إلى المغرب بدلا من اليمن. هنا انتقض على بن الفضل على المهدى، وانشق على زميله ابن حوشب. ومن ثم أخذت الدولة الإسماعيلية الأولى فى الضعف والتدهور.

أما الدولة الإسماعيلية الثانية فى اليمن، فهى الدولة الصليحية. وتعتبر من أعظم الدول التى حكمت بلاد اليمن فى العصور الوسطى الإسلامية، ومؤسسها على بن محمد الصليحى، استطاع أن يوحد بلاد اليمن تحت قيادته، وهذا أمر لم يحدث فى جاهلية ولا إسلام، وعرف عن ملوك الصليحيين التسامح المذهبى، والعمل على تحسين الأحوال المعيشية للمواطنين، فى عصر كان الحكام لاتربطهم فيه بالمواطن أية صلة، ولا يهتمون بأحواله،واقتصرت علاقاتهم بالفرد على مطالبته بالضرائب،أو اتخاذه وقوداً لمعاركهم المتعددة ضد أعدائهم.

وعاصرت الدولة الصليحية دولة بنى نجاح. ونجاح كان من موالى بنى زياد، وأقام دولته على أنقاض ملك سادته فى تهامة وزبيد. وبذلك انقسمت بلاد اليمن إلى عدة دول مختلفة سياسياً ومذهبياً، فالدولة النجاحية سنية والدولة الصليحية إسماعيلية ودول الأئمة فى صعدة، زيدية.

قضت الدولة النجاحية معظم أيامها فى حروب لاتكاد تنقطع مع الدولة الصليحية ثم أخذت الدولة النجاحية فى الضعف، واستبد الوزراء بالسلطة دون الأمراء.

اضطربت بلاد اليمن كل الاضطراب قبل الحكم الأيوبى، ووثب على السلطة فى زبيد وتهامة آل مهدى، وأسسوا أسوأ دولة فى تاريخ اليمن، سلبوا أموال الناس ونكلوا بهم وألحقوا الخراب والدمار بالقرى والمدن، وحكم بنو زريع عدن،وحكم بنو حاتم صنعاء، واستقلت بعض القبائل اليمنية بأراضيها. وهذه الحقبة من تاريخ اليمن مضطربة كل الاضطراب، الحكام يحاربون بعضهم بعضا، كل يطمع فى ممتلكات الآخر. والقبائل العربية تنضم إلى هذا الحاكم أو ذاك تحقيقاً لمصالح وأطماع يرغبونها، وقامت ثورات ضد بعض الحكام، حتى خلت بعض المدن فى بضع سنوات من حكام يحكمونها، وسادت الفوضى ونهب الناس بعضهم بعضا وعم الاضطراب ربوع اليمن.

وظل الأمر كذلك حتى أرسل صلاح الدين يوسف بن أيوب حملة لغزو اليمن بقيادة أخيه توران شاه، واستولى توران شاه على اليمن، وأصبحت ولاية من ولايات الدولة الأيوبية. واستطاع الأيوبيون تخليص بلاد اليمن من حالة الفوضى التى عاشت فيها. ويعتبر طفتكين أعظم حكام الأيوبيين فى اليمن، وحد البلاد تحت قيادته، وقضى على الفتن. على أن الحكم الأيوبى لليمن ضعف بعد وفاته، وتنافس القادة الأيوبيون فيما بينهم حول السيادة والسلطة، ووجد الإمام الزيدى الفرصة سانحة لتوسيع رقعة دولته، وبرز فى تلك الفترة بنو رسول الذين حكموا اليمن بعد سقوط الحكم الأيوبى.

وتحدثت فى هذا الكتاب عن الحضارة الإسلامية فى اليمن، وأوضحت أن الإسلام انتشل بلاد اليمن من التخلف إلى التقدم، ومن الظلمات إلى النور، فأعطى الإسلام لليمانية الدفعة والقوة للسير قدماً فى ركب الحضارة وفى موكب النور، فاتصل اليمانية ببلدان الدولة الإسلامية الكبرى، وفيها ولايات بلغت شأواً كبيراً فى مضمار الحضارة، فأخذوا عنهم ونقلوا منهم، ووجدت المصنوعات اليمنية رواجا فى الدولة الكبرى، واتصلت اليمن بباقى بلدان الدولة الإسلامية، فراجت تجارتها، وارتبطت بعلاقات تجارية مع الولايات الإسلامية والدول المتحالفة مع دولة الإسلام الكبرى.

وتماسك المجتمع فى ظل الإسلام، فالشريعة الإسلامية تهيئ للأسرة الاستقرار وتعطى لكل مواطن حقوقاً وواجبات، وأحكام الشريعة الإسلامية تمنع الجرائم بفضل ما فرضته من

عقوبات لكل جريمة، والإسلام يجعل فى مال الأغنياء نصيباً للفقراء. وبذلك أصبح المواطن آمناً على نفسه وحياته ورزقه.

وفى المجال الثقافى أقبل اليمانية وبشغف شديد على العلوم العربية والإسلامية التى نبغ فيها علماء الإسلام، ودرسوها وصنفوا المصنفات القيمة والعديدة.

وقسمت بحثى إلى ثلاثة أبواب، بحثت فى الباب الأول موضوع الحياة السياسية فى بلاد اليمن فى عصر الولاة، وتناولت فى هذا الباب عوامل انتشار الإسلام فى اليمن والحركات المعارضة للإسلام وفشلها ونتائج دخول اليمانية فى دين الله، ثم تحدثت عن عصر الولاة فى اليمن.

وفى الباب الثانى تناولت الدول الإسلامية المستقلة فى بلاد اليمن، وهى دول بنى زياد وبنى يعفر والدولة الزيدية فى صعدة والدولة الإسماعيلية الأولى والدولة الصليحية ودولة بنى مهدى ودولة بنى زريع، وتحدثت عن أسباب الغزو الأيوبى لليمن، والحكم الأيوبى لهذه البلاد وقيام دولة بنى رسول.

أما الباب الثالث فقد بحثت فيه موضوع الحضارة الإسلامية فى اليمن، وتحدثت عن ازدهار الزراعة والصناعة، ورواج التجارة، والإدارة المالية كما تكلمت عن الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية فى اليمن.

وفى النهاية أشكر أخى الأستاذ العلامة محمد سامى عبد الرءوف الذى أشرف على طباعة هذا البحث، وقدم لى بعض الإرشادات القيمة.

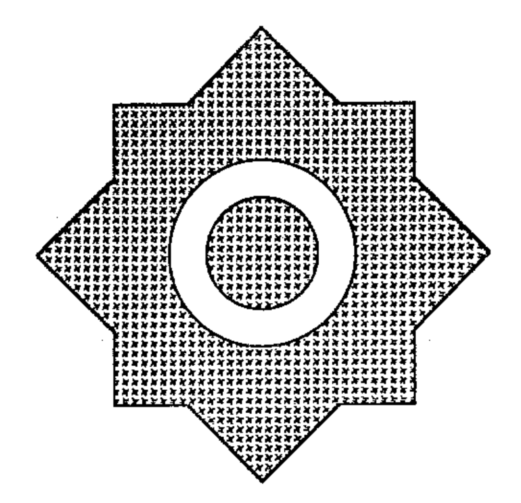
أسأل الله أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ الإسلام وحضارته.

هذا وبالله التوفيق؟

صنعاء – وادى ضهر

١٩٨١/٢/٢٠


المكتبة التاريخية اليمنية



الباب الأول

الحياة السياسية فى بلاد اليمن
فى عصر الوُلاة

تمهيد:

بلاد اليمن قبل الإسلام

ازدهرت الحضارة فى بلاد اليمن فى العصور القديمة وبالذات فى عصر دولة سبأ، ذلك أن اليمانية أحسنوا استخدام المياه فى الزراعة، وأقاموا سد مأرب الذى مكنهم من زراعة الأرض على مدار السنة، وأدى الازدهار الزراعى فى البلاد إلى الاستقرار، وأتاح الاستقرار لليمانية الفرصة للسير قدماً فى ركب الحضارة، ونشط اليمانية كذلك فى مجال التجارة مع مصر وسورية وبابل، فتدفقت الثروة على بلادهم، وكان لهم أسطول تجارى تشحن سفنه بالبخور لإمداد هياكل بلاد الشرق، وكان لسبأ قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية بينها وبين البلاد الأخرى.

على أن هذا الرخاء الاقتصادى قد توقف بسبب تصدع سد مأرب، ولا يمكن قبول رواية بعض المؤرخين من أن انهيار سد مأرب قد تم مرة واحدة، بل تصدعت جدرانه وأهمله الملوك، وتدريجياً فقد فاعليته، ولم يعد يؤدى غرضه، ولم يحتمل تدفق السيول والمياه الغزيرة المحجوزة خلفه، فانكسر، وفاضت المياه على ماحوله من القرى والمزارع فأتلفها[1]، عندئذ ضاقت أرض اليمن - على سعتها - بأهلها، ولم يعد فى إمكان أهلها العيش فى رخاء، وانهار اقتصاد البلاد بعد تدهور الزراعة، وقاسى اليمانية ويلات الجوع والحرمان والبؤس، فهاجروا إلى البلاد المجاورة التماساً لحياة أفضل.

ولما قامت دولة حمير فى اليمن كانت موضع تنافس بين دولة الفرس الساسانيين ودولة الروم، وقد استخدمت هذه الأخيرة السلاح الدينى فى توسيع نفوذها وسلطانها فأدخلت المسيحية فى بلاد الحبشة، كما نشرت هذه الديانة فى بلاد اليمن، وصارت فى نجران جالية مسيحية كبيرة، وكان الروم يرمون من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن أن

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص ٢٨.

يكون لهم نفوذ سياسى واقتصادى فيها، فصارت تجارتهم تسير بين الخليج العربى والبحر الأحمر مارة ببلاد اليمن، الأمر الذى استاء منه العرب، وحملهم على مضايقة الروم، والتصدى لتجارتهم[١].

كذلك عرفت بلاد اليمن اليهودية قبل الإسلام، وانتشرت فيها بعد أن لجأ إليها اليهود الفارون من اضطهاد الرومان سنة ٧٠م، الذين دمروا هيكلهم القديم فى أورشليم سنة ٧٠م، واستقر بهم المقام فى اليمن وفدك وخيبر ويثرب وعمان، واشتغل اليهود بالتجارة فى اليمن، ولم يلبث أن اعتنق بعض ملوك حمير اليهودية، وانتشرت اليهودية على أثر ذلك بين الحميريين وإن لم يكن لديهم المقدرة الكافية على تصور فكرة التوحيد، ولكن عرف عنهم التعصب الشديد لدينهم[٢].

لما ازداد نفوذ اليهود أظهروا روح الانتقام من النصارى الروم العابرين ببضائعهم الهندية فى طريقهم إلى الحبشة ومصر، وكان الفرس يساندون اليهود فى موقفهم العدائى من النصارى، لأن انتشار المسيحية فى ذلك الإقليم الجنوبى على جانبى البحر الأحمر، امتداد لنفوذ الروم، يشكل خطراً على فارس من ناحية الجنوب، ويهدد طرق التجارة الشرقية فى المياه الهندية، أما المسيحيون فى اليمن فكانوا يعتمدون على مساعدة الروم لهم ضد أعدائهم اليهود[٣].

اشتد الصراع بين المسيحية واليهودية فى اليمن، وتعرض ديمانوس – أحد ملوك حمير اليهود– لقوافل التجار الروم الذى كانوا يجتازون اليمن إلى الحبشة، فتخلص الروم والأحباش منه، وولوا بدلا منه أميراً مسيحياً، ولما توفى أقام اليهود ذا نواس الحميرى ملكاً على اليمن، وأدت كثرة التعرض للتجارة إلى مقاطعة التجار لطرقها خوفاً على حياتهم وأموالهم[٤].

وقد اشتد ذو نواس الحميرى على المسيحيين واضطهدهم، وسار إلى نجران، ودخلها وسام أهلها سوء العذاب، وألحق بهم ويلاته، لأنهم رفضوا التحول من المسيحية إلى اليهودية، بل حفر لهم أخدوداً، وأشعل فيه النيران، وأحرق عدة آلاف من أهل نجران، ولم ينج من

(١) Hitti: Hist of the Arabs.P.61.

(٢) Hitti : Hist. of the Arabs.P.61.

(٣) IBID.P.62.

(٤) الهمداني: الإكليل جـ١ ص ٦٠

أهلها إلا من لاذ بالفرار[1]. وقد ورد ذكر ذلك فى القرآن الكريم ﴿ قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

لما بلغ الإمبراطور البيزنطى جوستين ما حل بنصارى نجران من الاضطهاد والتنكيل كتب إلى آل أصبحة– نجاشى الحبشة– يحرضه على غزو بلاد اليمن، وإنقاذ المسيحيين المضطهدين فيها،والتخلص من ذى نواس الحميرى وحماية المسيحية فى بلاد اليمن، وكان الإمبراطور يهدف من وراء تحريض الحبشة على السيطرة على اليمن، إلى اتخاذ بلاد اليمن طريقاً للتجارة إلى الشرق،إذا وقعت فى يد حلفائه الأحباش، وليقضى على تجارة منافسيه الفرس[2].

ومهما يكن من أمر فقد سير نجاشى الحبشة حملة بقيادة أرياط سنة ٥٣٣م لمعاقبة الملك اليهودى، وحماية المسيحية، واستولى أرياط على ظفار، وتغلب على ذى نواس، وقبض على زمام الأمور فى اليمن، وانتقم الأحباش لما أصاب إخوانهم فى الدين، وتولى القائد أرياط حكم اليمن بعهد من النجاشى[3].بذلك خضعت اليمن للحكم الحبشى.

ظل أرياط يحكم اليمن حتى ثار عليه بعض قواده، لانحيازه إلى فريق منهم فى توزيع الغنائم والعطاء، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقبضوا عليه، وتخلصوا منه، وتولى أبرهة حكم اليمن سنة ٥٣٥م[4].

وكان أبرهة يتطلع إلى الاستقلال باليمن عن الحبشة، والانفصال به عن دولة أكسوم، لهذا كان ينتهز الفرص لإعلان الثورة على النجاشى، فثار فى أيام آل أصبحة، ولكنه أرغم على أداء الجزية. والخضوع للدولة الأكسومية، فلما تولى الملك الجديد بيت إسرائيل، ثار أبرهة مرة أخرى، وأفلح فى انتزاع اعتراف الملك الحبشى بسيادته على اليمن، وأن تكون تبعيته لدولة أكسوم اسمية فقط، وفى بعض نقوش سد مأرب يلقب أبرهة نفسه بالأمير التابع لملك الحبشة، وأحياناً يتخذ لقب ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وعرب النجار[5]. وعرب تهامة.

---

(١) Philiby: the Backgriund of Islam.P.119.

(٢) IBID.P.61

(٣) Hitti: Hist of the Arabs.P,62.

(٤) Philiby : The Background of Islam.P.120

(٥) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ٦٠

رأى أبرهة أن ينشر المسيحية فى سائر الجزيرة العربية، وصرفهم عن الوثنية كوسيلة لمده نفوذه إلى سائر بلاد العرب، والسيطرة من خلال ذلك على طريق التجارة التى سيطرت عليها قريش من قبل، ويؤدى ذلك - فى اعتقاده - إلى تحويل أنظار العرب إلى صنعاء بدلا من مكة فتزدهر بلاد اليمن اقتصادياً تبعاً لذلك، وتصبح صنعاء قبلة أنظار العرب: لذلك شيد أبرهة فى صنعاء كنيسة تسمى القليس ليحج إليها العرب بدلاً من مكة، وقد بالغ أبرهة فى بنائها وزخرفتها لتحل محل الكعبة، ولكن العرب استاءوا من مشروع أبرهة، فدنسوها بالقاذورات، فاتخذ من ذلك ذريعة لغزو مكة وتدمير الكعبة، ولكن حملته على مكة فشلت فشلا ذريعاً، وعاد إلى بلاده يجر أذيال الفشل والخيبة، والعرب يحددون هذه الغزوة بسنة ٥٧٠م وهى عندهم السنة التى ولد فيها الرسول ﷺ، ولكن بعض الباحثين يقول أن هذه الواقعة وقعت سنة ٥٤٠م، والفترة ما بين على ٥٤٠م، ٥٧٠م،حكم اليمن خلالها - بعد أبرهة- يكسبوم ومسروق، والعرب أنفسهم لا يجزمون بأن الرسول ﷺ ولد فى عام الفيل، وقد قيل أن هذا العام كان قبل مولد الرسول ﷺ بأربعين عاما أو ثلاثة وعشرين سنة[1].

ومهما يكن من أمر فقد انتهى حكم أبرهة حوالى سنة ٥٤٤م، وخلفه ابنه يكسوم، وقد حكم تسعة عشر عاما، ثم خلفه أخوه مسروق وحكم اثنى عشر عاما. وفى عهد مسروق اشتد عداء الحمريين للأحباش وتطلعوا إلى التخلص منهم، والحصول على استقلالهم.

ظهرت جبهتان فى بلاد اليمن، تستمد كل منهما العون والتأييد من الدولتين الكبريين، فالمسيحيون فى اليمن - بما فيهم الأحباش - يعتمدون على مساندة البيزنطيين لهم، على حين يتطلع اليمانية الوثنيون واليهود إلى الفرس لتحريرهم من نير الاستعمار الحبشى.

شهد الاستعمار الحبشى لليمن مقاومة من القبائل اليمنية، وأشد هذه القبائل مقاومة ذى يزن وهى أسرة حميرية، وينسب لها صناعة الرماح الحديدية، وبرز منها سيف الذى تطلع إلى تحرير بلاده من الاستعمار الحبشى، فاستنجد بكسرى أنوشروان- ملك الدولة الساسانية- وسار إلى ملك الحيرة ليتوسط له لدى كسرى أنو شروان فى الأمر، وقابل سيف كسرى بواسطة ملك العرب، وطلب منه أن يمده بقوة من جيشه لتحرير بلاده من الاستعمار الحبشى[2].

---

(1) Philiby. the Background of Islam pp,124-125

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ١٤٤.

استجاب كسرى فارس لدعوة سيف بن ذى يزن، وأمده بجيش يتكون من نزلاء السجون، وهم المسمون « آزادان » وكان كسرى يرى أن هؤلاء الجند إن هلكوا كان الذى أراده وإن ظهروا على الأحباش زاد ذلك فى ملكه[١].

قاد وهرز الحملة الفارسية على اليمن سنة ٥٧٥م وكان شيخا بلغ من العمر أرذله، وجيشه يتكون من ثمانمائة مقاتل على ثمانى سفن، بكل سفينة مائة رجل، وغرقت سفينتان، ووصلت ست سفن عليها ستمائة مقاتل.رحب اليمنيون بمقدم الحملة الفارسية، واشتركوا مع الفرس فى تحرير وطنهم من الحكم الحبشى البغيض، ويقول الطبرى[٢]. قال سيف لوهرز: ثم اجعل رجلى مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظهر جميعاً. فأجابه وهرز : أنصفت وأحسنت. وتمكن الفرس واليمنيون من هزيمة الأحباش، وقتل مسروق بن أبرهة الوالى الحبشى- وبذلك تخلصت بلاد اليمن من الاحتلال الحبشى، وكتب وهرز إلى كسرى، إنى قد ضبطت لك اليمن، وأخرجت من كان بها من الحبشة. فكتب إليه كسرى يأمره بأن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية[٣]. وبذلك تخلصت اليمن من الحكم الحبشى الذى استمر أكثر من سبعين عاما، ولكنها لم تحصل على استقلالها نهائيا بعد طرد الأحباش، بل أصبحت تتبع الإمبراطورية الفارسية، وبذلك فإن سيف - بدون قصد منه - استبدل استعمارا باستعمار.

ومهما يكن من أمر فقد عاد وهرز- بعد أن طرد الأحباش من اليمن - إلى طيسفون (المدائن) عاصمة الإمبراطورية الفارسية. وعهد كسرى إلى سيف بن ذى يزن بحكم اليمن، واستخدم سيف جماعة من الخدم الأحباش، فتآمروا عليه انتقاما مما أحدثه بذويهم، وانهالوا عليه ضرباً بالحراب حتى قتلوه[٤]، وغضب كسرى لمقتل سيف، فأمر وهرز بالعودة إلى اليمن والانتقام لمقتل سيف، وتثبيت الحكم الفارسى فى هذه البلاد. وأمر وهرز بألا يدع فى اليمن أسود ولا ولداً عربياً من أم سوداء إلا قتله صغيراً أو كبيراً، فأقبل وهرز على اليمن على رأس أربعة آلاف مقاتل، ونكل ببقايا الأحباش فى اليمن، وعينه كسرى واليا من قبله على اليمن[٥].

---

(١) الهمدانى : الإكليل جـ٢ص ٢٥٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ٢ص ١٤٨.

(٣) المصدر السابق «تاريخ الأمم والملوك » جـ٢ ص ١٥٠

(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص ١٦٠

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ١٥٤

ولما توفى وهرز خلفه المرزبان ثم البينجان، ثم خسرو، وثلاثتهم من أبناء وأحفاد وهرز، وانقطع حكم آل وهرز باليمن بعد أن غضب كسرى على خره خسرو وقتله. وكان باذان آخر وال فارسى على اليمن. وقد ظهر الإسلام فى عهده، ودخل فى دين الله، وحكم اليمن من قبل الرسول. وبذلك استقلت اليمن عن التبعية لفارس. وانضمت إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن سيطرة الفرس على اليمن لم تكن كاملة، وإنما اقتصر نفوذهم على صنعاء، والبلاد المجاورة لها، وتمكنوا من بسط نفوذهم على هذه البلاد مستفيدين من حالة الانقسام والفوضى بين القبائل اليمنية، كما شجعوا الفرس على الهجرة إلى اليمن، وانتشر الفرس فى المراكز المزدهرة اقتصادياً فى اليمن مثل عدن والجند، وإن كان معظمهم استقر فى صنعاء لينعم بحماية الحكومة الفارسية، وقد ضعف الحكم الفارسى فى بلاد اليمن فى عهد باذان، وقامت ضده ثورات بسبب زيادة الضرائب، وتطلع اليمنيون إلى الخلاص من نير الفرس.

من هذا العرض السريع جدا لأحوال بلاد اليمن قبل الإسلام يتضح لنا أن البلاد كانت تعيش فى تمزق اقتصادى وسياسى ودينى وفكرى، فصنعاء والبلاد المجاورة لها تخضع للاستعمار الفارسى ويتحكم الفرس فى مقدرات البلاد التى يسيطرون عليها، وينهبون ثرواتها، ويحكمون الناس بالظلم والبطش، أماالبلاد اليمنية التى لم يمتد إليها نفوذ الفرس فعاشت فى ظل النظام القبلى، وما فيه من مشاكل اجتماعية واقتصادية، والقبائل فى تنازع وتناحر، والفرد اليمنى يمتثل لتقاليد قبيلته، وإذا غادر مضارب القبيلة تتعرض حياته للخطر، ويفرض عليه النظام القبلى الانتظام فى الحروب ضد القبيلة المعادية. إذن كانت بلاد اليمن تفتقد الحكومة التى توحد صفوف المواطنين وتعمل على تحسين أحوالهم الاقتصادية وتنظم حياتهم الاجتماعية، وتأمنهم على أرواحهم وأموالهم. فحكومة صنعاء الفارسية لايهمها من أمر اليمانية إلا اغتصاب أموالهم دون مراعاة لتحسين أحوالهم، وشيوخ القبائل المستقلة عن الحكومة الصنعائية اقتصر اهتمامهم على قيادة الحروب ضد القبائل الأخرى دون العمل على رعاية أفرادها والنظر فى مشكلاتهم. كل ذلك جعل المواطن اليمنى يعيش فى بؤس وفقر وتخلف وحرمان حتى ضاقت البلاد – على سعتها – بأهلها، فهاجر من استطاع إلى الهجرة سبيلا إلى البلاد المجاورة وغير المجاورة ملتمساً البحث عن حياة أفضل ومعيشة أكرم.

وأدى انقسام بلاد اليمن إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة إلى تدهور البلاد اقتصادياً، واختلال الأمن فيها، وتحويلها إلى مسرح للمنازعات القبلية أو المنازعات بين حكومة صنعاء الفارسية والقبائل المتحالفة معها من ناحية والقبائل الأخرى من ناحية أخرى، وأدت هذه الفوضى إلى انهيار اجتماعى، فالرجل اليمنى يهاجر فراراً من الفقر والفاقة فى بلده تاركا أسرته دون رعاية كافية، والذى لا يهاجر ينخرط فى الصراعات القبلية أو الفردية فتتعرض حياته للخطر، وقد يترك أطفالا ونساء كان يرعاهم، يتركهم تحت رحمة المقادير.

أما عن الحياة الفكرية فقد تدهورت تماماً، وخيم على البلاد ظلام دامس من الجهل، ومن الناحية الدينية انقسم اليمانيون إلى مسيحيين ويهود ووثنيين يتصارعون فيما بينهم حول معتقداتهم.

فى ظل هذا التمزق والانهيار كان اليمانية فى حاجة إلى حكم يوحد شملهم، ويعمل جاهداً على السير بهم قدماً فى ركب الحضارة، وتأمين المواطن على يومه وغده، سواء فى مجال الأمن أو مجال المعيشة أو المجال الاجتماعى. كما أن اليمانية كانوا فى أشد الحاجة إلى الوصول إلى الحقيقة، العقيدة الحقيقية التى تصحح أفكارهم وتنهى معتقداتهم البالية الخاطئة المضطربة.

كان اليمانية فى حاجة إلى ثورة تنهى ما يقاسونه من تخلف واضطراب، فجاء الإسلام وصحح أفكارهم وأنهى عهد الاستعمار وعهد الفوضى القبلية، ووحد شمل اليمانية وجمعهم تحت راية الإسلام، عندئذ دخل اليمنيون فى عهد جديد وحياة جديدة نقلتهم من حال إلى حال، من الفوضى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية إلى حياة وحدت شملهم وكفلت لهم الحياة الحرة الكريمة والعقيدة الصحيحة.

دخول الإسلام وانتشاره
فى بلاد اليمن

لما بلغ الرسول ﷺ الأربعين من عمره، نزل عليه الوحى وهو يتعبد بغار حراء يوم الاثنين ١٧ من رمضان، وأقرأه سورة العلق[١]، ثم نزل الوحى مرة أخرى، وأمره الله تعالى بأن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله الواحد القهار، فأخذ يدعو المقربين إليه إلى الإسلام، فآمنت به زوجه خديجة وابن عمه على بن أبي طالب، ثم استجاب له أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة القرشى[٢]، وأسلم عقب ذلك جماعة كثيرة.

ظل الرسول ثلاث سنين يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق به ويطمئن إليه، وظل الأمر كذلك حتى أمره الله بأن يدعو إلى الإسلام جهراً ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ﴾[٣]، ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون ﴾[٤].

وبذلك أعلن الرسول الدعوة الإسلامية جهراً، ولقى فى بداية الأمر معارضة كبار رجال قريش له، ورفضوا التنازل عن معتقداتهم القديمة والتحول إلى الإسلام، واشتد عداؤهم للرسول حين عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم[٥]، لأن وجود الأوثان فى الكعبة يشكل مصدراً لثرائهم، ويكسبهم مكانة بين العرب.

ذاعت دعوة الرسول بين أهالى مكة، وكثر التحدث عنه بين القرشيين، وصار يحرض بعضهم بعضاً عليه، وطلبوا من عمه أبى طالب أن يقنعه بعدم التعرض لمعبوداتهم، ولكن أبا طالب لم يستطع أن يثنى الرسول عن دعوته[٦]. قال له الرسول : «ياعم والله لو وضعوا

---

(١) « اقرأ باسم ربك الذى خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم* الذى علم بالقلم* علم الإنسان مالم يعلم » آية: ١-٥.

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٤٩.

(٣) سورة الحجر آية٩٤.

(٤) سورة الشعراء آية ٢١٤-٢١٦.

(٥) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٦٥.

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ص ٥٨.

الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أوأهلك فيه ما تركته»[١].

اشتدت معارضة القرشيين للدعوة الإسلامية، وتعرضوا للمسلمين بالأذى حتى يعيدوهم إلى معتقداتهم، ويحولوهم عن الإسلام، ولكن رغم ما تعرض له المسلمون من إيذاء قريش، فقد ازداد تمسكهم بالدين الجديد وبوحدانية الله وبرسالة محمد[٢].

ولما ازداد اضطهاد قريش للمسلمين، أذن الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة لما كان يعهده فى ملكها من العدل والتسامح، ولجأت قريش إلى وسيلة أخرى تؤذى بها الرسول وصحبه، فاتفقوا على أن يكتبوا فيما بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على ألا يعاملوا بنى هاشم وبنى المطلب فى بيع ولا يتاجروا معهم، ولا يكلموهم ولا يجالسوهم ولايزوجوهم، ولا يتزوجوا منهم، حتى يسلموا إليهم محمداً ليقتلوه. وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم[٣].

استمرت هذه المقاطعة عامين أو ثلاثة، لقى المسلمون فيها ألوان العذاب والبؤس والحرمان[٤]، حتى أشفق عليهم بعض القرشيين، فسعوا إلى رفع الحصار عن المسلمين[٥].

ولكن الرسول بعد حادثة المقاطعة فقد عمه أبا طالب وزوجه خديجة، واشتد أذى قريش له، وللمسلمين، فلجأ إلى الطائف لنشر دعوته بها بدلا من مكة التى عارضت دعوته، ولكن أهل الطائف أساءوا إلى الرسول، وأغروا به سفاءهم، ثم انصرف الرسولعن الطائف عائداً إلى مكة دون أن يستجيب له أى فرد من أهالى ذلك البلد[٦]. ولم يمض غير قليل حتى أُسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بيت المقدس حيث عرج به من الصخرة المقدسة إلى سدرة المنتهى[٧].

لما رأى الرسول أن قريشاً تعارضه وتكذبه وتتصدى لدعوته جعل يعرض نفسه على القبائل فى المواسم يدعوها إلى الإسلام ويخبرهم بأنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدقوه. يذكر

(١) النبهانى: الأنوار المحمدية من الموهب اللدنية ص ٤٠

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣١٥

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٧٨

(٤، ٥) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبيرجـ٢ ص ١٩٤

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٨٢

(٧) المقريزى: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع جـ١ ص ٢٩

ابن هشام[1] أن محمداً كان يقف على منازل القبائل من العرب ويقول : «يابنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى، وتصدقوا بى، وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به».

ومن القبائل اليمانية التى عرض الرسول نفسه عليها بنو كلب[2]، فأتى إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، وكان يقول لهم: «يابنى عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم » فلم يقبلوا دعوته، وعارضوا محمداً ودينه[3].

واصل محمد دعوته رغم تكذيب القبائل له، فأتى كندة فى منازلها، وفيها سيد لهم يقال له مليح، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه[4].

وعلى الرغم من تكذيب أهل اليمن لدعوة الرسول لهم، فقد كان لدعوته صداها فى بلادهم، ذلك أن اليمانية العائدين إلى بلادهم تحدثوا إلى أهليهم وذويهم عن الإسلام وصاحب دعوته، الأمر الذى أدى إلى انتشار معرفة ظهور دين جديد فى بلاد الحجاز واليمن، يبشر به نبى من قريش، ويتعرض لإيذائهم، هو ومن دخل فى دينه، وأن محمداً يدعو إلى عبادة الله الواحد، ونبذ المعتقدات القديمة البالية التى تؤمن بها العرب.

أوضحنا أن الرسول الكريم صار كلما اجتمعت قبائل من العرب فى موسم الحج يقدم نفسه إليهم، ويدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لكنه صادف إعراضاً من وفود هذه القبائل[5]. على أن بشائر النصر لاحت للرسول من ناحية عرب يثرب بالذات[6]. ولاشك أن سرعة استجابة هؤلاء للإسلام ترجع إلى الظروف الخاصة بمدينتهم، تلك التى جعلت منها بيئة أكثر صلاحية من مكة لتقبل الدعوة الإسلامية والذود عنها[7]، ففى موسم الحج الذى تلا يوم بعاث لقى النبى ستة من الخزرج، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فلقيت دعوته قبولا منهم، وعادوا إلى يثرب يتحدثون عن الإسلام بين قومهم حتى لم يبق دار من دور

(١) القسم الأول ص ٤٢٣

(٢) المقريزى: إمتاع الإسماع جـ١ص ٣٠-٣١

(٣)سيرة ابن هشام: جـ١ص ٤٣٣-٤٣٤

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٨٣

(٥) سيرة ابن هشام: جـ١ص ٤٢٥ والمقريزى : إمتاع الأسماع جـ١ ص ٣٢

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٨٥

(٧) سيرة ابن هشام جـ١ص ٤٣٣-٤٣٤

عرب المدينة إلا وفيها ذكر للرسول[١]. وفى موسم الحج التالى وفد على مكة اثنا عشر رجلا من يثرب، فقابلهم النبى عند العقبة بمنى وبايعوه، وبعد انتهاء هذه البيعة- التى تعرف فى التاريخ ببيعة العقبة[٢] الأولى رجعوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير أرسله النبى معهم، ليعلمهم الإسلام، وانتشر الدين الجديد فى يثرب. وفى العام التالى- أى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية- اجتمع بالنبى ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج الذين أسلموا حديثاً، تم هذا الاجتماع ليلا بالعقبة، وفيه بايعوا النبى على أن يحموه بكل ما أوتوا من قوة، كما دعوه للهجرة إلى بلدهم والإقامة بين ظهرانيهم، وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية[٣]، وقد مهدت للمسلمين سبيل الهجرة إلى يثرب، وأذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، وخرج هؤلاء جماعة بعد جماعة، وخرج الرسول إلى يثرب فى صحبة أبى بكر، ورحب به أهل يثرب أجمل ترحيب[٤].

أذن الله للمسلمين بالتصدى لكفار قريش للذود عن أنفسهم وتأمين الدعوة الإسلامية وصد من يقف فى سبيلها[٥]. وكان لتشريع الجهاد أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين بالمدينة، فقد أعطاهم صفة سياسية، لم يتمتعوا بها من قبل، ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية، عليهم أن يجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب[٦]، ولتحقيق هذا الهدف السامى، خاضوا غمار كثير من المعارك الحربية بقيادة النبى، أطلق عليها اسم الغزوات. وهذه الغزوات غزوة بدر سنة ٢ هـ، وغزوة أحد فى العالم التالى وغزوة الخندق أو الأحزاب سنة ٥هـ.

خرج المسلمون من هذه الغزوات ظافرين منتصرين أقوياء بدينهم وعقيدتهم ورسولهم. ولما اطمأن الرسول إلى تفوق المسلمين على أعدائهم، أمر أصحابه فى ذى القعدة من السنة

---

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ١ ص ٤٩٧

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٤٣٤

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٨٦

(٤) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٤٨٤

(٥) سيرة ابن هشام : جـ٢ ص ٤٨٤

(٦) ومن الآيات التى تدعو المسلمين إلى الجهاد:

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله» (سورة الحج آية ٣٩)

السادسة للهجرة بالمسير إلى مكة لأداء العمرة، فلبوا دعوته[1]، وخرج الرسول بمن معه من المسلمين قاصدين مكة. وفى أثناء الطريق بلغهم أن قريشاً تأهبت لمنعهم من دخول مكة. ومازال سائراً حتى وصل إلى مكان يقال له الحديبية على بعد تسعة أميال من مكة اطمأن إلى الإقامة به[2]، ولكن قريشاً اعترضت على المسلمين دخولهم مكة للعمرة، وانتهت المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش بصلح الحديبية، وعاد الرسول وصحبه إلى المدينة دون تأدية للعمرة[3].

وقد أتاح هذا الصلح للرسول فرصة التفرغ لمواجهة اليهود وتأمين دعوته من شرهم، وقد شن عليهم الرسول حملة فى خيبر أدت إلى هزيمتهم ودخول خيبر فى حوزة الدولة الإسلامية الناشئة.

رأى الرسول بعد تخلصه من يهود المدينة وعقده صلح الحديبية مع قريش أن يوجه نظره إلى خارج بلاد الحجاز لينشر بها الدعوة الإسلامية، فأرسل رسلا من قبله إلى شيوخ قبائل العرب وأمراء النواحى، بل إلى ملوك الدول المعاصرة له[4]. وبذلك تطلع الرسول إلى تعميم الدعوة الإسلامية فى سائر الجزيرة العربية تمهيداً لتوحيدها سياسياً بعد أن كانت مقسمة إلى دول وقبائل، يخضع بعض بلدانها- كاليمن- للفرس. والإسلام لم ينزل للعرب فقط بل إلى الناس جميعاً فى سائر أرجاء الأرض[5].

قال تعالى: ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾[6].

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[7].

ومن بين الرسائل التى كتبها الرسول إلى أمراء العرب، رسائل إلى بعض أمراء اليمن سنة ٧هـ، منهم الحارث بن عبد كلال الحميرى، وشريح بن عبد كلال، ونعيم بن عبد

(١) سيرة ابن هشام : جـ٢ ص ٣٠٨ والمقريزى: إمتاع الأسماع ص ٢٨٣

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦هـ

(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ١ ص ٣٩٩

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦هـ

(٥) محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية ص ١٢١

(٦) سورة ص آية ٨٧-٨٨.

(٧) سورة سبأ: آية ٢٨

كلال، ونعمان قيل ذى يزن ومعافر وهمدان[١] وزرعة ذى رعين، يدعوهم وقومهم إلى الإسلام[٢]. وتضطرب الروايات كل الاضطراب حول بداية انتشار الإسلام فى اليمن، واعتناق عامة اليمانية للدين الحنيف. ويناقض بعضها بعضا. ومن بين هذه الروايات، رواية يجب مناقشتها مناقشة مستفيضة، تدور حول إسلام أهل اليمن. تذكر هذه الرواية التى رددها القدماء- وينقلها عنهم المحدثون- دون مناقشة- أن بلاد اليمن- كما هو معروف - يخضع بعضها وخصوصاً صنعاء ونواحيها لبلاد فارس، وكان باذان يحكم هذا الإقليم نيابة عن ملك الفرس كسرى الثانى برويز[٣]. وتمضى الرواية فتذكر أن الرسول كتب إلى كسرى كتاباً يدعوه إلى الإسلام جاء فيه «.. وإنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس..[٤]».

وقد غضب كسرى من هذه الرسالة، واعتبرها إهانة له، واستنكر الدين الجديد، والنبى المرسل، ومزق كتاب النبـــى، وكاد يقتل حامـــل الرسالة، ولما نمى ذلك إلى علم النبى، قال: مزق الله ملكه[٥]. وتذكر الرواية أن كسرى عول على التخلص من محمد، لأنه خشى من انتشار الدين الإسلامى فى اليمن والعراق - وهما فى حوزته - الأمر الذى يؤدى إلى زعزعة النفوذ الفارسى فى مملكته. فأرسل إلى باذان أن يأتيه برأس محمد، فأرسل باذان رجلين إلى الحجاز ليقتلا محمدا[٦]. وأبلغ الرجلان رسالة كسرى إلى الرسول. وأبلغاه أن شاهنشاه ملك الملوك قد كتب إلى واليه باذان يأمره أن يبعث من يأتيه برأسك، وقد بعثنا إليك لتنطلق معنا، فإن فعلت، كتب فيك إلى ملك الملوك، يشفع فيك، ويكفه عنك. وإن أبيت فهو من قد علمت. فهو مهلكك، ومهلك قومك، ومخرب بلادك. وتمضى الرواية التاريخية فتقول: إن الرسول طلب منهما مهلة يوما. وفى هذا اليوم أتاه الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله. وقد نقل الطبرى هذه الرواية عن ابن إسحاق الذى اختتم الرواية بقوله: إن الرسول أخبرهما الخبر، وطلب منهما إخبار باذان بذلك، وبأن

---

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبيرجـ٢ ص ٢٩

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة٥

(٣) الخزرجى : الكفاية والإعلام ٣٤

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦هـ

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦هـ وابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦هـ

(٦) النبهانى : الأنوار المحمدية ص ١٦٦

دينه- أى دين الرسول - وسلطانه سيبلغ ما بلغ كسرى، ووعد الرسول بأنه إذا أسلم باذان سيعطيه ما تحت يده، ويملكه على قومه من الأبناء[1].

وقدم الرجلان على باذان، وأخبراه، فقال : والله ما هذا بكلام ملك. وإنى لأرى الرجل نبياً- كما يقول- ولننظرن ما قد قال، فإن كان حقاً، ما فيه كلام أنه نبى مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا[2].

ولم يلبث أن قدم على باذان كتاب شيرويه يذكر فيه أنه قتل كسرى « ولم أقتله إلا غضبا لفارس بعد أن قتل أشرافهم وحبسهم فى الثغور. فإن جاءك كتابى هذا فخذ إلى الطاعة ممن قبلك. وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك، ولا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه».

ولما وصل الكتاب لباذان قال: إن هذا لرسول، فأسلم وأسلم الفرس - الذين يسمون الأبناء- فى اليمن[3].

وهذه الرواية تتعارض مع الحقيقة التاريخية، فقد تولى كسرى الثانى عرش الدولة الساسانية سنة ٥٩٠م وكان متكبراً ظالما ينساق وراء شهواته ناكراً للجميل، وقضى مدة حكمه فى الحروب، ولم تقدم حروبه شيئاً لإيران بل أنهكت قواها، لذلك ثار عليه القائد بهرام جوبين، ففر كسرى، وأعلن بهرام نفسه ملكا، وكان عهد بهرام السادس سلسلة من الاضطرابات والمعارك، ذلك أن رجال الدين عارضوه وتصدوا لحكمه، وانضم إليهم كبار رجال الدولة. على أن الإمبراطور البيزنطى موريس ناصر حليف كسرى الذى لجأ إليه فأمده بالعون العسكرى وخاض كسرى ضد غريمه بهرام السادس معارك ضارية، انتصر فيها، واستعاد ملكه[4].

ولما قتل الإمبراطور البيزنطى موريس، هاجم كسرى الدولة البيزنطية متذرعاً بمقتل حليفه، فغزا آسيا الصغرى، واستولى على الرها وأنطاكية ودمشق وبيت المقدس حيث انتزع الصليب الأكبر وبعث به إلى المدائن، ثم استولى على الإسكندرية، وأجزاء أخرى من مصر،

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦هـ
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦هـ
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦
(٤) حسن بيرانيا: تاريخ إيران القديم ٢٧٥

حوالى سنة ٦١٥م حيث بلغت قوة كسرى أوجها. على أن هرقل أوقف آخر الأمر الزحف المظفر الذى قاده كسرى ضد بلاده، فاستعاد آسيا الصغرى، وتقدم طارداً جيوش كسرى حتى أرمينية وأذربيجان[١].

ثار الشعب الفارسى على كسرى برويز بسبب كثرة حروبه وهزيمته أخيراً فى طيسفون (المدائن)، ويقال أن كسرى قتل كل قواده الذين فشلوا فى حروبهم، وأدت كراهية الشعب له، إلى خلعه عن السلطة، والزج به فى السجن، إلى أن قتل بعد حين سنة ٦٢٨م وكان لشيرويه- كما يقال- يد فى هذه المؤامرة، ذلك أن كسرى كان يريد تنصيب ابنه الأصغر مردانشاه ابن محظيته السريانية شيرين- ولياً للعهد بدلا منه على الرغم من أنه- أى شيرويه- أكبر أبنائه فيما يبدو- وانضم إلى شيرويه قائد عام الجيش وكبار رجال الدولة، وعزلوا كسرى واعتقلوه[٢]، ونادوا بشيرويه ملكا ولقب قباذ الخامس سنة ٦٢٧م. وفى العام التالى تذكر بعض الروايات أن الملك الجديد قتل أباه، وتذكر روايات أخرى أن أحد القواد دبر اغتياله[٣].

والمعروف أن التاريخ الساسانى لم يرو بدقة، فقد اختلطت به الأساطير، وقد نشأ هذا الخلط أحياناً من تدخل العرب فى سرد التاريخ الساسانى بطريقة قصصية لاتخلو من الخيال والبعد عن الواقع.

وقد أجمعت المصادر العربية على أن باذان اعتنق الإسلام سنة ٦هـ التى توافق سنة ٦٢٧م أى قبل مقتل كسرى بعام. والمعروف أن الرسول أرسل كتابه إلى كسرى- الذى دعاه فيه إلى الإسلام- وبعد عودته من الحديبية فى أواخر سنة ٦هـ. وقد ذكر الواقدى أن

---

(١) المصدر السابق ٢٩٦

(٢) بلغ من نفور أعداء كسرى منه وكراهيتهم له إلى حد أنهم قطعوا رأس أحد أبنائه أمام عينه، ويعتبر كسرى الثانى أشهر ملك ساسانى بعد كسرى أنوشروان وقد بقيت حكايات عن قصوره الشاهقة ومنازل حريمه وأبهة بلاطه. وقيل أن عدد زوجاته وصل إلى ثلاثة الآف زوجة ولم يكن لأحد من الملوك الساسانيين- كما روى الكتاب العرب- مثل ما كان لكسرى برويز من الخزائن والكنوز. وكان قصر حريمه يضم عدة آلاف من الجوارى اللائى يقمن بالغناء والعزف «شاهين مكاريوس : تاريخ إيران ص٩٢».

(٣) خلف قباذ أباه كسرى ، ولم يدم حكمه أكثر من ستة أشهر ، وأمر بقطع أيدى إخوته وأرجلهم، بعد أن قتل أخاه مردانشاه، وتوفى مسموما أو فريسة لطاعون اجتاح الدولة وأهلك الكثير من سكانها. (يحيى الخشاب : تاريخ إيران فى عهد الساسانيين ص٤٧٧-٤٧٨)

كسرى قتل سنة ٧هـ. وهذه الرواية تتفق تماماً مع الرواية الساسانية التى تقول بأن كسرى قتل سنة ٦٢٨م التى توافق سنة ٧هـ[١].

والرواة العرب كانوا متأثرين فى ذلك العصر بما بلغته الدولة الساسانية من مجد حضارى وقوة مادية،ونسجوا القصص والأساطير حول ملوكها وولاتها. فقصة إسلام باذان من صنع خيال الرواة، فلماذا لا نقول الواقع، وهو أن باذان أسلم بعد أن استمع من اليمانية القادمين من الحجاز بمبادئ الإسلام التى تدعو إلى وحدانية الله، ودحض الشرك، والخير للإنسان فى دنياه وآخرته، فدخل باذان فى الإسلام، وتخلى عن الوثنية شأنه فى ذلك شأن الملايين من البشر الذين تحولوا من الشرك إلى الإسلام. فالإسلام – منذ ظهوره – أدحض عقائد الشرك، ورأينا عبر التاريخ وعبر القرون أن قلاع الوثنية اهتزت أمام الإسلام.فالحق لابد أن يقضى على الباطل، والنور يبدد الظلام، والخير ينتصر على الشر انتصاراً حتمياً.

ونضيف إلى اعتناق باذان الإسلام سبباً آخر هو ضعف إمبراطورية الفرس واضطرابها، الأمر الذى أدى إلى ضعف الرابطة بين الحكومة المركزية وواليها على اليمن، فأصبح باذان يتصرف بحرية وبدون خوف من حكومته وتسلطها. فدخل فى الإسلام غير مكترث بالعواقب التى قد تنجم عن ذلك، بل قبل أن يتخلى عن منصبه كوالٍ على اليمن من قبل ملك الفرس ويقبل ولاية اليمن من قبل الرسول. وقد تبع اعتناق باذان الإسلام دخول الأبناء فى اليمن وغيرهم من اليمانية المتحالفين معهم، والمقربين إليهم – الإسلام. وكان اعتناق باذان للإسلام –هو ومن اتبعه من الأبناء واليمانية– نقطة ارتكاز قوية للإسلام فى جنوب شبه الجزيرة، وظهر ذلك جلياً واضحاً بعد عامين.

تتابعت انتصارات الرسول، وتم فتح مكة سنة ٨هـ، وخضعت قريش للدولة العربية الإسلامية الناشئة، الأمر الذى أدى إلى تخلى القبائل العربية عن معارضتها للإسلام، وسارعت إلى الدخول فيه، والإيمان بدعوة محمد « وضربت إليه وفود العرب من كل وجه»[٢] وعرفت سنة ٩هـ بعام الوفود[٣]، لأن الكثير من القبائل العربية أرسلوا وفودهم إلى الرسول يعلنون إسلامهم ودخولهم فى حوزة الدولة العربية الإسلامية[٤]. وبذلك لاحت بشائر

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦هـ

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ص ٥٦.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٩هـ

(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ٢ص ٤٩٥.

النصر، ونصر الله دينه بعد أن جاهد المسلمون فى سبيل ذلك ، وبذلوا الكثير من التضحيات ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾[1].

وكان الرسول يكرم وفود القبائل العربية، ويوضح لهم تعاليم الإسلام ومبادئه وشرائعه، ويعظمهم، ويمنحهم الهدايا، ويرسل معهم بعض الصحابة لتفقيه الناس فى الدين، وتعليمهم أصوله وقواعده[2].

ومن بين هذه الوفود وفود أهل اليمن، ففى سنة ٩هـ قدم وفد فروة بن مسيك المرادى على الرسول مفارقا لملوك كندة، ومباعداً لهم يوم الردم بين مراد وهمدان[3]، ولما توجه فروة إلى الرسول قال له: يافروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم، فقال: يارسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لايسوؤه ذلك[4] فقال الرسول: أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلاخيرا[5]. واستعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها[6]، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه على بلاده حتى توفى[7].

وقدم على الرسول الحارث بن عبد كلال ونعيم قيل ذى رعين ممثلين لملوك حمير ومعلنين دخول أهلهم فى الإسلام، وكتب لهم الرسول كتابا أمرهم فيه بأداء الصلاة وطاعة الله ورسوله وإيتاء الزكاة ممن أسلم، والجزية على من بقى على دينه من النصارى واليهود، ويعفى منها من أسلم[8].

---

(١) سورة النصر : آية ١-٣

(٢) سيرة ابن هشام : جـ٢ص ٥٦٠

(٣) سيرة ابن هشام جـ٢ص ٥٦٠

(٤) يوم الردم حدث قبل الإسلام بين مراد وهمدان ، أصابت فيها همدان من مراد ما أصابوا حتى هزموهم فى يوم الروم، فكان الذى قاد همدان إلى مراد، الأجدع بن مالك . الخزرجى: العسجد المسبوك٦

(٥) الخزرجى : الكفاية والإعلام ص ٣٥

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ص ٧٠

(٧) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٨٧

(٨) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبيرجـ١ ص ١١٧-١١٨

كذلك قدم على الرسول وفد الأزد وعلى رأسه الصرد بن عبد الله فى بضعة عشر رجلا، ودخلوا فى الإسلام هم وقومهم، وأمره الرسول بأن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن، فخرج صرد بن عبد الله على رأس جيش فى اليمن حتى نزل جرش– وهى يومئذ مدينة مغلقة– وانضمت إليهم خثعم، فدخلوا معهم حين سمعوا بسير المسلمين، فحاصرهم فيها ما يقرب من شهر، ومازال يشدد عليهم الحصار حتى استسلم أهل جرش، ودخلوا فى الإسلام وقدم وفدهم على الرسول معلنين إسلامهم[1].

وقدم على النبى كذلك وفد زبيد معلنين دخولهم فى دين الله[2]، وتزعم هذا الوفد عمرو بن معد يكرب[3]. كذلك وفد على الرسول الجارود بن عمرو بن حنش المعلى واعتنق الإسلام هو وأصحابه[4]. وقدم على الرسول وفد خولان ويتكون من عشرة رجال، ودخلوا وقومهم الإسلام، ووفد على النبى وفد كندة بزعامة الأشعث بن قيس الكندى فى ستين رجلا[5]. ووفد على الرسول كذلك وفد الرهاويين، ووفد العاقب والسيد من نجران، ووفد عبس، ومندوبون عن عشائر صغيرة، وعائلات وأفراد يعلنون إسلامهم ودخولهم فى الدين الجديد[6].

وجه الرسول الكريم اهتماما خاصا نحو إدخال بلاد اليمن فى الإسلام فعهد إلى معاذ ابن جبل[7]– وهو من خيرة شباب الأنصار– بقضاء اليمن وصلاتها سنة٩هـ[8] وأوصاه بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه فإن لم يجد يجتهد ولايقصر[9] وأوصاه بدعوة أهل الكتاب فى اليمن إلى الإسلام فإن لم يسلموا فعليهم الجزية، وإن أسلموا فعليهم الزكاة تؤخذ من أغنيائهم لترد إلى فقرائهم[10]. وأوصاه، بتقوى الله وأداء الأمانة وتوقى الخيانة، ومجالسة

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٥٨٢

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٨٢

(٣) الخزرجى : الكفاية والإعلام ٣٥

(٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٥٨٢

(٥) الخزرجى : الكفاية والإعلام ٣٥

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٩

(٧) معاذ بن جبل من الخزرج– إمام العلماء فى الورع توفى فى الأردن سنة ١٨هـ

(٨) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٩هـ

(٩) سيرة ابن هشام ص ٥٨٩

(١٠) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبرى.

المساكين والفقراء، وأن يكون للأرملة كالزوج الصالح ولليتيم كالأب الرحيم، وأن يعلم الجاهل الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يصبر على البلاء، ولاتأخذه فى الله لومة لائم، وأن ييسر ولا يعسر، ويبشر ولاينفر[1]، ومما قاله الرسول لمعاذ: «وقد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم، فقاتل بمن أطاعك من عصاك. وإذا قدمت عليهم فزين الإسلام بعدلك وحلمك وصفحك وعفوك[2]».

ويروى الخزرجى[3] أن الرسول أرسل إلى اليمن أبا موسى الأشعرى ثم معاذاً. ولكن من الثابت أن الرسول أرسل أبا موسى الأشعرى لتولية بعض ولايات اليمن. أما معاذ بن جبل فقد أرسله الرسول بعد ذلك سنة ٩هـ إلى اليمن كافة واليا على صلاتها، أى أن مهمته تبصير اليمانية بشئون الدين وتفقيههم فيه، وجمع الزكاة من أهلها.

ومهما يكن من أمر فقد عهد الرسول إلى أبى موسى الأشعرى بحكم بعض بلدان اليمن وهى زبيد ورمع وبلاد الأشاعر[4]، وكان قد عهد إلى باذان بحكم صنعاء، ولما توفى باذان أسند الرسول ولاية اليمن إلى ابنه شهر[5].

توجه معاذ بن جبل إلى اليمن، وبلغ صعدة، وأمر أهلها ببناء مسجد ثم ودعهم وانصرف حتى قدم صنعاء، واجتمع بأهلها، وألقى عليهم كتاب رسول الله ﷺ[6]. ولا تذكر لنا المصادر نص هذا الكتاب، ولكن يؤخذ من وصايا الرسول وكتبه إلى ولاته، أن هذا الكتاب يدعو الناس إلى الإسلام، ويحثهم على العمل بما اشتمل عليه هذا الدين الحنيف من مبادئ وقيم، وتقوى الله والعمل بأركان الإسلام الخمسة. ولم يمكث معاذ بصنعاء طويلا. وقبل أن يغادرها أمر أهلها ببناء مسجد فى بستان باذان، وهو الجامع الكبير المعروف فى صنعاء[7] الآن، ثم سار معاذ إلى الجند، وفى طريقه حط رحاله فى بعض القرى، فأمر

---

(١) الخزرجى : الكفاية والإعلام ص ٤٣

(٢) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ٩

(٣) الكفاية والإعلام ص ٤٢.

(٤) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٩

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٧٢

(٦) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ٩

(٧) يقول الخزرجى أن أهل صنعاء أعدوا منزلا لمعاذ يقيم فيه ، ودعوه إلى المنزل بين ظهرانيهم، فبكى معاذ بكاءً شديدا ثم قال : ياأهل صنعاء ليس بهذا أمرنى رسول الله ، إنما أوصانى أن أجالس الفقراء والمساكين. العسجد المسبوك ورقة ٩

أهلها ببناء مساجد في بلادهم وبلغ الجند في أواخر جمادى الأولي أو أوائل رجب وبنى مسجداً، وأقيمت فيه صلاة[1] الجمعة. وهى أول جمعة أقيمت في اليمن، واجتمع فى المسجد أهل الجند ومايجاورها من بلدان[2] يؤدون أول صلاة للجمعة فى تاريخهم خلف أول إمام لهم فرحين مستبشرين بأن أعزهم الله بالإسلام، وحررهم من الكفر والشرك، لذلك اتخذ أهل اليمن الجمعة الأولى من شهر رجب عيداً لهم، وألف الناس إتيان جامع الجند فى أول جمعة من رجب للعبادة والزيارة والذكرى[3].

ويردد بعض الكتاب اليمنيين قصة تتلخص فى أن معاذ بن جبل ذهب إلى اليمن على ناقة أعطاها له الرسول، وبركت الناقة في الموضع الذى أصبح جامع صنعاء الآن، وفى الموضع الذى هو جامع الجند- الذى أشرنا إليه- وفى الموضع الذى فى قرية الضربة والتى أسس بها معاذ مسجدا[4]. وقد نسج الرواة هذه القصة على غرار الناقة التى كان يركبها الرسول حينما دخل المدينة المنورة، وكان كلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم، يقول: خلوا سبيلها- أى الناقة- فإنها مأمورة. ولم تزل سائرة حتى بركت فى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار، واشترى الرسول المربد، وأمر ببناء مسجد للمسلمين فى مكانه[5]. والمعروف أن المهمة الأولى لولاة الرسول إقامة مساجد فى المدن والقرى واختيار مواضعها فى مراكز رئيسية. لذلك نرى أن اختيار مساجد صنعاء والضربة والجند حدده معاذ واستشار فيه أهل هذه البلاد، أما قصة الناقة فهى من نسج خيال الرواة. ولنا أن نسأل: لماذا لم نسمع عن شبيه لهذه القصة فى بلاد أخرى من جزيرة العرب وخارجها.

وهناك جدل حول تاريخ بناء الجامع الكبير فى صنعاء. فيذكر الحجرى فى كتابه «مساجد صنعاء» أن عمر بن يحنس الأنصارى- صاحب الرسول- شيد هذا المسجد سنة ٦هـ، وقال له الرسول: ادعهم إلى الإيمان، فإن أطاعوا فاشرع لهم الصلاة. وأمره بتشييد

---

(١) الرازى : تاريخ صنعاء ص ٢٥١.

(٢) ابن سعد :كتاب الطبقات الكبير جـ٥ص ٣٠

(٣) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ٩

(٤) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ٩

(٥) سيرة ابن هشام جـ١ص ٤٩٥.

مسجد للمسلمين[1]. وقد روى الحجرى هذه الرواية نقلا من الرازى صاحب كتاب تاريخ مدينة صنعاء. وقد نقل هذه الرواية عن الحجرى الكثير من المؤرخين.

وهذه الرواية غير صحيحة، فالمعروف أنه لم يكن هناك فى الإسلام سوى مسجدين، مسجد قباء ومسجد الرسول.كما أنه من الثابت أن الذى أمر أهل صنعاء ببناء الجامع الكبير هو معاذ بن جبل الذى أوفده الرسول إلى صنعاء بعد عودته من غزوة تبوك سنة ٩هـ، ولم ينتظر معاذ إتمام بناء المسجد، بل غادر صنعاء وذهب إلى الجند. إذن نستطيع أن نطمئن إلى أن مسجد صنعاء أو جامعها الكبير قد تم تأسيسه فى سنة ٩هـ، وليس فى سنة ٦هـ.

ومهما يكن من أمر فقد شيد هذا الجامع بأنقاض قصر غمدان القديم وعلى بعض جدرانه نقوش هندسية دقيقة متقنة،رغم صلابة الحجر بأشكال مختلفة، وعلى بعضها رسم أوراق العنب والعناقيد. والجناح الشرقى منقوش بالفسيفاء وأنواع الأصبغة، وأخشابه منقوش عليها رسوم وأشكال مختلفة. وفى طول الجامع وعرضه وفى بطن السقف مما يلى الخشب فى أعلى الجدار كتابة محفورة فى ألواح من خشب دائرة على الجامع كله،وهى بالخط الكوفى، ويظهر فى بعضها آيات قرآنية[2].

وقد عنى الخليفة أبو العباس السفاح بتوسيع الجامع الكبير، وأمر واليه على بن الربيع فى صنعاء بإنجاز هذا العمل، وأوضح الوالى هذا العمل فى اللوح الحجرى المحفور بالخط الكوفى ومما جاء فيه:

١ - بسم الله الرحمن الرحيم.

٢ - لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

٣ - أرسله بالهدى ودين الحق

٤ - ليظهره على الدين كله ولو

٥ - كره المشركون.

٦ - أمر المهدى عبد الله

٧ - أمير المؤمنين أكرمه الله.

---

(١) الحجرى : مساجد صنعاء ص ٢٣-٢٤.

(٢) السنباتى: معالم الآثار اليمنية ص ١٤.

٨ – باصلاح المساجد وعمارتها.

٩ – على يد الأمير على بن الر

١٠ – بيع أكرمه الله فى سنة ١٣٦هـ أكمل

١١– الله له أجر المهدى[1].

وللجامع منارتان، شرقية وغربية، وقام بإصلاح الغربية الأمير ورد سار الكردى سنة ٦١٣هـ.

أما عمارة الجامع الآن، فقد قام بها الأمير جعفر بن إبراهيم بن محمد بن يعفر سنة ٢٦٦هـ، وأكمله ابنه من بعده سنة ٣٣٣هـ، وأوقف عليه الأموال الطائلة، وأجرى للجامع البناء والزخرفة، والثابت أن الجناح الشرقى من عمل آل يعفر وليس الملكة أروى. فالثابت أن الملكة أروى لم يكن يعنيها أمر صنعاء، وكانت تسئ الظن بأهلها، وكان رواد هذا المسجد من السنيين الذين يعارضون الإسماعيلية، بل أقنعت زوجها المكرم بنقل عاصمة الدولة إلى جبلة بدلا من صنعاء.

وفى مسودة الأوقاف أن البناء من عمل آل يعفر، وفيها تعداد ما أوقفوه كل شهر للقائمين عليه وما يصرف للجامع نفسه من تأثيث ونور وطيب بتاريخ سنة ٣٣٣هـ[2].

وقد نسب إلى الملكة أروى أنها وسعت جامع صنعاء، الجناح الشرقى منه وصححت عمارته وزينته، وأمرت أن يكتب فيه أسماء جميع الأئمة من على بن أبى طالب إلى إمام عصرها، وأثبتت ذلك فى الحائط القبلى من المسجد الجامع، وهذة الرواية ينقصها الدليل المادى لأنه لا أثر لهذه الكتابة، كما أن الجناح الشرقى – كما قلنا– من عمل آل يعفر.

ومهما يكن من أمر فقد تجول معاذ فى أنحاء اليمن، وزاول أعماله التى كلف بها، وهى للقضاء وتفقيه الناس فى الإسلام، وتبصيرهم بمبادئ وتعاليمه، وعاد إلى الحجاز فى خلافة أبى بكر، حينما اشتعلت فتنة الأسود العنسى[3].

كذلك عول الرسول على إدخال أهل نجران فى الإسلام، فبعث خالد بن الوليد على رأس سرية إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم

---

(١) المصدر السابق ص ١٥.

(٢) السنباتى: معالم الآثار اليمنية ص ١٦. وإدريس عماد الدين جـ٧ ص ٢٨٨.

(٣) رازى: تاريخ صنعاء ص ٢٥١.

ثلاثا، فإن استجابوا يقبل منهم، ويقيم فيهم، ويعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومبادئ الإسلام، وإن لم يفعلوا يقاتلهم[1].

لما قدم خالد بن الوليد عليهم، بعث الركبان يضربون فى كل وجه يدعون الناس إلى الإسلام «فإن فى الإسلام السلام، فأقبل الناس على الإسلام، وأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه[2]. وكتب إلى الرسول يبشره بدخول القوم فى الإسلام ويقول: «أنا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم تعاليم الإسلام، وسنة النبى، حتى يكتب إلى الرسول[3]».

ودعا الرسول وفد بنى الحارث إليه، فقدم خالد بن الوليد مع وفدهم إلى الرسول وأعلنوا له إسلامهم[4]، وبعث الرسول إليهم عمرو بن حزم الأنصارى ليفقههم فى الدين، ويعلمهم[5] السنة، ويأخذ منهم الزكاة، ويبشر الناس بالخير، ويأمرهم به ويأخذ بالحق كما أمر به الله، ويعلم الناس القرآن، ويفقههم فى الدين، وينهى الناس عن المعاصى، وألا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذى لهم وبالذى عليهم، ويشتد على الناس فى منع الظلم، ويلين للناس فى الحق، فإن الله كره الظلم ونهى عنه، ويعلمهم الفرائض، ويجبى الزكاة من المسلم والجزية من الذمى[6].

ووجه الرسول على بن أبى طالب إلى اليمن فى رمضان سنة ١٠هـ ولما بلغ مشارف اليمن اجتمع به اليمانية الذين سمعوا بمقدمه وصلى بهم الفجر، وقرأ عليهم دعوة الرسول لهم بالإسلام، فأسلمت همدان فى يوم واحد، وتتابع أهل اليمن على الإسلام[7].

ويتضح مما ذكره المؤرخون أن الرسول قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، كان الإسلام قد انتشر فى بلاد اليمن، ودانت به الغالبية العظمى من الناس بدليل أن مندوبى الرسول إلى بلاد اليمن– لجمع الزكاة من المسلمين والجزية من الذميين– لم يلاقوا مصاعب فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ص ٥٨٩– الخزرجى: الكفاية والإعلام٤٥

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٩هـ

(٣) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٤٥

(٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٥٩٢

(٥) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٠.

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٠هـ. الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٤٨

(٧) سيرة ابن هشام جـ٢ص ٥٩٢ الخزرجى : العسجد المسبوك ١٠

مهامهم، فبعث الرسول فى أواخر أيامه، المهاجر بن أبى أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، وعلى بن أبى طالب إلى نجران[1]، فأدوا ما أمرهم به الرسول دون صعاب أو عقبات، ولو كان الإسلام مزعزعا وغير مستقر، ويلقى معارضة من اليمانية، لما استطاع مندوبو الرسول ومبعوثوه تأدية ما كلفوا به.

ولنناقش الآن عوامل دخول أهل اليمن فى الإسلام.ومن هذه العوامل:أن أهل اليمن عرفوا الديانتين المسيحية واليهودية منذ زمن طويل، وهما ديانتان سماويتان تدعوان إلى الله الواحد، الذى بعث رسلا لهداية عباده. ومعرفة عقائد هاتين الديانتين، ييسر لأهل اليمن فهم حقيقة ما يدعو إليه الإسلام من وحدانية الله ونبذ عبادة الأصنام والعمل بكتاب سماوى أنزله الله على نبيه. وأهل اليمن لم ينسوا الصراع بين المسيحية واليهودية، الصراع الذى جلب لهم الاستعمار الحبشى، ثم الاستعمار الفارسى. لذلك رحبوا بدين نابع من الجزيرة العربية يبشر به نبى من بنى هاشم، ومن قريش التى تتمتع بمكانة مرموقة بين العرب. وحينما قارن أهل الكتاب اليمانية بين معتقداتهم وبين الإسلام، رأوا أن الإسلام فيه البساطة والوضوح وخال من تعقيدات الفلسفة اليونانية واللاهوت والأساطير التى تتنافى مع العقل والمنطق التى تكثر فى معتقداتهم.

أما الوثنيون اليمانية الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والأشجار والأصنام، فقد رحبوا بالإسلام، بعد أن قارنوا بين معتقداتهم وبين مبادئ الاسلام التى تدعو إلى وحدانية الله والخير للإنسان فى دنياه وآخرته، واستمعوا من إخوانهم القادمين من الحجاز عن سيرة الرسول ومثله العليا.

وكان لتحطيم الأصنام فى مكة على أثر فتحها سنة ٨هـ ودخول أهلها الإسلام على أثر ذلك أكبر الأثر فى زعزعة عقائد الشرك فى الجزيرة العربية قاطبة. ونحن نعرف ما كان لقريش من مركز الصدارة والزعامة بين العرب. فلما تخلت عن الشرك، ودخلت فى الإسلام، أقبل العرب من كل صوب وحدب على الرسول معلنين إسلامهم، وأقبلت وفود العرب ومن بينهم وفود أهل اليمن – كما رأينا– عامى ٩، ١٠هـ على الرسول معلنين إسلامهم.

ورأى أهل اليمن أن الإسلام يوحد شملهم ويعيد وحدتهم بعد أن مزقتهم المشاحنات القبلية والأطماع الاستعمارية. والإسلام يجمعهم فى وحدة مترابطة تتبع الدولة الإسلامية الجديدة.

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٠ هـ الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٣٨.

ولا ننسى أن أهل اليمن من بينهم الشعراء والأدباء وغيرهم من المثقفين، لما سمعوا بالقرآن – معجزة الإسلام الكبرى– أيقنوا وآمنوا أنه من عند الله، ولا يمكن أن يكون من صنع بشر.

وبذلك انتشر الإسلام بين أهل اليمن انتشاراً سريعا، وسار فى أهلها مسير النهار فى الليل والنور فى الظلام، وتخلى اليمنيون عن معتقداتهم الفاسدة البالية ليدخلوا فى عهد جديد، عهد الإسلام الحنيف.

وبدخول اليمانية فى الإسلام تغير الوضع السياسى والعقائدى فى بلاد اليمن، فبعد أن كانت بلاد اليمن – أو جزء منها على الأقل – يتبع دولة الفرس، على حين تستقل بعض القبائل ببلدانها، أصبحت بلاد اليمن ولاية من ولايات الدولة العربية الإسلامية، تدين بالإسلام ويحكمها ولاة مسلمون من قبل الخليفة، وتخلى اليمنيون إلى الأبد عن الوثنية، وبذلك وصلوا إلى الحقيقة، وكفل الإسلام للمواطن اليمنى الحياة الحرة الكريمة: الزكاة تؤخذ من أغنيائهم لتعطى لفقرائهم، والدولة الإسلامية الناشئة تزداد اتساعا وقوة، والفرصة متاحة لليمنى الذى يبحث عن حياة أفضل، أن ينتقل إلى أى بلد فى وطنه الكبير دون قيد.

كان يلى اليمن قبيل وفاة الرسول، باذان، ولما توفى عهد الرسول إلى عدد من الولاة بحكم اليمن، ذلك أن طبيعة بلاد اليمن تجعل من الصعب تعيين حاكم واحد لها، لذلك عهد الرسول إلى عمرو بن حزم بولاية نجران[1]، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران وزبيد[2]، وعامر بن شهر بولاية همدان، وعلى صنعاء شهر بن باذان، وعلى عك والأشعريين، الطاهر بن أبى هالة، وعلى مأرب أبو موسى الأشعرى[3]، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى أعمال حضرموت زياد بن لبيد الأنصارى، وعلى السكاسك والسكون، عكاشة ابن ثور، وعلى بنى معاوية ابن كندة، عبد الله أبو المهاجر[4]، وكان معاذ بن جبل معلما للناس بشئون الإسلام ينتقل فى عماله كل عامل باليمن وحضرموت[5].

(١) يحيى بن الحسنين: غاية الأمانى ص ٦٤

(٢) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ١٢.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

(٤) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة١٢

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١١هـ.

اضطربت بلاد اليمن، وانتقض بعض أهلها على دولة الإسلام الناشئة قبيل وفاة الرسول، وتزعم هذه الحركة الأسود العنسي وهو عبهلة كعب بن عوف العنسي[1]، وعنس بطن من مذحج، وكان يلقب ذا الخمار، لأنه كان يضع خماراً على وجهه كعادة الكهان في ذلك الوقت، ولقب الأسود لسواد لونه، وادعى الأسود النبوة، ومعرفة الغيب[2]، وكان يرى أهل اليمن الأعاجيب، واتبعته مذحج، وغزا نجران، وأخرج منها عمرو بن حزم، وخالد ابن سعيد[3]، ووثب أنصاره بقيادة قيس بن عبد غوث بن مكشوح على فروة بن مسيك- وهو على مراد- فأجلاه ونزل منزله، وسار الأسود من نجران إلى صنعاء واشتبك مع واليها، شهر بن باذان، وهزمه وقتله، واشتد خطر الأسود العنسي في اليمن، وقوى بأسه[4]، حتى أن اليمانية الذين تمسكوا بالإسلام وكذبوه، فروا بدينهم من بلاد اليمن، حتى لا يتعرضوا لويلاته وبطشه[5]. وما زال أمر الأسود في صعود حتى سيطر على بلاد اليمن، وغادرها الولاة المسلمون، وامتد نفوذه على ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف والبحرين والأحساء وعدن، واستطار أمره كالحريق، وأناب عنه على مذحج، عمرو بن معدى كرب، وعلى الجند، قيس ابن عبد يغوث[6].

كان الأسود العنسي يدعو إلى التخلص من الأبناء والمسلمين[7]، وهم الدخلاء - حسب اعتقاده- والمعروف أن الأبناء هم أبناء الفرس في اليمن، ويرى اليمنيون أنهم رمز للاستعمار الفارسي الذى قاسوا منه سنين طوالا. والأسود العنسي يعبر بشعوره نحو الأبناء عن شعور مواطنيه. أما موقفه نحو الإسلام والمسلمين فيوضح أنه لم يفهم بعد تعاليم الإسلام، ولم يدرك أن الإسلام دين سماوى، أنزله الله على عباده كافة. وإنما كان يرى أن الإسلام دين ابتدعه نبى قريش وفرض به سلطانه على اليمن، ورأى في الزكاة التى قررها الرسول رمزاً لسيادة محمد على بلاد اليمن. والشعب اليمنى قاسى من الاستعمارين الحبشى والفارسى، ويخشى أن يتعرض لاستعمار آخر. لذلك انضم اليمنيون إلى دعوته، التى رأوا فيها

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ١١هـ

(٢) الطبرى تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ١١هـ

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٧٢

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ١١هـ

(٦) الخزرجي: العسجد المسبوك ورقة ١٣

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٣.

خلاصا وتحرراً من السيطرة الخارجية والنفوذ الدخيل. وقد ساعد على نمو هذه الحركة وازدهارها فى اليمن أن الإسلام لم يتمكن بعد من اليمانية، ولم يثبت فى نفوسهم، لذلك سارعوا إلى الانضمام إلى حركة الأسود العنسى، الذى رأوا فيه زعيما وقائداً يعمل على تحريرهم من الدخلاء. وأقرب الطرق- فى رأيه- لتأكيد زعامته، هى أسلوب الكهانة، ووضع خمار على وجهه على طريقة الكهان، وإقامته فى كهف، وادعاء معرفة الغيب، وأن له شيطانا يخبره بالمستقبل. وكل هذه الأمور أراد أن يضاهى بها دعوة النبى الذى ينزل عليه الوحى، ويوحى إليه، كما عول العنسى أن يحقق من المكاسب ما حققه محمد بفضل النبوة. لذلك فنحن نرى أن حركة الأسود العنسى- وإن كانت ضد الإسلام - إلا أنها حركة قومية- فى رأى العنسى وأنصاره- دافع بها العنسى عن وطنه وقوميته من الدخلاء الفرس، ومن المسلمين- ويرى أنهم مستعمرون جدد لبلاده على اعتبار أن محمداً- فى اعتقاده- ادعى النبوة لبسط نفوذه على بلاد العرب. يؤيد ذلك ما قاله الأسود: «أيها المتوردون علينا امسكوا علينا ماأخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ماأنتم عليه»[1].

رأى النبى ضرورة التخلص من الأسود العنسى الذى خرج على الإسلام وضم إليه الكثير من اليمانية فى مناهضة الدعوة الإسلامية، فأرسل إلى المسلمين فى اليمن يدعوهم إلى التخلص من الأسود العنسى، ودعوة أنصاره إلى العودة إلى الدين الحنيف[2]، وقد خرج قيس بن يغوث- قائد جيش العنسى ونائبه- على سيده حينما استمع إلى رسالة النبى، وقد تأثر بها، وندم على مناصرته[3]، وانضم إلى المسلمين فى مقاومته، كما انضم إلى المسلمين، كبار الأذواء مثل عامر بن شهر وذى مران وذى الكلاع واستجاب أهل نجران لدعوة الرسول فى مقاومة العنسى وانضمت إلى حركة المعارضة ضد العنسى امرأته آزال - وهى أرملة شهر بن باذان الذى قتله العنسى، وكانت تبغضه لأنه قتل زوجها وأرغمها على الزواج منه وأهلك عشيرتها[4].

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام جـ١ ص ٣٤٢

(٢) البلاذرى: تاريخ صنعاء ص ٧٣

(٣) الرازى: تاريخ صنعاء ص ٧٣

(٤) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٤

على كل حال تزعم الأبناء حركة مقاومة العنسى، وقتلوه وألقوا برأسه إلى أنصاره[1] ودار قتال بين أنصار العنسى والمسلمين، هزم فيه أنصار العنسى[2] وعلم الرسول بخبر مقتل العنسى قبل وفاته[3].

وبذلك فشلت حركة الخروج على الإسلام فى اليمن، وارتفعت رايته فى هذا البلد ونصر الله دينه، وبطل كيد الكافرين، وعاد أصحاب النبى وولاته كل إلى عمله، وعاد معاذ إلى التنقل بين بلدان اليمن، يعظ الناس، ويفقههم، ويصلى بهم[4].

على أن حركة الردة عن الإسلام عادت من جديد إلى بلاد اليمن، بعد وفاة الرسول وتولية أبى بكر الصديق الخلافة، وجاءت هذه الحركة من بين حركات شملت الجزيرة العربية كلها. ذلك أن بعض القبائل العربية رأت أنها خاضعة لسيطرة قريش، وأن قريشاً سلبتهم حريتهم باسم الدين، وسعوا إلى استعادة حريتهم واستقلالهم[5]، واعتقد العرب أنهم كانوا يؤدون الزكاة للرسول على اعتبار أنه نبى مرسل. أما وقد توفى الرسول، فإن الزكاة أصبحت إتاوة يفرضها عليهم أبو بكر[6].

وما لاشك فيه أن الإسلام لم تثبت تعاليمه بعد فى هذه الفترة المبكرة من تاريخه فى نفوس كثير من العرب، الأمر الذى جعلهم يستجيبون بسرعة لدعاة الردة، ومما شجع على عودة الردة إلى بلاد اليمن أن تعاليم الأسود العنسى لم تمت بل ساعدت العوامل التى ذكرناها عن الردة على إحيائها.

كتب عتاب بن أسيد إلى أبى بكر الصديق يخبره بارتداد الناس عن الإسلام[7] وبعث أخاه خالدا إلى أهل تهامة- وبها جماعة من مذحج وخزيمة وأبناء كنانة[8] واشتبك خالد مع أهل كنانة وهزمهم وأخضعهم، كذلك شتت شمل المرتدين من الأزد وبجيلة

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١١هـ

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٧٣

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١١هـ

(٥) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية ص ١٧-١٨

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٠٣

(٧) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٥

(٨) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١١هـ

وخثعم[1]، وأمر أبو بكر جرير بن عبد الله أن يستنفر من قومه بجيلة من يثبت على الإسلام، ويقاتل من ارتد عن الإسلام، فطهر جرير وبجيلة وخثعم من المرتدين[2] واستأصل شأفتهم[3].

على أن أهل نجران لما بلغهم موت الرسول، أرسلوا وفدا ليجددوا عهدهم مع أبى بكر، ويقدموا له فروض الولاء والطاعة فكتب لهم عهدا بذلك[4].

كذلك انتقضت عك بتهامة وضموا إليهم الأشعريين، وأقاموا على الأعلاب فسار إليهم الطاهر بن أبى هالة ومعه مسروق وقومه من عك، ممن لم يرتد فالتقوا على الأعلاب، فانهزمت عك ومن معهم من الخارجين على الإسلام، ومزق المرتدون كل ممزق، وعاد المرتدوين إلى الإسلام[5].

على أن أكثر حركات الردة شدة فى بلاد اليمن كانت بزعامة قيس بن عبد يغوث ابن مشكوح. ذلك أنه على الرغم من تآمره على الأسود العنسى إلا أنه كان يعتنق مبادئه وتعاليمه، ويرى ضرورة طرد الأبناء من اليمن، فكتب إلى بعض كبار اليمانية يستحثهم على الانضمام إليه فى حركته، والتخلص من الأبناء، وطلب من حميد الوقوف إلى جانبه فى طرد الأبناء وقال: إن الأبناء نزاع فى بلادكم ونفلاء فيكم وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم وقد أرى من الرأى أن أقتل رءوسهم، وأخرجهم من بلادهم ولكن حميد لم تستجب لنداء قيس، فقام بإقصاء أسر الأبناء فى اليمن، وقسمهم إلى قسمين، سير أحدهما إلى عدن ليرحلوا من هناك بحراً إلى بلاد الفرس، وسير القسم الآخر براً قائلاً: الحقوا بأرضكم[6].

ضم قيس إليه أنصار حركة الأسود العنسى، وكانوا يترددون سرا بمن انضم إليه من المرتدين عامة والعنسيين خاصة، ولما رأى فيروز بن باذان– والى صنعاء– أن حركة قيس موجهة إليه وإلى قومه من الأبناء، غادر صنعاء، ولجأ إلى أخواله من بنى خولان واجتمع

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٤

(٣) الخزرجى : الكفاية والإعلام ص ٥٥

(٤) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٥٥

(٥) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

إلى فيروز جماعة من الناس[1]. وبذلك ظهرت جبهتان قويتان متعاديتان فى اليمن، أولاهما جبهة قيس وأنصاره المرتدين عن الإسلام والمعادية للأبناء والمسلمين.

والجبهة الثانية هى من تمسك بدينه وعقيدته الإسلامية، ويتزعمها فيروز وأعوانه من الأبناء والمسلمين.

عول فيروز على مناهضة حركة قيس المعادية للمسلمين عامة والأبناء خاصة، وأرسل إلى بنى عقيل بن ربيعة بن عامر و إلى عك يستمدهم[2]، فاجتمعت عقيل، والتقوا بقوات قيس ومعهم جمع من الأبناء، وقتلوا قيس[3].

كذلك حاربت عك، جند قيس، وهزمتهم[4]. ولم يكتف بنو عقيل وبنو عك بذلك بل أمدوا فيروز بالرجال والمال والسلاح، وهاجموا قيساو ورجاله بالقرب من صنعاء، واشتبك الفريقان فى قتال مرير، وانهزم قيس وأصحابه[5].

وتأثر بحركة الأسود العنسى عمرو بن معدى كرب الزبيدى، والكثير من ذوى النفوذ فى اليمن[6]. وكانت سياسة أبى بكر تهدف إلى إخضاع المرتدين وقتالهم أينما وجدوا فأرسل الحملات إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية، وأرسل إلى اليمن الإمدادات بقيادة عكرمة ابن أبى جهل والمهاجر بن أبى أمية، وشدد المسلمون هجماتهم على المرتدين، وقبضوا على عمرو بن معدى كرب وعلى قيس، وسيقا مكبلين بالسلاسل والأغلال إلى الخليفة أبى بكر، فعادا إلى الإسلام، وعفا عنهما الخليفة[7].

لكن أنصار العنسى ظلوا يعيثون فى بلاد اليمن فسادا، ويهاجمون المسلمين على الرغم من تخلى زعمائهم عنهم، ومقتل الكثير من أنصارهم[8]، فجمع المهاجر جيشاً كبيراً

(١) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة١٥

(٢) يحيى بن الحسين غاية الأمانى ص ٧٦

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٢

(٤) تاريخ اليعقوبى جـ٢ص ١١١

(٥) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ

(٦) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٥

(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٧٦-٧٧

(٨) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٥٦.

من اليمانية المسلمين، وشدد هجماته على العنسيين وقتلهم بكل سبيل، ودخل المهاجر صنعاء، وكتب إلى أبى بكر يبشره بهزيمة العنسيين وانتهاء حركتهم[١].

وامتنع أهل حضرموت عن أداء الزكاة بعد وفاة النبى ﷺ، فبعث أبو بكر إلى زياد بن لبيد البياضى- والى حضرموت - والمهاجر بن أبى أمية الذى كان يلى أمر كندة- يطلب إليهما أن يأخذا له البيعة ويقاتلا الممتنعين عن أداء الزكاة، ولما طلب منهم زياد بن لبيد تأدية الزكاة، اختلفوا عليه، وتصايحت كندة، وغضبت بنو معاوية، وغضبت السكون والحضارمة لزياد[٢] والتقى الفريقان فى قتال، فريق يرفض أداء الزكاة، وفريق يقف إلى جانب زياد، ويدعو إلى أداء الصدقة، وانتصر المسلمون على أعدائهم الخارجين على الإسلام، وأكثروا فيهم القتل، ولاذ بالفرار من استطاع[٣].

أما الأشعث بن قيس الكندى فقد أنقذ قومه، وأعاد تنظيم صفوفهم، وجمع جمعا كبيرا حتى قوى بأسه وازداد خطره[٤]، فأرسل زياد بن لبيد إلى المهاجر بن أبى أمية يطلب منه الإسراع لنجدته، فسارع إلى نجدة زياد، وواصل المسلمون هجماتهم على المرتدين فى كندة فى حجر الزرقان، وشدوا عليهم القتال حتى هزموهم، فالتجأوا إلى النجير، وتحصنوا به، وسار إليهم المهاجر، وحاصرهم وشدد عليهم الحصار[٥]، حتى استسلموا، وتتبع المسلمون كل من فر منهم، أو تحصن فى بعض الحصون حتى وهنوا وضعفوا وقتل منهم الكثيرون[٦]، ولما أيقن زعيم كندة بأنه لا يستطيع مقاومة المسلمين رأى أن من الأفضل له ولقومه الاستسلام، والعودة إلى الإسلام، فقدم إلى زياد على رأس وفد قبيلته وأعلنوا عودتهم إلى

(١) تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ١١١

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٥

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٠

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ.

(٤) الأشعث بن قيس الكندى كان رئيسا مطاعا فى الجاهلية، وجيها فى قومه فى الإسلام، وكان ممن ارتد بعد وفاة الرسول، ولما عاد إلى الإسلام، زوجه الخليفة أبو بكر بأخته أم فروة، وأقام بالمدينة حتى بدء الفتوحات فاشترك مع سعد بن أبى وقاص فى القادسية واشترك فى فتح المدائن ونهاوند وغيرها، وانضم إلى على بن أبى طالب فى صراعه ضد معاوية، وتوفى سنة ٤٢هـ أو ٤٤ فى الكوفة (الخزرجى الكفاية والإعلام ص ٣٦) (البلاذرى: أنساب الأشراف جـ١ ص ٤٥٦-٤٥٨).

(٥) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ١٥

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة١١هـ

الإسلام والخضوع للدولة العربية الإسلامية، فأرسل زياد، الأشعث إلى المدينة المنورة، فعفا عنه أبو بكر، وأسلم وحسن إسلامه، بل اشترك فى الفتوح الإسلامية[1].

وبذلك انتهت الحركات المضادة للإسلام فى بلاد اليمن، ونصر الله دينه، ودخل اليمانية فى الإسلام زرافات ووحدانا، وارتفعت رايات الإسلام المنصورة فى ربوع اليمن مبشرة بعصر جديد وحياة جديدة، ودحض اليمانية عقائد الشرك، وتخلصوا من الأفكار البالية التى آمنوا بها قرونا، وأتم الله فضله ونعمته عليهم بعد أن نطقوا بالشهادتين، واندمجوا فى دين الله الحنيف الذى يحقق لهم الخير فى دنياهم وآخرتهم.

ومن الناحية السياسية فقد توحدت بلاد اليمن لأول مرة فى تاريخها تحت راية الإسلام وأصبحت ولاية من ولايات الخلافة وحررها الإسلام من الاستعمار، ومن نفوذ الأقيال والأذواء الذين عاملوا الأهلين معاملة تنطوى على الظلم والجور، واغتصبوا أموالهم وأزهقوا أرواحهم فى الحروب القبلية.

٢ – الأحداث الداخلية فى بلاد اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين:

انتشر الإسلام فى بلاد اليمن منذ سنة ٦هـ، ولكن بنسبة ضئيلة جدا ولكنه بدأ ينتشر انتشاراً واسعاً منذ سنة ٩هـ، حيث أقبل اليمانية على الإسلام إقبالا واسعا، وفشلت محاولات التشكيك فى الدين الجديد- كما رأينا- بأسرع ما يمكن، ولم تنته سنة ١١هـ إلا وكان اليمانية جميعهم قد آمنوا بالإسلام، واستظلوا برايته. وسرعان ما اندمجوا فى الحياة الإسلامية، وضربوا أروع الأمثال فى الذود عن الإسلام، ونشر مبادئه وتعاليمه فاستجابوا لنداء الخلافة، وخرجوا غازين مجاهدين، زرافات ووحدانا على الصعب والذلول، يلبون داعى الجهاد. وقد حاول البعض التشكيك فى أسباب خروج اليمانية للفتح وقالوا: إنهم خرجوا بحثاً عن الغنائم ومستوى معيشى أفضل. وهذا قول بعيد عن الحقيقة ولا تؤيده الأدلة التاريخية. ذلك أن أهل اليمن منذ عصور تاريخية قديمة موغلة فى القدم، يحبون الهجرة، ويتطلعون إليها، ولم تكن هذه الهجرة أول هجرة لهم، بل سبقتها هجرات وهجرات، والبلاد التى دعت الخلافة إلى فتحها كالشام والعراق، كلها بلاد طرقها اليمانية، وعاشوا فيها بجاليات كبيرة، بل كونوا بها دولا كدولة الغساسنة فى جنوب الشام، والمناذرة فى جنوب العراق، إذن لم يجد اليمانية فى نداء الخلافة بالجهاد فرصة للهجرة إلى هذه البلاد، لأنهم يهاجرون إليها بسهولة ويسر، وبدون حاجة إلى نداء الخلافة، ولكن اليمانية آمنوا بالإسلام

(١) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ١٥.

الذى يدعو المسلم إلى الجهاد. وكان للحماسة الدينية التى بثها النبى والصحابة فى نفوس العرب عامة أثر كبير فى دفعهم إلى الفتح، فرأوا فى أعناقهم عهدا يجب أن يوفوا به، وهو يبلغ الدعوة الإسلامية إلى من لم يبلغ له، ومن ثم عملوا على توجيه جهودهم إلى العمل على إحياء كلمة الإسلام فى غير بلاد الإسلام، وشجعهم على تحقيق هذه الغاية ماورد فى القرآن الكريم من الآيات البينات التى توضح أن الإسلام لم يبعث للعرب فقط، وإنما بعث للناس كافة، ومن هذه الآيات:

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾[1].

ومن هذه الآيات:

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[2].

ولكنا لانغفل العامل الاقتصادى وأهميته فى دفع العرب اليمانية إلى الإسراع بالانضمام إلى حركة الفتوح. وهذا أمر طبيعى جداً، فقد تطلعوا – كما تطلع غيرهم– إلى غنائم الحرب التى قد يحصلون عليها من ميدان القتال، فالمؤمن يضحى بنفسه فى سبيل دينه. وفى نفس الوقت يعمل لدنياه، ويسعى إلى الحياة فى رغد من العيش.

والدور الذى قام به اليمنيون فى حركة الفتوح فى عهد الخلفاء الراشدين يعتبر بحق أجمل فترات تاريخهم، وأحلى أيامهم، فقد ساهموا بدور كبير فى فتح البلاد وتمصير الأمصار، واستقر فى البلاد الإسلامية الجديدة بأعداد كبيرة، وانتشروا فى بقاع الأرض ينشرون الإسلام ويذودون عنه.

حقيقة أن هجرة اليمانية بأعداد كبيرة إبان حركة الفتح وبعدها، أدت إلى تدهور اقتصادى وتفكك اجتماعى فى داخل بلاد اليمن، وخصوصاً أن المهاجرين معظمهم من الشباب. ولكن المهاجرين إلى الأوطان الجديدة ارتفع مستواهم المعيشى عما كانوا عليه فى داخل بلادهم، واندمجوا فى مجتمعات متحضرة تفوق تماما مجتمعهم البدوى فى داخل اليمن. إذن أدى اشتراك العرب اليمانية فى الفتوح واستقرارهم فى الأوطان الجديدة إلى رفع

(١) سورة الأنفال : آية ٣٩

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٦

مستواهم الاقتصادى والاجتماعى والحضارى عموماً. وفى نفس الوقت فقدت بلاد اليمن فى سنوات الفتوح وما بعدها الكثير من شبابها بسبب هجرتهم من بلادهم. الأمر الذى أضعف من مستوى إنتاجها الزراعى والاقتصادى عموما. ومن الناحية الاجتماعية اختل التوازن الاجتماعى فى اليمن، فالغلبية العظمى من الشعب اليمنى أصبحت من الأطفال أو ما دون سن الشباب والشيوخ والضعاف عموماً، وتفكك الأسر اليمنية فى كثير من الحالات، فالكثير من الشباب يغادرون البلاد تاركين نساءهم وأطفالهم يرعاهم شيوخ أسرهم. كل ذلك أدى إلى حدوث فراغ كبير فى بلاد اليمن من عصب المجتمع وعموده الفقرى وهو الشباب.

لما ولى أبو بكر الخلافة بدأ عمله بإيفاد حملة أسامة بن زيد التى جهزها الرسول قبل وفاته. وكان أبو بكر يرى من وراء الإسراع بإرسال هذه الحملة إشعار الخارجين على الحكومة الإسلامية فى المدينة بقوتها وثبات مركزها، هذا فضلا عن رغبته فى شغل الأنصار الذين كانوا غير راضين عن فوز المهاجرين بالخلافة فى بيعة السقيفة[١]. ويذكر ابن الأثير[٢] أنه كان لإنفاذ جيش أسامة أهمية كبيرة للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا.

لكن بعض الصحابة اعترض على هذه الحملة. وقالوا للخليفة: انتقضت عليك العرب، فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك، فأجابهم أبو بكر، بقوله: لا أرد قضاء قضى به رسول الله، ولو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة[٣].

وأنفذ أبو بكر الحملة، وكانت أولى السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح العرب فيها سورية وفارس وشمال أفريقيا[٤].

وجه أبو بكر اهتمامه بعد أن فرغ من أهل الردة إلى توجيه الجيوش إلى الشام والعراق ليحقق بذلك سياسة التوسع للدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها الرسول قبل وفاته[٥] فجمع الصحابة فى المسجد وقال لهم:

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١١هـ.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١١هـ.

(٤) عصام الدين عبد الرءوف: الحواضر الإسلامية الكبرى ص ١٣.

(٥) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦.

«اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام، وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم إيمانا ويقينا. واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عول أن يصرف همته إلى الشام والعراق. . . ألا وإنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين بأهلهم وأموالهم. فإن الرسول أنبأنى بذلك قبل موته[1]» فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة وقالوا له: مرنا بأمرك، ووجهنا حيث شئت[2].

كتب أبو بكر إلى جميع العرب - ومنهم أهل اليمن - يدعوهم إلى الجهاد، ويرغبهم فيه وفى غنائم الفرس والروم، وقد قال أبو بكر فى كتابه: «إن الله كتب على المؤمنين الجهاد. وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا- قال تعالى ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾ فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم، وإحدى الحسنيين. إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن الله تعالى لم يرض عن عباده بالقول دون العمل، ولايترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وكان الذى بعثه أبو بكر إلى بلاد اليمن لدعوة أهلها إلى الجهاد، أنس بن مالك الأنصارى- خادم رسول الله - وقد لقيت دعوته استجابة من أهل اليمن، وقدم إلى أبى بكر يبشره بقدوم اليمانية، وقال: ياخليفة رسول الله، وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا بادر إلى طاعة الله ورسوله، وأجاب دعوتك، وقد تجهزوا بالعدد والعديد والذود والنصير «وسارع اليمانية إلى المدينة المنورة» من بين محتسب وطامع فأقبلوا ومعهم الذرارى والأموال والنساء والأطفال، وخرج المسلمون لاستقبالهم، وأظهروا زينتهم وعددهم، ونشروا الأعلام الإسلامية، ورفعوا الألوية المحمدية، فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا، قوم فى إثر قوم، وقبيلة فى إثر قبيلة[3] فأنزلهم أبو بكر حول المدينة، وجعل كل قبيلة تقيم فى ناحية معينة. ومن بين هذه القبائل قبائل يمنية، وتزعمها وائل بن حجر والأشعث بن قيس الكندى، والسمط ابن الأسود الكندى، وغيرهم من زعماء قبائل حضرموت وكندة والصدف والسكون[4] وجعفى. وأرسل أبو بكر الجيوش إلى الشام والعراق بعد أن اجتمع لديه العرب بما فيهم اليمانية، وخرج سعد بن أبى وقاص وجيشه من المدينة

---

(١) الواقدى: فتوح الشام جـ١ ص ٢

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٤.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣١٤

(٤) الواقدى: فتوح الشام جـ١ ص ٣.

يضم من قبيلة السكون وحدها أربعمائة يرأسها حصين بن نمير التجيبى، ومعاوية بن خديج السكونى[1] ويضم ستمائة من قبيلة حضرموت، ويقود الصدف شداد بن ضحح وكان فيهم ألف وثلاثمائة من مذحج. وفى معركة القادسية، كان الأشعث بن قيس الكندى على ألف وسبعمائة من أهل اليمن. وأمد عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص سنة ١٤هـ بألفى يمانى ضمن إمدادات أخرى، وكتب عمر إلى عماله بألا يدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلى «العجل العجل[2]» وكان عمر يقول: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولاخطيبا ولاشاعرا إلا رماهم به، فرماهم بوجوده الناس وغررهم،[3] ولما اشتد الضيق بسعد فى القادسية طلب الإمدادات من عمر بن الخطاب، فأمده – ضمن إمدادات أخرى– بقيس بن مكشوح المرادى فى سبعمائة، قدموا عليه من الشام[4].

ولما اختطت الكوفة سنة ١٦هـ نزل الكثير من كندة فيها، واختطوا بها خطة، وممن أقام من زعمائهم الأشعث بن قيس وامرؤ القيس بن عابس من بنى عمرو بن معاوية، كما سكن الكوفة من غير كندة من اليمانية، جعفي والسكون واستقرت جموع من اليمانية فى البصرة[5].

واشترك فى الفتوح من أهل اليمن فى بلاد الشام بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وخزام وغسان، وأدوا دورهم فى فتوح الشام[6]. ويذكر الأزدى أن الأزد اشتركوا فى اليرموك وهم ثلث الناس – وحمير– وهم عظم الناس، وفيها همدان وخولان ومذحج وخثعم وكندة وحضرموت وزبيد ومعهم جماعة من كنانة و«عظم الناس أهل اليمن[7]».

ومهما يكن من أمر فقد استقر فى الشام بعد الفتوح، قوم من كندة ومن حضرموت، وفضل الكثير منهم الإقامة فى حمص بالذات، ونزل بالشام الكثيرون من

---

(١) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٣٦

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف جـ١ ص ٤٥٦-٤٥٨

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ ص ١٤٧

(٤) ماسينيون: خطط الكوفة ص ١١-١٣

(٥) ماسينيون: خطط الكوفة ص١٣

(٦) الدر المكنون فى أخبار اليمن الميمون ص ٤١.

(٧) ابن عساكر: التاريخ الكبيرجـ١ ص ٢٤٣

السكون[1]، وأقاموا فى دمشق واللاذقية والأردن والبلاد الواقعة بين حمص ودمشق. وكان على أهل حضرموت يوم فتح حمص السمط بن الأسود - على بنى معاوية من كندة - والأشعث بن مثناس ونزل بمصر الصدف وقبيلة حضرموت والسكون ومهرة وبعض كندة، ولما شيد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، أنزلهم فى ظاهرها، وأطلق عليهم أهل الظاهر، وأقاموا حول مركز المصر الذى هو المسجد ودار الإمارة، وكانت لكل عشيرة خطة تسمى بها[2]، وسكن فيها أفراد تلك العشائر، واجتمعت عشائر كل فئة فى منطقة. كذلك أبقى عمرو بن العاص فريقا من جيشه من قبائل يمانية فى الجيزة لدرء خطر عدو مرتقب[3].

كذلك توافد اليمنيون على البلاد التى دخلت فى حوزة الدولة الإسلامية فاتحين ومقيمين، ومن بين هذه البلاد المغرب والأندلس ولهم قلاع وخطط فى هذه البلاد مثل قلعة الهمدانى فى الأندلس - ولكن ليس موضوع دراستنا تتبع الدور الكبير لليمانية فى أوطانهم الجديدة، وإنما نقتصر على دراسة تاريخ اليمن فقط.

ولم تكن هجرة اليمنيين المسلمين هى الوحيدة فى الفترة التى تتحدث عنها بل صاحبتها هجرة نصارى نجران من اليمن فى عهد عمر بن الخطاب، فقد روى أن الرسول قال فى مرضه الأخير: لايبقين دينان فى أرض العرب. فلما استخلف عمر بن الخطاب، أجلى أهل نجران عن الجزيرة العربية، واشترى عقاراتهم وأموالهم[4]، كما أجلى يهود خيبر. ولكن عمر بن الخطاب لم يطبق ما يفهم من حديث الرسول تطبيقا كاملا. فقد بقى فى بلاد اليمن يهود يزاولون عملهم بحرية ويعيشون فى اليمن فى كنف التسامح الإسلامى وفى ظل الدين الحنيف، ويؤدون الجزية على اعتبار أنهم ذميون، بل بقى فى هجر والبحرين وعمان مجوس، أقرهم المسلمون على الجزية ولم يجلهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية[5]. وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود خيبر من أرض العرب، بعد أن أساءوا إلى المسلمين. وأساءوا إلى عبد الله بن عمر وآذوه فأجلى عمر بن الخطاب يهود خيبر عن

---

(1) الهمدانى: الإكليل جـ٢ص ٢٠٦وص ٢٨١

(2) المقريزى: الخطط ص ٢٤٣

(3) السيوطى. حسن المحاضرة، جـ١ص ١٣٧.

(4) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٧٧-٧٨

(5) المصدر السابق ص ٣١.

بلادهم مستنداً إلى هذا الحديث[1]. أما أهل نجران فقد مارسوا الربا وازداد ثراؤهم وقوى بأسهم. وسيطروا على البلاد اقتصادياً. وضعف أمر المسلمين فى هذا البلد إزاء هؤلاء النصارى. فخاف عمر بن الخطاب مغبة ذلك فأجلاهم عنها ونزل بعضهم الشام. ونزل بعضهم النجرانية بناحية الكوفة. وبهم سميت[2]. وكتب عمر بن الخطاب إلى نصارى نجران عهدا بذلك جاء فيه: فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض. وما اعتملوا من شئ : فهو لهم مكان أرضهم باليمن فتفرقوا. . «وبذلك عوضهم عمر بن الخطاب عن أرضهم بنجران التى هجروها، أرضا فى الشام والعراق. وجدير بالذكر أنهم ندموا بعد ذلك وأتوا عمر بن الخطاب وقالوا : أقلنا، فأبى ذلك. فلما استخلف على بن أبى طالب طلبوا منه أن يعيدهم إلى بلادهم. ولكنه رفض وقال إن عمر كان رشيد الأمر. وأنا أكره خلافه[3].

وبذلك لم يطبق عمر بن الخطاب، ماورد فى حديث الرسول تطبيقاً كاملا، فقد بقى فى بلاد اليمن يهود يزاولون أعمالهم بحرية، وبقى مجوس فى هجر وعمان والبحرين – كما أشرنا– وقد التبس الأمر على البعض، فقالوا: إن الرسول كان يقصد الحجاز فقط، ونسوا أن عمر بن الخطاب قد أجلى نصارى نجران أيضاً. كما أن حديث الرسول واضح كل الوضوح، ، فقد ذكر فى حديثه «لا يبقين دينان فى أرض العرب»ولنا أن نتساءل : لماذا لم يطبق أبو بكر هذا الحديث، ويأمر بإجلاء غير المسلمين جميعاً من جزيرة العرب. والمعروف أن أبا بكر لم يتهاون قيد شعرة فى تطبيق تعاليم الرسول وأحاديثه. ونتساءل أيضاً لماذا طبق عمر ابن الخطاب هذا الحديث على أهل خيبر وأهل نجران فقط ولم يطبقه على غيرهم فى اليمن والبحرين وعمان وهجر.

نعتقد أن خلافة أبى بكر كانت قصيرة ومزدحمة بالأحداث، فبعد اضطرابات الجزيرة العربية، وجه أبو بكر العرب إلى الفتوح، لذلك لم يتسع الوقت لتطبيق ماأمر به الرسول. ولما ولى عمر ابن الخطاب الخلافة اكتفى بإجلاء عناصر الشغب فى الجزيرة العربية من اليهود والنصارى فأجلى يهود خيبر ونصارى نجران عن الجزيرة العربية وأبقى المسيحيين واليهود ومجوس هجر واليمامة والبحرين الذين عاشوا فى هدوء وسكينة فى كنف دولة الإسلام.

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤.

(٣) المصدر السابق ص ٧٨

على أنه من الثابت أن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين لما قدم اليمن فى أواخر القرن الثالث الهجرى، كان فريق من أهل نجران، نصارى، وعقد معهم عهدا[١] وعلى ذلك فنحن نعتقد أن فريقاً من نصارى نجران تسرب إلى بلاده فى غفلة الحكام.

ويجب أن نشير هنا إلى ديوان عمر بن الخطاب الذى أسسه ليفرض العطاء للعرب كافة[٢]. وبمقتضى هذا النظام كان لكل مسلم دون اسمه فى دواوين الحكومة عطاء، وكان يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه أحدها عدد من يعول الفرد من الذرارى والعبيد، والثانى عدد ماعنده من الخيل والظهر. والثالث ظروف الموضع الذى يقيم به من الغلاء والرخص[٣].

وكان من شروط إثبات اسم الشخص فى الديوان، أن يكون حرا فلا يثبت فى الديوان عبد تابع لسيده داخل فى عطائه، ولايجوز إثبات الصبى فى الديوان، بل يكون جارياً فى جملة عطاء الذرارى. والثالث الإسلام، ليدفع عن الدين باعتقاده. والرابع السلامة من الآفات المانعة من القتال، والخامس أن يكون فيه إقدام على الحرب، فإذا ضعفت همته عن الإقدام أو قلت معرفته به، حذف اسمه من الديوان[٤].

وكان على أهل العطاء أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة، ويذهبوا للقتال حينما يؤمرون بذلك. وإذا لم يلبوا الدعوة للقتال، فإن اسمهم يحذف من الديوان[٥].

وقد حدد عمر بن الخطاب العطاء طبقاً للقرابة من الرسول، فبدأ بعم الرسول ثم الأقرب فالأقرب، ففرض للعباس وبدأ به، وقال: من قربت داره أحق بالزيادة ممن بعدت داره، لأنهم كانوا درعاً للإسلام وهدفاً للعدو[٦].

فرض عمر بن الخطاب لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة. ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة. وقال:

---

(١) العباسى: سيرة الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص١٠١

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٣هـ

(٣) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٩٣

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٠٨

(٥) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ١ ص ٧٣٣

(٦) المصدر السابق حوادث سنة ١٥هـ

لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم، ألفاً لسفره وألفاً لسلاحه وألفاً يخلفه لأهله وألفاً لفرسه ونعله[١].

ظل العطاء كما حدده عمر بن الخطاب حتى استقرت الخلافة لمعاوية، فزاد فى أعطيات اليمانية التى ناصرته وحاربت معه، بل زادها عن أعطيات القيسية، فارتفع بذلك شأن اليمانية، وقوى أمرها[٢]. وكان العطاء يؤدى سنوياً فى أول السنة الهجرية، ولما تعذر أداء العطاء فى موعده المحدد، صار يؤدى لهم على دفعات أو يؤخر أداؤه فى موعده المحدد[٣]. وقد أوصى عمر بن الخطاب ولاته بأداء العطاء فى وقته المحدد بقوله: «ولا تحرمنهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم»[٤] وإذا كان عمر بن الخطاب لم يجعل عطاء اليمانية كعطاء القيسية، فإن معاوية اتخذ سياسة مخالفة، فجعل عطاء اليمانية– كما رأينا– أكثر من عطاء القيسية[٥]. ومما لاشك فيه أن عمر بن الخطاب كان عادلا فى قراره، لأن الأقربين أولى بالمعروف، ولأن الأقرب إلى الرسول، قد تحمل معظمهم العبء الأكبر فى نشر الإسلام والذود عنه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله.

أما معاوية فقد اتخذ موقفاً مضاداً لأسباب سياسية فرفع أعطيات اليمانية فى الشام ولم يرفعها فى اليمن لأن اليمانية فى الشام ناصروه وأيدوه، أما القيسية– فعلى الرغم من انتمائه إليها– فكانوا يعارضونه ويناصرون آل على. وحذا يزيد بن معاويه حذو أبيه فى رفع أعطيات اليمانية[٦] فكثرت هجراتهم من بلاد اليمن إلى بلاد الشام– بصفة خاصة– وانضموا إلى الجيوش الإسلامية، وتمتعوا بالامتيازات التى منحها لهم كل من معاوية وابنه يزيد[٧]. على أن هذه الهجرات قد أضعفت – كما رأينا – بلاد اليمن من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٤١٣.

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص ٤٣.

(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٢٦٢.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين جـ٢ص ٧٠

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٩٤

(٦) ابن كثير الدمشقى: البداية والنهاية جـ٨ ص ٢٢٧

(٧) تاريخ اليعقوبى: جـ٣ ص ٤٨

وفى الفتنة الكبرى التى انطلقت فى الدولة العربية الإسلامية وقتل فيها الخليفة عثمان بن عفان، لانسمع عن دور قام به اليمنيون فى بلاد اليمن، ولكن اليمنيين خارج بلادهم فى الأمصار الإسلامية، كان لهم دور بل أدوار فى هذه الفتنة. وليست مهمتنا فى هذا الكتاب - كما قلنا - تتبع دور اليمنيين خارج بلادهم. ولكننا نرى ضرورة الإشارة إلى حركة أطلقها رجل من أهل اليمن فى الدولة العربية الإسلامية. وكان لها صداها فى تطور الأحداث، ذلك هو عبد الله بن سبأ، كان يهودياً من أهل صنعاء حبشى الأم، أسلم فى أيام عثمان، لارغباً ولا رهبا، ولكن مكراً وخداعاً وكيدا. تنقل فى بلدان المسلمين، يحاول ضلالهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه منها، فذهب إلى مصر، وأقام فيها، وأظهر آراءه، وقال: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع. وقد قال الله عز وجل ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[1] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، وقال لكل نبى وصى، وعلى هو وصى محمد. وقال: محمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء[2]. موجها الناس للمطالبة بعزل عثمان عن الخلافة، والعمل على تولية على بن أبى طالب. وقال: إن عثمان أخذها بغير حق. وهذا - أى على- وصى رسول الله «فانهضوا لهذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[3] تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر «وبث دعاته فى الأمصار الإسلامية، ولقيت دعوته استجابة من بعض العناصر الناقمة على عثمان، والداعية إلى خلافة على، وعارضوا ولاتهم وهاجموهم. واتصل أفراد الطائفة السبئية بعضهم ببعض فى الأمصار، بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك «وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون»[4].

ومهما يكن من أمر فقد أظهر عبد الله بن سبأ فى الناس آراء أفسدت عقيدتهم فى الدين والسياسة. وإلى عبد الله بن سبأ ينسب كثير من الناس سبب كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان. ويذهب البعض إلى أنه أحكم كيده إحكاماً.

---

(١) سورة القصص.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ ص ٨٥

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص ٣٦٦

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص ٣٦٨

وقد نسب إليه المؤرخون أن أفراد طائفته هي التى تسببت فى قتل عثمان بإثارتها الناس، وبثهم الدعاية ضده[1]. ولكن من الثابت أن عبد الله بن سبأ لم يكن له هذا الخطر. ولم يكن المسلمون فى عهد عثمان من الضعف بحيث يعبث بعقولهم رجل تحول من اليهودية إلى الإسلام، قادم من صنعاء. ولو صح موقفه هذا لقتله أحد الولاة، ولم يتغاض عن خطئه. ونحن نلاحظ أن أبا ذر الغفارى على الرغم من أنه صحابى جليل، وأظهر المعارضة ضد عثمان، نفاه عثمان إلى الربذة ولم يتركه يدعو إلى ما كان يدعو إليه[2].

ومن الروايات التى لا يقبلها عقل ما نسب إلى ابن سبأ، أنه لقن أباذر ما كان يدعو إليه من أن المال مال المسلمين، وأن كل ماقاله أبو ذر فى نقد الأمراء والأغنياء، وتبشير الكانزين للذهب والفضة بالنار، من تلقين ابن سبأ[3]. والحقيقة أن أباذر الغفارى لم يكن فى حاجة إلى من يلقنه هذه التعاليم، وخصوصاً من رجل دخل فى الإسلام حديثاً، فلأبى ذر سبقه فى الإسلام، بل إنه أسبق فى الإسلام من الأنصار جميعا، ومن كثير من المهاجرين[4]، وكان من الصحابة المقربين إلى رسول الله وأطال صحبته، وحفظ القرآن، وأحسن حفظه وروى السنة، وأتقن روايتها، وشهد سيرة الرسول وصاحبيه، وعرف الحدود وتفقه فى الدين[5].

إذن من الخطأ القول بأن أبا ذر أخذ مذهبه وفكره من ابن سبأ، ونحن نعتقد أن ابن سبأ دعا إلى ما دعا إليه بعد أن اشتدت الفتنة، فهو قد استغل الفتنة والخلاف. ونحن نعتقد أن خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين، بالغوا فى أمر عبد الله بن سبأ ليشككوا فى بعض مانسب من الأحداث إلى عثمان وولاته من ناحية، وليشنعوا على على بن أبى طالب وشيعته من ناحية أخرى، فيردوا بعض أمور الشيعة إلى يهودى أسلم، كيدا للمسلمين؛ لذلك لا يمكن أن يعبث هذا الرجل اليمنى الذى قدم من صنعاء بشئون المسلمين ودينهم وسياستهم.

ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة، انتعش عبد الله بن سبأ، واعتبر ذلك نصرا له ولدعوته، ولكن عليا لم يقبل منه المغالاة حين قال له- أى لعلى - أنت أنت، ولقد هم

(١) ابن الأثير: الكامل فى تاريخ جـ٣ ص ٣٠٥

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ ص ٧٨

(٤) طه حسين: الفتنة الكبرى ص ١٦٤

(٥) طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٢٧٩- ابن حجر، الإصابة جـ ٥ ص ٣٤٤.

على بقتله، ولكن عبد الله بن عباس نهاه عن ذلك، وقال له: إن قتلته، اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود لقتال أهل الشام، فنفاه على إلى المدائن[1].

ولما قتل على بن أبى طالب صار ابن سبأ يذكر للناس أن المقتول لم يكن علياً، وإنما كان شيطاناً تصوره الناس فى صورته. وذلك ليضل الناس ويفسدهم، وزعم أن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم. وقال : كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواهما قتل عيسى كذلك كذبت الخوارج فى قتل على، وإنما رأى اليهود والنصارى شخصاً مصلوبا شبهوه بعيسى. كذلك القائلون بقتل على رأوا قتيلا يشبهه–أى عليا – فظنوا أنه على. وقد صعد إلى السماء وأنه يجئ فى السحاب «والرعد صوته والبرق تبسمه. وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك ليملأها عدلا. . »[2] ومن سمع من السبئيين صوت الرعد يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين. وقد روى أن رجلا قال لابن سبأ أن علياً قتل. فقال إن جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته. لا يموت حتى ينزل من السماء. ويملك الأرض بحذافيرها[3].

ومن أقوال ابن سبأ تشعبت فرق الغلاة.

ونحن فى استعراضنا للأحداث الرئيسية فى بلاد اليمن فى عهد الولاة نلاحظ أن ولاة عثمان فى اليمن أساءوا السيرة، وأعطوا الفرصة للمعارضة للنيل من الخليفة، فقد ولى اليمن فى عهد أبى بكر الصديق: المهاجر بن أبى أمية ثم عبيد الله بن ثور العرنى. واستعمل عمر بن الخطاب يعلى بن منبه على اليمن[4]، ولما علم عمر بن الخطاب بأن واليه على اليمن جانب الصواب فى سياسته الداخلية، عزله. ولكن عثمان بن عفان أعاده إلى صنعاء[5]، وقد جمع هذا الوالى من بلاد اليمن أموالا طائلة. واستغل نفوذه وسلطانه فى حمل الأهلين على أداء أموال تفوق الضرائب المقررة واستحوذ لنفسه على هذه الأموال. ولذا قاسى اليمنيون الظلم والجور فى أيامه. لذلك عزله على بن أبى طالب. فعاد إلى الحجاز

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ١٧٤

(٢) نشوان الحميرى: الحور العين ص ١٥٤

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٢٣

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٨٤

ابن سمرة: طبقات الفقهاء ص ٣٥

(٥) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٦

حاقدا على علي؛ لذا انضم إلى طلحة والزبير وعائشة في معركة الجمل، وأعانهم على حربهم بستمائة ألف درهم وستمائة بعير. منها جمل عائشة. وكان اسمه[1] عسكرا. وقيل أنه توفي ولديه من الأموال ما يقرب من مائة ألف دينار[2].

لما ولي علي بن أبي طالب الخلافة ولي عليها عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب وظل يحكم البلاد حتى سنة ٤٠هـ. ولما تطلع معاوية بن أبي سفيان إلى السيطرة على الدولة الإسلامية[3] أرسل حملات إلى الولايات الإسلامية لانتزاعها من ولاة علي، فوجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف من أهل الشام. وأمره أن يشدد على شيعة علي في اليمن[4]، فما زال سائرا يقتل الشيعة أينما وجدوا حتى دخل صنعاء. وبها عبيد الله بن العباس. فاستخلف عبيد الله على اليمن عبد المدان الحارثي. وتوجه إلى الكوفة للاستعانة بالخليفة علي بن أبي طالب. أما بسر فقد ألحق ويلاته بأنصار علي وواليه. بل قتل طفلين صغيرين لعبيد الله[5] على أن علي بن أبي طالب لم يتغاض عن انتزاع معاوية اليمن من دولته. فأرسل حملة بقيادة جارية بن قدامة. ووهب بن مسعود، تتكون من أربعة آلاف مقاتل. واشتبكت هذه الحملة مع أنصار معاوية ودحرتهم[6]. أما بسر، فقد رأى أن لا طاقة له بجند علي، فهرب من اليمن[7].

وبذلك استرد علي نفوذه على اليمن. وولي جارية حكم اليمن نيابة عنه، ولكن لم يطل مقامه بها. فقد قتل علي. وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية. وقامت الدولة الأموية. وأصبحت بلاد اليمن من ولاياتها.

استعمل معاوية بن أبي سفيان على اليمن الضحاك بن فيروز الديلمي – أحد الأبناء الفرس الذين كانوا باليمن، وقدم على الرسول وأعلن إسلامه، وساعد على قتل الأسود العنسي وبقي والياً على اليمن حتى وفاته سنة ٥٣[8].

---

(١) الخزرجي: العسجد المسبورك ورقة ١٦.

(٢) العرشي: بلوغ المرام ص ٩

(٣) الخزرجي: الكفاية والإعلام ص ٦٢

(٤) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٦٤

ابن عبد البر: الاستيعاب جـ١ ص ٦٤

(٥) الخزرجي: العسجد المسبوك ورقة ١٨

(٦) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٤٩

(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٩٧-٩٨

(٨) تهذيب جـ٤ ص ٤٤٨

وقد كان لحركة عبد الله بن الزبير صداها في اليمن[1]. وذلك أن عبد الله بن الزبير رأى بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولية ابنه معاوية الثانى، وانقسام بنى أمية على أنفسهم أن يدعو الناس إلى بيعته، ولقب نفسه أمير المؤمنين. فأيد بيعته كثيرون من أهل الأمصار[2]. وقال الناس: إنه رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان، وهو ابن حوارى رسول الله، وأمه بنت أبى بكر الصديق، وله فضل فى نفسه ليس لغيره. وكان أهل المدينة يرون فى مبايعة ابن الزبير خلاصا من الحكم الأموى، وتمهيداً لعودة الخلافة إلى مقرها السابق فى الحجاز[3]، لذلك سارعوا إلى بيعته، وولى ابن الزبير الولاة من قبله على البلاد الإسلامية التى أيدته. من بينها بلاد اليمن، فعهد إلى عبد الله بن عبد الرحمن بن مخزوم بحكم صنعاء وما إليها، وعين عمارة بن عمرو بن حزم على حضرموت[4]. ولما قضى عبد الملك مروان على حركة ابن الزبير وانتهت بمقتله فى مكة فى جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ[5]، أخذ الحجاج بن يوسف الثقفى البيعة من أهل مكة لعبد الملك وأسندت إليه مقاليد ولاية الحجاز بالإضافة إلى اليمن واليمامة[6].

واستعمل الحجاج على صنعاء ومخاليفها أخاه محمد بن يوسف، وعلى الجند واقد ابن سليم الثقفى، وجعل حضرموت للحكم بن مولى الثقفى[7]. وكان اليمن مخلافين فقط، الجند وما إليها، وصنعاء وما إليها، وتولى على اليمن الولاة من بنى ثقيف، من بينهم يوسف بن عمر الثقفى، ولاه سليمان بن عبد الملك اليمن، فلم يزل والياً عليها حتى عهد إليه هشام بن عبد الملك بحكم العراق بدلا من اليمن. وكان آخر ولاة اليمن الثقفيين فى العهد الأموى، القاسم بن عمر الثقفى فى عهد مروان بن محمد[8] آخر خلفاء بنى أمية، وقد قاسى اليمنيون من الولاة الثقفيين الكثير من الشدائد، فعامل هؤلاء معاملة تنطوى على الجور والظلم، وتطلع اليمنيون إلى الخلاص من الحكم الأموى وولاته الجبابرة العتاة. لذلك أصبحت اليمن أرضاً خصبة للحركات المناهضة للحكم الأموى- كما سنرى.

(١) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٦٣

(٢) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية ص ١١٣

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٧٣هـ

(٤) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٢٠

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٧٣هـ

(٦) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٢٠

(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ١٢٣

(٨) العرشى : بلوغ المرام ص ٨

الحركة الإباضية فى بلاد اليمن

الإباضية فرقة من الخوارج، وقبل أن نشير إلى حركتهم فى بلاد اليمن فى أواخر العهد الأموى، يجب أن نتكلم بإيجاز عن الخوارج.

الخوارج مفردها خارجى، وهم أتباع أقدم فرقة فى الإسلام، وقد نشطوا فى أواخر عهد على بن أبى طالب، وتولية معاوية الخلافة، وأحدثوا اضطرابات كثيرة فى الدولتين الأموية والعباسية، وقدر لبعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن(١).

نشأت فرقة الخوارج أثناء معركة صفين بين على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله فى النزاع بين الفريقين، وعارض فريق من جيش على اعتبار أن الرجال لايصح أن يحتكم إليهم فى حكم الله. وهذا الفريق قوامه قبيلة تميم بالذات، وهجروا جيش على قائلين لاحكم إلا لله، ثم تركوا الجيش، وانسحبوا إلى قرية حروراء غير بعيد عن الكوفة، وارتضوا بعبد الله بن وهب الراسبى قائداً عليهم(٢).

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية(٣)، وانتعشت هذه الفرقة، وانضم إليها القراء فى جيش على، بعد ماشعروا بالخذلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التى كانت فى صالح معاوية وفى غير صالح على، وأظهر الخوارج مذهبهم وقالوا بعدم أحقية على فى الخلافة، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون، ومن ليس على عقيدتهم كافر(٤)، وعليهم رد هؤلاء الكفار إلى حظيرة الدين، وطعنوا فى مسلك عثمان، وأبوا الثأر لمقتله، وقوى أمر الخوارج شيئاً فشيئاً بتزايد العناصر المشاغبة الناقمة، ومن بينها عدد من غير العرب، اجتذبهم مبدأ المساواة بين الشعوب فى الاعتقاد وهو المبدأ الذى قال به الخوارج(٥).

وكان على بن أبى طالب قد عوّل على الزحف إلى الشام لمحاربة معاوية، وإعادة الوحدة إلى دولته، بعد أن رفض قرار الحكمين، لكنه علم أن الخوارج تجمعوا فى النهروان، وقوى أمرهم واشتد خطرهم، وقتلوا مخالفيهم، وأشاعوا الذعر بين الناس وسبوا النساء وأشاعوا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص ٢٧٥

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٥٨-٦٠

(٤) ابن قتيبه : الإمامة والسياسية جـ١ ص ٢٣٤

(٥) نشوان الحميرى: الحور العين ص ١٧٠

الخراب والدمار، فتحول على إلى النهروان، وألحق بهم الهزيمة سنة ٣٨هـ[١]، ونكل بهم، لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى آرائهم، فظل بعضهم يقيم معه بالكوفة، كما أقامت جماعة منهم بالبصرة، وقتل على بن أبى طالب بيد أحد الخوارج سنة ٤٠هـ. ولما قامت الدولة الأموية قوى شأن الخوارج، واعترضوا على تولية معاوية الخلافة، لأنه لم ينلها بإجماع كلمة المسلمين، وخالف سيرة الخلفاء الراشدين باتخاذه الحرس والحجاب وتشييده قصر الخضراء مقراً له، وقوى أمرهم فى البصرة والكوفة[٢].

اشتد ولاة بنى أمية فى العراق على الخوارج، وتعقبوهم، ونكلوا بهم، لكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وظلوا يعارضون الحكم الأموى، ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى مكة، انضم إليه فريق من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق، وذهبوا إلى مكة ليجاهدوا مع ابن الزبير ضد الحكم الأموى، ويذودوا عن البيت الحرام[٣].

على أن الخوارج اختلفوا مع ابن الزبير حول رأيه فى عثمان فقال لهم: إنى ولى لابن عفان فى الدنيا والآخرة، وولى أوليائه وعدو أعدائه، فقالوا له: برئ الله منك ياعدو الله. ثم انصرفوا عنه، فسار جماعة منهم إلى البصرة وفيهم نافع بن الأزرق الحنفى وعبد الله بن إباض[٤].

ساد الاضطراب بلاد العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية، وعجز ولاته عن مقاومة الخوارج، فأعادوا تنظيم صفوفهم، وأعلن نافع بن الأزرق نفسه أمير المؤمنين فى الأهواز، وبايعه أنصاره، وعارض بيعته عبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض، وأتباعهما من الخوارج.

واصل الخوارج شن غاراتهم فى شرق الدولة الإسلامية. وكانت غاراتهم أشبه بحرب العصابات. ويرجع الفضل فى معظم انتصاراتهم إلى سرعة حركة فرسانهم فكانوا يتحركون فجأة لايتوقعهم أحد، ويكتسحون البلاد، ويباغتون المدن غير الحصينة، ثم ينسحبون مسرعين تخلصاً من مطاردة جيش الدولة لهم[٥].

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٨هـ

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠هـ

(٣) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية ص ١٠٠

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص ٤٢٣

(٥) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٩٦

وكان على ولاة بنى أمية بعد القضاء على ابن الزبير أن يخوضوا حربا لاهوادة فيها على الخوارج الذين كانوا أعداء لابن الزبير والأمويين على السواء. وانقسم الخوارج إلى أزارقة وصفرية وإباضية، وتعددت فتنهم فى شرق الدولة الإسلامية وازداد خطرهم نتيجة لأعمالهم التخريبية، وانتفاضاتهم التى اتسمت بطابع العنف والقسوة بل والوحشية، ولم تفت فى عضدهم، ولم يضعفوا ولم يهنوا من بطش الأمويين[1] وتنكيلهم بهم. على أن المهلب بن أبى صفرة. والحجاج بن يوسف الثقفى. قد تمكنا بعد جهد جهيد وعناء شديد دام عدة سنوات من هزيمة جموع الخوارج[2].

وكانت جزيرة العرب مسـرحا لحركات الخوارج، وبالذات بين عامى ٦٥-٧٢هـ حيث استولوا على اليمامة. وامتد نفوذهـم إلى حضرموت واليمن ومدينة الطائف، ولم يمنعهم من الاستيلاء على مكة والمدينة إلا خوفهم من إثارة الشكوك فى دينهم. حقيقة نكل بهم الحجاج بن يوسف ولكنه لم يكن قضاء مبرماً. فقد بقى أفراد من الخوارج فى بلاد اليمن يتهيئون للثورة ضد الحكم الأموى حينما تتاح لهم الفرصة. فيذكر الخزرجى[3] أن الخوارج قدموا إلى صنعاء سنة ٧٢هـ. فجمع وهب بن منبه الناس لقتالهم. فقال له الناس: لاطاقة لنا بهم، ونحن نخشى أن يسـتحلوا دماءنا، فتفرق الناس، وصالحوا الخوارج على مائة ألف دينار. فاستعان أهل صنعاء بأهل المخاليف عليهم بالمال. فأمدوهم بالمال. وتفرق الخوارج.

اضطربت الأمور فى الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة- الذى قضى معظم أيام خلافته فى البادية. وبقى فى الخلافة سنة وشهرين. ثم قتل لسوء سيرته سنة١٢٦هـ. وخلفه يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر، وبويع أخوه إبراهيم، وفى عهده تجلى الاضطراب فى البيت الأموى، فلم يكن هناك إجماع على توليته. فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة، وناس بالإمارة. وناس لايسلمون عليه بواحدة منهما. وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد[4]. ولما ولى مروان بن محمد الخلافة تعصب للقيسية وطالب اليمنيين بدم الوليد بن يزيد. فثار عليه يزيد بن خالد

(١) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٦٥، ١٠٣.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٣ ص ٨٠.

(٣) الكفاية والإعلام ص ٦٨.

(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ١١٦.

القسرى بدمشق[1] وانضمت إليه اليمنية فأرسل مروان إلى دمشق جيشاً أخمد الثورة كما قضى على ثورات أخرى فى بلاد الشام قام بها اليمانية[2].

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد فى بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك. ودعا أهلها إلى خلعه. وانضمت إليه اليمانية. فسار إليه مروان. وأوقع به[3] الهزيمة، ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمنى فقد آثر مروان بن محمد أن يتخذ حران حاضرة لدولته بدلا من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته[4].

وكان مروان بن محمد من أقدر خلفاء بنى أمية فى الإدارة والحرب والسياسة، ولكنه ولى وقت كثرت فيه القلاقل والاضطرابات فى الدولة[5]، وتعددت الثورات، وانقسم البيت الحاكم على نفسه، وانتشرت الدعوة العلوية فى الكثير من أرجاء الدولة الإسلامية، ونجحت الدعوة العباسية فى إقليم خراسان نجاحاً كبيراً. وازداد نشاط الخوارج[6].

ومن أبرز الحركات فى الدولة الأموية حركة الخوارج الإباضية فى بلاد اليمن، وقد تزعم هذه الحركة أبو حمزة، وهو المختار بن عوف الأزدى السليمى فى البصرة[7]، وكان يذهب فى كل عام إلى مكة المكرمة، يدعو الناس إلى خلع مروان بن محمد وعصيانه والثورة ضده والسعى إلى خلع بنى أمية عن الخلافة. ولم يزل يتردد كل سنة حتى وافى عبد الله بن يحيى فى آخر سنة ١٢٨هـ. واقتنع ابن يحيى بمذهب أبى حمزة، ولقيت آراؤه استجابة وتأييداً منه[8].

ولنا أن نتساءل: لماذا انضم الحضارمة بالذات إلى الخوارج الإباضية؟ فى اعتقادى أن بلاد اليمن بما فيها حضرموت لم تتحسن أحوالها الاقتصادية فى العهد الأموى. فتطلعوا إلى

(١) ابن طباطبا : الفخرى، فى الآداب السلطانية ص ١٢٣.

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال ص ٣٣٤

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٥ ص ١٥٦

(٤) المصدر السابق جـ٥ ص ١٥٧

(٥) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص٣٧٣

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٢٩هـ

محمد بن إسماعيل الكبى: للطائف السنية ورقة ٥

(٧) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٩هـ

(٨) الخزرجى: الكفاية والإعلام٧٣

نشوان الحميرى: الحور العين ص١٧٢.

مناصرة الأحزاب المعارضة للحكم الأموى، ووجدوا فى مبادئ الخوارج ضالتهم المنشودة، فالخوارج يرون أن الخلافة حق لكل مسلم حر، وبذلك فالفرصة متاحة لكل مسلم فى توليته لها، وقد يكون يمنيا فيخلصهم من ظلم وجور بنى أمية ويسعى جاهداً إلى رفع مستواهم الاقتصادى، ومهما يكن من أمر فقد قال ابن يحيى لأبى حمزة : أسمع كلاماً حسناً أراك تدعو إلى الحق فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى. واستجاب أبو حمزة لدعوة ابن يحيى، وصحبه إلى حضرموت ودعا الناس إلى مذهبه، وإلى مبايعة عبد الله بن يحيى الكندى بالخلافة[1]، وخلع مروان بن محمد وطاعة بنى مروان، فاستجاب الحضارمة لدعوته، وبايعوا ابن يحيى خليفة، ولقبوه طالب الحق، وخلعوا واليهم الأموى، وهو إبراهيم ابن جبلة بن مخرمة الكندى[2].

وانتشر أمر عبد الله بن يحيى فى سائر بلاد اليمن، وذاع صيته، واعتنق الكثير من أهل اليمن مذهبه، ودعاه أهل صنعاء للقدوم إليهم، فاستخلف عبد الله بن سعيد الحضرمى، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩هـ على رأس ألفى رجل[3]، ولما نمى إلى علم القاسم بن عمر الثقفى مسير الخوارج بقيادة طالب الحق إلى صنعاء، خرج من صنعاء للقاء جيش الخوارج، ولكنه هزم[4]، فانسحب بقواته إلى صنعاء، ولكن طالب الحق زحف إليها، وهزم والى مروان ثانية، واستولى على صنعاء، ثم تمكن بعد ذلك من السيطرة على بلاد اليمن، وخطب فى الناس خطبة دعاهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأداء الفرائض، ونهاهم عن المنكر والمحرمات، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر[5]، وقال: «إن من رحمة الله أن جعل فى كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون على الألم فى جنب الله تعالى، يقتلون على الحق فى سالف الدهور شهداء فما نسيهم ربهم، وما كان ربك نسيا»[6].

بقى عبد الله بن يحيى طالب الحق فى صنعاء شهراً، وفد عليه خلاله الكثير من أهل

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٩هـ.

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٢٢

(٣) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص٧٤

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص١٢٤

(٥) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ورقة ٥.

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٩

اليمن، يؤيدونه ويبايعونه، حتى قوى أمره واشتد بأسه، وكثر جمعه، وأرسل فى موسم الحج أبا حمزة إلى مكة المكرمة على رأس ألف رجل تقريبا[1]. وبلغوها يوم التروية، فارتاع الناس يوم عرفة لرؤيتهم، فقد ظهروا على الناس بعمائم سود فى رؤوس الرماح[2]، فأرسل إليهم الوالى الأموى على الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك يدعوهم إلى الهدنة، ولكنه عمل على نقضها، وحاربهم بعد أن ارتاب فى نواياهم، وكانوا بدورهم يريدون خلع الوالى الأموى، والاستيلاء على بلاد الحجاز، وانتهز فرصة خروج أهل مكة والحجيج إلى عرفة، لتأدية مناسك الحج ودخل مكة دون قتال[3].

ولما انتزع طالب الحق مكة من الوالى الأموى عبد الواحد بن سليمان دعا أهل المدينة إلى درء خطر الإباضية الخوارج عن بلاد الحجاز، وزادهم فى العطاء عشرة عشرة، وعبأهم، وخرجوا للقاء الخوارج فى قديد- بالقرب من مكة- ودارت معركة ضارية بين الفريقين، وكان الخوارج أولى بأس شديد وقوة ومقدرة على الحرب والقتال. أما أهل المدينة فكانوا أهل تجاره، وينزعون إلى السلم، واستعدادهم للحروب قليل. لذلك أحرز الخوارج انتصاراً كبيراً على أهل المدينة[4] وقتلوا من أهل المدينة ألفى رجل، ودخل الخوارج المدينة سنة ١٣٠هـ[5] وبذلك سيطروا على مكة والمدينة.

لم يتعارض مروان بن محمد - الخليفة الأموى- عن استيلاء الخوارج على مكة والمدينة، فأعد جيشاً يتكون من أربعة آلاف مقاتل، وأسند قيادته إلى عبد الملك بن عطية السعدى، وأمره بالتنكيل بالخوارج، واستعادة مكة والمدينة منهم، والتقىَ الجمعان : جند مروان وجند الخوارج بقيادة بلج بن عقبة فى وادى القرى فى جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ[6] وحمل الجيش الأموى على الخوارج حملة قتل فيها معظمهم، ولم ينج إلا القليل، وثار الناس عقب ذلك على أبى حمزة بالمدينة، وقتلوا أنصاره حتى لم يبق بالمدينة

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص١٢٥

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٢٣

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٠هـ

(٤) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص٧٤

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٣٠هـ.

يحيى : بن الحسين: غاية الأمانى ص ١٢٥ .

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٣٠ .

أحد منهم[1]، ودخل ابن عطية المدينة المنورة ظافراً منصوراً بعد أن ألحق الهزيمة بالخوارج، واستقر فيها شهراً، نظم أمورها وإدارتها، وأعاد الهدوء والسكينة إليها، وخفف عن أهلها ما إصابهم من بطش وويلات الخوارج[2].

على أن ابن عطية غادر المدينة، وتوجه إلى مكة لطرد أبي حمزة منها، واستطاع ابن عطية دخول مكة، وهزيمة الخوارج، وقتل أبا حمزة وشتت شمل أنصاره، وأرسل ابن عطية برأس أبي حمزة إلى مروان، وبشره بالنصر، وقهر الخوارج[3].

عاد من لاذ بالفرار من الخوارج إلى صنعاء، وأخبروا طالب الحق بالهزيمة، فسار على رأس مجموعة إلى الطائف، ليأخذ بثأر أبي حمزة وغيره من أنصاره ويمنع زحف الجيش الأموى على اليمن. والتقى عبد الله بن يحيى مع ابن عطية فى معركة بنواحي الطائف، وقتل القائد الأموى فيها، عبد الله بن يحيى والكثير من رجاله[4]، ومزق الخوارج كل ممزق، ولم ينج إلا من لاذ بالفرار إلى صنعاء، وقد دافع الخوارج ببسالة وشجاعة، وقتل طالب الحق، وحملوا على أعدائهم حملة قتلوا فيها الكثير من جند بني أمية[5].

لم يكتف ابن عطية بالقضاء على الخوارج فى الحجاز، وقتل أبي حمزة وطالب الحق، بل رأى ضرورة استئصال شأفة الخوارج كلية من اليمن، فتوجه إلى صنعاء، فغادرها عامل عبد الله بن يحيى. وما زال ابن عطية يلاحق الخوارج الإباضية فى كل مكان باليمن حتى قتلهم وأبادهم، ولجأ بعض من نجا منهم إلى مواضع منعزلة وثاروا بها، ولكن ابن عطية نكل بالثوار[6].

لجأ من لجأ من الإباضية إلى حضرموت، وقوى بهم عبد الله بن سعد الحضرمي- عامل عبد الله بن يحيى على حضرموت - وتجمع لديه جيش كبير، وأعد العدة لمحاربة بن عطية، فغادر ابن عطية صنعاء، واستخلف فيها عبد الرحمن بن يزيد بن عطية، وزحف إلى حضرموت، فلما علم الخوارج بإقباله، تجمعوا واحتشدوا فى مدينة شبام، وساروا على مقربة

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. حوادث سنة ١٣٠هـ

(٢) محمد بن إسماعيل الكبسي: اللطائف السنية ورقة ٥

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص١٢٥

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص١٢٥

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٣٠هـ

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٣٠هـ

من حضرموت لملاقاة ابن عطية[1] ولما علم ابن عطية بأن الخوارج وضعوا قوتهم وعتادهم في شبام، هاجمها واستولى على أمتعتهم ومؤنهم، وقطع عنهم المسيرة والعلوفة، وهاجم الخوارج وشدد عليهم هجماته، وقتل وأسر منهم الكثير، ولم يكف عن حملته إلا بعد أن أرسل إليه مروان بن محمد يأمره بالتوجه إلى الحجاز، ليحج بالناس، فصالح أهل حضرموت، وفي طريقه إلى مكة، تصدت له الإباضية في مراد وقتلوه[2].

ولما علم عبد الملك بن عطية- والي صنعاء من قبل عمه ابن عطية- بمقتله ثارت ثائرته، وعول على الانتقام من الإباضية، فعهد إلى شعيب البارقي- أحد مشاهير فرسان أهل الشام - بمقتل الإباضية أينما وجدوا، والثأر لمقتل عمه، فمزق الإباضية ولم يدع أحداً منهم إلا قتله، ولم ينج من بطشه أحد حتى الأطفال والنساء، واستولى على أموالهم، وألحق الخراب والدمار بقراهم، وجعل يتتبع الخوارج أينما وجدوا ويقتلهم. ولم ينج من بطشه من الإباضية إلا من أمعن في التخفي[3].

وبذلك فشلت حركة الإباضية في اليمن في العهد الأموي وقضي عليها قضاء يكاد يكون تاما، وبعد أن هزم الإباضية في اليمن وحضرموت، لم تقم لهم قائمة في هذه البلاد. ولكن ظل هذا المذهب قائما في حضرموت يتعصب له بعض الحضارمة.

على أن أمرهم قد أخذ في الضعف، وكان لمقدم الإمام المهاجر الشريف أحمد بن عيسى العلوي الحسيني على حضرموت حوالي سنة ٣١٩هـ أكبر الأثر في اضطراب أمر الإباضية بهذه الناحية ثم ضعفهم، وتقلص هذا المذهب من بعض النواحي، وذلك بفضل جهود السيد المهاجر هذا وأولاده من بعده، ودعوتهم إلى المعروف ونهيهم عن المنكر، والترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى، حتى صار لهم أنصار أولوبأس شديد، ناهضت الإباضية، وقضت عليها في نهاية الأمر[4].

إذن كما كان نزول الشريف المهاجر بحضرموت العامل الأكبر في القضاء على الإباضية في هذه البلاد، فضعف أمر الإباضية حتى لم يبق لهم إمام، وأصبحت فئة منعزلة لاحول لها ولاطول، وكان إمامهم في عمان حتى أنهم كثيراً ما استنجدوا بإمام عمان على

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٣٠هـ
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٣٠هـ
(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ١٢٥
(٤) العلوي: تاريخ حضرموت جـ١ ص٢٠٤

الحضارمة الشافعية أعدائهم. ومنذ استولى على بن محمد الصليحى على حضرموت خفت صوت الحضارمة الإباضية. ولم تقم لهم بعد قائمة[1]. وبذلك أخذت الإباضية فى الضعف والتلاشى.

ولم ينته القرن السابع الهجرى إلا وكان أمر الإباضية قد انقرض تماماً من حضرموت، وأزيلوا عن مسجدهم بشبام.

يقول الإباضية: إن مخالفيهم من المسلمين كفار غير مشركين، ويجوز التزوج منهم، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام، ويحرمون قتلهم وبيعهم فى السر غيلة، إلا بعد إعلان الحرب عليهم وإقامة الحجة[2]. وقالت الإباضية: إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار بغى، وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم. وقالوا فى مرتكب الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون، وأفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثا وإبداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا[3]. ولا يسمون إمامهم أمير المؤمنين، ولا أنفسهم مهاجرين. وقالوا: إن العالم يفنى كله إذا فنى أهل التكليف وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر النعمة لا كفر الملة[4]، وتوقفوا فى أطفال المشركين، وأجازوا تعذيبهم على سبيل الانتقام، واختلفوا فى النفاق، أيسمى شركا أم لا؟ قالوا: إن المنافقين فى عهد الرسول كانوا موحدين، إلا أنهم ارتكبوا الكبائر، فكفروا بالكبيرة لا بالشرك. وقالوا: كل شئ أمر الله تعالى به فهو عام ليس خاصا، وقد أمر به المؤمن والكافر، وليس فى القرآن خصوص. وقالوا : لا يخلق الله تعالى شيئاً إلا دليلا على وحدانيته. ولابد أن يدل به واحدا[5]. وقال قوم منهم: يجوز أن يخلق الله تعالى رسولا بلا دليل. ويكلف العباد بما أوحى إليه. ولايجب عليه إظهار المعجزة. ولايجب على الله تعالى ذلك، إلى أن يخلق دليلا ويظهر معجزة. وهم جماعة متفرقون فى مذاهبهم[6].

---

(١) العلوى: تاريخ حضرموت ص ٢٠٥

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل جـ١ ص١٣٤

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ١ ص٢٦١

أحمد أمين: فجر الإسلام ص٣٢١

(٤) نشوان الحميرى: الحور العين ص ١٧٢

(٥) الشهرستانى: الملل والنحل جـ١ ص١٣١

(٦) البغدادى: الفرق بين الفرق ص٢٢٣

ويجدر بنا أن نناقش أسباب فشل حركة الخوارج الإباضية فى حضرموت وبلاد اليمن عموما. ومن أهم أسباب فشل هذه الحركة ضعف بلاد اليمن بسبب هجرة شبابها، وأولى البأس فيها إلى العراق والشام ومصر وغيرها، أثناء وبعد الفتوح، ولم يبق باليمن إلا الشيوخ وضعاف الناس. ومما يؤيد ذلك أن ألفى رجل شتتوا شمل الخوارج ومؤيديهم فى اليمن، وألحقوا بالبلاد الخراب والدمار.

ومن أسباب فشل الإباضية فى اليمن تطرف ما ذهبت إليه من آراء، الأمر الذى أدى إلى فشلها السريع. وكان لمقتل زعيم الخوارج أبى حمزة وأصحابه بمكة وتشتت شمل جيش طالب الحق عبد الله بن يحيى وقتله فى معركة الطائف أكبر الأثر فى ضعف الإباضية فى اليمن وانهيارها، حتى أن ابن عطية، لما قدم إلى اليمن لم يجد مقاومة تذكر، وأخذ يجول ويصول فى اليمن كيفما شاء. ولم يجد صعوبة فى القضاء على الإباضية بعد أن انهارت عزيمتهم، وضعفت مقدرتهم، ووهنت قوتهم.

ولا ننسى أن مروان بن محمد – آخر خلفاء بنى أمية– كان لا يألو جهداً فى سبيل قمع الحركات المعارضة له فى الدولة على كثرتها وتعددها – وكان يسند هذه المهام إلى كبار القادة، ويتتبع جهودهم حتى يتم استئصال هذه الحركات.

* * *

ضعفت الدولة الأموية منذ بداية القرن الثانى الهجرى، بسبب كثرة الحركات المعارضة لها، وبالذات الخوارج والشيعة، وانقسم البيت الأموى على نفسه انقساما عنيفا، فقد وقعت الحرب بين الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك وبين يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان الأول ينصره العنصر المضرى، والثانى ينصره العنصر اليمنى، وانتهى أمر هذه الحرب بقتل الوليد بن يزيد فى جمادى الآخر، سنة ١٢٦هـ[١]. ومما لا شك فيه أن فساد الأحوال فى الدولة الأموية شجع العباسيين على التطلع إلى نيل الحكم مع أنه ليس لهم حق شرعى فيه كالعلويين. أو قوة كالأمويين[٢]. إذ وجدوا فى هذا الوقت الذى وهن فيه الأمويون وأنهك فيه العلويون أنفسهم بالثورات أن الجو أصبح ملائما لنشر دعوتهم، وبذلوا كل جهد فى ذلك، حتى أعلن أبو العباس السفاح قيام الدولة العباسية فى الكوفة[٣]. أما

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٢٦

نشوان الحميرى: الحور العين ص ١٧٣.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدول الإسلامية ص١٧١

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ١٣٢هـ.

عن الوضع السياسى الداخلى فى بلاد اليمن فى العصر العباسى الأول لما قامت الدولة العباسية، فقد كان الخلفاء العباسيون يعهدون أحيانا إلى بعض أمراء البيت العباسى بحكم اليمن، فعين أبو العباس السفاح عمه داود بن على، على اليمن[١]، ومن ولاة البيت العباسى، على بن سليمان بن العباس، وأحيانا يعهد الخلفاء إلى كبار اليمانية بحكم اليمن مثل معن بن زائدة الشيبانى وابنه زائدة[٢]، وعبد الله بن مالك الحارثى ومنصور بن يزيد الحميرى، وولى اليمن بعض الولاة من أصل فارسى مثل محمد بن خالد بن برمك وحمدويه بن عيسى بن ماهان[٣]. وتميزت فترات حكم الولاة العباسيين بالتمرد مما يدل على عدم استقرار الأمور فى بلاد اليمن. ونحن فى استعراضنا لعصر الولاة العباسيين فى اليمن نبرز الأحداث الرئيسية فى بلاد اليمن فى ذلك العصر.

اضطربت الأوضاع السياسية فى بلاد اليمن منذ بداية العصر العباسى الأول[٤] حتى أن عبد الله بن الربيع - والى اليمن، قد فشل فى قمع الفتنة والثورات فى اليمن. وفر منها[٥]. لذا رأى الخليفة المنصور أن يولى بلاد اليمن معن بن زائدة الشيبانى- وهو يمنى الأصل - وعهد إليه بقمع حركات الخوارج، وإعادة الهدوء والسكينة إلى هذه البلاد[٦].

وقد شغل معن فى أيام بنى أمية عدداً من المناصب فى الولايات الإسلامية حتى دخل فى خدمة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى- أمير العراقيين- فى عهد مروان بن محمد- آخر الخلفاء الأمويين- فلما سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ وقامت الدولة العباسية، عول المنصور على التخلص من يزيد الذى اعتصم بواسط، ورفض الاعتراف بالحكم العباسى، فحاصره فى واسط، وشدد عليه الحصار، حتى استولى على واسط، واستسلم يزيد، وطلب من المنصور العفو والصفح، ولكن المنصور رغب فى التخلص منه، وكان يقول: لا يعز ملك هذا فيه. فأعطاه أمانا ولم يلبث أن غدر به ونقض أمانه وقتله[٧]، وكان معن بن زائدة، قد وقف إلى جانب يزيد فى الدفاع عن واسط، وأبلى معه بلاء حسنا. وبعد استيلاء

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ورقة ١٨

(٢) ابن الخياط: جـ٢ص ٦٤٤-٦٤٦

(٣) المتوكلى أنباء الزمن ورقة ١٨.

(٤) ابن الخياط جـ٢ص ٦٥٠-١٥٦

(٥) المتوكلى : ابناء الزمن ورقة ١٨.

(٦) ابن الخياط: جـ٢ص ٦٥٥

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ص٢٤٥

المنصور على واسط، اختفى معن من وجه المنصور، حتى لا يتعرض لبطشه، وجد المنصور فى طلبه، وعرض مبلغا كبيراً من المال لمن يقبض عليه[1]، ويحمله إليه، فلما كان يوم الهاشمية، قام الراوندية بثورة ليخفوا غرضهم الأصلى، وهو القيام بثورة للأخذ بثأر أبى مسلم[2]، ولكن المنصور عول على التخلص منهم والتنكيل بهم، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه، لولا أن سارع إلى إنقاذه، معن بن زائدة الشيبانى الذى وقف بين يدى المنصور، ليخفى شخصيته الحقيقية عنه، وظل يقاتل الراوندية حتى انتصر عليهم، وتمكن من إخماد ثورتهم، فأعجب المنصور بحسن بلائه فى محاربة الراوندية، وتعرف عليه المنصور، وقال له: قد آمنك الله على نفسك وأهلك ومالك، ومثلك يصطنع، ثم أجزل عليه العطايا،ورأى أنه خير من يصلح لولاية اليمن[3]، فعهد إليه بحكم اليمن، وقمع حركات الخوارج، والاضطرابات والقلاقل فى هذه البلاد، وإعادة الهدوء والسكينة إلى ربوع اليمن[4].

وكانت بلاد اليمن مضطربة كل الاضطراب- كما قلنا- وتحتاج إلى وال قوى مثل معن يستطيع قمع الاضطرابات والقلاقل. يضاف إلى ذلك أن معْنا خبر السياسة وحذقها وهو يمنى يستطيع تفهم مشاكل بلاده، ويجد العون والتأييد من أهله وذويه على مثيرى الفتن ومعارضى سياسته.

ولما حكم معن اليمن، اشتد فى تعقب الخوارج والتنكيل بهم[5]، وقتل من الخوارج ألوفا، وأسرف فى سفك الدماء[6]، وولى اليمن تسع سنين، عهد خلالها إلى بعض أقربائه بحكم مخاليف اليمن[7]. وساروا على سياسته فى التشديد على المخالفين والخارجين. وقد

(١) المصدر السابق جـ٦ ص١١٣

(٢) الراوندية شيعة ولد عباس بن عبد المطلب من أهل خراسان وغيرهم قالوا : إن أحق الناس بالإمامة بعد الرسول، العباس بن عبد المطلب لأنه وريثه الشرعى، وكانوا يقولون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى رجل من كبارهم، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو المنصور. وقد غلا الراوندية فى العباسيين، كما غلا الشيعة فى بعض العلويين، وخرج فريق منهم على الناس بالسلاح يدعو إلى عبادة المنصور، ويصيحون به أنت أنت.

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٣٧

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٦ ص ٢٨٤

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٨

(٦) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٢٣

(٧) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ٢٣

جلب على نفسه كراهة وسخط الأهلين، ولما تمكن الناس من أحد أقربائه- وكان يلى المعافر - قتلوه، فشدد على أهلها، وقتل منهم ألفين، وبالغ فى الانتقام[١].

تعددت ثورات اليمانية ضد عمال معن بن زائدة، الظالمين الغاشمين،وقتل الخوارج الحضارمة- عامل معن على بلدهم- فغضب لذلك معن غضبا شديداً، وحارب الخوارج فى حضرموت، حتى أخضعهم[٢]. ويقال إنه قتل منهم عدة آلاف، وصادر أموال الثائرين، وألحق ويلاته بهم وظل معن واليا على اليمن حتى عهد إليه الخليفة المهدى بحكم سجستان، وحل زائدة بن معن محل أبيه فى حكم اليمن[٣].

على أن الحضارمه الخوارج لم يتغاضوا عما حل بإخوانهم من القتل والتعذيب على يد معن وأعوانه، فعولوا على الانتقام منه. وفى سنة ١٥١هـ أو ١٥٢ أو ١٥٨هـ تسللوا إلى بيته فى سجستان[٤] وقتلوه.

تعاقب الولاة العباسيون على حكم اليمن، وأحيانا يعهد الخليفة إلى وال بحكم الحجاز واليمن، فيقيم الوالى فى مكة أو المدينة، وينيب عنه من يحكم اليمن، وأحيانا يعهد الخليفة لأحد الولاة بصلاة اليمن وحربها، ويعهد إلى وال آخر بجباية اليمن، وفى هذه الحالة الأخيرة يكون كل واحد منهما عينا على صاحبه. ذلك أن الرشيد عهد إلى الربيع بن عبد الله الحارثى بحرب اليمن وصلاتها، وولى العباس بن سعيد بن هاشم على الجباية[٥] وولى محمد بن إبراهيم الهاشمى الحجاز واليمن، وأقام بالحجاز، وأناب عنه ابنه العباس فى حكم اليمن[٦].

ومن ولاة اليمن فى عهد الرشيد، محمد بن برمك، وقد حكم الناس بالعدل، وخفف عنهم عبء الضرائب، وأصلح وسائل الرى، وضبط الأمن والنظام، ولم يأل جهداً فى سبيل رفع المظالم عن الأهلين، وخفف عن الناس ما كانوا يقاسونه من ظلم وبطش

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص١٣٠

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٢٤.

(٣) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٨

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦جـص ٣١٣.

(٥) الخزرجى : الكفاية والإعلام ص٨٧.

(٦) المتوكل : أنباء الزمن ورقة ١٨.

الولاة السابقين، وله الكثير من الإصلاحات، منها مسجد شيده فى الصنع[1] ثم ولى الرشيد بعده حمادا البربرى، وقد خالف سيرة سلفه، فرفع الضرائب واشتد على الناس فى جبايتها، ولكنه لم يتهاون مع العابثين والمفسدين ومثيرى القلاقل، وضرب بيد حديد على اللصوص وقطاع الطرق، حتى أمنت السبل فى أيامه، وعمرت البلاد، وراجت الزراعة، وكانت القوافل تأتى إلى اليمن وتخرج منها محملة بالبضائع فى أمن وسلام، الأمر الذى أدى إلى توافر السلع فى الأسواق، وانخفاض الأسعار[2].

اشتد حماد فى قمع الفتن والثورات، وكان عنيفا فى معاقبة مخالفيه، وامتد ظلمه إلى الأهالى الآمنين، فقامت ضده عدة ثورات أهمها ثورة الهيصم بن عبد المجيد الهمدانى سنة ١٧٩هـ، واعتصم بجبل مسور، وانضم إليه عمر بن أبى خالد الحميرى بعشتا والصباح بحراز، و تضامنوا وتعاضدوا على مقاومة الوالى العباسى ومحاربته، وطرده من البلاد، وتخليص اليمن من ويلاته وظلمه وجوره[3]، واشتبكوا معه فى معارك، وقتل فيها ألوف الناس وظلت المعارك قائمة بين حماد واليمانية الثوار تسع سنين، انتهت بهزيمة الهيصم وقبض على حماد، وأسر وسيق إلى الرشيد حيث أمر بقتله، وقبض حماد على الصباح وستمائة من رجاله ورجال الهيصم، سيقوا إلى الرشيد، ونكل بهم. وبذلك هدأت الأحوال فى بلاد اليمن ولكن إلى حين[4].

ظل حماد البربرى يستبد باليمانية، ويسوم معارضيه سوء العذاب حتى تطلع اليمانية إلى التخلص منه، وصاح قوم من اليمانية بالرشيد وهو بمكة لأداء فريضة الحج سنة ١٩٢هـ طالبين منه أن يمنع عنهم ظلم وجور حماد[5]، قالوا له: نعوذ بك يا أمير المؤمنين أعزل عنا حمادا البربرى إن كنت تقدر[6].

ويذكر بعض المؤرخين أن الرشيد عزل حمادا البربرى، على حين يذكر اليعقوبى[7]

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٨.

(٢) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٩١.

(٣) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٩.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ورقة ٨.

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ورقة ٨

(٦) الخزرجى: الكفاية والإعلام ٨٩.

(٧) تاريخ اليعقوبى: جـ٢ص ٤١٢

وابن طباطبا[١] أن حمادا عزل فى خلافة الأمين، يؤيد ذلك ما أورده صاحب كتاب الوثائق السياسية اليمنية عن مؤرخ مجهول[٢] من شكوى أهل صنعاء للخليفة الأمين من حماد البربرى، كما جاء فيها، فالله يا أمير المؤمنين لاستدراك أمة من المسلمين قد أذلها الظالمون وأوهنها المجرمون، فأصبح خيارها ذاهبين... فإن رأى أمير المؤمنين أن يتداركنا ببعض المشيخة المهذبين من ولد عبد مناف الطيبين.. أو ببعض مشيخة العرب...».، كذلك كتبوا إلى الفضل بن الربيع – وزير الأمين يطلبون منه أن يتوسط لدى الأمين فى عزل حماد، ومما جاء فى كتابهم «فإن رأيت... أن ترحم مابنا.. وتحتسب فى أكبادنا الجائعة وأطفالنا الضائعة وأبداننا الهالكة حسن ثواب الله فى الآخرة بإيصال كتابنا إلى الخليفة.. بتحويل فلان عنا أهلكه الله، وبتعجيل وال شفيق منتخب ذى حسب عتيق له مع الحسب دين ومع الديانة يقين يرتق ما فتق.. ويغير ما صنع.. وينصف من كان ظلم... فإنه لاغنى لنا عن ذلك...»[٣].

* * *

أحب أهل اليمن على بن أبى طالب وآله آل البيت، فقد أرسله الرسول إلى بلاد اليمن ثلاث مرات لنشر الإسلام أو لجمع الزكاة، وقضى بينهم، وصلى بهم ووعظهم وأرشدهم، وأسلمت على يديه قبيلة همدان بالذات – لذلك عرف اليمنيون فضل على بن أبى طالب، وقدروا علمه وجهده وعدالته، فتشيع الكثير منهم لعلى– وكان على بن أبى طالب يشعر بمحبة وتقدير همدان له، حتى أنه قال لهم فى معركة صفين، «يامعشر همدان: أنتم درعى ورمحى والله لوكنت بواباً على باب جنة، لأدخلتكم قبل جميع الناس ومانصرتم إلا الله تعالى ومـاأجبتم غيره[٤]». من هنا وجدت حركات الشيعة فى اليمن النصر والتأييد، وانضم إليها اليمانية بحماس منقطع النظير، وضحوا بأموالهم وأرواحهم فى سبيل نجاح ثورات الشيعة. ويتضح ذلك من انضمامهم إلى الحركات المتعددة منذ انتشار الإسلام فى اليمن.

رأى العلويون فى الخلاف الذى وقع بين الأمين والمأمون فرصة سانحة لإظهار نشاطهم، فبثوا دعاتهم فى البلاد، وخرج على المأمون محمد بن إبراهيم العلوى المعروف بابن

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ١٤٢

(٢) الأكوع: الوثائق السياسية اليمنية ٢١٩–٢٢٢

(٣) الأكوع: الوثائق السياسية اليمنية ص ٢٢٢

(٤) الهمدانى: الإكليل جـ١ ص ٤٦–٥٠

طباطبا بالكوفة سنة ١٩٩هـ، وصار يدعو إلى الرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وعاونه فى نشر دعوته قائد جنده أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى، الذى استولى على الكوفة من يد واليها العباسى[١].

ولما توفى محمد بن إبراهيم، ولى أبو السرايا بدله غلاماً من العلويين يدعى محمد بن محمد بن يزيد، وضرب الدراهم بالكوفة، ونقش عليها: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ كما أرسل ولاة من العلويين إلى مكة والمدينة واليمن وغيرها من البلاد الإسلامية[٢].

وكان الوالى على مكة والمدينة، داود بن عيسى بن موسى، حينما وجه أبو السرايا إلى مكة، حسين بن حسن الأفطس العلوى، والى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب، فدخلها دون قتال. أما حسن بن الحسن الأفطس فقد دخل مكة فى يوم عرفة[٣].

شجعت الانتفاضة العلوية إبراهيم بن موسى وجماعة من أهل بيته بمكة على مد الثورة إلى اليمن[٤]، فخرج على رأس فريق من العلويين، حيث عهد إليه ابن طباطبا بولاية اليمن من قبله وضمها إلى الثورة العلوية فى الكوفة والحجاز والأمصار الإسلامية[٥]، ولما علم والى اليمن من قبل المأمون، إسحاق بن موسى بن عيسى بن عباس، أسقط فى يده، وكره قتاله[٦]، فخرج منصرفاً عن اليمن بجنوده. وبذلك أتيحت الفرصة لإبراهيم بن موسى بالسيطرة على اليمن دون عناء، واستولى إبراهيم على اليمن فعلا، وقتل كل من اعترضه، وأسرف فى القتل حتى لقب بالجزار، واستولى على أموال أعدائه ومعارضيه[٧].

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، والملوك حوادث سنة ١٩٩هـ.
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٩٩هـ.

(٢) ابن الخياط : جـ٢ص ٧٦٠ الأشعرى : مقالات الإسلامية ص٨٢.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٩ هـ.

(٤) الخرزجى: المسجد المسبوك ورقة ٢٩.

(٥) ابن الصباغ: الفصول المهمة ص٢٢٨.

(٦) المقدسى: البلد والتاريخ جـ٦ ص ١٠٩.
عباس الهمى : منتهى الآمال المجلد الثانى ص١٤٩.

(٧) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ص ٨٢.

لم يكتف إبراهيم بن موسى بالسيطرة على اليمن بل تطلع إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز، فأرسل فى موسم الحج سنة٩٩.هـ جيشاً كبيراً إلى مكة، ولكن المكيين لم يمكنوهم من دخولها، وردوهم على أعقابهم خاسرين، وبذلك فشل إبراهيم بن موسى فى السيطرة على مكة. ذلك أن الخلافة العباسية أعدت جيشاً كبيراً فى موسم الحج التالى- أى سنة ٢٠٠هـ[١]- بقيادة أبى إسحق بن هارون الرشيد، وضم هذا الجيش من القادة والجند مالا قبل لإبراهيم بن موسى به، فالخلافة العباسية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تقبل بانتزاع بلاد الحجاز منها، لأن الدولة العباسية تستمد دعامتها وقوتها كحامية لحمى المسلمين من خلال الإبقاء على الحرمين الشريفين في حوزتها[٢].

على كل حال قدم الجيش العباسى إلى مكة فى وقت عسكرت فيه قوات إبراهيم بن موسى فى بستان ابن عامر بالقرب من مكة، وتعرضو لقوافل الحجيج بالسلب والنهب، بل استولوا على كسوة الكعبة، وقدم الحجيج إلى مكة فى أسوأ حال عراة جائعين. فأرسل القائد العباسى جنداً، نكل باليمانية وأسر أكثرهم، واسترد كسوة الكعبة وأموال التجار والحجيج، وأنزل بأنصار إبراهيم بن موسى أشد أنواع العقاب، وأخلى سبيلهم، فعادوا إلى اليمن فى أسوأ حال، يستطعمون فى الطريق، حتى هلك معظمهم جوعاً وعريا[٣].

وكان الخليفة المأمون وقتذاك بمرو- عاصمة خراسان- فأرسل الحسن بن سهل - واليه على العراق- إلى القائد هرثمة بن أعين يستدعيه لإخماد فتنة أبى السرايا فحاصره بالكوفة، حتى اضطر إلى الخروج منها، ومن معه من الطالبيين فى سنة ٢٠٠هـ[٤] وأخذ ينتقل من بلد إلى آخر، فلما انتهى إلى جلولاء، قبض عليه، وسيق إلى الحسن بن سهل بالنهروان فأمر بقتله[٥].

ضعف إبراهيم بن موسى فى اليمن بعد هزيمة جنده فى الحجاز، وضاعت هيبته بين الناس، وانتعش معارضوه وأثاروا فى وجهه الاضطرابات[٦]، كما أن مقتل أبى السرايا وتفرق

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠٠هـ

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٠٠هـ

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠٠هـ

(٤) الخزرجى:العسجد المسبوك ورقة٢٨.

(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ص ٨٢

(٦) ابن شدقم: تحفه الأزهار جـ٣ورقة ٤٥.

أصحابه جعله يرى أنه من الصعب تحقيق أطماعه والاستقرار فى بلاد اليمن، لذا طلب الأمان من الخليفة المأمون فأمنه. وقيل أن أخاه على الرضا تشفع فيه، وقضى فى بغداد ما تبقى له من عمر، وتوفى سنة ٢١٠هـ[١].

وعلى الرغم من أن الخليفة المأمون كان يتعاطف مع العلويين إلا أن عهده شهد عدة انتفاضات علوية، ففى سنة ٢٠٧هـ خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد ابن عمر بن على بن أبى طالب ببلاد عك باليمن، يدعو إلى الرضا من آل محمد، وأيده اليمنيون الذين رأوا فيه مخلصا ومنقذاً لهم من ظلم وبطش الولاة العباسيين[٢].

لما علم المأمون بنبأ هذه الثورة، أنفذ دينار بن عبد الله فى عسكر كثيف لقمع الثورة، وأمره بأن يمنحه أمانا إذا كف عن العصيان، ولما رأى الثائر العلوى أن لا قبل له بجند المأمون، قبل الأمان وجنح إلى السلم والموادعة، ووضع يده فى يد دينار، وأرسله إلى المأمون فأكرمه وعفا عنه[٣].

على أن بلاد اليمن شهدت فى عهد الخليفة المأمون اضطرابات أخرى غير علوية، أثارها بعض الولاة العباسيين، فقد عزل الخليفة المأمون، ابن ماهان، واستناب عنه فى حكم اليمن، عيسى بن زيد الجلودى[٤]، ولما علم ابن ماهان بمقدم الجلودى إلى اليمن، رغب فى إبعاده عنها، والاستقلال بها، فأعد العدة لصد الجلودى عن اليمن، وإبعاده[٥]، ولكن الجلودى هزم جيش ابن ماهان، ودخل صنعاء، وقبض على ابن ماهان وزجه فى السجن، وسيطر على اليمن، وعهد إلى عمال من قبله بحكم مخاليف اليمن، وخلف الجلودى فى حكم اليمن إبراهيم الأفريقى الشيبانى[٦]. ولكن اضطربت الأحوال من جديد فى تهامة اليمن، الأمر الذى دفع المأمون إلى التفكير فى فصل تهامة اليمن عن نجده، بوال مستقل

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٠٧هـ

(٢) يحيى مبن الحسين، غاية الأمانى ص ٢٠٧.

(٣) المتوكلى : أنباء الزمن ورقة ٢١.

(٤) الخزرجى: الكفاية والإعلام٩٩.

(٥) الشيبانى : قرة العيون جـ١ص ١٤٦.

(٦) تاريخ اليعقوبى: جـ٢ص ٤٤٨.

يضبط أمورها، ويقر الأمن والاستقرار فى ربوعها، وفعلا عهد المأمون إلى محمد بن عبد الله بن زياد بولاية تهامة، وما يتبعها[٧].

وبالرغم من انفصال تهامة اليمن عن نجده بإمارة آل زياد، فإن الأمر لم يستتب لعامل العباسيين، إبراهيم الأفريقى، فعهد المأمون إلى نعيم بن الوضاح بولاية صنعاء وأعمالها، وعهد إلى المظفر بن يحيى الكندى بحكم الجند وأعماله، وقدم الأميران على اليمن سنة ٢٠٦هـ، وخلفه عبد الله بن على بن العباس، ولما توفى المأمون سنة ٢١٨هـ أناب عبد الله ابن عباس عنه فى اليمن وعاد إلى العراق، وقد استقر نائبه عباد بن عمر الشهابى فى نيابته، حتى جعل الخليفة المعتصم اليمن فى ولاية عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى، وأناب عنه فى اليمن عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى جد آل يعفر- الذين استقلوا بالحكم فى نجد اليمن بصنعاء وأعمالها وحضرموت وأسسوا أول إمارة... يمنية مستقلة[١].

وفى عام ٢٢٥هـ نقل الخليفة المعتصم ولاية اليمن إلى مولاه جعفر بن دينار وأناب عنه منصور بن عبد الرحمن التنوخى، وعند وصوله إلى اليمن، وصل فى أثره عبد الله عيسى بن ماهان، واشترك معه فى الولاية، ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى أسند المعتصم ولاية اليمن إلى مولى له يسمى إيتاخ التركى، وهذا الوالى[٢] أقر منصور التنوخى، وعبد الله ابن ماهان على نيابتهما، وما زال الأمر كذلك حتى وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ وولى الحكم بعده الواثق، وقد أقر الواثق إيتاخ على ولايته فى اليمن، وأقر أبا العلاء أحمد بن العلاء العامرى نائبا عنه، وما أن وصل أبو العلاء إلى صعدة فى طريقه إلى صنعاء حتى كان الأمير يعفر بن عبد الرحيم الحوالى قد جهز جيشا بقيادة مولاه طريف بن ثابت نحو صنعاء بغية الاستيلاء عليها، قبل وصول العامرى إليها، ولكن النائب منصور التنوخى وحامية صنعاء، صمدوا فى وجه جيش الأمير يعفر، وصدوه عن دخول صنعاء فى حين وصل العامرى إلى صنعاء، وأقام فيها واليا عليها باسم الواثق حتى توفى وخلفه أخوه عمر بن العلاء[٣].

---

(٧) بهجة الزمن ورقة ١٠

(١) بهجة الزمن.

(٢) تاريخ اليعقوبى: جـ٢ص ١٠٤.

(٣) الخزرجى : الكفاية ص ١٠٤.

ولما علم الخليفة الواثق بحركة الأمير يعفر الحوالى الاستقلالية جعل اليمن فى ولاية مولاه جعفر بن دينار، وأمره بالميسر إلى اليمن ومنازلة آل يعفر، واشتبك الوالى العباسى مع يعفر الحوالى، ولكنه لما أدرك قوة آل يعفر، وضعف مركز العباسيين فى اليمن تصالح مع الأمير يعفر واستقل يعفر ببعض بلاد كوكبان.

أما جعفر بن دينار فإنه أقام فى صنعاء ولم يحاول محاربة آل يعفر بعد ذلك[1].

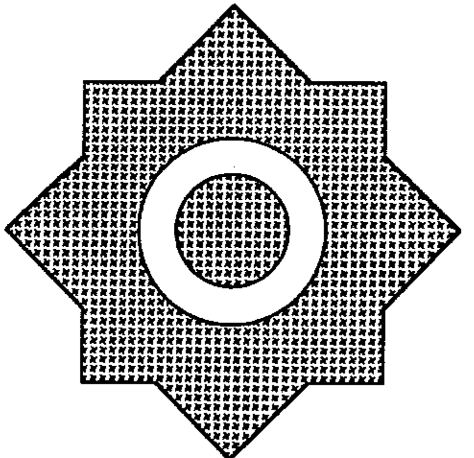
ولما توفى الواثق سنة ٢٣٢هـ وخلفه المتوكل العباسى، أقر جعفر بن دينار على ولايته على صنعاء، ولم يستتب الأمر له، لقوة جانب آل يعفر، ولنقضهم الصلح الذى عقده معهم جعفر بن دينار، وانتهى الأمر باستيلاء الأمير جعفر على صنعاء نفسها، وتوطد مركز آل يعفر فى اليمن بعد مقتل الخليفة العباسى المتوكل سنة ٢٤٧هـ[2].

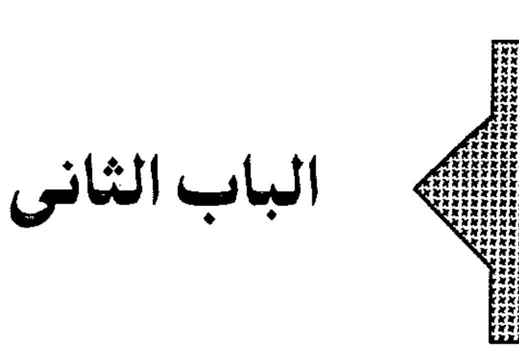
والخلاصة أن مركز العباسيين فى اليمن كان قد ضعف منذ عهد المتوكل العباسى وأن نفوذ آل يعفر بنجد اليمن قوى منذ ذلك الحين، وأن الأمير محمد بن يعفر أصبح أميراً معترفاً به لدى الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المعتمد الذى خلف المهتدى.

---

(١) الخزرجى : الكفاية والإعلام ص ١٠٦

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص١٣.





الباب الثانى

الدول الإسلامية المستقلة
فى اليمن



الدول الإسلامية
المستقلة فى اليمن

لم تستقر بلاد اليمن سياسيا فى وضعها كولاية تابعة للخلافة الأموية أو الخلافة العباسية، وتدهورت البلاد واضطربت، وكثرت فيها القلاقل والاضطرابات، ولم تعن دولة الخلافة بالمواطن اليمنى والعمل على تحسين أحواله المعيشية، واقتصرت صلته به على مطالبته بأداء الضرائب المقررة عليه، بل اشتط ممثلو الدولة فى جمع الضرائب وزادوها، وبذلك ساءت أحوال المواطن اليمنى، فانضم اليمانية إلى الحركات المعارضة للخلافة، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة للتخلص مما يقاسونه من ظلم وبطش حكامهم، ولكن هذه الحركات المعارضة لم تستهدف إلا كسب مصالح ومنافع شخصية، والمواطن اليمنى، وسيلة لتحقيق مطامع زعماء هذه الحركات وهو وقودها. وفى خضم هذه الفوضى عاد الصراع القبلى إلى ما كان عليه قبل الإسلام، إذ فقد المواطن اليمنى عنصر الاستقرار الذى هو الأساس لحياة الناس الآمنة المطمئنة، وبدلا من أن يعمل الناس على تحسين أحوالهم المعيشية أهملوا الزراعة والتجارة وسبل العيش، وانحرفوا فى تيار الصراعات والحروب.

وتنفست بلاد اليمن الصعداء إلى حين منذ أن قامت فيها الدول المستقلة... واستطاعت معظم هذه الدول أن تكفل لليمن الاستقرار والحرية والرخاء، ومن هذه الدول دولة بنى زياد والدولة الصليحية ودول بنى رسول.

وبعض هذه الدول أظهر الولاء للخلافة العباسية كدولة بنى زياد ودولة بنى يعفر ودولة بنى نجاح، وبعضها استقل تماما عن الخلافة العباسية، كدولة الأئمة الزيدية، وأظهرت الولاء للإمام الزيدى فى صعدة. وبعضها أظهر الولاء للإمام الفاطمى فى المغرب ثم القاهرة.

بعض هذه الدول أتى بمذهب جديد إلى اليمن كالمذهب الزيدى والمذهب الإسماعيلى، وبعض هذه الدول اهتم بأحوال المواطنين، وبعضها دخل فى صراع مرير مع القوى المنافسة لها فى اليمن كدولة بنى يعفر.

وعلى ذلك فقد ضعف النفوذ العباسى فى اليمن ولم يعد يظهر الولاء والطاعة الاسمية للخلافة العباسية إلا دولة أو أكثر تحكم إقليما أو أكثر من اليمن، أما باقى اليمن ففيه دولة الزيدية أول دولة إسماعيلية مستقلة عن الخلافة.

على كل حال تحسنت أحوال بلاد اليمن فى ظل حكم بعض الدول المستقلة وساءت أحوالها فى ظل دول أخرى كدولة بنى مهدى.

دولة بنى زياد
(٢٠٥-٤٠٣ هـ)

تولى محمد بن زياد اليمـن فى وقت واجه فيه البيت العباسى انقساماً بين أفراده، ذلك أن الفضل بن سهل- وزير الدولة العباسية- عزل الخليفة المأمون فى قصره بمرو بخراسان، ووقع تحت تأثيره، حتى أنه بايع لعلى الرضا بن موسى الكاظم بولاية العهد؛ وبذلك اتخذ سياسة جديدة فى الدولة العباسية، تهدف إلى نقل الخلافة إلى العلويين، وعارض أمراء البيت العباسى فى بغداد سياسة المأمون، بل أعلنوا عزله، وولوا إبراهيم بن المهدى الخلافة، ولقبوه المبارك سنة ٢٠٢هـ، ووافق ذلك ورود كتاب عامل اليمن بخروج الأشاعر وعك[١] عن الطاعة، فأشار الوزير العباسى- للفضل بن سهل- على المأمون بتولية محمد بن زياد اليمن[٢]. وابن هشام وزيراً والتغلبى قاضيا «لأنهم من أعيان الرجال وأفراد الكفاة[٣]».

لما تقلد محمد بن زياد منصبه، سار أولا إلى بغداد، وانضم إلى الجيش الذى سار على رأسه الخليفة المأمون لاستعادة بغداد، وطرد إبراهيم بن المهدى منها[٤].

---

(١) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ٢٩

(٢) قدم وفد من بنى زياد على رأسه محمد بن زياد إلى الخليفة المأمون، وقدم معهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، ومن ولد هذا الرجل الوزير خلف بن طاهر- وزير الأمير جياش بن نجاح - فقال له المأمون: أما الأمويان فيقتلان- يقصد محمد بن زياد وسليمان بن هشام. وأما التغلبى فيعفى عنه رعاية لاسمه واسم أبيه. فقال ابن زياد: ماكذب الناس يا أمير المومنين، إنهم يزعمون انك حليم كثير العفو، متورع عن سفك الدماء بغير حق. فإن كنت تقتلنا على ذنوبنا، فإنا لم نخرج عن الطاعة ولم تفارق فى بيعتك رأى الجماعة، وإن كنت تقتلنا من جنايات بنى أمية فيكم،فالله تعالى يقول: « ولا تزر وازرة وزر أخرى» فاستحسن المأمون كلامه وعفا عنهم جميعا، وكانوا أكثر من مائة رجل يسكنون وادى زبيد (عمارة اليمنى: المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ص٤١).

(٣) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ص ٢١٦

(٤) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة ١٠.

توجه ابن زياد إلى اليمن عقب ذلك، ولكن أهل تهامة رفضوا الخضوع له، ونزعوا إلى الاستقلال عن بني العباس، وحكم أنفسهم بأنفسهم «وبعد حروب طويلة بين الوالى العباسى وأهل تهامة، خضع التهاميون للخلافة العباسية، ولابن زياد الوالى العباسى»[1].

اختط ابن زياد مدينة زبيد سنة ٢٠٤هـ، واتخذها عاصمة لولايته- وزبيد مدورة الشكل، حسنة الموقع، على النصف فيما بين البحر والجبل. ومن جنوبها واديها المسمى زبيد، ومن شمالها وادى رمع، وزبيد تقع بين واديين، ومن شرقيها على مسافة نصف يوم «الجبال الشامخة والحصون الباذخة والمعاقل المنيعة والمساكن الرفيعة»[2] ومن غربها غير بعيد «البحر الزاخر.. والنخيل البواسق وهى واسعة البساتين كثيرة الخيرات والفواكه وتعطيها الأشجار المتنوعة منظراً جميلاً، وبها عين جارية غزيرة المياه، تأتى من شرقيها فى مجرى تحت الأرض حتى يصل إلى المدينة، ثم تظهر فتسقى الزروع والبساتين سواء فى داخل المدينة أو خارجها. لذلك تتوافر المياه عند أهل المدينة[3]، وأدار عليها الحسين بن سلامة -الآتى ذكره- سوراً، وشيد الوزير النجاحى من الله الفاتكى فى أوائل القرن السادس سوراً آخر، وأقام بنو مهدى فى سنة ٥٨٩هـ حول زبيد سوراً رابعاً، وأقام على السور أربعة أبواب، أحدها ينفذ إلى المشرق، إلى قرية الشباق فى وادى زبيد، ثم إلى حصن قوارير وغيره. والثانى إلى الشام وهو المسمى باب سهام، ينفذ إلى وادى رمع وسهام، وهو وجه المدينة وغرتها، والثالث إلى المغرب، وهو المسمى باب النخيل، وكان من قبل يسمى باب غلافقة، ينفذ إلى غلافقة[4] وإلى الأهواب. والرابع إلى اليمن، وهو المسمى باب القرتب إلى وادى زبيد ثم قرية القرتب. وكان بناء سور زبيد باللبن والطين، وأبوابه وشرفاته بالآجر[5].

سيطر ابن زياد على اليمن من مقره زبيد، وأمده الخليفة العباسى بجند من خراسان، فقوى أمره بهم، وعظم بأسه، وامتد نفوذه إلى سائر بلاد اليمن، فملك الجبال والتهائم، وعهد إلى مولاه جعفر بحكم هذه الجبال واختط جعفر مدينة بها يقال لها المذيخرة،

(١) الشيبانى : قرة العيون ص ١٤٧.

(٢) تاريخ ابن المجاور ص ٢٢.

(٣) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ١٢٠.

(٤) قرية مشهورة كانت بندر مدينة زبيد على ساحل البحر وانتقل البندر إلى قرية الأهواب، ويسمى اليوم البقعة.

(٥) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ١٢٠-١٢١

بمخلاف ربعة الأشاعر[1]، ذات أنهار وأشجار، أرضها واسعة فسيحة، وسميت هذه البلاد بمخلاف جعفر، نسبة إليه[2].

قويت دولة بنى زياد بفضل جهود جعفر، وامتدت إلى حضرموت وديار كندة والشحر ومرباط وأبين ولحج[3] وعدن والتهائم إلى حلى وملك من الجبال الجند وأعمالها ومخلاف المعافر ومخلاف جعفر وصنعاء وصعدة ونجران وبيجان[4].

ظل أمراء اليمن من بنى زياد طوال سنى حكمهم موالين للخلافة العباسية من الناحية الاسمية، ويحكمون البلاد باسم الخليفة العباسى ويظهرون ولاءهم وطاعتهم له، فيذكرون اسم الخليفة فى الخطبة، وينقشونه على السكة[5].

ظل ابن زياد مرهوب الجانب قوياً فى بلاد اليمن إلى وفاته سنة ٢٤٥هـ وخلفه ابنه إبراهيم بن محمد، وقد ورث عن أبيه مملكة قوية موطدة الدعائم، فحافظ عليها، وضبط أمورها. وحكم البلاد خمساً وثلاثين عاماً. على أننا لا نعثر فى كتب التاريخ عن تفاصيل تاريخ حكمه. إذ يلزم المؤرخون الصمت حول تاريخ حكم هذا الرجل. ولكننا مع ذلك عثرنا على إشارات حول تاريخ حكمه متناثرة فى كتب التاريخ، توضح لنا ونستنتج منها أنه حافظ على مملكة أبيه وحكم البلاد حكماً عادلا مستقرا[6].

ولما توفى إبراهيم بن محمد سنة ٢٨٠هـ، خلفه ابنه زياد، ثم خلف زيادا أخوه إسحاق بن إبراهيم – الملقب بأبى الجيش– وطالت ولايته حتى بلغت ثمانين عاماً، وامتد نفوذه خلالها على اليمن وسائر حضرموت وجزر البحر[7].

وضعفت الخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة الواثق سنة ٢٣٢هـ بسبب تدخل الترك فى شئون الحكم، واستئثارهم بالسلطة والنفوذ دون الخليفة العباسى، وذهب الخليفة المتوكل ضحية مؤامرة دبرها ضده ابنه المنتصر والأتراك فى سامرا، وخلفه المستعين الذى حاول

(١) عمارة: المفيد ص ٤٧.

(٢) جعفر: مخلاف جعفر مدنه أب والمدينة والمذيخرة وجبلة ذى ستال.

(٣) عمارة : المفيد ص ٤٨

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص٤١.

(٥) عمارة : المفيدص ٣٧.

(٦) عماره: تاريخ اليمن ص٣٩–٤٠

(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٨٩.

استعادة نفوذ الخلافة. ولكن الترك لم يمكنوه، بل عرقلوا حكمه، وتدخلوا فى شئون السياسة والحكم، فغادر سامرا، واستقر به المقام فى بغداد. ولم تجد محاولة الترك إعادة الخليفة إلى سامرا، فبايع الترك المعتز خليفة. وبذلك أصبح فى الدولة العباسية خليفتان، خليفة يقيم فى بغداد،وخليفة يحكم فى سامرا، فانتهز أبو الجيش إسحاق الزيادى فرصة ضعف الخلافة العباسية، وانقسام البيت العباسى، وعول على الاستقلال بملك اليمن عن الخلافة العباسية، وتشبه بالملوك، وركب المظلة، وظهر بمظهر الحاكم المستقل. ولم يعد يظهر الولاء والطاعة للخلافة العباسية الغارقة فى الصراعات والمنازعات إلا فى الأمور الاسمية كإقامة اسم الخليفة فى الخطبة، ونقشه على السكة[1].

تنازعت القوى المختلفة الحكم والسيطرة على بلاد اليمن، فبينما كان يحكم الزياديون تهامة، قامت فى بلاد اليمن وفى صعدة بالذات دولة الأئمة الزيدية، وانتشر الدعاة الإسماعيليون فى اليمن، وسيطر ابن حوشب وعلى بن الفضل على بعض بلدان اليمن، كما أن بنى جعفر الحواليين أقاموا دولة فى صنعاء. وكان من الطبيعى ومن المنتظر أيضا أن تتعرض الدولة الزيادية للأخطار الجسام والهجمات المتتالية من هذه القوى، ففى سنة ٢٩٢هـ قصد على بن الفضل المذيخرة[2] واستولى عليها، وانتزع لنفسه حصن التعكر[3]، فلجأ الوالى الزيادى إلى تهامة، وطلب من الأمير الزيادى تقديم العون العسكرى لاسترداد بلاده التى اغتصبها ابن الفضل[4].

لم يتغاض الأمير الزيادى عن انتزاع أراضيه، ورأى أن ابن الفضل أصبح خطراً يهدد ملكه وسيادته على أراضيه، فسير جيشا بقيادة جعفر المناخى لإبعاد ابن الفضل عن بلاده، واشتبك جعفر المناخى مع ابن الفضل فى عدة معارك، قتل فيها جعفر المناخى، وهزم جنده. وبذلك استطاع ابن الفضل أن يجنى ثمرة انتصاره، ويستولى على بعض بلدان الدولة الزيادية، بل اتخذ المذيخرة– وهى من ملك آل زياد – حاضرة لدولته[5].

(١) الوصابى: الاعتبار فى التاريخ والآثارص ٢٥

(٢) المذيخرة : قلعة حصينة فى رأس جبل صبر وهى من أعمال صنعاء

(٣) التعكر : قلعة حصينة من مخلاف جعفر تطل على مدينة ذى جبلة

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ١٩٨.

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ١٩٨.

قوى أمر ابن الفضل واشتد بأسه وعظم أمره فى اليمن بعد أن ضم صنعاء وغيرها من بلدان اليمن إلى حوزته، وتطلع إلى السيطرة الكاملة على بلدان الدولة الزيادية، حتى يتمكن من توحيد بلاد اليمن تحت رايته، فسار إلى تهامة على رأس جيش كبير، وعاث جنده فى البلاد التى مروا بها نهبا وفسادا، وفى طريقه استولى على الكدراء[1]، وزحف إلى زبيد سنة ٢٩٣هـ فرأى صاحبها أن لاقبل له بعلى بن الفضل، ففرمنها، وهنا أتيحت الفرصة لعلى ابن الفضل بدخول زبيد واستولى عليها، ونكل بأهلها، ويقال أنه سبى من أهلها أربعة آلاف عذراء وأمر بقتلهن، ولكننا لا نصدق كل ما كتب عن على بن الفضل لأن أخباره وردت إلينا من أعدائه الإسماعيليين والسنيين على السواء. ومهما يكن من أمر فقد أقر ابن الفضل الأمور فى زبيد وعاد إلى المذيخرة، ظنا منه أنه قهر ابن زياد الذى يهدد ملكه وسلطانه فى اليمن. ولكن الأمير الزيادى لم يتغاض عن انتزاع ملكه على يد ابن الفضل، فأعد العدة فى المهجم[2] لاسترداد ملكه السليب، ولكن ابن الفضل حال بينه وبين استرداد عاصمة ملكه- زبيد - بل ألحق ويلاته بأهلها الذين ناصروا أميرهم الزيادى، وانضموا إليه فى مطاردة قوات ابن الفضل، وقتل الرجال وسبى النساء، وعاد إلى المذيخرة ظافراً منتصرا[3].

هذه الهزائم المتكررة التى منى بها الأمير الزيادى لم تفت فى عضده بل زادته تصميما على استعادة ملكه، فهاجم زبيدا مرة أخرى، وطرد منها عامل ابن الفضل واستردها[4]، فلما رأى على بن الفضل عدم جدوى مهاجمة زبيد، وإصرار أميرها وأهلها على مطاردة جنده، أعرض عن فكرة الاستيلاء على زبيد.

قوى أمر الدولة الزيادية باستردادها زبيد، ولكن بعض بلادها مثل المذيخرة ما زالت فى أيدى ابن الفضل، فرأى الأمير الزيادى ضرورة استرداد أراضيه المغتصبة، فأرسل قائده ملاحظ على رأس جيش إلى المذيخرة سنة ٣٠١هـ، وشن الغارة عليها. وعاث هو وجنده نهباً فيها، لكنه لم يستطع استردادها[5].

(١) الكدراء: مدينة فى وادى سهام.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ٢٠١

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ص٢٢٣.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٢٠٥.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الدولة الزيادية أكبر قوة فى بلاد اليمن تستطيع التصدى للقوة المختلفة فيها، مثل الإسماعيلية والزيدية حتى أن أمراء بني يعفر في صنعاء، التمسوا الحماية من الأمير الزيادى، وارتموا فى أحضانه، وأظهروا التبعية له، وأقاموا له الخطبة على منابر صنعاء[١].

ولكن الأمير اليعفرى عبد الله بن قحطان خالف أسلافه من أمراء بنى يعفر، وخرج على طاعة ابن زياد، بل اعتنق المذهب الإسماعيلى وهاجم زبيد سنة ٣٧٩هـ، وهزم صاحبها، ونكل بأهلها، واستولى عليها، ولم يكتف بذلك، بل هاجم مخلاف جعفر وهزم الوالى الزيادى، واستولى على المخلاف، ولكن غزوات هذا الأمير اتخذت طابع الحرب الخاطفة والسلب والنهب، فسرعان ما انسحب من زبيد ومن مخلاف جعفر خوفا مما قد يتعرض له من هجمات الأمير الزيادى[٢].

طالت أيام الأمير الزيادى أبى الجيش إسحاق حتى بلغت ثمانين عاما، وفى أواخر حكمه فقد سيطرته على أرجاء دولته في اليمن[٣]، فسيطر على صعدة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين الرسى– كما سنرى– واستقل أسعد بن يعفرالحوالى بصنعاء، وتغلب على ما يسمى المخلاف السليمانى، سليمان طرف – صاحب عثر[٤]، وإن أظهر الطاعة لبنى زياد من الناحية الاسمية فقط، فأبقى على اسم الأمير الزيادى فى الخطبة، ونقش اسمه على السكة. ويحمل إليه فى كل سنة مبلغاً من المال، ولم تزل البلاد تستقل عن الدولة الزيادية حتى بلغ الأمير الشيخ من العمر أرذله،ولم يبق من ملكه إلا أرضا تمتد من الشرجة[٥] إلى عدن[٦].

وتوفى الأمير أبو الجيش إسحاق سنة ٣٧١هـ، وخلفه فى الحكم طفل يسمى زياد أو عبد الله، وكانت الوصية عليه عمته هند – أخت الأمير أبى الجيش إسحاق[٧]– وتولى وزارة

(١) المصدر السابق ٢٠٢.

(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأمانى ٢٢٧

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد فى تاريخ زبيد ص٤٠.

(٤) عثر فى منطقة تهامه الشمالية.

(٥) الشرجة : موضع فى أوائل اليمن.

(٦) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص٣٩–٤٠

(٧) المصدر السابق.

الدولة رشيد الحبشى[1]- وهو من موالى أبى الجيش- ومنذ ذلك الوقت استأثر موالى بنى زياد الأحباش بالسلطة والنفوذ فى الدولة منتهزين فرصة تولى الإمارة أطفال ضعاف، وخلف رشيد فى وزارة الدولة مولاه الحسين بن سلامة، وقد أنقذ الدولة الزيادية من حالة الضعف التى تردت فيها، ومن التدهور الذى حل بها، ومن الانحلال الذى انحدرت إليه، فقد انفصلت معظم أقاليم الدولة عنها، وتغلب القادة والزعماء على النواحى والحصون[2].

عول الحسين بن سلامة على استعادة سيطرة ونفوذ الدولة الزيادية على كافة أراضيها، وإخضاع القاده الذين انتزعوا بعض بلدان الزياديين، فحارب الحسين بن سلامة أهل الجبال حتى دانت له بالولاء والطاعة، واستعاد الأراضى المغتصبة من دولته، فعادت الدولة الزيادية إلى ما كانت عليه من القوة والاتساع، واختط مدينة الكدراء[3] على وادى سهام، واختلط مدينة المعفر على وادى زوال[4].

ظل الحسين بن سلامة يحكم البلاد بالعدل والحزم ثلاثين سنة أفاقت فيها الدولة الزيادية من ضعفها، واعتبرت هذه السنوات بمثابة صحوة الموت بالنسبة لهذه الدولة[5] وللحسين بن سلامة الكثير من الإصلاحات فى بلاده، فأنشأ الجوامع الكبار والمنارات الطوال، من حضرموت إلى مكة، وحفر الآبار، ومهد الطرق، وعلى طول هذه الطرق شيد الجوامع والمآذن والآبار، وجدد جامع عدن الذى شيده عمر بن عبد العزيز، ومهد الطريق التجارى من عدن إلى مكة، ويتفرع منه طريق يصعد إلى الجبال، وطريق يسلك تهامة. فأما طريق تهامة ففيه جامع الجوه[6]، عمره الحسين بن سلامة، وجدد جامع الجند، وشيد الكثير من المساجد فى أب وذى أشرف[7] وذمار والنفيل[8] وصنعاء. ومن صعدة إلى الطائف، شيد المساجد والآبار[9].

---

(١) الوصابى: الاعتبار فى التواريخ والآثار ص٢٧

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ورقة ٢٨.

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص٤١.

(٤) الوصابى: الاعتبار فى التواريخ والآثار.

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص٤١.

(٦) الجوه إحدى المدن القريبة من عدن.

(٧) ذو أشرف : قلعة حصينة تطل على وادى زبيد.

(٨) النفيل جبل عظيم بين مخلاف جعفر وحقل ذمار.

(٩) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٢٥

وخلف الحسين بن سلامة عبد له حبشي يسمى مرجان، ولى أمر الوزارة فى البلاد، وكان له عبدان حبشيان، رباهما فى الصغر، وولاهما الأمور فى الكبر، أحدهما يسمى نفيس، وهو الذى تولى إدارة الدولة كنائب لسيده مرجان والعبد الثانى يدعى نجاح، وكان يتولى أعمال الكدراء والمهجم ومور والواديين[1].

اشتد التنافس بين نجاح ونفيس، وكان نفيس ظالما غاشما، ونجاح رءوفا بالناس عادلا، يلتف حوله الناس ويناصرونه. إذ أن مرجان– سيد نفيس ونجاح – كان يميل إلى نفيس أكثر من نجاح، وعلم نفيس أن هند– الوصية على الأمير الزيادى– تميل إلى نجاح أكثر من نفيس[2] وتكاتبه. فخشى نفيس أن يتآمر عليه نجاح وهند ويتخلصا منه، فقبض على هند والأمير الزيادى ونكل بهما كما نكل بباقى أفراد الأسرة الزيادية. وبذلك زالت الدولة الزيادية سنة ٤٠٢هـ بعد أن حكمت زبيد وتهامة قرنين من الزمان إلا قليلا.

لايزال تاريخ دولة بني زياد في اليمن غامضا كل الغموض، وينقصه المصادر التي تتناول تفاصيل الحياة السياسية ومظاهر الحضارة لهذه الدولة، ذلك أن دولة بنى زياد لم يكن لها مؤرخ يكتب عنها، كما هو الحال بالنسبة لدولة بنى نجاح التى كتب عنها أحد ملوكها، جياش بن نجاح، أو الدولة الصليحية التى كتب عنها عمارة، والمؤرخ السنى المعاصر الحمادى اليمانى، أو دولة الأئمة الزيدية فى اليمن، التى كتب عنها مؤرخون عاصروا أحداثها مثل على بن محمد العباسى الذى كتب عن سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين، أو الدولة الأيوبية فى اليمن التى حظيت بكتاب معاصرين سواء فى داخل اليمن أو خارجه كتبوا عنها.

أما الدولة الزيادية فأخبارها قليلة ومتناثرة فى بطون الكتب، ونعثر على بعضها خلال الحديث عن الأئمة الزيدية أو على بن الفضل. وعلى الرغم من كل هذا الغموض نستطيع أن نقول أن دولة بنى زياد قد حكمت إقليما يمنيا، وليس اليمن كله. وكفل حكمها لهذا الإقليم الاستقرار والرخاء إلى حد كبير، ودافعت عن هذا الإقليم ضد أطماع الطامعين مثل على بن الفضل أو بعض الأئمة الزيدية أو بعض أمراء بنى يعفر. وقامت بالمحافظة على توازن القوى باليمن. ففى أيامها لم تتغلب إحدى القوى التى تحدثنا عنها قبلا على كل بلاد اليمن، إنما اقتصر نفوذ كل قوة على إقليم محدود. وكل من هذه القوى لم تستطع النيل

(١) عمارة: المفيد ص٨٤.

(٢)

من دولة بنى زياد، بل إن الأمراء الزياديين تحالفوا مع بعض هذه القوى لوقف طغيان القوى التى يزداد جموحها وطمعها.

وإذا كانت الدولة الزيادية- فى اعتقادنا- قد حافظت على التوازن السياسى فى اليمن، فقد قامت بحماية السنة فى اليمن، ووقفت كالحصن الحصين والملاذ الأمين تحمى السنة من الإسماعيلية وتتصدى لها، وتعارض المذهب الزيدى، ومن هنا ازدهرت مذاهب السنة - وخصوصا المذهب الشافعى- فى زبيد، ووجد السنيون فى مسجد زبيد خير مدرسة يتعلمون فيها أصول مذهبهم، كما وجدوا فى علماء زبيد وشيوخها وفقهائها خير مدافع عن عقائدهم، وخير من يستطيع دحض آراء الإسماعيلية، ومعارضة آراء الزيدية.

وفى المجال الاقتصادى ازدهرت الدولة الزيادية بدليل أن ميزانيتها سنة ٣٦٦هـ بلغت إيراداتها ألف ألف دينار غير الضرائب المقررة على التجارة القادمة على السفن من الهند وغيرها من البلاد[١].



(١) عمارة: المفيد ص٦٧

دولة بنى يعفُر

ارتفع شأن آل يعفر الحواليين فى اليمن منذ بداية العصر العباسى الثانى، وتقلدوا مناصب الحكم والإدارة في اليمن من قبل الخلفاء العباسيين، ونمى إلى علم الخلافة العباسية مدى ما تتمتع به هذه الأسرة من سلطة ونفوذ، ورغب الخلفاء أن يولوا واحداً من أهل اليمن أمر بلاده، حتى يستطيع حل مشاكلها، وتفهم احتياجاتها الأمر الذى يضمن ولاء اليمن للخلافة العباسية، ولذلك عهد الخليفة العباسى المعتمد للأمير محمد بن يعفر بن عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى سنة ٢٥٧هـ بحكم صنعاء ومخاليفها، واكتسب حكم هذا الأمير لليمن الصفة الشرعية، بعد أن أرسل إليه الخليفة العقد[١] والخلع الأمر الذى أدى إلى تقوية نفوذه.

حكم الأمير محمد بن يعفر صنعاء والجند وحضرموت، وأقام الخطبة فيها للخليفة العباسى، وللأمير الزيادى فى زبيد، وقد أظهر ولاءه لابن زياد، لأنه رأى أنه لاقبل له به، بل كان يحمل إليه الخراج، ويظهر أنه نائبه[٢].

خلف إبراهيم بن محمد بن يعفر أباه سنة ٢٦٢هـ فى حكم صنعاء، ولكن عاد الاضطراب إلى دولته، وكثرت فيها الفتن والثورات، وثار عليه الفضل بن يعيش المرادى بالجوف، ومولاه طريف بن ثابت بحب[٣] ورعين وغيرها وإبراهيم بن عبد الله الدعام فى أرحب[٤]، وحاول إبراهيم عبثاً إخضاع الثورات والقضاء على حركة التمرد ضد حكمه، الأمر الذى مكن الثوار من اقتطاع بعض أجزاء دولته، فامتد نفوذ الدعام حتى صنعاء نفسها، بعد أن انضم إليه والى قبيلته أرحب، وكل من بكيل وحاشد، وقد تمكن الدعام من إثارة أهل صعدة على الأمير إبراهيم، ودخل صنعاء واستولى عليها.

ومن العوامل التى أثارت الأهلين على الأمير اليعفرى أنه خالف سيرة أبيه فى العدل والإحسان إلى الناس، فسفك الدماء، وانتهك الأرواح «وارتكب الفواحش والذنوب وأقدم

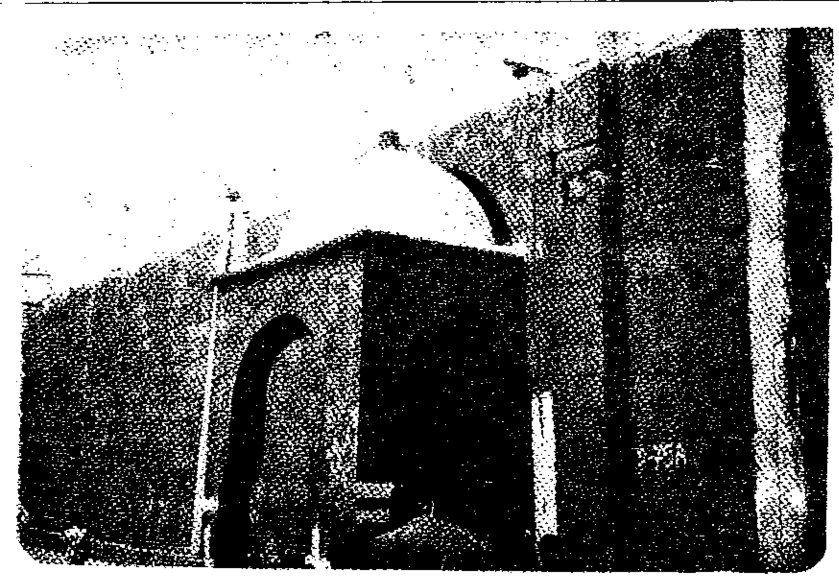
(١) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص١٠٩.

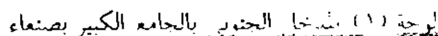
(٢) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص١١٧.

(٣) حب: من آثار حميد وبها آثار الحميريين.

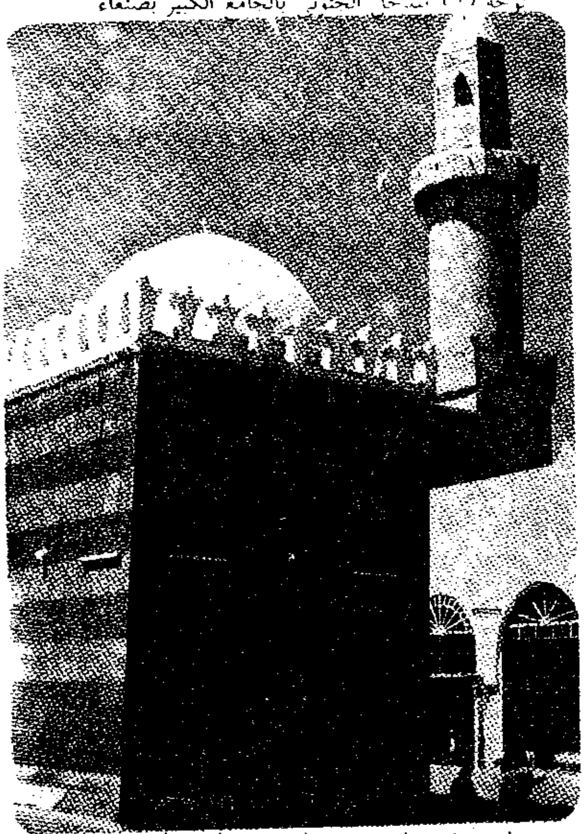
(٤) أرحب : قبيلة تقيم فى الأراضى بين همدان وبكيل.







لوحة (١) المدخل الجنوبي بالجامع الكبير بصنعاء



لوحة (٢) القبة وسط الصحن والمئذنة الغربية

على المنكرات، وساءت أحوال الناس في أيامه، فقد دمر صنعاء في عهده سيل عظيم، أخرب الدور، وأهلك الحرث والنسل[1]، وارتكب خطأ جسيما حينما أقدم على قتل ولديه محمد وأحمد بمنجد شبام بأمر من جده يعفر[2].

اعتزل الأمير إبراهيم الحكم سنة ٢٦٢هـ بعد أن عجز عن ضبط الأمور في دولته وسياسة الرعية بالعدل والإنصاف، فأرسل الخليفة العباسي إلى ابنه يعفر تقليداً بحكم دولة أبيه، واتخذ الأمير الجديد مدينة شبام كوكبان[3] مركزا رئيسيا له[4]، لأن صنعاء غير موالية تماما لبني يعفر.

ثارت صنعاء على حكم آل يعفر، فاجتمع أهلها،واحتشدوا، وطاردوا بني يعفر من صنعاء، ونهبوا دار الأمير يعفر وأحرقوها، ولم تكن صنعاء فقط هي التي انتقضت على الأمير يعفر، بل ثارت عليه شبام، وقتله أهلها[5] سنة ٢٨٣هـ فخلفه ابن عمه عبد القاهر بن أحمد بن يعفر[6].

لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة الأيدي إزاء اضطراب آل يعفر وعجزهم عن السيطرة على ولايتهم، وكانت القلاقل التي في صنعاء بالذات شغل الخلافة العباسية، إذ يتنازعها آل يعفر والدعام، فعهد الخليفة العباسي إلى علي ابن الحسين المعروف بجفتم بولاية صنعاء سنة ٢٧٠هـ، ولما قدم إلى صنعاء، حاول الدعام صده عنها، حتى يحتفظ بسيطرته عليها، ولكن جفتم هزمه ودخل صنعاء وحكمها نيابة عن الخليفة العباسي[7]؛ وبذلك فقد آل يعفر ملكهم.

حرص جفتم على حفظ الأمن والنظام في دولته، وإعادة البلاد إلى الهدوء والطاعة، فكان لاينام الليل، بل يقضي وقته ساهراً ومفاتيح أبواب الدروب بين يديه والعسس تختلف إليه، تخبره بحالة الأمن في المدينة، وكل من له حاجة يفد إليه وينظر فيها ويقضيها له،

(١) الخزرجي: الكفاية والإعلام ص١١٢

(٢) الهمداني: الإكليل جـ٨ ص٢٨٢.

(٣) شبام كوكبان : جبل قرب صنعاء ويضاف إليه مدينة شبام مدينة حمير القديمة.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ورقة ١٣.

(٥) الخزرجي: الكفاية والإعلام ص١١٤.

(٦) الخزرجي: الكفاية والإعلام ص١١٤.

(٧) المصدر السابق ص٧١٦

وبعد صلاة الفجر يجلس للناس حتى الظهر[1]، لذلك فقد هدأت صنعاء فى عهده، وانتهت الفتن وزجهم فى سجون صنعاء وشبام[2]. وبذلك فقد آل يعفر ملكهم للمرة الثانية. على أن صنعاء اضطربت بعد عودة جفتم إلى العراق ودخلها الإمام. على أن أهل صنعاء لم يبقوا على ولائهم للإمام الهادى، بل ثاروا على حكمه وتطلعوا إلى العودة إلى حكم آل يعفر«فكسروا أبواب السجن فى صنعاء وأخرجوا منه آل يعفر، ومواليهم آل طريف[3]، فعاد الإمام إلى صنعاء لإخضاعهم، وإعادتها إلى حوزته، ودخل صنعاء، ولجأ آل يعفر إلى مقرهم الرئيسى، وتولى أمر شبام من جديد أسعد بن يعفر. ودارت الحرب بين الإمام وآل يعفر سجالا واضطربت البلاد من هذه الحروب التى لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، فساءت الأحوال الاقتصادية فى شبام وصنعاء من جراء هذه الحروب، وقاسى الناس آلام البؤس والحرمان من هؤلاء الطامعين فى بلادهم، وتعطلت الزراعة، وكسدت التجارة، وانقطعت الطرق واغتصب القادة المتحاربون أموال الناس[4].

رأى الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين عدم جدوى هذه الحروب فعاد إلى صعدة سنة ٢٨٩هـ. وبذلك مهد السبيل لآل يعفر بالعودة إلى صنعاء، وأناب أسعد بن يعفر على صنعاء مولاه إبراهيم بن خلف، وبقى هو فى شبام[5].

لما ولى الخليفة المكتفى الخلافة، أعاد جفتم إلى حكم صنعاء، الأمر الذى أثار ثائرة آل يعفر، لأن عودة جفتم تفقدهم ملكهم من جديد، واحتالوا على جفتم حتى قبضوا عليه[6]، وضموا جيشه إلى جيشهم، ولكنه استطاع الفرار من سجنه وعاد إلى صنعاء، وانضم إليه أنصاره بها[7]، ودار قتال مرير بين جفتم وأسعد بن يعفر، انتهى بهزيمة جفتم وقتله. وبذلك أمن الأمير أسعد بن يعفر فى ولايته.

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص١٤.
(٢) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص١١٨
(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص١٤
(٤) الخزرجى : الكفاية والإعلام ص١١٩.
(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص١٥.
(٦) يحيى بن الحسين غاية الأمانى ص١٩٦.
(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص١٩٩.

لكن صنعاء تعرضت لخطر داهم زاد أمورها اضطرابا، فقد غزاها على بن الفضل سنة ٢٩٣هـ، وهزم أسعد بن يعفر، واستباح ابن الفضل صنعاء قتلا وأسرا ونهبا «وهتكت المحارم وفعلت العظائم» وغادر صنعاء من استطاع الفرار بأهله وماله[١]. ولم يكتف ابن الفضل بالسيطرة على صنعاء، بل أرسل جنده إلى شبام، وطرد منها آل يعفر[٢]؛ وبذلك فقد آل يعفر ملكهم مرة أخرى.

استنجد أهل صنعاء بالإمام الهادى لينقذهم من الظلم وجور على بن الفضل.. فاستجاب الإمام لنداء أهل صنعاء، ووجه إليها على بن جعفر العلوى، والدعام بن إبراهيم، فلما اقترب القائدان من صنعاء، تجنب أنصار على بن الفضل الاشتباك معها، فغادروا صنعاء، ودخلها ثانية الإمام الزيدى، ولكن ابن الفضل لم يتغاض عن انتزاع صنعاء منه، فسار إليها على رأس جيش كثيف لاستردادها، ودخل صنعاء، ونكل بأهلها، واستباحها لجنده، وقتلوا كل من وجدوه فيها، ولبث أنصار ابن الفضل فى صنعاء ثلاث سنين يعيثون فى البلدة فساداً ونهباً وتخريبا، وساموا أهلها سوء العذاب والذل والشقاء[٣].

على أن أسعد بن يعفر لم يأل جهداً فى سبيل طرد على بن الفضل من بلاده، واستعاد ملكه السليب، فطارد أنصار ابن الفضل فى شبام وهزمهم وطردهم سنة ٢٩٧هـ وعادت شبام إلى حوزته، واستمرت الحروب بين ابن الفضل وأسعد بن يعفر حول السيطرة على صنعاء، وانتهت بعقد صلح بين الرجلين بمقتضاه قبل أسعد بن يعفر أن يحكم إمارته نيابة عن على بن الفضل، ويخلع طاعة بنى العباس، ويلبس البياض شعار الإسماعيلية بدلا من السواد شعار العباسيين[٤].

على أن ولاء أسعد بن يعفر لعلى بنى الفضل كان حيلة وخديعة منه، ليأمن جانبه، وليتقى شروره وآثامه، وهو سنى متمسك بسنيته، ويقال أنه المسئول عن المؤامرة التى راح ضحيتها ابن الفضل سنة ٣-٣٠هـ[٥] وهاجم على أثرها المذيخرة سنة ٣٠٤هـ- مقر ابن الفضل- وحاصرها وضيق على أهلها، ورماهم بالمنجنيقات، حتى اشتد الأمر على أهلها،

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص١٥.

(٢) الجندى: السلوك ص١١٤.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى: ص٢٠١

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢٠٢.

(٥) نشوان الحميرى : الحور العين ص ١٩٩

ونفدت المؤن والأقوات، وقاسى الناس ويلات الحصار، الأمر الذى يسر له دخولها قهرا بالسيف[1]، ولما دخلها نهب ما فيها من أموال ابن الفضل، وأسر كل من تعرض له، وسبى بنات على ابن الفضل الثلاث وأهدى إحداهن لابن أخيه قحطان، واستخلف على المذيخرة - بعد أن ضمها إلى حوزته- إبراهيم بن إسماعيل بن عباس، كما سيطر على مخلاف جعفر- الذى كان فى قبضة ابن الفضل، وهكذا آل ملك ابن الفضل إلى آل يعفر، واتسعت دولة آل يعفر، وأمنت من الأخطار الجسيمة التى تعرضت لها[2].

نسب أسعد بن يعفر إلى نفسه علنا مسئولية التخلص من ابن الفضل، بفخر شديد لأن بلاد اليمن كلها كانت تبغض على بن الفضل، وتنسب إليه خروجه عن الإسلام،... والتمادى فى الكفر والإلحاد والضلال، كما ذاق الكثير من اليمانية الظلم والجور من ابن الفضل وجنده[3]. وقد عبر أسعد بن يعفر عن شعور مواطنيه العدائى لابن الفضل، وتلقى اليمانية خبر مقتله بالسرور والغبطة، واطمأن الناس على دينهم وأرواحهم وأملاكهم. وقد قتل أسعد بن يعفر ولد ابن الفضل، وعدداً من أنصاره، وعاد يظهر ولاءه وطاعته للخليفة العباسى[4]، إذ هو سنى- كما قلت- متمسك بسنيته، وينبذ الأفكار التى تتعارض مع السنة، حقيقية أظهر ولاءه- من قبل- لابن الفضل، ولكنه فعل ذلك تجنبا لخطره، وحفاظا على ملكه. وفى نفس الوقت ترقب الفرص المناسبة للتخلص من عدوه.

قوى أمر آل يعفر بعد تخلصهم من ابن الفضل حتى أنهم تطلعوا إلى السيطرة على بلدان الدولة الزيدية فى اليمن بعد ضعفها على أثر موت الإمام الناصر، فقدم حسان بن عمار بن يعفر من نجران إلى صعدة ودخلها، وضمها إلى حوزة الإمارة اليعفرية[5].

ولكن قوة الإمارة اليعفرية لم تستمر طويلا، فقد اشتد ساعدها فى عهد الأمير أسعد ابن يعفر بفضل حنكته السياسية ومقدرته الحربية، ولما توفى سنة ٣٣١هـ أخذت الإمارة اليعفرية فى الضعف والتدهور، وطمع فى صنعاء الطامعون وسيطر عليها أحمد بن محمد

---

(١) الجندى : السلوك ١٤٧-١٤٨.

(٢) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص ٣٨.

(٣) الجندى : السلوك ١٤٩.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢٠٩

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢١٦.

الضحاك- صاحب ريده - وحكمها نيابة عن الإمام المختار بن ناصر[1]. وبذلك عادت صنعاء إلى حوزة الدولة الزيدية.

على أن آل يعفر لم يتغاضوا عن انتزاع صنعاء منهم، ففى سنة ٣٤٥هـ استولى على بن وردان- أحد موالي آل يعفر- على صنعاء، ولكن حكم آل يعفر لصنعاء لم يستمر طويلا، فلم يلبث أن عاد ابن الضحاك إلى صنعاء واستردها، وحكمها نيابة عن ابن زياد- صاحب زبيد-[2]، بعد أن خلع الإمام الزيدى.

اضطربت الأمور فى صنعاء؛ وتنازعها الأمراء، فحكمها تارة الأمير اليعفرى عبد الله بن قحطان، وتارة ابن الضحاك، وتارة الإمام.

لما توفى الأمير أسعد بن يعفر، خلفه الأمير عبد الله بن قحطان، واتخذ هذا الأمير سياسة مخالفة نحو الخلافة العباسية عن سياسة أسلافه، فتطلع إلى الاستقلال نهائيا عن الدولة العباسية حتى رفض مجرد الانتماء الشكلى للخلافة، وهو الانتماء الذى حرص عليه أسلافه، وكان هذا الأمير متقلبا فى سياسته، فبدأ عهده بإظهار ولائه للخلافة العباسية، ثم خلع طاعة بنى العباس بعد قليل، وحذف اسمهم من الخطبة وأظهر ولاءه نحو الخليفة الفاطمى فى عصر العزيز بن المعز، حتى يكتسب حكمه الصفة الشرعية، ويضمن دفاع الفاطميين عنه فى حالة تعرضه لبطش بنى العباس، وسرعان ما نقض ولاءه للخلافة الفاطمية، وأعلن ولاءه للإمام الزيدى القاسم بن على العيانى ولم يلبث أن خلع طاعة هذا الإمام. وبذلك اتسمت سياسة هذا الأمير بالتردد، وعدم الصمود فى انتمائه لمذهب معين.

وكان لهذا الأمير مطامع توسعية فى اليمن، فغزا زبيد سنة ٣٧٩هـ، ودخلها، لكنه لم يلبث أن غادرها إلى مخلاف جعفر، ودخل مدينة أب- عاصمة المخلاف- فى مستهل سنة ٣٨١هـ ثم استولى على هذا المخلاف، وانتزعه من بنى زياد لكن هذا الأمير لم يستمر مسيطراً على هذه البلاد، بل سرعان ما غادرها، عائداً إلى مقره فى كحلان[3]. وعلى هذا فإن غزوات هذا الأمير خاطفة وسريعة.

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص١٧.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٣٣

(٣) مخلاف كحلان- بينه وبين ذمار مسيرة ثمانية أيام.

الشيبانى: قرة العيون ص٢١٦.

واختلف المؤرخون فيمن خلف عبد الله بن قحطان، فذهب البعض إلى أن إمارته وملكه آل إلى الإمام القاسم[1] العياني، ويرى آخرون أن أسعد الثاني ولى الأمر من بعد أبيه، وحكم صنعاء فترة من الوقت، وتوفى سنة ٣٩٣هـ. وكان أحمد بن يعفر آخر أمراء هذه الأسرة.

قلنا أن صنعاء كانت مطمع الأمراء المتنازعين من آل الضحاك وآل يعفر والإمام الزيدى، وأحياناً تبقى بلا أمير يحكمها، فتعم الفوضى، ويشتد الاضطراب، وظل الأمر كذلك حتى حكمها أحمد بن قيس الضحاك سنة ٤٠٥هـ، ولكنه غادرها فى العام التالى وترك صنعاء بلا أمير، وأدى هذا الاضطراب الشديد فى صنعاء، وكثرة الفتن والدسائس فيها إلى تدهور مبانيها بسبب أعمال التخريب والعنف، حتى لم يبق فيها سوى ألف وأربعمائة دار.

حكم اليمن فى مستهل القرن الخامس الهجرى أمراء متنازعون، فالتهائم وجميع أعمال زبيد حكمها موالى بنى زياد، وعدن ولحج وأبين وحضرموت والشحر إلى بنى معن، وسمدان والدملوه[2] ونخر والتعكر إلى بنى الكرندى. وأما اليمن الأعلى فانقسم بين آل يعفر وآل الضحاك وبنى أبى الفتوح وأولاد الإمام الداعى يوسف بن يحيى وأولاد القاسم بن على العيانى، واستقرت صنعاء لعلى بن أبى حاشد بعد محاولات فاشلة من الإمام لاستردادها. ولما زحف الصليحى إلى صنعاء سنة ٤٠٠هـ، عول حاكمها ابن أبى حاشد على منعه عنها، فاشتبك ابن أبى حاشد مع الصليحى فى معركة حضور بالقرب من صنعاء، قتل فيها ابن أبى حاشد، ودخل الصليحى صنعاء.. وبدأ عهد جديد فى صنعاء، استقرت فيه المدينة، وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، وانتهى عهد الفتن والقلاقل وأمنت البلاد من أطماع الأمراء المتنازعين، وبدأت الأحوال الاقتصادية فى المدينة فى التحسن والازدهار.

(١) العرشى: بلوغ المرام : ص ٣٥.

(٢) أبين: مخلاف منه عدن، وقيل موضع فى جبل عدن.

(٣) الشحر : على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان.

(٤) ذخر : جبل بالمعافر.

دولة الأئمة الزيدية

فى صعدة

نشأة الزيدية

الشيعة حزب نشأ بعد وفاة عثمان بن عفان، وقد التفوا حول على بن أبى طالب وناصروه، وبايعوه بالخلافة على اعتبار أنه أحق بها، وقد ازداد نفوذهم، وانتعشوا بتولية على ابن أبى طالب الخلافة، واتخاذه الكوفة حاضرة للدولة العربية الإسلامية، ولم ينته هذا الحزب بوفاة على، بل ظل قائماً يناصر ويشايع آل على ويطالب ببقاء الخلافة وراثية فى ذريته، واعترضوا على تولية أحد من غير أفراد آل بيت رسول الله الخلافة، ولقد استاءوا كثيرا من الصلح الذى عقد بين الحسن بن على ومعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ والذى بمقتضاه تنازل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية، لذلك اعترضوا على تولية بنى أمية الخلافة واعتبروهم مغتصبين لها من أصحابها الشرعيين[١]، وأصبحت خطة الشيعة بعد نزول الحسن ابن على عن الخلافة لمعاوية تنحصر فى طاعة الإمام من آل بيت رسول الله، والانتظار حتى يأمرهم هذا الإمام – الذى اتخذ المدينة دارا لمقامه– بالخروج لاستعادة سلطانهم الضائع[٢].
ازداد نشاط الشيعة فى العراق طوال الحكم الأموى، وقاموا بعدة ثورات ضد الخلفاء الأمويين حتى تولى هشام بن عبد الملك الخلافة، فعهد بحكم العراق إلى خالد بن عبد الله القسرى، فاتبع سياسة حكيمة، فكان يحسن وفادة من يفد عليه من بنى هاشم، وكان لهذه السياسة أثرها فى التزام الشيعة جانب الهدوء والسكينة، على أن هذا الحال لم يدم طويلا، فقد خلف يوسف بن عمر الثقفى، خالدا القسرى، وانتهج سياسة مع الشيعة تخالف سياسة سلفه فأساء معاملتهم، وتتبعهم، وزج كل من شك فى نواياه فى السجن[٣].

وأبرز من تعرض لبطش هذا الوالى، زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكان زيد من عظماء أهل البيت علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما، وكان دائما يحدث نفسه بالخلافة، ويرى أنه أهل لذلك «ومازال هذا المعنى يتردد فى نفسه، ويظهر

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعة ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية ١٣٢.

(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ١١٠-١١١.

على صفحات وجهه وفلتات لسانه»[1] وقد أثنى عليه كبار معاصريه، فقال عنه الشعبى: مارأيت أفضل ولا أفقه ولا أشجع من زيد، وقال عنه أبو حنيفة: ما رأيت فى زمانه أفقه ولا أعلم، ولا أبرع جوابا، ولا أبين قولا منه، كان منقطع القرين. وكان يقال له حليف القرآن[2].

حامت الشكوك حول زيد وهو بالمدينة المنورة، فقصد يوسف بن عمر إحراجه، وحاول إثارة خلافات بينه وبين بعض أفراد أسرته، كما ادعى عليه ادعاءات غير صحيحة، فاتهمه بأنه أخذ جائزة من خالد بن عبد الله القسرى، وابتاع أرضا له[3] -أى القسرى- بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ثم أخذ الجائزة، ورد الأرض عليه[4]... فاستدعى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، زيدا إلى الشام، وسأله عن الجائزة فاعترف بها، وأنكر ما سوى ذلك وهو الأرض- وحلف لهشام، ثم حدث نقاش حاد بينه وبين هشام الذى قال: قد بلغنى أنك تطلب الخلافة وتتمناها، ولست أهلا لها وأنت ابن أمة. فغضب زيد وقال للخليفة: ليس أحد أولى مكانة بالله ولا أرفع منه منزلة من نبى ابتعثه وقد كان إسماعيل ابن أمة لأم أخيه، فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر. واستاء هشام من هذا الجواب المقنع لزيد فأزمع زيد الخروج على حكم هشام، ودعوة أنصاره للالتفاف حوله، وانتزاع حقه فى الحكم من الأمويين، فلما توجه إلى المدينة، تتبعه أهل الكوفة، وقالوا له: أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف دونك، وليس عندنا من بنى أمية إلا قليل، لو أن قبيلة منا تصدت لهم لكفتهم بإذن الله، ومازالوا به حتى قال لهم: ياقوم، إنى أخاف غدركم فإنكم فعلتم بجدى الحسين ما فعلتم، وأبى عليهم، فقالوا: نناشدك الله إلا ما رجعت، ونحن نبذل أنفسنا دونك، ونعطيك من الأيمان والعهود والمواثيق ما تثق به، فإنا نرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنى أمية، فلم يزالوا به حتى ردوه، فلما رجع إلى الكوفة، أقبلت الشيعة تختلف إليه يبايعونه حتى بلغ عدد أنصاره خمسة عشر ألفا من أهل الكوفة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة[5].

---

(١) المصدر السابق ص١١٨.

(٢) المقريزى: المواعظ الاعتبارية جـ٢ص ٤٣.

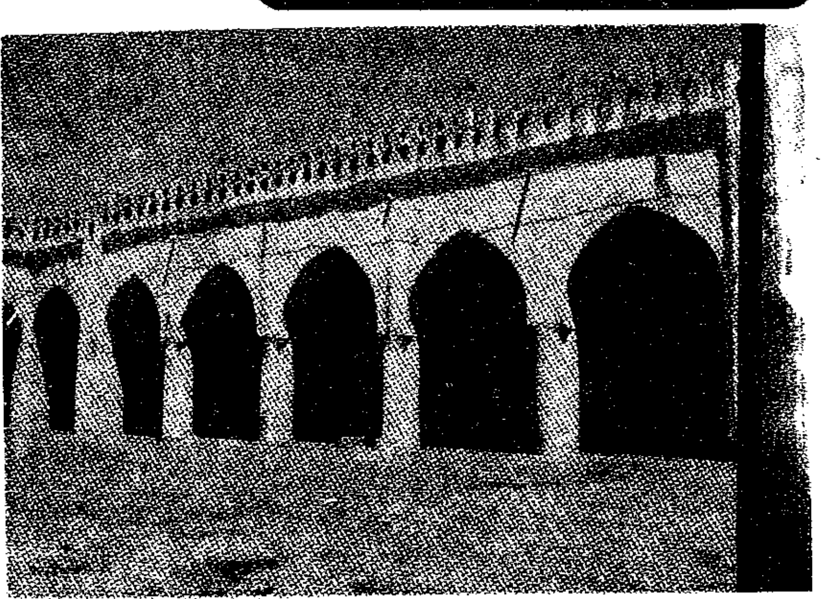
(٣) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص١٧.

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٣.

(٥) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ٩٧.



لوحة (٣) المئذنة الشرقية
بالجامع الكبير بصنعاء



لوحة (٤) عقود البائكات والشرفات المسننة بجامع الجند – تعز

تعهد أهل الكوفة بالولاء والطاعة للإمام زيد ونصرته حتى الموت، وبايعوه وكانت بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسمة هذا الفيء بين أهله بالسوية، ورد المظالم، وفعل الخير ونصرة أهل البيت، وكان يعاهد من بايعه بأن يشترك معه في قتال العدو وينصح له في السر والعلانية[1] ولما اكتمل الأمر لزيد، قال: الحمد الله الذى أكمل لى دينى، والله إنى كنت أستحى من رسول الله أن أرد عليه الحوض غدا ولم آمر فى أمته بمعروف، ولم أنه عن المنكر[2].

لما علم يوسف بن عمر- والى العراق- بأن زيد بن على يدعو لنفسه فى الكوفة، أمر عامله عليها بتتبعه، والقضاء على حركته، والقبض عليه، ولكنه وجد صعوبات بالغة فى مهمته، ذلك أن زيداً كان يقيم[3] فى الكوفة فى بيوت متعددة، ولا يعلم بتحركاته إلا أنصاره المقربون إليه.

لكن أهل الكوفة نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم للإمام زيد، فاجتمع به بعض كبار أعوانه، وسألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمر، فقال زيد: رحمهما الله، وغفر لهما، ماسمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيرا، قالوا: فلم نطلب إذن بدم أهل البيت، فكان جواب زيد: إنهم قد ولوا فعدلوا فى الناس، وعملوا بالكتاب والسنة، ولم نتتبع عنهم كفرا[4].

اعتقد أنصار زيد حينما استمعوا إلى هذا الجواب بأنه خارج على آراء الشيعة التى ترى أن خلافة كل من أبى بكر،وعمر بن الخطاب غير شرعية، لذا نكثوا بيعته، وسموا رافضة، وقال عنهم زيد: الرافضة حربى وحرب أبى فى الدنيا والآخرة، مردت الرافضة علينا، كما مردت الخوارج على على عليه السلام[5].

لم يبق مع زيد من أهل الكوفة سوى مائتين وثمانية عشر رجلا. كما أن أهل الكوفة كانوا يفتقرون إلى وحدة الصف، وكانوا فرقا تناوئ الدولة والحكم الأموى، بل كان منهم فريق من الخوارج. ولا يمكن قبول الرواية التى تقول أن أنصار زيد قد التفوا حول

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص١١٨

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص١٦٢.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص١١٨.

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢هـ.

(٥) المسعودى: مروج جـ٢ ص ١٦٢.

أخيه محمد الباقر لأنه أحق بالإمامة، بل إن زيدا كان يشك فى نوايا أهل الكوفة، وقال لهم: إنى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى كفعلكم بأبى وجدى. كما أن زيداً لم يتجه إلى الكوفة إلا بعد أن استدعاه أهلها. على كل حال اشتبك زيد بن على بجنده القليل مع جند يوسف بن عمر فى شوارع الكوفة عدة أيام، وانتصر فى بعض المعارك، ولكن الدائرة فى النهاية دارت عليه فقتل[1].

على أن نهاية حياة زيد بن على لم تنه آراءه، وأفكاره، بل ظل صداها يتردد فى العالم الإسلامى حتى يومنا هذا، وتجد استجابة لدى كثير من المسلمين، فنشأت طائفة الزيدية التى تتخذ من تعاليمه وأقواله وأحاديثه وفتاواه واتجاهاته الدينية مذهبا يلتزمون بما يشتمل عليه. ولقد بدأ هذا المذهب فى الانتشار أولا... بواسطة تلاميذه الذين هم من الدرجة الأولى أولاده، وأصحابه ومريديه، وهؤلاء التلاميذ نقلوا فقه زيد فى الأقاليم الإسلامية؛ لأنهم لم يستطيعوا البقاء فى المكان الذى تركهم فيه حين استشهاده حتى لا يتعرضوا للأذى والاضطهاد من الأمويين، لقد كان فرار هؤلاء التلاميذ إلى البلاد الإسلامية المختلفة سبباً فى نشر الآراء الزيدية، كما أن الأئمة من آل البيت الذين حملوا أمانة ذلك المذهب واجتهدوا فيه تفرقوا أيضاً فى الأقاليم وكان لهم فيها أنصار وأتباع، وتنقلوا فى الأمصار الإسلامية فرارا من بطش بنى أمية، وهم فى تنقلهم ينشرون المذهب ويفقهون الناس، لذلك انتشرت آراء الإمام زيد فى البقاع الإسلامية كلها.

لم تنته الحركة التى قام بها زيد بن على زين العابدين فى الكوفة للتخلص من الحكم الأموى بوفاته، فظل فريق من أتباعه- الذين عرفوا بالزيدية- موالين له، فعمد رجل من بنى أسد إلى يحيى بن زيد، وقال له: قد قتل أبوك، وأهل خراسان لكم شيعة، فالرأى أن تخرج إليها، وطلب الرجل من عبد الملك بن بشر بن مروان أن يستضيفه حتى يكف الطلب عنه، فإذا سكن الطلب خرج يحيى فى نفر من الزيدية إلى خراسان.

ظل بن يحيى زيد مقيما فى خراسان حتى وفاة هشام بن عبد الملك، وقد التف حوله الزيدية، وبايعوه إماما، على أن الخليفة الأموى يزيد بن الوليد أمر نصر بن سيار- والى خراسان- بتتبع يحيى بن زيد، وقمع حركته. فأرسل فرقة من جيشه اشتبكت معه ومع أنصاره فى معركة أسفرت عن مقتله سنة ١٢٥[3].

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٢٢هـ.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٥.

(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ص٣٢٥-٣٢٧.

لما قامت الدولة العباسية عارضها العلويون أيضا، واعتبروا العباسيين مغتصبين للخلافة منهم كما كان الحال بالنسبة للأمويين، ومن ثم قامت ثورات ضد الحكم العباسى منذ بدايته، فثار محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بذى النفس الزكية، ضد المنصور، وثار أخوه إبراهيم أيضاً؛ وقد أحبط الخليفة المنصور المحاولتين؛ وأمعن فى التنكيل بالعلويين؛ ففر كثير منهم إلى الأطراف النائية فى الدولة الإسلامية، فمثلا إدريس بن عبد الله العلوى بعد موقعة فخ فر إلى المغرب الأقصى واستطاع أن يقيم الدعوة العلوية هنالك ويؤسس دولة الأدارسة[1].

وفر أخوه يحيى بن عبد الله إلى المشرق سنة ١٧٦هـ ونزل بلاد الديلم واشتدت شوكته، وقوى أمره، ونزح إليه الناس من الأمصار والكور، وأسقط ذلك فى يد الخليفة الرشيد[2]، ورأى أن هذه الحركة تهدر دولته، وعول على ضرورة قمعها، فسير إليه الفضل ابن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل[3] ومعه صناديد القواد، وولاه الجبال والرى وجرجان وطبرستان. ودنباوند.. رأى الفضل أن يأخذ يحيى باللين بدلا من الحرب فكتب إليه يستميله، وناشده وحذره، وأشار عليه، وبسط أمله، وأرسل إلى يحيى رسولا، وطلب منه أن يقنع يحيى بالمسير إليه[4] فما زال بيحيى حتى أجابه إلى الصلح، ووافق على أن يعود معه إلى بغداد بشرط أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه على نسخة يبعث بها، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسره، وعظم موقعه عنده، وكتب أماناً إلى يحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاء وجلة بنى هاشم ومشايخهم[5] فوجه الفضل الأمان إلى الإمام العلوى، فقدم يحيى إلى الفضل، وسار معه إلى بغداد، وقدم إلى الرشيد فأحسن وفادته، وأمر له بمال كثير، وأجرى له أرزاقا سنية، وأنزله فى دار تليق به ولكن الرشيد لم يلبث أن توجس منه خيفة، فزجه فى السجن، ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل[6].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٢٥هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ : حوادث سنة ١٢٥هـ.

(٣) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ١٠٥

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٧٦هـ.

(٥) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ٣١٢-٣١٣.

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٧٦هـ.

على أن ظهور الإمام العلوى فى بلاد الديلم، والتفاف الناس حوله قد ترك انطباعاً عند أهلها على الرغم من قصر إقامته بينهم- فأقبلوا على التشيع وتحمسوا لآل البيت، وتطلعوا إلى اليوم الذى تتحقق فيه ما تصبو إليه نفوسهم، وهو اليوم الذى يحكمهم فيه إمام من آل بيت رسول الله- لذلك التفوا حول أفراد الطائفة الزيدية التى انتشرت فى هذه البلاد فراراً من بطش العباسيين، وبدأ الإسلام ينتشر فى هذه البلاد على أيديهم، لذلك فلا غرو أن ينتشر الإسلام فى هذه البلاد على مذهب الطائفة الزيدية بصفة خاصة؛ وهذا هو ما حدث أيضاً فى طبرستان وجرجان؛ فقد انتشر الإسلام فيها قبل بلاد الديلم؛ وجهود الزيود- الذين لجأوا إلى هذه البلاد- أثمرت فيها؛ إذ اعتنق أهلها المذهب الزيدى(1).

كذلك ظهر فى المدينة المنورة، القاسم الرسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، أخذ العلم عن علماء المعتزلة والسنة وآل البيت، وله مصنفات فى المذهب الزيدى فاق فيها معاصريه، وبايع القاسم، ابن طباطبا، ولما توفى عام ١٩٩هـ، ودعا القاسم إلى نفسه، أجابه خلق كثير فى مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان والديلم، وحثوه على الظهور، ولما اعتزم ذلك، عاش فى مصر فترة من الوقت مختفياً عن أعين بنى العباس، وأرسل دعاته من مقره السرى إلى الاقاليم. وقد ذاع أمره، وآمن بدعوته خلق كثير، وترقبوا بشغف شديد ظهوره، وإعلان نفسه إماما، ولكن الخليفة المعتصم ضيق عليه الخناق وأرسل مخابراته للبحث عنه، والقبض عليه، ولما علم بعدم استطاعته الظهور- بسبب شدة مراقبة الخليفة المعتصم لتحركاته السريه المريبة- عاد إلى بلاد الحجاز، وتخلى عن الدعوة لنفسه. وعن فكرة الثورة، وقضى بقية حياته فى قرية الرس معتزلا الحياة السياسية، وعاكفا على التأليف والعبادة، وتوفى سنة ٢٤٦هـ(2).

عاش يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى فى الرس وتأثر بالنشاط العلمى لجده القاسم الرسى، كما عول على أن يدعو لنفسه بالإمامة، وهو الأمر الذى لم يتمكن جده منه، فالدولة العباسية فى عهد جده الرسى كانت قوية، تستطيع أن تبطش بكل حركة مضادة لحكمها، أما يحيى بن الحسين فقد أخذت الدولة العباسية فى الضعف، ووجد يحيى أنه يستطيع أن يعلن الثورة فى اليمن بعيداً عن أعين بنى العباس الغارقين فى مشاكلهم الداخلية، والحركة العلوية يمكن أن تجد الحماية والأمن فى بلاد اليمن لأن تضاريسها

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص١٧٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٤٦هـ.

المعقدة، وطبيعتها الصعبة يمكن أن تكونا درعاً للثورة ضد أعدائها العباسيين، كما أن أهل اليمن- كما رأينا- يؤيدون الانتفاضات العلوية، والحركات المعارضة لبنى العباس عموما.

ومهما يكن من أمر فقد خرج يحيى بن الحسين إلى بلاد اليمن سنة ٢٨٠هـ،.. وبلغ الشرفة، ودعا الناس إلى طاعته، فأذعنوا له، وحدد لهم تعليمات يسيرون عليها، وهى العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله، والصبر على الضراء والبأساء،.. ولكنهم لم يستجيبوا إلى تعاليمه، ووجد منهم إعراضاً، فعاد إلى بلاد الحجاز.

على أن وفداً من أهل اليمن ذهب إلى الإمام، وألحوا عليه فى ضرورة العودة إلى اليمن، لتخليصهم من الانقسامات وحالة التفكك التى تعانى منه البلاد، وتولية أمرهم، وحكمهم بما أمر به الله ورسوله[1].

عاد الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين إلى صعدة مرة أخرى سنة ٢٨٤هـ وولوه أمرهم وحكمهم بما أمر به الله، فجبى الزكاة طبقا للشرع، ووزعها على المحتاجين والأيتام، والتف الناس حول الإمام العلوى ورأوا فيه أملهم المنشود فى إعادة الحياة الإسلامية إلى ما كانت عليه، وإلى مايجب أن تكون عليه.

كان الهادى داعياً إلى حكم إسلامى على المذهب الزيدى، إذ حدد أصول الدين فى معرفة الله وتوحيده والعدل والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم الخروج مع أئمة آل البيت من ولدى الحسن والحسين، وكان فى دعوة الناس إلى مبايعته يشترط على نفسه أربعة شروط:

وهى الحكم بكتاب الله وسنة الرسول، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن يؤثر أتباعه على نفسه، فلا يتفضل عليهم، وأن يقدمهم عند العطاء قبله، وفى نفس الوقت يتقدمهم عند لقاء عدوه وعدوهم بشرط الطاعة لله فى السر والعلانية، وأن يطيعوه ما أطاع الله ورسوله.فإن خالف فلا طاعة له عليهم[2].

(١) على بن محمد العباس: سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص٤١
نشوان الحميرى: الحور العين ص١٩٧٦.

(٢) أحمد صبحى: الزيدية ص٤١.

طلبت بعض البلدان اليمنية الانضمام إلى دولة الإمام الناشئة، فسار إلى نجران، واستقبله أهلها بالبشر والترحيب، وتطلعوا إليه فى أن يمنع عنهم ماتعرضوا له من هجمات بنى الحرث عليهم[1]، فعقد الهادى صلحا بين الأطراف المتنازعة، وساد الوئام بين أهل نجران، وبايعه أهل نجران إماما، وأعطى أمانا لأهل الذمة، وقرر عليهم الجزية، وعاد إلى صعدة بعد أن هدأت نجران[2].

تطلع الهادى إلى توسيع رقعة دولته، فسار فى سنة ٢٨٥هـ إلى برط واستولى عليها، وحارب همدان حتى أخضعها، وعهد إلى ولاة من قبله بحكم البلاد التابعة لدولته، ولكن الهادى واجه الكثير من الصعاب فى السيطرة على دولته، فقامت ضده عدة ثورات. فامتنع أهل وشحة عن أداء الزكاة، فأخضعهم، وأعطى أمانا لأهلها، وجبى الزكاة منهم، ووزعها على فقرائهم، فطابت نفوسهم، كما أخضع حركة التمرد التى قامت ضده فى نجران[3].

لما استقر الإمام الهادى إلى الحق فى صعدة، وأحيا بين أهلها الروح الإسلامية، ونشر بينهم الأمن والعدل، رحبت البلاد اليمنية بالدخول فى دولة الإمام، ومن بين هذه البلاد صنعاء، فأرسل أهلها إليه فريقا يطلبون القدوم إلى بلدهم[4]، ويعدونه بالدخول فى طاعته، فرحب بدعوة أهل صنعاء إليه واتجه إليها[5]، ولما اقترب من صنعاء، خرج إليه أبو العتاهية لاستقباله، وبايعه، وأقسم له يمين الولاء والطاعة[6]، فأمره الهادى بالقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ودخل صنعاء بصحبة أبى العتاهية[7]. على أن بعض أهل صنعاء عارضوا دخول الهادى صنعاء، ومن بينهم أنصار الوالى العباسى جفتم، وقد عبروا عن معارضتهم لدخول الإمام مدينتهم، حينما كان الإمام يصلى الجمعة، ويخطب فى الناس فأعملوا السلب والنهب والتخريب داخل المدينة، ولما انتهى الهادى من الصلاة، قاد أنصاره ومؤيديه فى قمع الحركة المضادة له، وقهر مخالفيه ومعارضيه، واجتذب إليه جند

(١) على بن محمد العباس: سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص٦٧.

(٢) المصدر السابق ٧٣

(٣) على بن محمد العباس: سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٩٣.

(٤) المحلى : الحدائق الوردية جـ٢ص ٢٢٩.

(٥) المتوكلى: أنباء الزمن ورقة ٢٥.

(٦) الشرفى: عمدة الأكياس ورقة ٦٧.

(٧) الشيبانى: قرة العيون جـ١ص ١٧٤.

صنعاء، بأن زاد من رواتبهم وسلم إليه أبو العتاهية مقاليد الأمور فى صنعاء، واعتزل مهام منصبه[1].

لما قبض الهادى على زمام الأمور فى صنعاء، ودانت له بالولاء والطاعة واستوثق له الأمر، بعث عماله إلى المخاليف، ثم سار إلى شبام فى صحبة أبى العتاهية لإخضاعها، وبعد أن خضعت له شبام، واستسلمت لحكمه، أوصى أهلها بتقوى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورفع عن الناس جميع المظالم التى كانوا يتعرضون لها من حكامهم السابقين[2]، وأمر ألا يفرض على الناس من الضرائب إلا ما أوجب الله عليهم، ثم عاد إلى صنعاء بعد أن استخلف ولده محمد بن الهادى على شبام، وترك معه جماعة من الجند[3].

لما عاد الهادى إلى صنعاء، ورأى أن يقوم بتوسيع رقعة دولته فاستخلف على صنعاء أخاه عبد الله بن الحسين، وفتح بعض البلاد، ومن بينها ذمار، وكان لا يغادر البلدة إلا بعد أن يعظ أهلها، ويبصرهم بشئون دينهم، ودار فى عنس حتى اتسعت دولته، ولكن المعارضة ضد نظام حكمه ظلت قائمة، وانتهز آل طريف ضعف جند الهادى، وقلة عددهم، وشقوا عصا الطاعة على الإمام،... وتركزوا فى جبل ذخار[4]، فلم يتغاض الهادى عن حركتهم المضادة لنظام حكمه، فقصدهم، واتسع نفوذ الثوار على الإمام، فسيطروا على شبام، وطردوا عمال الهادى منها، وقصدوا إلى السجن، وأخرجوا من فيه من أصحاب جفتم المعارضين للإمام، لكن الهادى استرد شبام، وطرد المعارضين له منها، ونكل بالثوار[5].

على أن ابن محفوظ انتهز فرصة انشغال الهادى بمحاربة أعدائه فى شبام، وسيطر على صنعاء، وطرد عامل الهادى على صنعاء، وفتح السجن، وأفرج عن سجناء الهادى[6].

شجعت انتفاضة صنعاء البلاد المجاورة على الخروج على الإمام، فثارت مخاليف صنعاء، على حكم الإمام، وأعلنت الاستقلال عن حكمه، وخرج جماعة من صنعاء إلى ابن يعفر المسجون فى ظهر، فأفرجوا عنه وعادوا به إلى صنعاء، وولوه أمرهم، فحكم صنعاء،

(١) المحلى: الحدائق الوردية: جـ٢ ص ٢٣١.

(٢) على بن محمد العباس : سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص٢٢٥

(٣) المتوكلى : أنباء الزمن الورقة ٢٥.

(٤) المتوكلى: أنباء الزمن ورقة ٢٦.

(٥) الشبيانى: قرة العيون ص١٧٤.

(٦) المحلى: الحدائق الوردية جـ٢ ورقة ٢٣٧.

وأقام الخطبة للخليفة العباسي المعتضد[1]، وبذلك عادت صنعاء إلى حوزة الخلافة العباسية. على أن الإمام الهادى إلى الحق لم يتغاض عن خروج صنعاء من دائرة نفوذه، ولكنه لم يستطع استردادها، فقد ثارت عليه شبام والبون[2]، وواجه الخصومة فى كل البلاد القريبة من صنعاء، بل إن آل طريف هاجموه بجيش كبير، وألحقوا به هزيمة منكرة[3].

على أن الهادى لم يستسلم للهزيمة، فقد اشتد ساعده بعد أن انضم إليه أخوه عبدالله ابن الحسين، وسار الأخوان قاصدين صنعاء، فخرج آل يعفر وآل طريف من صنعاء وشبام لمحاربة الهادى، ومنعه عن البلاد، ودارت الحرب بين الفريقين، الهادى وأنصاره من ناحية، وآل يعفر وآل طريف وأنصارهم من ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن الهادى كان يحارب بفئة قليلة، إلا أنه انتصر على أعدائه انتصاراً حاسماً، ودخل صنعاء، وأعطى أهلها أماناً، ولما عارضه بعض أهالى صنعاء اشتبك معهم، ونكل بهم، وشن الهادى عدة غارات على معارضيه فى البلاد المجاورة لصنعاء[4].

على أن آل يعفر واصلوا الحرب ضد الإمام الهادى على الرغم من الهزائم التى لحقت بهم، وحشدوا الجموع من جميع المخاليف المؤيدة لهم حتى اجتمع لديهم عشرون ألفاً، وحاربوا الهادى، ولكنهم هزموا مرة أخرى[5].

أنفدت الحروب الكثيرة التى خاضها الهادى ضد أعدائه ما عنده من مال وسلاح، ولم يعد لديه ما يستطيع أن يغطى نفقات المعارك المتعددة التى كان عليه أن يخوضها ضد معارضيه، فطلب من أهل صنعاء سنة ٢٨٩هـ مالا، ولكنهم امتنعوا عن إمداده بالمال، فرحل من صنعاء، لأنه لم يعد فى مقدوره مواصلة الحرب بعد أن نفد ماله، وعاد إلى صعدة[6].

ظل الإمام الهادى على الرغم من الصعاب التى خاضها يتطلع إلى العودة إلى صنعاء، وقهر أعدائه ومخاليفه، ففى سنة ٢٩٠هـ، وقع اختلاف بين آل يعفر ومواليهم، فكتب ابنا يعفر إلى الدعام بن إبراهيم يطلبان منه أن يكتب إلى الهادى ويستنهضه للوقوف إلى جانبهما

(١) المحلى: الحدائق الوردية جـ٢ ورقة ٢٣٥

(٢) البون: أرض باليمن لهمدان.

(٣) الشيبانى: قرة العيون ١٧٥.

(٤) نشوان الحميرى: الحور العين ص ١٩٦.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص١٧٦.

(٦) المصدر السابق.

فى نزاعمها مع الموالى، ويتعهدان بأن يسلما إليه ما فى أيديهما فى مقابل ذلك[١].

فاستجاب الإمام لهذا النداء[٢]، ورأى فيه فرصة لاسترداد نفوذه على البلاد التى فقدها، واتجه الإمام بجيشه إلى آل يعفر؛ ولكنه واجه موقفاً عصيباً آخر، ذلك أن أنصاره من آل خولان وهمدان ونجران، انفضوا من حوله فى الطريق، وعادوا إلى بلادهم، ولم يبق بعد ذلك من أنصاره إلا القليل، فلما بلغ آل طريف عودة بعض أنصار الإمام إلى ديارهم، باغتوا جيش الإمام على حين غفلة، وحاول الإمام عبثا أن يستنجد بخلفائه من همدان. ولما وقعت الواقعة بين جيش الإمام وآل طريف، هزم جند الإمام شر هزيمة[٣]، ولما هاجم على بن الفضل صنعاء، استنجد أهلها بالإمام، فسار لنجدتهم، ولبى الإمام دعوتهم يحدوه فى ذلك رغبته الملحة فى استعادة نفوذه وسيطرته على صنعاء، وسار الهادى إلى صنعاء، ودخلها، وأرسل فرقاً من جيشه إلى مخاليف صنعاء، ولكن جند على بن الفضل كانوا له بالمرصاد، فلم يمكنوه من استعادة نفوذه على مخاليف صنعاء. بل إن الهادى لم يتمكن من البقاء فى صنعاء، فقد تصدى له موالى بنى يعفر وطاردوه منها، واستعاد أسعد بن يعفر حكمه فى صنعاء منتهزا فرصة خروج أنصار على بن الفضل منها[٤].

وعلى الرغم من الهزائم المتكررة والصعاب الكثيرة التى واجهها الهادى إلى الحق فى صنعاء فإنه استجاب لنداء أهل صنعاء بإنقاذهم من أنصار ابن الفضل الذين طردوا ابن يعفر، وسيطروا على صنعاء، فأرسل الإمام الهادى إلى صنعاء على بن جعفر العلوى، والدعام بن إبراهيم فى جماعة من أصحابه، فلما اقتربوا من صنعاء خرج منها أنصار ابن الفضل، ودخل جند الإمام صنعاء، وسيطروا عليها. على أن أنصار الإمام لم يكد يستقر بهم المقام فى صنعاء حتى تعرضوا لما لا قبل لهم به، فقد عاد إلى صنعاء، على بن الفضل على رأس جمع كبير من رجاله، وقتل كل من اعترضه فى دخول صنعاء، واستباح على بن الفضل وجنوده صنعاء، وقتلوا أعداءهم فيها، وآلت صنعاء إلى على بن الفضل، وظل يحكمها ثلاث سنوات[٥]. وبذلك لم تستقر سياسيا فى القرن الثالث الهجرى، فتعرضت لأطماع

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ١٨٨.

(٢) الصعدى: مآثر الأبرار ورقة ٦١.

(٣) الشيبيانى : قرة العيون٢٠٠

(٤) الصعدى: مآثر الأبرار – ورقة ٦١.

(٥) الشيبيانى: قرة العيون ٢٠٢.

المتغلبين والطامعين من الإمام تاره، وآل يعفر تارة أخرى، وابن الفضل تارة، وتعرضت حياة المواطنين وأموالهم للقتل والسلب والنهب، الأمر الذى كان له أسوأ الأثر فى حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية[1].

توفى الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين فى صعدة سنة ٢٩٨هـ بعد أن فشل فى توحيد بلاد اليمن تحت زعامته، وإن كان قد نجح فى تكوين دولة يمنية تضم بعض بلدان اليمن مثل صعدة ونجران وغيرها زيدية المذهب، كما أرسى مبادئ المذهب الزيدى فى اليمن[2]، وتولى الأئمة فى فترات غير متصلة حكم بلاد اليمن حتى قيام الثورة اليمنية سنة ١٩٦٢.

اتبع الإمام الهادى نظرية الوراثة فى المذهب الزيدى، فعهد إلى ابنه الأكبر المرتضى محمد[3] بحكم مملكة أبيه من بعده، وبويع الإمام الجديد بعد وفاة أبيه،وكان ورعاً تقياً زاهداً. ولم يكن فى مقدوره أن يواصل مسيرة أبيه ويواجه بصلابة ما واجهه أبوه من مشاق وصعاب فى السياسة والحكم[4]، فأعلن فى جمع من الجند وأعيان الناس تنازله عن الحكم، ومضت ثلاث سنوات كانت البلاد فيها من غير إمام، وحكم البلاد رؤساء الناس وكبراؤهم، واستمر الحال كذلك حتى قدم إلى صعدة من بلاد الحجاز، الناصر أحمد بن الهادى، وبايعه الناس بالإمامة[5]، وبذلك عادت الدولة الزيدية، وبعثت من جديد، وقدم إلى الإمام الجديد، وفود نجران وبنى الحرث وغيرهم، وأهل جيزان ووشجة[6] وبايعوه، وعهد إلى ولاة من قبله بحكم بلادهم.

واجه الإمام الجديد ازدياد نفوذ الإسماعيلية فى بلاده، فتصدى لهم، واشتبك معهم فى معارك كثيرة، وقمع حركتهم فى خيوان، وأجبر أهلها على التخلى عن إسماعيليتهم

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ١٩٨.
(٢) المحلى: الحدائق الوردية جـ٢ص ٢٣٤-٢٣٦.
(٣) العمرى: المجدى فى النسب ورقة ٢٠.
الصعدى : مآثر الأبرار ورقة ٦٧.
(٤) ابن عتبة: عمدة الطالب ص ١٦٦
(٥) ابن عتبة: عمدة الطالب ص ١٦٦.
(٦) وشجه : موضع يتبع حجة.

والولاء له، كما أخضع أنصار على بن الفضل فى حجة[1]، ودانت له حجة ومسور[2]، ودخل الجوف[3] فى طاعة الناصر، واشتبك مع أنصار ابن الفضل الذين تجمعوا فى حوث وشطب وهزمهم.

على أن أنصار على بن الفضل لم يكفوا عن إثارة القلاقل فى دولة الإمام، على الرغم من هزيمتهم، ولكن الناصر لم يكف عن محاربتهم، ففى سنة ٣٠٦هـ اشتبك معهم الناصر فى واقعة نفاش فى ناحية مسور، وهزمهم الإمام شر هزيمة، وانسحبوا عائدين إلى مسور[4]. وبهذه الواقعة ضعف أمر الإسماعيلية، ولم يزل الإمام الناصر مجاهداً لمخالفيه، منابذاً لمعارضيه، حتى استولى على كثير من البلدان اليمنية، وسار إلى عدن ودخلها، وضمها إلى حوزته[5]. وبذلك اتسعت الدولة الزيدية فى عهد هذا الإمام أكثر مما كانت فى عهد أبيه.

ولكن الدولة الزيدية ضعفت وتدهورت بعد وفاة الإمام الناصر سنة ٣٢٢هـ فقد ولى بعده ابنه يحيى بن أحمد، وعارضه أخواه القاسم بن أحمد الملقب بالمختار، والحسن بن أحمد، ودارت حروب ووقائع بين الإخوة، وكثرت الفتن والدسائس بينهم فى صعدة، فلحق بها الخراب والدمار. ومازالت أحوالهم متقلبة وأمورهم مضطربة، حتى سنة ٣٣٠هـ، ولما اضطربت صعدة، بايع أهلها الحسن بن الناصر إماماً، ولم تصف الأمور له، بل تعرضت صعدة فى عهده لهجمات أخيه المختار، وناصره قبائل خولان، ولكن أهل صعدة صدوا هجماته وضعف أمر المختار بعد أن اختلف معه أحمد بن محمد الضحاك، ومال إلى جانب الحسن بن الناصر، وعرض عليه الدخول فى خدمته، فأمده الحسن بالمال، وحرضه على محاربةأخيه المختار فى ريدة، وظلمت الحرب قائمة وسجالا بين الحسن والمختار، وانتهت بالصلح بينهما وأذن الحسن لأخيه المختار بالعودة إلى صعدة[6].

(١) حجة: جبل فيه مدينة حجة.

(٢) مسور: حصن من أعمال صنعاء.

(٣) الجوف: واد باليمن تسكنه همدان.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٤١.

(٥) الشيبانى: قرة العيون ٢٢١.

(٦) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢١٥-٢١٦.

على أن المختار لم يلبث أن نقض هذا الصلح، وأخضع أنصار أخيه الحسن، والتفت صعدة حوله، فغادر الحسن صعدة، ولجأ إلى ابن الضحاك[1]، واتفقا على حرب المختار، ودخلا صعدة، ووقعت الحرب بين المختار والضحاك من ناحية، والحسن من ناحية أخرى، ذهب ضحيتها الكثير من الأهلين، وانتهت بانتصار المختار، وسيطرته على صعدة، وامتد نفوذه على ريدة، وبلغ من قوة شأنه، وازدياد نفوذه أن ابن الضحاك استمد منه سنة ٣٤٤هـ التولية على صنعاء[2]. لكن المختار لم يهنأ كثيراً بملكه، بل سرعان ما غدر به ابن الضحاك، وزجه في السجن في ريدة[3]. وظل في سجنه حتى لقى حتفه فيه، ويرجع سبب غدر ابن الضحاك بالإمام، أنه لما استوثق له الأمر في صنعاء، ودانت له بالولاء والطاعة، رأى أن يحكمها بصفة مستقلة هى وغيرها عن الإمام[4]. ورأى أن مطامعه ونزعاته الاستقلالية، لا يمكن أن تتحقق بوجود الإمام المختار، فتخلص منه.

ظلت بلاد اليمن تعانى من الاضطراب فى عهد الأئمة حتى ولى المنصور بالله القاسم بن على العيانى الإمامة، وامتد نفوذه من صعدة إلى نجران وتبالة. ولكن أهل صعدة انتقضوا عليه، فجمع حلفاءه من همدان وسار بهم إلى صعدة[5]، وأخضع أهلها، وألحق بالبلدة الخراب والدمار، ولما سمع أهل صنعاء عن كفاءة الإمام الجديد ومقدرته، أرسلوا إليه يطلبون منه القدوم إلى بلدهم وولاية أمرهم. وفى طريقه إلى صنعاء مر بوادعة فبايعه أهلها، وحذا حذوهم أهل أثافث وطلبت منه القبائل أن يحكم صنعاء «إذ هى قصبة بلادهم، ومستقر قوادهم» وأناب الإمام عنه فى حكم صنعاء، الشريف القاسم بن الحسين الزيدى، ودخلت حمير فى طاعته، وأناب عنه والياً عليهم كما دخلت ذمار وكحلان فى طاعة الإمام[6].

استناب الإمام عنه فى حكم صنعاء القاسم بن حسين الزيدى من ولد زيد بن على.

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢١٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢-٢٣٢.

(٣) الشيبانى: قرة العيون ص ٢٤٤.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٤١.

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٢٤.

(٦) المصدر السابق ص ٢٢٥- ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٤٢

واستطاع هذا الزيدى أن يدخل ذمار وعنس فى دولة الإمام، وعهد الإمام إلى الزيدى بحكم عدن سنة ٣٩٢هـ بالإضافة إلى صنعاء[١].

واجه الزيدى مصاعب كثيرة فى حكم صنعاء، إذ كثرت الفتن ضده، كما أنه اختلف مع الإمام، وخلع طاعته، وكتب إلى الإمام الأول يوسف بن يحيى بن أحمد الناصر، بالقدوم إلى صنعاء وحكمها، وأقام الزيدى الخطبة فى صنعاء للإمام يوسف بن يحيى، وقطع خطبة الإمام القاسم بن على. ولم يلبث أن توفى الإمام القاسم بن على العيانى سنة ٣٩٣هـ، واضطربت الدولة الزيدية على أثر وفاته[٢].

لم يستقر الزيدى والإمام يوسف بن يحيى فى حكم صنعاء، فلم يتم لهما بها أمر، فغادراها، وقامت الفتنة فى صنعاء بين همدان وخولان وحمير والأبناء وبنى شهاب «فى كل شهر لها أمير و عليها رئيس، وفى أكثر أوقاتها تخلو من حكم إمام، والغالب عليها آل الضحاك إلى سنة ٤٠٠هـ»[٣].

كذلك أعلن الإمام الحسين بن الإمام القاسم سنة ٤٠١هـ أنه المهدى الذى بشر به النبى، وبايعه حمير وهمدان والبلاد الواقعة غرب صنعاء مثل لاعة وحجة ومسور وشبام[٤]، وفى سنة ٤٠٢هـ قدم الإمام الحسين بن القاسم إلى صنعاء، وبايعه أهلها، وعهد إلى أخيه جعفر بحكمها، ولكن لم يستقم أمره فيها، وثار عليه أهلها، فاستنجد بأخيه الإمام، وقدم إلى صنعاء، وهدم دور مخاليفه، واستصفى أموالهم. غير أن أهل صنعاء- على الرغم من إخماد هذه الثورة، ظلوا معارضين لحكم الإمام الحسين، وأرسلوا يستدعون الشريف الزيدى، ويطلبون منه أن يحكم بلدهم، ويخلصهم من ظلم وجور الإمام الحسين وأخيه جعفر[٥].

قدم الشريف الزيدى إلى صنعاء، وانتقم انتقاماً شديداً من أنصار الإمام الحسين، ولما عاد الإمام إلى صنعاء، تحولت إلى مسرح للصراع بين الإمام والشريف، وانتهت بقتل

(١) الشيبانى: قرة العيون ص ٢٣٠

ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣١ الشيبانى : قرة العيون.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٣٦.

(٤) الشيبانى: قرة العيون ص ٢٢٨.

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٣١.

ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٤.

الزيدى، ولكن الزيدى عول على الانتقام لمقتل أبيه فاستعان بمذحج وعنس وابن زياد صاحب زبيد، وغيرهم على حرب الإمام، ولكن محاولاته لم تجد فتيلا. واسترد الإمام نفوذه فى صنعاء، ولكن الأيام لم تصف له فيها فقد قامت ضده عدة ثورات فى صنعاء. وكانت أصابع الزياديين فى هذه الفتنة، وولى أهل صنعاء عليهم أحمد بن موسى بن قيس بن الضحاك وخلعوا طاعة الإمام، وظل يحكمها حتى سنة ٤٠٤هـ[١]. وأراد الإمام استرداد نفوذه على صنعاء، فأعد جيشاً كبيراً لاستردادها، وحشد ابن الضحاك أفراد القبائل المخالفة على الإمام لصده عن صنعاء، ودارت الحرب بين الفريقين، انتهت بهزيمة الإمام ومقتله.

اضطربت صنعاء بعد مقتل الإمام، وظل يحكمها أمراء بنى الضحاك حكماً مضطرباً ضعيفاً، فاستدعى أهل صنعاء جعفر بن الإمام القاسم أخا الإمام الحسين بن القاسم بن على من صعدة، فسار إلى صنعاء سنة ٤١٣هـ[٢].

وراح هذا الإمام ضحية مؤامرة من معارضيه سنة ٤٣١هـ وبويع فى العام التالى أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن إماماً وقصد صنعاء، فغادرها حاكمها ابن أبى حاشد، وبايعه أهل صنعاء، وقوى نفوذ الشيعة فيها على السنة، بعد أن عاد إليها حكم الأئمة، ولكن الإمام أبا هاشم لم يلبث أن غادر صنعاء، بعد أن عهد إلى ابن أبى حاشد بحكم صنعاء نيابة عنه[٣].

وخف الإمام أبا هاشم، سنة ٤٣٩هـ الإمام أبو الفتح بن ناصر الديلمى، فأخضع صعدة لنفوذه وسلطانه، وكذلك خولان، واختط حصن ظفار[٤]، ودخل صنعاء، وجبى منها الزكاة والخمس، وسيطر عليها، ودخلت عنس فى حوزة الإمام، وقرب إليه جعفر بن الإمام القاسم، وجعله أمير الأمراء، وصرف له ربع ما يحصل للإمام، ولكن الخلاف سرعان ما نشب بين الرجلين وانضم ابن أبى حاشد إلى جعفر ضد الإمام وانفقا على محاربته، وانضم السنة إليهما ضد الشيعة، وشددوا القتال على الإمام وأنصاره الزيدية، فلاذ الإمام بالفرار من صنعاء، وحذف اسمه من الخطبة، وحكم صنعاء جعفر بن الإمام القاسم، ولكن أمر

---

(١) الشيبانى:قرة العيون ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٣٩, ٢٤٧.

ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٥.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٣٩.

(٤) زباره: إتحاف المهتدين ص ٥١.

الصليحيى قد استفحل فى اليمن، واستولى على كثير من بلدانها، وزحف إلى صنعاء، وفى الطريق اشتبك مع جعفر وهزمه، وتفرق الناس عن جعفر ابن الإمام، فعاد إلى بلده، كما تقاعد الناس عن نصرة الإمام أبى الفتح، لازدياد قوة ونفوذ الصليحيى فى اليمن وعلو شأنه، وقهره لمن ناوأه من أقرانه، فجعل الإمام يضرب فى الأرض، وينتقل من بلد إلى بلد فراراً من الصليحيى، حتى ظفر به وقتله[1]، وضم الصليحيى إلى ملكه البلاد التى كانت خاضعة للأئمة الزيدية. وبذلك سقطت الدولة الزيدية الأولى فى اليمن.

والخلاصة.. أن تاريخ الأئمة الزيدية فى اليمن منذ أن قدم إليها الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مضطرب كل الاضطراب، وليس فيه طابع الاستقرار، وقد أيدت بعض القبائل اليمنية، الأئمة كوسيلة لتحقيق أغراضها فى النيل من قبيلة أخرى، وقبل الأئمة الارتماء فى أحضان بعض هذه القبائل لتحقيق أطماعهم، وأحياناً يحكم اليمن أكثر من إمام، وكل إمام له أنصاره ومؤيدوه من القبائل ليحارب بها القبائل المعادية له، وانقطع حكم الأئمة فترة من الوقت وعاد من جديد، وهذا يتمشى مع عقيدة المذهب الزيدى الذى يرى جواز وجود عصر بلا إمام. وبعض الأئمة حسنى والبعض الآخر حسينى طبقاً للمذهب الزيدى الذى لم ير غضاضة فى ذلك.

---

(١) الشيبانى: قرة العيون ٢٤٥.

الدولة الإسماعيلية الأولى
فى اليمن

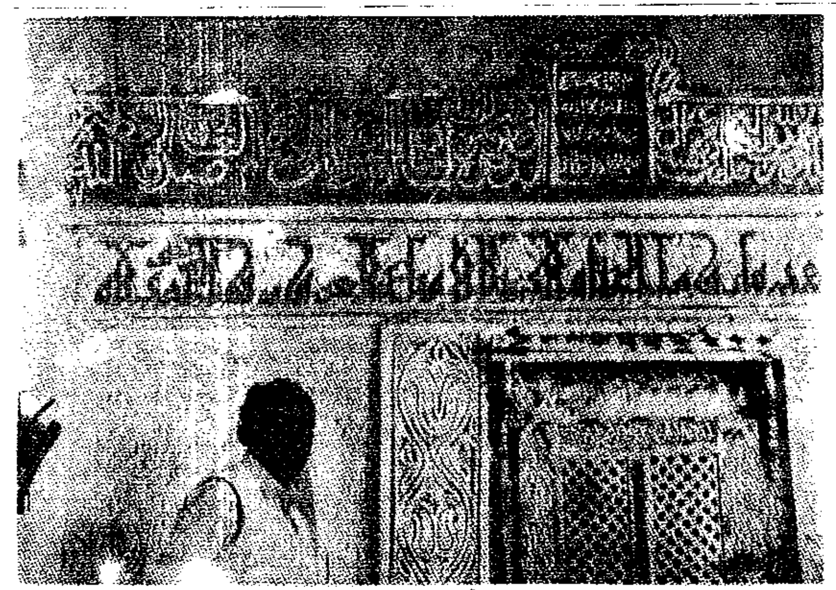
تزعم جعفر الصادق العلويين فى أواخر العهد الأموى، وهو الإمام السادس عند طائفة الإمامية، وترى هذه الطائفة أن الإمامة يجب أن تنحصر فى أبناء على الحسينيين، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلا فى الأعقاب، وقد انقسم الإمامية إلى فرقتين بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ، الإمامية الموسوية والإمامية الإسماعيلية. وسبب هذا الانقسام ما قيل من أن جعفر الصادق، عزل ابنه الأكبر إسماعيل- صاحب الحق فى الإمامة من بعده- لأنه نسب إليه أموراً تتنافى مع الدين، وعهد إلى ابنه موسى فرفض فريق من الإمامية نقل الخلافة من إسماعيل إلى موسى. وبذلك ظهرت فرقتان: الإسماعيلية والموسوية.

بايع الإسماعيلية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بالإمامة، بعد وفاة إسماعيل فى حياة أبيه، ووفاة جعفر، وظلت الإمامة الإسماعيلية فى الأعقاب طبقا لعقيدة الإسماعيلية، التى ترى أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ، وأصبح محمد بن إسماعيل الإمام السادس عندهم.

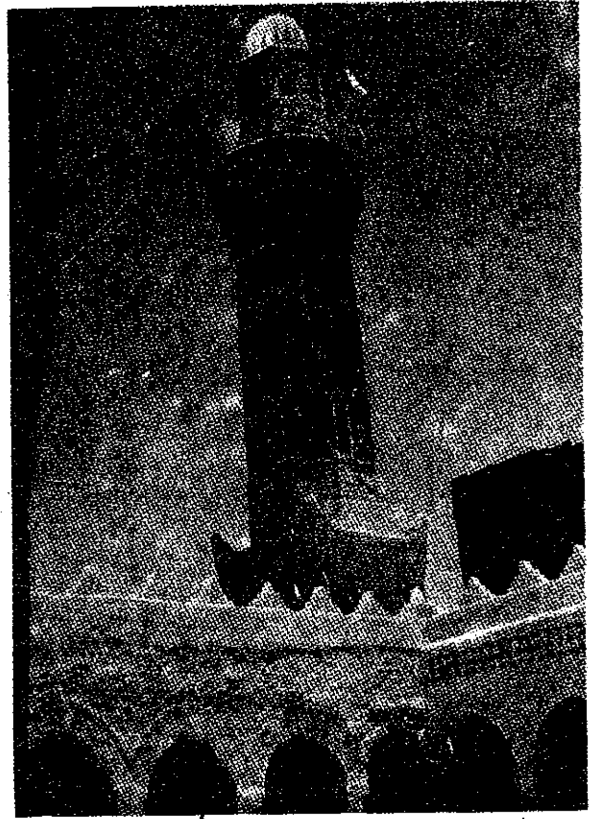
حرص الأئمة الإسماعيلية على نشر دعوتهم سراً، خوفا من بطش بنى العباس، فكان محمد بن إسماعيل ينتقل فى البلاد الإسلامية النائية، خوفا من أن تلاحقه عيون بنى العباس، حتى استقر به المقام فى قرية تدعى سملا بالقرب من جبل دماوند... وأطلق عليها فيما بعد -محمد أباد-.

استقر الإمام عبد الله الرضى فى سلمية- من أعمال حمص- وأصبحت دار هجرة للأئمة الإسماعيلية، ولما توفى عبد الله، تولى ابنه أحمد إمامة الإسماعلية.

وكان الدعاة ينبثون فى أرجاء العالم الإسلامى يدعون إلى المهدى المنتظر فى سلمية ويبشرون بقرب ظهوره، ولما ولى الحسين بن أحمد الإمامة خلفا لأبيه، بذل كل جهد لنشر الدعوة الإسماعيلية فى البلاد الإسلامية.



لوحة (٧) جانب من الكتابات الآثارية على ما يسمى بضريح السيدة أروى



لوحة (٨) مناره مسجد السيدة بنت أحمد بجبله

بث الإسماعيليون دعاتهم فى سائر أنحاء العالم الإسلامى لتحقيق حلمهم المنشود وهو إقامة دولة إسماعيلية، ولجأوا إلى الستر، ورأى الدعاة فى بلاد اليمن أرضا صالحة لنشر دعوتهم وإقامة الدولة الفاطمية فيها، نظراً لطبيعة البلاد الجبلية الوعرة وتضاريسها المعقدة، وصعوبة سيطرة العباسيين عليها.

وكان الدعاة يلتقون بالشيعة المتحمسين فى الكوفة، ويقربون إليهم من يلتمسون فيه الكفاءة والمقدرة وقوة الشكيمة ونفاذ البصيرة. وممن قربوه إليهم، أبو القاسم الحسن بن فرج ابن حوشب بن زادان الكوفى، وهو ولد عقيل بن أبى طالب، وكان متعمقاً فى دراسة علوم القرآن الكريم، والفقه والحديث مخلصاً لعقيدته الشيعية، على مذهب الاثنى عشرية[1].

وقد التقى بالإمام الفاطمى الحسين بن أحمد الذى تعرف على فضله وعلمه، ولا يمكن قبول ما ذكره بعض المؤرخين مثل الحمادى اليمانى والجندى من أنه التقى بعبيد الله ابن ميمون القداح أو بميمون القداح نفسه، لأنهما قد توفيا قبل مولد ابن حوشب بكثير، كما أن ابن حوشب، لم يذكر أنه اتصل بأحد منهما، وقال: إن الإمام الحسين بن أحمد كان يخصنى ويقربنى، ويرمز بقرب الأمر ودنو العصر[2].

ومهما يكن من أمر فإن الإمام الفاطمى لقن ابن حوشب أسرار الدعوة الفاطمية ووجهه إلى بلاد اليمن، وقال: يا أبا قاسم. البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى، والكعبة يمانية. وعهد إليه بأمر بث الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن، وأن يتنبأ للناس بأن شمس الدولة الفاطمية ستظهر فى اليمن[3].

وفى نفس الوقت تعرف الدعاة الفاطميون على على بن الفضل الجيشانى– وهو يمنى من بنى جيشان– وكان شيعياً اثنى عشريا، وقد أدى فريضة الحج[4]، وسار فى ركب

(١) الاثنا عشرية يقولون أن الإمامة بعد موسى الكاظم، تنتقل إلى أبيه على الرضا ثم إلى أعقابه من بعده حتى الإمام الثانى عشر، وهو محمد المنتظر بن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا، وعرفت هذه الطائفة باسم الإمامية الاثنا عشرية، لانتظارهم إمامهم الثانى عشر، ويقال أن إمامهم الثانى عشر دخل سردابا فى مدينة سامرا سنة ٢٦٠هـ واختفى على أثر ذلك، ولا يزال الاثنا عشرية ينتظرون عودته ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.

(النوبختى: فرق الشيعة ص٥٧ وما بعدها)

(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص٣٠

(٣) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٢٢.

(٤) الجندى: أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص٦٣.

حجيج العراق لزيارة قبر الحسين بن على، وتأكد الدعاة من إخلاصه فى التشيع، فقربوه إليهم، وأقنعوه بالدخول فى المذهب الإسماعيلى[1]. واتصل بالإمام الإسماعيلى المستور -الحسين بن أحمد- الذى اقتنع به، ورأى ضرورة ضمه إلى ابن حوشب والدعوة فى بلاد اليمن، لأنه يمنى يتعرف على طبيعة بلاده وأهلها[2] وجمع بينه وبين ابن حوشب، ودعاهما إلى التعاون والتضامن فى نشر الدعوة، وقال لابن حوشب: «إلى عدن لاعه فاقصد، وعليها فاعتمد، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا، ومنها تفترق دعاتنا» وأمره بأن يخلص للمذهب، ويتخذ التأويل الذى هو من فلسفة التشيع، ويقول بالظاهر والباطن[3] «فما خلق الله من ظاهر إلا وله باطن» ودعاه إلى العمل بالظاهر، وإخفاء الباطن، ويدعو إلى ظهور المهدى من اليمن، وأن يجند الرجال ويجمع المال، ويظهر الصوم والصلاة والزهد، ثم أوصاه خيراً بعلى بن الفضل، وأوصى على بن الفضل بأن يقف إلى جانب أبى القاسم بن حوشب، ويحسن صحبته.

وفى نهاية سنة ٣٦٧هـ غادر الداعيان الإسماعيليان الكوفة، وتوجها إلى مكة المكرمة، وأديا فريضة الحج، وبعدها غادرا بلاد الحجاز متوجهين إلى اليمن، وبلغا غلافقة فى مستهل عام ٢٦٨هـ، وكانت بندر مدينة زبيد، تقع على ساحل البحر الأحمر، ثم افترق الداعيان، بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه، ليتعرف أحواله[4].

سار ابن حوشب فى صحبة التجار قاصداً عدن لاعه، ورحل معهم وقال: أنا رجل من أهل العلم، رغبت فى الخروج معكم إلى بلادكم، ففرحوا به وقدروه وأكرموه، وقالوا: نحن أحوج إلى من يبصرنا بأمور ديننا، ونحن نكفيك المؤونة، وكان فى الرحلة يسامرهم، ويروى لهم غريب الأخبار، فأحبوه وأصغوا إليه وأكرموه حتى قدموا لاعه، فادعى مذهب السنة والجماعة فتسامع به الناس، وأقبلوا إليه من كل ناحية، وهو يظهر الزهد والورع[5].

---

(١) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص٧٧.

(٢) إدريس عماد الدين: نزهة الأفكار جـ٣ص٢٧.

(٣) استدلوا على ما ذهبوا إليه بقوله تعالى: (وذروا ظاهر الإثم وباطنه)- (وقل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن). فالظاهر ما تظاهر به الناس وعرفه الخاص والعام. وأما الباطن فلا يعرفه الا القليل من ذلك قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) وجميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات محجوبة. فاعرض للصلاة وما فيها، وقف على باطنها، ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه فمثلا (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة.. فالزكاة مفروضة فى كل عام مرة وكذلك الصلاة)

(٤) ابن فيصل الله الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص٣٢.

(٥) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية فى اليمن ص٣٥.

وانتشر أمره، وطار ذكره فى البلاد، حتى أيدته مغارب اليمن، والتفوا حوله، وولوه أمرهم، وعهد الثقاة العدول منهم بجمع الزكاة عن أموالهم طبقاً للشريعة الإسلامية[1]، ولما استقر أمره فى مغارب اليمن، وأطاعه الناس، وأخلصوا له، ولم يعد يخشى من القوى المحلية فى بلاد اليمن- وخصوصا بعد مقتل محمد بن يعفر، واختلاف الحواليين فيما بينهم- وطلب من أتباعه وأنصاره بناء حصن يدع فيه الأموال التى تجمعت لديه[2]. ويتخذ معصما يعتصم به إذا هاجمه عدو، وقاعدة لشن الهجمات على أعدائه، فبنوا له موضعا يقال له عبر محرم-، وهو جبل تحت مسور-، وأقام فى الحصن بعد بنائه هو أصحابه ونساؤهم وأولادهم[3].

استطاع ابن حوشب من معقله التصدى لكل التحديات التى واجهته وهزم صاحب صنعاء من بنى يعفر- وبذلك ازدادت هيبته، وقوى بأسه وعظم أمره، ودخل فى طاعته من كان حوله طوعا أو كرهاً، واتخذ الطبول والرايات[4]. وهنا تخلى عن ادعائه المذهب السنى، وكشف للناس عن حقيقة أمره، وأظهر أنه داع إسماعيلى يدعو إلى المهدى المنتظر من آل محمد، فبايعه عامة الناس على المذهب الإسماعيلى، وسيطر على جميع مخاليف مغارب اليمن وعهد إلى ولاة من قبله بحكم البلاد التى سيطر عليها، وقمع كل المؤامرات التى تعرض لها، واستولى على شبام، وغنم مغانم كثيرة من أموال بنى يعفر[5]، وكتب إلى عبيد الله المهدى سنة ٢٩٠هـ يخبره بانتصاراته ودخول الكثير من البلدان اليمنية فى الدعوة الإسماعلية، وأوصى له بالهدايا النفيسة[6].

أما على بن الفضل، فبعد أن فارق ابن حوشب بغلافقة، قصد سرو يافع، ورأى أن أهلها سريعو التأثر بمذهبه، فطلع رأس الجبل، وبنى فيه مسجداً، وأظهر العبادة والورع والتقوى والزهد، فكان نهاره صائما، وليله قائما، فاجتذب بذلك قلوب الناس إليه، وولوه أمرهم، وسألوه أن ينزل عن ذلك الجبل، ويسكن بينهم، ولكنه رفض وقال: لا أفعل هذا

---

(١) الشيبانى: قرةالعيون ص ١٨٢.

(٢) الشيبانى : قرة العيون ص١٨٤.

(٣) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٢٦.

(٤) الشيبانى: قرة العيون ص١٨٥.

(٥) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٢٧.

(٦) الشيبانى: قرة العيون ص١٨٧.

ولا أسكن بين قوم جهال ضلال[1]، إلا أن يعطونى العهود والمواثيق باتباع تعاليم الدين، ونبذ ما نهى عنه الإسلام الحنيف، وينكرون المنكر، ويأمرون بالمعروف[2].

فاستجاب أهلها لعلى، وأمرهم ببناء حصن سرو يافع[3]، وشن عدة حملات على لحج وأبين، وهزم سلطانها أبا العلاء، وأخلص له الجند لأنه أظهر لهم أنه يجاهد أعداء الدين، ورغبوا كذلك فى الحصول على غنائم الحرب، وما زال يواصل انتصاراته حتى دخلت قبيلة مذحج وغيرها فى طاعته، ودخل المذيخرة سنة ٢٩٤هـ واستولى على حصن التعكر وعلى يحصب، ودخل بنكث، ودمرها، ثم زحف إلى صنعاء فلما بلغ عنس، رأى ابن يعفر أن لا طاقة له بابن الفضل وجنده فخرج من صنعاء هارباً إلى الجوف[4]، فدخل ابن الفضل صنعاء، وسيطر عليها[5]، وبذلك استطاع ابن حوشب وابن الفضل إخضاع معظم بلاد اليمن[6] لسيطرتهما.

وقد أبدى الرجلان من التعاون والتنسيق، ماجعلهما ينجحان فى نشر الدعوة، وكانت سياستها واحدة، فاتخذ كل منهما حصناً لحفظ المال فيه والاحتماء به، واتخاذه قاعدة للهجوم على أعدائه.

وقد نال ابن حوشب تقدير الإمام الفاطمى، ولقبه المنصور، وبلغ من ثقته به، أنه كلف بنشر الدعوة في أرجاء بلاد الإسلام، فكان يرسل الدعاة من قبله إلى مصر واليمامة والبحرين والهند والمغرب، فضلا عن بلاد اليمن.

لم يكتف الإمام محمد الحبيب بنشر الدعوة فى بلاد اليمن، بل عول على بثها فى بلاد المغرب، ذلك أن بلاد المغرب أرض صالحة لنشر الدعوة الإسلامية لأن أهلها عرفوا بمعارضتهم لبنى العباس، وكراهيتهم للحكم العباسى، وعبروا عن ذلك بانضمامهم إلى الأحزاب المعارضة كالخوارج والشيعة. لذلك أرسل الإمام الفاطمى أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا المعروف بالشيعى إلى ابن حوشب وأمروه بالدخول فى طاعته، وأن يأخذ عنه

(١) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٢٧

(٢) الشيبانى: قرة العيون ص١٨٧.

(٣) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٢٨.

(٤) الشيبانى: قرة العيون ص١٨٩.

(٥) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٢٧-٢٨.

(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص٦٨-٦٩.

تعاليم ومبادئ المذهب الإسماعيلى، ويستفيد من تجاربه، وبعدها يتجه إلى المغرب لنشر الدعوة على غرار ابن حوشب فى اليمن، وهذا يدل على أن ابن حوشب أصبح من أكبر الدعاة الفاطميين فى دار الإسلام.

ظل أبو عبد الله الشيعى فى اليمن عند ابن حوشب يتلقى منه تعاليم الدعوة حتى توفى الداعيان الفاطميان فى المغرب، أبو سفيان والحلوانى، فأذن ابن حوشب لأبى عبد الله الشيعى بالتوجه إلى المغرب ونشر الدعوة فيها[1].

بذل أبو عبد الله الشيعى جهداً كبيراً فى نشر المذهب الإسلامى فى المغرب، وبشر أهلها بقرب ظهور المهدى، وظل على اتصال بالإمام محمد الحبيب، ولما توفى وخلفه ابنه عبيد الله المهدى أظهر له الطاعة والولاء، وأرسل يبشره بنجاح الدعوة فى المغرب، بل أرسل إليه وفدا من كتامة يدعوه إلى القدوم إلى بلاد المغرب[2].

على أنه فى نفس الوقت الذى كان يعتقد فيه رؤساء الدعوة الفاطمية فى اليمن، أن المهدى سيظهر فى اليمن، كان دعاة الإسماعيلية فى المغرب يسعون أيضاً إلى ظهور الدولة الفاطمية فى المغرب، وأرسل رؤساء الدعوة فى اليمن، كما أرسل رؤساء الدعوة فى المغرب إلى عبيد الله يطلبون قدومه إلى بلدهم[3].

لما علم الخليفة المكتفى بازدياد نشاط عبيد الله المهدى ودعاته، بث عيونه فى سلمية حتى يتمكن من المهدى، فغادر المهدى سلمية هو وحاشيته وأسرته ومواليه[4]، وأظهر للمقربين إليه أنه يريد اليمن، ولما بلغ مصر، غير وجهته، وسار إلى المغرب بدلا من اليمن فى وقت كان منصور اليمن- ابن حوشب- يستعد لاستقباله فى اليمن[5].

تختلف الروايات التاريخية حول أسباب تغيير عبيد الله المهدى وجهته إلى المغرب بدلا من اليمن. فيرى البعض[6] أن المهدى علم بخروج ابن الفضل على بن حوشب، فكره أن يستقر فى بلد منقسم على نفسه بين الدعاة، وغير موحد وتسوده القلاقل والاضطربات.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص٧٤-٧٥.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبارجـ٢ ٢٥٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص٩٥.

(٤) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٩٦.

(٥) الجندى: أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص٤٢.

(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص٩٠.

ولكن هذا الكلام بعيد عن الحقيقة، لأن ابن الفضل لم ينتقض على ابن حوشب إلا بعد أن علم بتغيير وجهة نظر المهدى من اليمن إلى المغرب، فخلع طاعة المهدى وداعيه، وارتد عن المذهب، واستقل بالبلاد التى فى حوزته.

ولا يبعد أن عبيد الله المهدى اعتزم بعد خروجه من سلمية الذهاب إلى المغرب بدلا من اليمن، وقد أغراه بذلك أبو عبد الله الشيعى وزين له أمر المقام فيها. أما إعلانه لخاصته ومواليه حين مغادرته سلمية بأنه ذاهب إلى اليمن، وغير وجهته من مصر إلى المغرب، فيتمشى مع ما جبل عليه الإسماعيليون من إظهار غير ما يبطنون، كما حرص الإمام الفاطمى على ألا يتسرب الخبر إلى بنى العباس فيتعقبوه وينكلوا به.

غضب الداعى فيروز- الذى كان فى صحبة المهدى فى رحلته من سلمية إلى مصر- من تغيير المهدى وجهته إلى المغرب بدلا من اليمن، فتخلى عن صحبته، ورحل مغاضباً إلى اليمن، وأكرم ابن حوشب وفادته[1]، ولما علم ابن حوشب بخروج فيروز على الإمام، شرع فى قتله، فلجأ فيروز إلى على بن الفضل، الذى ثارت ثائرته عندما علم بتغيير المهدى وجهته[2]، وخلع طاعته، وارتد عن المذهب الإسماعيلى، وكون لنفسه ملكا عريضاً فى ربوع اليمن، حكمه بالقوة والعنف مستقلا عن الدولة الفاطمية، واتخذ المذيخرة سنة ٢٩٤هـ عاصمة لدولته[3].

حاول منصور اليمن أن يعيد على بن الفضل إلى سابق طاعته للإمام عبيد الله المهدى، لكن ابن الفضل أكد لابن حوشب أنه يحذو حذو أبى سعيد الجنابى الذى استقل بالبحرين، وكتب إليه يقول: «إن بأبى سعيد الجنابى أسوة. وأنت إن لم تنزل إلى وتدخل فى طاعتى نابذتك الحرب» فكتب إليه منصور اليمن يعاتبه، ويذكره بالعهود والمواثيق التى أخذها عليه الإمام، كما حذره عاقبة الانقسام، الأمر الذى سيكون له أثره فى إضعاف الدعوة. وقال فى كتابه: كيف تخلع طاعة من لم تر خيراً إلا ببركة الدعاء إليه. وقد أعطينا من العهود ما قد علمته[4]. فأجابه ابن الفضل بقوله: «إنما هذه الدنيا شاة، ومن ظفر بها

(١) ابن المؤيد اليمنى: أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص٣١.

(٢) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية ص٣٣.

(٣) اليمانى: سيرة جعفر الحاجب ص١١٥.

(٤) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٣٢.

افترسها[1]». وبذلك فشلت جهود ابن حوشب فى إعادة ابن الفضل إلى المذهب الإسماعيلى، ونشأ العداء بين الرجلين.

قاد ابن الفضل عشرة آلاف رجل لحرب ابن حوشب والتخلص منه، حتى تصفو له اليمن، فدخل قرية شبام، وخرج المنصور للقائه، وحاصره المنصور، وشدد عليه الحصار فى جبل الحميمة ثمانية أشهر[2]، حتى مل المقام، وأرسل إليه المنصور فى الصلح، فأرسل يطلب بعض ولده رهينة فأرسل إليه المنصور ابنه، فأكرمه ابن الفضل، وبقى عنده مدة، ثم أطلق سراحه[3]. وبذلك لم يستطع المنصور النيل من ابن الفضل، وظل يحكم دولة كبيرة فى اليمن. وكان جباراً غاشما، قاسى الناس الكثير من ظلمه وبطشه حتى أنهم نسبوا إليه تحليل ما حرمه الله، مثل شرب الخمر ونكاح الأمهات والأخوات وارتكاب الفواحش. ولكننا نرى أن هذه المبالغات من نسج أعدائه السنيين والإسماعيليين على السواء. فلا يعقل أبدا أن يظل الناس على طاعته، وهو يحاربهم فى دينهم وعقيدتهم، ويحلل نكاح نسائهم. ولكن ابن الفضل كان له أعداء كثيرون، السنيون أولا والإسماعيليون- بعد أن ارتد عنهم- ثانياً. يضاف إلى ذلك ظلمه وجوره وقسوته على الناس، فنسبوا إليه تحريم الصلاة والصيام والحج وتحليل المحرمات[4]. وكل ما نستطيع أن نضيفه أنه نجح فى إقامة ملك عريض فى بلاد اليمن، حكمه بالعنف والشدة. ونسب إليه أنه كان يخاطب أسعد بن يعفر- نائبه على صنعاء- بقوله«من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها على بن الفضل إلى عبده أسعد»[5] وهذا القول مشكوك فيه، ولا يصدر إلا من شخص أصابه جنون العظمة، واختل توازنه العقلى.

ويروى أنه لما دخل الجند خطب شاعره على منبرها فقال:

خذى الدف ياهـذه والعبى ... وغنـى هزاريك ثم اطـربى

تولـى نبـى بنـى هاشـم ... وهـذا نبـى بنـى يعـرب

لكـل نبـى مضـى شـرعة ... وهـذى شـرائع هذا النبـى

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢٠٣.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٥.

(٣) زباره: أئمة اليمن ص٣٣.

(٤) الشيبانى: قرة العيون ص٣٠٥.

(٥) الجندى: أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص١٤٨.

فقد حط عنا فروض الصلاة وحـــط الصـــيام ولم يتعـــب

ولا تطلبى السعى عند الصفا ولا زورة القـــبر فـــى يثـــرب

فلو كان هـذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا

لأنا حجـجنا حجة جاهلـية مجـللة لم تبـق شـرقا ولا غـربا

وقد أورد هذه الأبيات عمارة والجندى والعرشى ونشوان الحميرى وابن سمرة وكلهم ينقلون عن الحمادى اليمانى، وهو ينسبها لشاعر من شعراء على بن الفضل.

نرى أن هذه الأبيات مشكوك فى نسبتها إلى على بن الفضل لأنه لو قالها شاعر ابن الفضل، وهى تدعو إلى الكفر كلية بالإسلام لقتل الناس على بن الفضل وشاعره أو على الأقل لقامت ثورات ضد ابن الفضل وحكمه. وقد عرفنا من دراساتنا لتاريخ اليمن مدى تمسك اليمانية بدينهم وعقيدتهم، ورأينا أن العنسى وأنصاره فى فجر الإسلام قد فشلت حركتهم المناهضة للإسلام، على الرغم من أن الدين الحنيف لم يكن قد تمكن بعد من قلوب الناس، ولا يعقل أن يدعو ابن الفضل الناس إلى الخروج عن الدين، فقد لاحظ عليه دعاة الإسماعيلية- قبل أن يتولى الدعوة فى اليمن- الورع والتقوى والتفانى فى حب آل البيت، ولكنه كان يمنياً غيوراً على وطنه، يحرص أن ينال وطنه شرف ظهور المهدى فيه، وأصيب بخيبة أمل بعد الجهد الجهيد الذى بذله فى سبيل نشر الدعوة فى اليمن، أن عبيد الله المهدى ذهب إلى المغرب بدلا من اليمن، ومنذ ذلك الوقت انشق على الإسماعيلية وليس على الإسلام، فعاداه الإسلام، كما أن العداء أصيل وشديد بينه وبين السنة، يضاف إلى ذلك عنفه وجبروته وبطشه وظلمه للناس، فنسبوا إليه كل هذه الأمور التى تحدثنا عنها.

والحقيقة أننا لا نعثر فى كتب التاريخ التى عاصر أصحابها على بن الفضل أو كانوا قريبين من عصره من يدافع عنه أو يذكره إلا بالسوء. وهذا دليل على أنه كان حاكما ظالما مستبداً، ترك أسوأ الأثر فى نفوس الناس.

ونسب المؤرخون إلى ابن الفضل أنه قرمطى، وهذا غير صحيح. فهو إسماعيلى مرتد، وربما نسبوا إليه ذلك لأنه قال فى إحدى رسائله إلى ابن حوشب بأنه يقتدى بأبى سعيد الجنابى. وكان يقصد بذلك الإغارة على البلاد والاستيلاء عليها بالعنف. أما ابن الفضل فلم يكن قرمطياً. وربما نسب إليه المؤرخون ذلك،... للتقليل من شأنه، فقد نبذ المسلمون القرامطة لما ارتكبوه من سلب ونهب وانتزاع الحجر الأسود من الكعبة، ونسبوا إليهم تحليل المحارم، وارتكاب الآثام والمعاصى.

ومهما يكن من أمر فقد نسب إلى أسعد بن يعفر أنه حرض طبيباً قدم من بغداد على قتل ابن الفضل، وكان جراحا ماهراً فى صناعة الأدوية، بصيراً بمداواة الجروح. ورأى أسعد ابن يعفر أن يدبر مؤامرة للتخلص من على بن الفضل، يتقرب بها إلى الله، ويخلص اليمانية من هذا الطاغية. وذهب الطبيب- بتحريض من ابن يعفر- إلى المذيخرة[1]، واختلط بأهلها وعالج مرضاهم، فلما سمع عنه ابن الفضل، قربه إليه، واتخذه طبيباً له فسقاه سماً، مات على أثره ابن الفضل[2]، وسعد الناس بمقتل هذا الطاغية، بدليل أنهم أقاموا مسجداً فى الموضع الذى دفن فيه قاتل ابن الفضل فى وادى السحول، وكانوا يزورون المسجد ويقرأون الفاتحة على روح مخلصهم من جور ابن الفضل[3]. ونسب الفاطميون لأنفسهم مقتل ابن الفضل، كما نسب العباسيون لأنفسهم هذا الأمر. ونحن نشك فى الروايتين الأخيرتين. ونرى أن بنى يعفر، وأسعد بالذات، هو المدبر لهذه المؤامرة، ذلك أن الدولتين العباسية والفاطمية فى المغرب كانتا بعيدتين كل البعد عما يجرى فى اليمن، وغارقتين فى مشاكلهما. أما ابن يعفر فكان يقع تحت طائلة واستبداد ابن الفضل فدبر المؤامرة بنجاح سنة ٣٠٣هـ.

لما قتل ابن الفضل خلفه ابنه فى المذيخرة، ولكن أسعد بن يعفر زحف إلى حصن التعكر، ورأى الفرصة سانحة بعد مقتل ابن الفضل، وضعف ابنه وكراهية الناس لحكم هذه الأسرة، ونصب المنجنيقات على المذيخرة ودمرها تدميراً سنة ٣٠٤هـ[4]، وقتل أنصار ابن الفضل وأقاربه، وغنم مغانم كثيرة، وسبى بنات ابن الفضل الثلاث واصطفى أسعد واحدة منهن، وهبها لابن أخيه قحطان فأنجبت منه عبد الله، وظل أسعد بن يعفر يتتبع أنصار ابن الفضل فى كل البلاد ويقتلهم حيثما وجدوا، ثم عاد إلى صنعاء، وأخذ ولدين لعلى بن الفضل وجماعة من رؤساء دولته، فقتلوا جميعاً، وأرسلت رؤوسهم إلى مكة، فنصبت فى موسم الحج[5].

---

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢٠٦

(٢) المصدر السابق ص٢٠٧.

(٣) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٣٥-٣٦.

(٤) نشوان الحميرى : منتخبات فى أخبار اليمن، كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ص٢٠٠.

(٥) الجندى: السلوك ١٤٩-١٥٠.

على كل حال فقد جلب ابن الفضل على نفسه كراهية اليمانية كافة على اختلاف مذاهبهم السنية والشيعية، وكون لنفسه ملكا غير مستقر يقوم على القوة والعنف، ولما توفى تعرض أبناؤه- كما رأينا- للقتل وسقطت دولته.

أما منصور اليمن فقد بقى إلى آخر حياته مخلصاً للدعوة الإسماعيلية وللإمام المهدى. ولكن حركة على بن الفضل، أضعفت الدعوة الإسماعيلية حتى أن منصور اليمن، لجأ إلى مسور، وغيرها من الأماكن الحصينة البعيدة عن ابن الفضل وتستر وكتم أمره حتى وفاته سنة ٣٠٢هـ[١]. إذن ضعفت الدعوة الاسماعيلية فى اليمن، وتخلى عنها الكثيرون بعد خروج ابن الفضل عليها، واضطهاده لأنصار المذهب الإسماعيلى، وكان للانقسام الذى حدث بين ابن حوشب رئيس الدعوة الإسماعلية وبين على بن الفضل، أثره فى ضعف الدعوة، وعودة الكثير من معتنقيها إلى المذهب السنى.

لم يحدد ابن حوشب قبل وفاته من يخلفه فى رئاسة الدعوة، بل ترك الأمر للإمام عبيد الله بن المهدى فى إفريقية. وكان أبو الحسن بن حوشب وعبد الله بن عباس الشاورى من كبار رجال الدعوة الإسماعيلية. وأوصى كل واحد منهما بصاحبه، والتعاون والتضامن فى مناصرة الدعوة. وقال: «قد أوصيتكما بمَبدأ الأمر فاحفظاه ولا تقطعا دعوة بنى عبيد، فنحن غرس من غرسهم ،ولولا ناموسهم ومادعونا به إليهم، ماصار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولاتم لنا فى الرياسة حال، فعليكما بمكاتبة القائم منهم، واستبراء الأمر منهم،... فأوصيكم بطاعة المهدى.. حتى يرد أمره بولاية أحدكما ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه[٢]. وبذلك لم يحرص ابن حوشب على ترك أمر الدعوة فى أسرته.

كان عبيد الله المهدى يعرف عبد الله بن عباس الشاورى، منذ أن أرسله إليه ابن حوشب مع أبى عبد الله الشيعى فى إفريقية، وتلمس فيه الإخلاص للدعوة، والمقدرة على القيام بعبء رئاستها[٣]، وقد استغل الشاورى فرصة ترك ابن حوشب أمر رئاسة الدعوة للإمام عبيد الله المهدى، وأرسل إليه- أى إلى الإمام- يخبره بوفاة ابن حوشب، وأنه يقوم بالدعوة من بعده بصفة غير رسمية، ويرجو حصوله على تقليد من الإمام برئاسة الدعوة، وسأله استبعاد أبناء ابن حوشب، لعدم استطاعتهم القيام بأمر الدعوة. ولما كان عبيد الله

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢١٣.

(٢) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٩.

(٣) الجندى: أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص١٥٠.

المهدى حريصاً على استمرار الدعوة الإسماعلية فى اليمن، فقد عهد إلى الشاورى بأمر الدعوة[1] ونحن نستبعد ما ذكره الجندى من أن الرسالة التى أرسلها الشاورى إلى الإمام المهدى، أرسلها مع أولاد المنصور ابن حوشب، لأنه لا يعقل أن يطلب الأمر لنفسه دون ابن المنصور فى رسالة يرسلها مع أحد أولاد المنصور. حقيقة انقسم أولاد المنصور على أنفسهم، ولكن هذا الانقسام حدث بعد أن وقف أبو الحسن موقفا عدائياً من الشاورى بعد توليته أمر الدعوة.

ذهب أبو الحسن بنفسه إلى إفريقية لمقابلة الإمام عبيد الله المهدى... والتماس توليته أمر الدعوة، ولكنه ذهب بعد فوات الأوان، ذلك أن عبيد الله المهدى كان قد عهد إلى الشاورى، فأمره المهدى بأن يعمل على نشر الدعوة تحت رئاسة الشاورى، وأن يخلص له ويكون عوناً له، ويسمع له ويطيع[2].

كان أبو الحسن يرى أنه أحق بأمر الدعوة من الشاورى، لأن رئاستها كانت لأبيه، ابن حوشب، فعاد إلى اليمن غاضباً من الإمام المهدى وحانقاً على الشاورى بل والدعوة الإسماعيلية أيضاً. أما الشاورى فباشر أمر الدعوة، وحفظ لأبناء ابن حوشب ما يستحقون من تكريم، فكان يبجلهم ولا يحجب أحداً منهم، بل يدخلون عليه متى شاءوا بغير إذن مسبق[3].

أضمر أبو الحسن العداوة والبغضاء للشاورى، فنهاه عن ذلك أخوه جعفر... وقبح موقفه العدائى من الشاورى وزجره، وحذره من مغبة الخلاف مع الشاورى وافتراق الكلمة، وما قد يترتب على ذلك من إضعاف الدعوة. فقال له: أنت تعلم أنه غرس أبينا، وأنه لا يقوم علينا سوانا فى هذا الأمر. قال: والله لاتركته يتنعم فى ملك عنى به غيره. ونحن أحق به منه. فقال له أخوه جعفر: «إن أمرنا إذن يتلاشى، ويزول ملكنا، ونفترق فى هذه الدعوة، ويذهب الناموس الذى نمسناه على الناس، فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك[4]» على أن أبا الحسن ظل يضمر السوء للشاورى، ولم يلبث أن قتله[5]، وولى هو رئاسة الدعوة

(١) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٣٩.

(٢) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٤٠.

(٣) الجندى : أخبار القرامطة المأخوذ عن كتاب السلوك ص١٧٦.

(٤) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٤٠.

(٥) الجندى: أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص١٧٦.

الاسماعلية، وبذلك حقق هدفه الرامى إلى رئاسة دولة أبيه. ولكن أبا الحسن كان حانقا على الإمام المهدى، ميالا إلى المذهب السنى، فعقد اجتماعا من رجال العشائر فى بلده وأشهدهم أنه تخلى عن المذهب الإسماعيلى[1]، واعتنق المذهب السنى، ففرح الناس بتحوله هذا وأحبوه. وفى ذلك دليل على أن العقيدة الإسماعيلية كانت مزعزعة ضعيفة فى قلوب الناس[2].

غضب جعفر من موقف أخيه المناهض للمذهب الإسماعيلى، ومن تخلصه من الشاورى فقبح فعله، وقال: قطعت يدك بيدك. وغادر جعفر بلاد اليمن، وتوجه إلى إفريقية، وكان عبيد الله المهدى قد توفى، وولى ابنه القائم الخلافة سنة ٣٢٢هـ فأكرم القائم وفادته، وكان موضع تكريمه وتقديره. ولم يلبث أن أصبح من كبار دعاة الإسماعيلية، واعتبر حجة علوم التأويل. وقد سلك بذلك مسلكا خاصاً فى تطور الآداب الفاطمية التأويلية مما جعله فى نظر المعز لدين الله الفاطمى، سيد العلماء والفقهاء.

تتبع أبو الحسن الإسماعيلية فى اليمن يقتلهم، حتى أبادهم، وبقى منهم قوم يتكتمون أمرهم، واتخذوا لهم رئيساً لدعوتهم، وكان يكاتب الخليفة العباسى، وبذلك قضى أبو الحسن على كل الجهود التى بذلها أبوه فى نشر الدعوة الإسماعيلية وتحويل أهل اليمن إليها. ولكن أبا الحسن بتخليه عن المذهب الإسماعيلى واعتناقه المذهب السنى، جلب لنفسه كراهة الإسماعيلية. وفى نفس الوقت لم يجن ثمرة تقربه للسنيين والتمذهب بمذهبهم، فارتابوا فى أمره، وتشككوا فى نواياه، ولم ينسوا أنه كان إسماعيليا، وأن أباه تزعم الحركة الإسماعيلية، واضطهد السنيين فتخلصوا منه وقتلوه هو وأتباعه والمقربين إليه[3]، وبذلك زالت دولة ابن حوشب وهاجم الثوار أفراد أسرته فسبوا النساء، وقتلوا الرجال واستأصلوا شأفة هذه الأسرة[4] ولم يبق لابن حوشب أعقاب. وهذا دليل على مدى كراهة الناس واليمانية للمذهب الإسماعيلى وقادته وأنصاره.

خلف إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى، أبا الحسن، واستقر فى مسور، ولزم به حتى لايتعرض للقتل، وأظهر إبراهيم بن عبد الحميد اعتناق المذهب السنى، وبنى مسجداً، دعا فيه

---

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢١٤.

(٢) ابن فيض الله الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية ص٥٤.

(٣) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٤٠.

(٤) الجندى: أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص١٧٦.

لبنى العباس[1]. وبذلك عادت دولة ابن حوشب الإسماعيلية إلى حظيرة الخلافة العباسية. وأمعن إبراهيم بن عبد الحميد فى اضطهاد الإسماعيلية فكان يتعقبهم وينكل بهم، ولم يبق منهم إلا القليل بناحية مسور، وكتموا أمرهم وأظهروا التقية خوفا من الوقوع فى قبضة إبراهيم[2] بن عبد الحميد، والتفوا حول رجل منهم يسمى يوسف بن موسى بن أبى الطفيل، وتزعم الدعوة للخليفة المعز لدين الله الفاطمى[3]. ولكن إبراهيم بن عبد الحميد قتله فتفرق الإسماعيلية، وغادروا اليمن، وهاجروا إلى عمان وغيرها. وتولى رئاسة الدعوة ابن جفتم فأمعن فى التخفى[4]. وظل يتنقل من مكان إلى مكان، ولايكاد يستقر فى موضع حتى لايقع فى قبضة السنيين. وهذا يدل على مدى ما بلغته الدعوة الإسماعيلية من ضعف. وفى أيامه غادر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إفريقية، وانتقل إلى مصر واتخذ القاهرة حاضرة لدولته. وظل هؤلاء الدعاة- على الرغم مما تعرضوا له من محن- على اتصال بالخليفة الفاطمى.

تتابع الدعاة على اليمن، فتولى الداعى محمد بن بشر أمر الدعوة للخليفة العزيز بالله الفاطمى، وخلفه محمد بن أحمد بن العباس الشاورى، ولم يستمر طويلا، فقد رأس الدعوة بعده للخليفة العزيز بالله الفاطمى، ثم لابنه الحاكم بأمر الله، هارون ابن محمد بن رحيم[5]. وقد قويت الدعوة الفاطمية، واستعادت نشاطها بعد أن تخلى عبد الله بن قحطان بن يعفر والى صنعاء العباسى عن المذهب السنى وطاعة الخلافة العباسية، ودخل فى المذهب الإسماعيلى، ومما يجدر ذكره أن عبد الله بن قحطان ابن بنت على بن الفضل التى وقعت أسيرة فى يد بنى يعفر لما استولوا على المذيخرة[6].

دعا عبد الله بن قحطان للخليفة العزيز سنة ٣٧٩هـ، وفتح تهامة ثم استولى على زبيد- حاضرة بنى زياد- وأمر بقطع الخطبة للخليفة العباسى فى البلاد التى سيطر عليها، وأقام الدعوة للخليفتين العزيز والحاكم بأمر الله. وبذلك انتعشت الدعوة الإسماعيلية من

---

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢١٥.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٥٠

(٣) الشيبانى: قرة العيون ص٢١٥.

(٤) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص٤١.

(٥) الجندى : السلوك ص١٥٢.

(٦) الجندى: السلوك ص١٥٢.

جديد، وأمن الإسماعيليون على أنفسهم، فجاهر الدعاة بالدعوة فى أمن وطمأنينة، وظل الأمر كذلك حتى وفاته سنة ٣٨٧هـ[١].

ومما ساعد على استعادة الحركة الإسماعيلية نشاطها، ضعف النفوذ العباسى فى اليمن، وانصراف أمراء اليمن– الموالين للخلافة العباسية– إلى النزاع بين أنفسهم، الأمر الذى أضعفهم، ومهد السبيل للإسماعيليين لاستعادة نشاطهم، والتغلب على ولاة العباسيين فى اليمن[٢].

تولى أمر الدعوة الإسماعيلية يوسف بن الأسد[٣]. وأقام الدعوة للخليفة الحاكم بأمر الله، وخلفه سليمان بن عبد الله الزواحى، وكان واسع الثراء، قوى النفوذ، واستغل ماله وجاهه فى نشر الدعوة الإسماعيلية، حتى اجتمع لديه الكثيرون، وأقام الدعوة للحاكم بأمر الله والظاهر والمستنصر. وأوصى قبل وفاته بأن يتولى على بن محمد الصليحى من بعده، وأوصى بكتبه وأمواله له[٤].

---

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢١٦.

(٢) العرشى: بلوغ المرام ص٣٥.

(٣) الجندى : السلوك ص١٧٧.

(٤) الشيبانى: قرة العيون ص٢١٦–٢١٧.

الدولة الإسماعيلية الثانية

(الدولة الصليحية)

(١٠٤٧ - ١١٣٨م)

كانت بلاد اليمن فى حالة تدهور سياسى كبير منذ بداية القرن الخامس الهجرى، وأصبحت ممزقة بين القوى المختلفة، وانقسمت إلى ولايات أو دويلات يحكم كلا منها أمير، وتنازع هؤلاء الأمراء فيما بينهم، كل يحاول توسيع رقعة ولايته على حساب جيرانه، وزاد الأمر سوءاً فى بلاد اليمن، سقوط دولة بنى زياد فى زبيد سنة ٤٠٢هـ واستيلاء مواليهم الأحباش على بلادهم فى زبيد والتهايم، وتأسيس الدولة النجاحية على أنقاض ملك سادتهم الزياديين. وكان طبيعياً أن يعارض اليمانية العرب حكم الأحباش العبيد لشطر من وطنهم الكبير، فانتزع الزعماء اليمانية ما استطاعوا من أراضى الدولة النجاحية. وبذلك ازداد الانقسام فى بلاد اليمن، وتبع التدهور السياسى انهيار اقتصادى كبير. ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب[1] الأنباء عن الوضع السياسى والاقتصادى فى بلاد اليمن «عم الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع المملكة الواحدة.. وأظلم اليمن وكثر خرابه وفسدت أحواله.. كانت صنعاء وأعمالها كالخرقة، لها فى كل سنة أو شهر سلطان غالب عليها، حتى ضعف أهلها، وانتقلوا إلى كل ناحية، وتوالى عليها الخراب، وقلت العمارة فى هذه المدة حتى أصبح عدد دورها ألف دار بعد أن كانت مائة ألف دار فى عهد الرشيد.. إلا أن صنعاء تراجعت بعض التراجع فى زمن الصليحيين لما اجتمع لهم ملوك اليمن». وفى ذلك دلالة على ما كانت تقاسيه بلاد اليمن من تمزق وتدهور. ويدل أيضاً على أن الوحدة عادت إلى بلاد اليمن على يد مؤسس الدولة الصليحية. ويدعم هذا القول أن صاحب الأنباء كان عدوا لعلى بن محمد الصليحى.

وقبل أن نتتبع قيام الدولة الصليحية، يجدر بنا أن نشير إلى أن مؤسس هذه الدولة هو على بن محمد الصليحى، وهو ابن القاضى محمد الصليحى، وكان شافعى المذهب[2]،

(١) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن٢٧-٢٨.

(٢) ابن سمره: طبقات الفقهاء ص١٠٥

يدين له بالولاء والطاعة أربعون ألفا من أهل حراز. وقد قويت العلاقة بين الداعى الإسماعيلى سليمان بن عبد الله الزواحى، والقاضى محمد بن على، على الرغم من الاختلاف المذهبى بين الرجلين[1]. وكان الزواحى يحرص على صداقة القاضى محمد بن على، لعلمه وورعه وتقواه ومكانته بين قومه، وقد لمس الزواحى فى على بن محمد الصليحى علامات النجابة والذكاء منذ نعومة أظفاره[2] فلقنه سراً مبادئ الدعوة الإسماعيلية، واستماله إلى مذهبه، وبلغ من ثقة وتقدير الزواحى بعلى بن محمد الصليحى أن أيقن أنه خير من يخلفه فى رئاسة الدعوة الإسماعلية فى بلاد اليمن[3]، فاستأذن الخليفة المستنصر فى أن يجعله خليفة له، ولما شعر بدنو أجله لقنه أسرار الدعوة الإسماعيلية وعلومها، وأوصى له بكتبه وأعطاه مالا كثيراً كان قد جمعه من أهل مذهبه[4]. وأثبتت الأيام فطنة الشيخ الزواحى فيما ذهب إليه، إذ عكف الصليحى على دراسة المذهب الإسماعيلى وأصوله وعلومه وبصفة خاصة علم التأويل والظاهر والباطن[5].

ظل الصليحى يعمل منذ شبابه الغض دليلا للحجيج على طريق السراة[6] والطائف خمسة عشر عاماً، لا يحج بالناس غيره، وتقلبت به الأحوال فى بادئ عمره «من خفض إلى رفع ومن ضر إلى نفع» ويردد بعض المؤرخين اليمنيين أن الناس فى أول ظهور الصليحى كانوا يقولون له: قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن، ودولة، فيكره ذلك، وينكره على قائليه، مع أنه أمر قد شاع فى أقواله بأفواه الناس من الخاصة والعامة». ومما لاشك فيه أن هذه الرواية من نسج خيال الإسماعيلية فى بلاد اليمن، إذ كانو يضفون على الأئمة والدعاة هالة من التقديس، وينسجون حول ظهورهم وحياتهم الأساطير.

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع الصليحى من عمله هذا الاتصال بالجماهير اليمنية من مختلف البلاد[7]، وتمكن من بث الدعوة واجتذاب الكثيرين إليها.

---

(١) عبارة اليمنى: المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ص٩٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص١٣٧.

(٣) عمارة: المفيد ص٩٦.

(٤) العرشى: بلوغ المرام ص٢٤.

(٥) الحمادى اليمانى: كشف أسرار الباطنية ص٤٠

(٦) عمارة: المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ص٩٧-٩٨.

(٧) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص١٣٧.

وتزوج الصليحي من السيدة أسماء ابنة عمه شهاب، وكانت شاعرة، أدبية، تختلف كل الاختلاف عن نساء عصرها، فلم تكن مجرد زوجة منعزلة في بيتها، بل كانت تشارك زوجها بالرأي والمشورة في شئون نشر الدعوة وفرض سلطانه على بلاد اليمن. بل نستطيع أن نقول أنها كانت وزيرة غير رسمية لزوجها[1].

التف بعض اليمانية المقيمين بمكة المكرمة حول علي بن محمد الصليحي وتعاضدوا وتعاهدوا على نصرته في نشر المذهب الإسماعيلي والدعوة للإمام المستنصر بالله- الخليفة الفاطمي في مصر- وفي سنة ٤٣٩هـ أعلن الصليحي الثورة في مسار[2]- وهو في ذلك الوقت قمة عالية ليس فيها بناء- وانضم إليه بعض الرجال الذين والوه في مكة، وكانوا جميعاً في منعة وعدد كثير من عشائرهم. على أن أهل البلاد المحيطة بمسار، هالهم استيلاء الصليحي على رأس مسار، وتخوفوا من عاقبة ذلك. وارتابوا في نوايا الصليحي نحوهم[3]. وخشوا أن يتخذ من مسار قاعدة للاستيلاء على بلادهم والسيطرة عليها. لذلك حاصره عشرون ألفاً، وشددوا الحصار على مسار، وقالوا له: إما نزلت وإلا قتلناك أنت ومن معك بالجوع. ولكن الصليحي خادعهم وأوهمهم أنه يتخذ حصناً في هذا الموضع للدفاع عنهم ونصرتهم من عدو يهاجمهم فانصرفوا عنه[4].

شيد الصليحي الحصن في حوالي شهر، واستأذن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في إظهار الدعوة[5]، فأذن له. وبذلك اكتسب الصفة الشرعية في رئاسة الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن، فقوى شأنه بين أنصاره، وعظم أمره، ونشط في نشر الدعوة، فطوى البلاد طياً وفتح الحصون والتهايم. وفي سنة ٤٥٥هـ لم يبق في بلاد اليمن سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا وفتحه «وهذا أمر لم يعهد مثله في جاهلية ولا إسلام[6]».

ولقد واجه الصليحي الكثير من الصعاب والمشاق في نشر دعوته، وضم بلاد اليمن إلى حوزته، واتخذ من حصنه الحصين قاعدة لنشر نفوذه، ومستودعاً لماله وسلاحه، وأدحض

(١) عمارة: المفيد ص٩٨.
(٢) ابن الديبع: بغية المستفيد ص٤٥.
(٣) عمارة: المفيدص١٠١.
(٤) عمارة: تاريخ اليمن ص٥١.
(٥) العرشي: بلوغ المرام ص٢٥.
(٦) عمارة المفيد ص١١٧.

الصليحى محاولات الزيدية لاستعادة نفوذهم[1] حتى هابه الناس ودخل الكثير من أهل البلاد المجاورة فى طاعته، وقدموا له الأموال، فازداد قوة على قوة[2]. وجنى ثمرة انتصاره على الإمام الزيدى وحليفه، فسار إلى حضور واستولى عليها، وملك حصن يناع. لذلك كان لابد أن يقع الصدام بين الصليحى وبين ابن أبى حاشد- صاحب صنعاء- إذ أن اقتراب نفوذ الصليحى من صنعاء حدا بصاحبها إلى إبعاد هذا الخطر الزاحف على صنعاء وما جاورها. وفعلا التقى صاحب صنعاء بالصليحى فى قرية صوف- بالقرب من حضور- فى معركة اشتد فيها القتال، وانتهى القتال بهزيمة صاحب صنعاء هزيمة فادحة، بل قتل وقتل ألف من رجاله. وكان لهذه المعركة نتائج هامة فى تطور الحياة السياسية فى بلاد اليمن، فقد مهد هذا الانتصار الصليحى أمر المسير إلى صنعاء، فزحف إليها دون مقاومة تذكر[3] بعد أن مزق جيش صنعاء، وتفرق من لاذ بالفرار فى المعركة فى أرض اليمن، وسار الصليحى إلى صنعاء ودخلها وملكها[4]، وأدى دخول صنعاء فى حوزة الصليحى إلى زيادة نفوذه فى بلاد اليمن، نظراً لأهميتها كأهم مدينة فى اليمن ولموقعها الجغرافى الفريد فى هذه البلاد.

واتخذ الصليحى صنعاء عاصمة لدولته بعد أن امتلكها وأسكن فيها ملوك اليمن الذين سيطر على بلادهم، وغلبوا على أمرهم[5]، وأقدم على هذا العمل حتى يبعدهم عن بلادهم، فلا يعودون إلى الثورة عليه أو محاولة الاستقلال ببلادهم المغتصبة. وبذلك اتسع نفوذ الصليحى فى بلاد اليمن. وأصبح الصليحى بذلك أكبر قوة فى بلاد اليمن، يعمل لها كل حساب، وهابه اليمانية، وضعف أمر الإمام الزيدى، بل سقطت دولته، وانفض الناس من حوله، ولم تعد له فئة تناصره وتؤازره، وانضم الناس إلى الصليحى بعد أن قهر كل من اعترض طريقه[6].

اعترضت الدولة الصليحية منذ قيامها صعاب هددت بقاءها، ذلك أن أمراء اليمن الذين قهرهم الصليحى، وأخضعهم، تطلعوا إلى استرداد نفوذهم، والعودة إلى ما كانوا

(١) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص١٣٧.

(٢) العرشى: بلوغ المرام ص٥٧.

(٣) عمارة: المفيد١٠٩.

(٤) العرشى: بلوغ المرام ص٢٥.

(٥) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ص٤٠.

(٦) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢٥٠

يتمتعون به من استقلال، وقد شاركهم أهالى اليمن فى هذا الشعور، لأن اليمانية لم يألفوا الخضوع لحكومة واحدة، والانتظام فى سلك دولة موحدة، كما أن الكثير من اليمانية يرفضون المذهب الإسماعيلى كل الرفض، فهم سنيون أو زيديون، يعارضون المذهب الإسماعيلى، بل ويعتبرونه مخالفاً تماماً للإسلام، وفيه خروج على الدين، ويرمون معتنقيه بالكفر والضلال. لذلك عقد كبار الأمراء اليمنيين حلفاً فيما بينهم للاستقلال عن الدولة الصليحية، وتحدث الشيوخ والوعاظ والقضاة فى المساجد عن كفر المذهب الإسماعيلى وبطلانه، وقد أيد اليمانية أمراءهم ورؤساءهم فى السعى إلى الانفصال عن الدولة الصليحية، فرارا بدينهم وعقيدتهم ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل.

عول الصليحى على إتمام سيطرته على اليمن، فسار إلى اليمن الأسفل وهاجم جبل صبر[1] وبلاد بنى الكرندى[2]– ملوك المعافر– وحصن الدملوه، واستولى على كل هذه المناطق، واستولى على حصن حب[3] وبعدان[4] والسحول[5] والشوافى، ودخل الجند، وسيطر عليها[6]، ثم سار إلى عدن، واستولى على بلاد بنى معن– أصحاب عدن[7]– وأبقى بنى معن على بلادهم بعد أن دخلوا فى طاعته. كما تخلص الصليحى من نجاح– صاحب زبيد والتهايم– سنة٤٥٥هـ وسيطر على بلاده. وبذلك دانت بلاد اليمن بالولاء والطاعة للصليحى، وقد نوه بانتصاراته التى أدت إلى توحيد بلاد اليمن تحت قيادته إلى السلطان معن بخطاب جاء فيه: «الدولة حصينة، والصولة مكينة، والرايات منشورة، والأجناد منصورة، وسيوف الحق على الأعداء مشهورة، والحضرة بالسعود محروسة»[8].

ومهما يكن من أمر فقد تم للصليحى سنة ٤٥٥هـ أمر السيطرة على اليمن «سهله ووعره وبحره إلا صعدة فإنها امتنعت عليه بعض الامتناع بأولاد الناصر، حتى قتل القائم

---

(١) جبل شامخ يطلق على حصن الثغر.

(٢) قوم من حمير لهم مكارم.

(٣) المله: حصن عظيم على جبل جنوب ثغر.

(٤) بناحية بعدان بالقرب من اب.

(٥) مخلاف متصل بناحية بعدن.

(٦) رسائل القمى ص٢٧.

(٧) العبدلى: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص٥٣.

(٨) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ص٤٠.

منهم فخضعت اليمن كلها للصليحى واتخذ صنعاء حاضرة لدولته، وشيد بها عدة قصور، وعنى بعمارتها، وإعادة الأمن والنظام إليها، وجمع ملوك اليمن الذين زال ملكهم على يديه، فأسكنهم صنعاء، لأن بقاءهم فى بلادهم، قد يدفعهم إلى التمرد والعصيان، ومحاولة استعادة سلطانهم، والاستقلال عن الدولة الصليحية[1].

على أن أهل صنعاء قد عارضوا بشدة المذهب الإسماعيلى، وخشوا أن يعيد الصليحى إليهم ما قاسوه أيام ابن الفضل، فكانوا يجتمعون فى المساجد، ويستنكرون المذهب الإسماعيلى، ويتشاورون فى الخروج على الدولة الصليحية. لذلك شدد على بن محمد الصليحى الرقابة على المساجد، ومنع التجمعات فيها إلا للصلاة والدرس[2].

وبعد أن دانت بلاد اليمن بالولاء والطاعة للسلطان على الصليحى، نظم إدارة البلاد، وولى عليها ولاة يثق فيهم وفى مقدرتهم، فولى على زبيد أسعد بن شهاب- أخا زوجته أسماء- وكان أقسم بالله ألا يولى تهامة إلا من حمل له مائة ألف دينار فجمعت إليه زوجته أسماء هذا المبلغ، وسألته أن يولى أخاها أسعد بن شهاب. فقال لها: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)، فقبضه وقال (هذه بضاعتنا ردت إلينا) قالت: (ونمير أهلنا ونحفظ أخانا) ثم ولى الصليحى أسعد بن شهاب ولاية زبيد، فأحسن إلى الرعية، وسار فى الناس سيرة حسنة مرضية، وتسامح مع أهل اليمن، فتركهم يمارسون تعاليم مذهبهم بحرية كاملة، وأحسن معاملة من بقى من بنى نجاح وأنصارهم الأحباش. فالتف أهل زبيد حوله وأيدوه، ورأوا فى الحكم الصليحى العدل والتسامح، وازداد دخل زبيد فى عهد أسعد بن شهاب، بسبب الاستقرار السياسى والتسامح المذهبى- واهتمام أسعد بن شهاب بتحسين الأحوال الاقتصادية للإقليم فكان يحمل إلى الصليحى فى كل سنة مائة ألف دينار بعد تسديد نفقات الإقليم الخاصة بالإصلاحات ورواتب الجند وغير ذلك من وجوه الإنفاق[3].

واستعمل الصليحى ابنه المكرم أحمد، على الجند وما يليها. واستعمل أخاه السلطان

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٢٥٤.

بامخرمه: تاريخ ثغر عدن جـ٢ص٤٠

(٢) العرشى: بلوغ المرام ص٢٦.

(٣) عماره: المفيد ص١٢١.

عبد الله بن محمد بن على، على التعكر وماوالاه. وفى سنة ٤٥٧هـ اختط عبد الله بن محمد الصليحى مدينة ذى جبلة بأمر أخيه السلطان على بن محمد الصليحى[١]:

لم يكتف الصليحى بما بلغه من نفوذ فى بلاد اليمن، بل تطلع إلى السيطرة على بلاد الحجاز لما لها من أهمية دينية. وكان أشراف مكة يتأرجحون فى ولائهم بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية. وفى سنة ٤٥٣هـ، قطع شريف مكة شكر الحسينى الخطبة للخليفة المستنصر، وأقامها للخليفة العباسى. وكان الصليحى أبرز داع إسماعيلى فى الجزيرة العربية، فأخلص كل الإخلاص للإمام المستنصر، فعهد إليه المستنصر بالعمل على إعادة النفوذ الفاطمى إلى بلاد الحجاز، فأرسل الصليحى رسائل تهديد ووعيد إلى شريف مكة، يحذره مغبة الخروج على الخليفة الفاطمى- ولكن شريف مكة لم يأبه بالتهديد، وظل على ولائه للخليفة العباسى. فاستأذن الصليحى من الخليفة المستنصر بالمسير إلى مكة، وإعادة الدعوة الفاطمية إليها، فوافق الخليفة الفاطمى، وأرسل إلى الصليحى ينهاه، عن سفك الدماء فى البلد الحرام فقال «إياك أن تلقى الله بدماء بنى فاطمة[٢]».

كان شكر بن أبى الفتوح الحسينى يحكم مكة، ولم يترك ولداً يتولى أمرها من بعده، فزال بوفاته نفوذ بنى سليمان بمكة، وتقلد الحكم فيها رئيس الهواشم إذ ذاك محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد الذى كانت له مكانة كبيرة بين قومه، فحارب بنى سليمان فى مكة سنة ٤٥٤هـ، وأوقع بهم الهزيمة، وأخرجهم من الحجاز، فساروا إلى اليمن، واستقل بإمارة مكة وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى[٣].

لم يعلم الأمير جعفر على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة، فبدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى، ثم مالبث أن تحول عن الولاء للخليفة الفاطمى، وأقام الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله، فأمر الخليفة المستنصر- كما قلنا- على بن محمد الصليحى بالمسير إلى مكة وإعادتها إلى حوزة الدولة الفاطمية فسار الصليحى إلى مكة، وعمل على استمالة أهلها إلى جانبه بما كان معه من الأموال وإعادة الأمن والنظام إلى هذا البلد الأمين. فطابت قلوب الناس، ورخصت الأسعار، وكسا الصليحى البيت الحرام

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٥٥.

(٢) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص١٢٢.

بكسوة بيضاء[1]. وأمن الحجيج على أنفسهم وأموالهم، أمناً لم يعرفوه من قبل، حتى أنهم كانوا يعتمرون ليلا ونهاراً «وأموالهم محفوظة ورجالهم محروسة» وأخضع القبائل التى كانت تتعرض للحجيج وقلم أظافرهم، فكفوا عن العدوان على ضيوف الرحمن، وأصلح ما أفسده الأشراف فى بلاد الحجاز، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص، وقدم المعونات الغذائية والمالية لفقراء الحرمين الشريفين فأحبه المسلمون فى بلاد الحجاز وخارجها[2].

على أن نفوذ الصليحى لم يدم طويلا فى بلاد الحجاز، ذلك أن محمد بن جعفر- شريف مكة- يتأرجح فى ولائه بين العباسيين والفاطميين، ووصفه أبو المحاسن بأنه كان متلوناً، تارة مع الخلفاء العباسيين، وتارة مع الفاطميين، وحكم البلاد حكماً ظالماً غاشماً، وعادت الفوضى والاضطراب إلى البلاد، حتى أن الحجيج كانوا يتعرضون للأذى والسلب[3].

ولم يلبث شريف مكة أن أظهر عداءه للصليحى، فهاجم مدينة الحلى، واستولى على ما فيها من أموال وودائع الصليحى، فى الوقت الذى شغل فيه الصليحى فى قمع الحركات التى برزت ضد حكمه، والتى ظهرت فى غيابه. ولما اعتزم الصليحى العودة إلى الحجاز لقهر مخالفيه، هاجمه سعيد الأحول وقتله.

كان الصليحى ملكاً مستنيراً، حكم البلاد بالعدل، وكان متسامحاً مع مخالفيه فى المذهب، ولم يفرض مذهبه على أهل اليمن، بل ترك الباب مفتوحاً لمن أراد التحول إلى مذهبه الإسماعيلى، بدليل أن أهل صنعاء، لما اجتمعوا فى المساجد، وشنوا عليه حملات تستهدف النيل من مذهبه، بل وشبهوه بابن الفضل- الذى قاسى منه الناس الظلم والجور- فتسامح معهم، وشدد رقابته على المساجد ولم يتعرض بسوء للذين شنوا عليه هذه الحملة[4].

ولأول مرة فى تاريخ الإسلام فى اليمن، تتوحد بلاد اليمن تحت قيادة واحدة وسلطان واحد، ويقول عمارة[5]: «إن هذا أمر لم يعهد فى جاهلية ولا إسلام» ويقول

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ص٢٧.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ص٧٢

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ص١٤٠

(٤) عمارة: تاريخ اليمن ص١٨.

(٥) عمارة: تاريخ اليمن ص١٨.

العرشي[1]: «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحى، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وغربه وشرقه في المدة اليسيرة، وقهر ملوكه».

وقد رثاه الشاعر بقوله:

وكيف لا نبكى ملوكاً عنت   لهم ملوك الشرق والمغرب
لم تطلع الشمس على مثلهم   من غيرهم جوداً ولم تغرب
دارت رحى بأسهم من قرى الشحر إلى نجد إلى يثرب
بما حوى البحر وشادوا العلى   وأدركوا ثارات آل النبى

وقد ضمن توحيد دولته بعد أن ولى أقاربه المخلصين الولايات، فولى أخاه السلطان عبد الله بن محمد الصليحى حصن التعكر، وولى الحسين بن مهلهل حصن الأضروح، وولى سبأ بن أحمد الصليحى حصن أشيح، وولى عبد الله بن يعلى حصن خدد[2]، واستعمل الأمير أحمد المكرم على الجند وما والاها[3].

حرص الصليحى على نشر العدل فى دولته، وتأمين المواطنين على حكامهم، فكان يجمع ولاة الأقاليم فى اليمن من حين إلى حين، ويعظهم ويحثهم على رفع الظلم والجور عن الأهلين، ويحذرهم مغبة إلحاق الضرر والأذى بالمواطنين[4]، وقد نصحهم فى إحدى جلساته معهم فى مسار بقوله: «إن الذى بلغنى عن قوم منكم هو يغضب الله ووليه، وأنا أغضب مما يغضب الله، فمن كان منى لم يتعد شيئاً من الدين، ولم يتعرض لسخط رب العالمين، ولم يخالف مولانا أمير المؤمنين. ومن لم يكن منى أخرجته من جماعتى، ونفيته من بلدى، وأجريت عليه من الحكم ما يجرى على أمثاله من المعتدين[5]» وأنذر المخالفين بقوله: «فمن كابر وعاند ورفع أمره إلى أنزلت به ما يستحقه» وكان يلقنهم من حين لآخر علوم الدعوة الإسماعيلية، حتى ينشروها فى أقاليمهم، ويكون لديهم المقدرة على مناظرة علماء السنة ومخاليفهم من علماء الزيدية.

---

(١) العرشى: بلوغ المرام ص٢٦.

(٢) خدد: حصن فى نواحى وصاب.

(٣) الشيبانى: قرة العيون ص٢٤

(٤) عيون : جـ٧ ص٨.

(٥) عيون: جـ٧ ص١٢-١٣.

ومما لا شك فيه أن استقرار الأوضاع السياسية فى بلاد اليمن وسياسة التسامح التى اتبعها الصليحى مع المخالفين لمذهبه، واستتباب الأمن والنظام فى عهده- وهو أمر لم تحظ به بلاد اليمن إلا قليلا إن لم يكن نادراً-أدى إلى تحسن الأحوال الاقتصادية.

ولى المكرم أحمد الملك بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحى[(١)]، وأرسل إليه الخليفة المستنصر بالله رسالة سنة ٤٦٠هـ عبر فيها عن أسفه لوفاة والده، وعزاه وواساه، وأثنى على والده وإخلاصه فى رئاسة الدعوة فى اليمن والحجاز وغيرهما، وقلد المكرم شئون الدعوة خلفاً لأبيه، ووجه إليه النصح والإرشاد[(٢)].

على أن الدولة الصليحية فى اليمن قد اضطربت كل الاضطراب بعد مقتل على ابن محمد الصليحى[(٣)]، ذلك أن بلاد اليمن لم تألف من قبل الخضوع لسلطة مركزية واحدة، بل جنح زعماء اليمن وشيوخ قبائلها إلى الاستقلال. يضاف إلى ذلك أن الكثير من اليمنيين قبلوا الحكم الصليحى كرهاً، لأنهم سنيون يبغضون المذهب الإسماعيلى، بل ويحرمونه، أو زيديون يعارضون الإسماعيلية. وكل هذه العناصر المعارضة للحكم الصليحى خضعوا على مضض وبقوة السيف للملك الصليحى، وترقبوا الفرصة المواتية للثورة على حكومتهم الإسماعيلية، واستعادتهم حريتهم واستقلالهم والتخلص من مذهب يكفرونه. لذلك اشتعلت اليمن ناراً بعد مقتل الصليحى[(٤)] وتعددت فيها الثورات، وأصبحت الدولة الصليحية على شفا حفرة من النار، مهددة بالتفكك والتدهور. وبات واضحاً كما لو كان صرح البناء الذى بذل فيه الصليحى كل جهد لتشيده على وشك الانهيار، وزاد الأمر سوءاً وأمور الدولة تعقيداً أن المكرم بن على الصليحى كان فى صنعاء فى قلة من الجند وفى فئة قليلة من أنصاره، لايستطيع بهم القضاء على الفتن والثورات التى اجتاحت بلاد اليمن، وامتد لهيبها إلى صنعاء. ولكن شاءت المقادير أن يصل قواد الصليحى الذين رافقوه فى رحلته الأخيرة من بلاد الحجاز إلى صنعاء فتنفس المكرم الصعداء وقوى أمره بهم، وشرع فى العمل على إعادة الأمن والنظام إلى دولة أبيه[(٥)]. والقضاء على الفتن والقلاقل التى كادت أن تعصف بها.

---

(١) عماره: المفيد ص ١٢٨.

(٢) السجلات المستنصرية: رقم ٦٠ص ١٩٦-١٩٧

(٣) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص١٢٢.

(٤) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ص٧.

(٥) عماره: المفيد ص١٣٠.

ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص١٢٢.

ومن أهم العقبات التي واجهت المكرم حينما ولى حكمه أن والدته أسماء بنت شهاب أسرها سعيد الأحول في زبيد، بعد أن قتل أباه على الصليحى؛ واستعاد النجاحيون ملكهم فى زبيد والتهايم؛ وانفصلت هذه المنطقة عن الدولة الصليحية[1] ووضع المكرم لنفسه برنامجاً يتضمن تخليص والدته من الأسر، واستعادة السيطرة على دولة أبيه والقضاء على الفتن والثورات بها.

ومن بين الثورات التى قامت ضد المكرم، ثورة بعض قبائل حراز[2] وقصدهم لمن فى حصن مسار من الجيش الصليحى؛ ولما علم المكرم بهذه الثورة، أرسل جيشاً لإخمادها، ولما بلغ الجند الصليحى مسار، وباغت القبائل الثائرة، خضعوا واستكانوا واستسلموا، واعتذروا عما بدر منهم، وأقام الجند الصليحى فى مسار ثمانية أيام، أعاد إليها الأمن والهدوء، ثم عاد الجند الصليحى على طريق ألهان[3] وقد انتفضت أيضاً على الحكم الصليحى؛ فأخمد الجند الثورة وأخضع أهلها للحكم الصليحى[4].

كذلك دخل المكرم ظافراً منتصراً مدينة زبيد، وأسرع إلى المعتقل الذى تقيم فيه والدته سنة ٤٦١هـ؛ وقالت له: مرحباً بمولانا المكرم؛ من جاء كمجيئك فما أبطأ ولا أخطأ[5].

بقى المكرم فى زبيد بعض يوم، استعاد السيطرة الصليحية عليها، ونظم أمورها وأعاد الأمن والطمأنينة إلى أهلها، وأناب عنه والياً عليها[6].

كذلك أخضع المكرم بن على الصليحى، عدن لسلطانه، ذلك أن أصحابها– بنى معن– امتنعوا عن أداء الخراج للمكرم بعد وفاة على الصليحى، وتطلعوا إلى الاستقلال عن الحكم الصليحى[7]، فغزاهم المكرم بعد استعادة زبيد، وأخرجهم من عدن، واستعمل عليها

(١) الخزرجي: العسجد المسبوك ورقة ١٣٩.

(٢) مخلاف قرب زبيد سمى باسم قوم من حمير.

(٣) أحد مخاليف اليمن.

(٤) يحى بن الحسين: غاية الأماني ص٥٨.

(٥) عمارة: تاريخ اليمن ص٥٨.

(٦) العرشي: بلوغ المرام ص٢٦.

(٧) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ص٤٠

العباس بن المكرم الهمداني، وأخاه سعودا[1]، وعهد إلى العباس بحكم حصن التعكر وباب البر وما يدخل منه[2]، وعهد إلى مسعود بحكم حصن الخضراء وباب البحر وما يدخل منه[3].

رأى المكرم في سنة ٤٨٠هـ أن أهل جبلة مسالمون مطيعون لحكامهم. أما أهل صنعاء فكثيرو الشغب، يستجيبون بسرعة للفتن والثورات والحركات المضادة فنقل حاضرة دولته إلى ذي جبلة[4]، وجعلها مقراً له، وشيد بها دار العز واتخذه قصراً له ومقراً لحكومته[5].

لم يلبث أن مرض المكرم، وعجز عن مباشرة شؤون الحكم، وأمور الدولة ففوض زوجته الملكة أروى بحكم اليمن، ونستبعد ما ذكره بعض المؤرخين من أن المكرم تنازل عن سلطانه لزوجته ليعكف على اللهو والشراب، والاستمتاع بملاذ الحياة. فالثابت من تاريخ المكرم أنه قضى سني حكمه في حروب متصلة، لاستعادة ملك أبيه، ولما أصابه مرض الفالج، وعجز عن أداء مهامه، اعتكف عن الناس وترك ذي جبلة، وقضى بقية حياته في حصن التعكر بعيداً عن السياسة والحكم بناء على نصيحة الأطباء.

والجدير بالذكر أن أخبار الصليحيين وتاريخهم نقل عن مؤرخين زيديين مثل ذو الشرفين في سيرته أو سنيين مثل الحمادي اليماني وابن سمرة[6].

أوصى المكرم قبل وفاته بأن يتولى أمر الدولة الإسماعيلية في اليمن أبو حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي، ولما توفي المكرم كتمت الملكة أروى نبأ وفاة زوجها، وولت ابنها؛ وأرسلت تطلب من الخليفة المستنصر تقليداً لابنها بحكم مملكة أبيه، فوافق

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص٢٦٠

(٢) عمارة: المفيد ص١٣٣.

ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص١٢٢.

(٣) العبدلي: هدية الزمن ص٥٥

(٤) يحيى ابن الحسين: غاية الأماني ص٢٧١.

(٥) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص١٢٢.

(٦) ومما يجدر بنا ذكره أن أحد كبار رجال الدولة المقربين إلى المكرم، ذهب إلى حصن التعكر لزيارة المكرم، فمنعه الحاجب من الدخول على الملك، فأنشد قائلا:

أباب كليب إنني لك هاجر   على أنني داع لمولاك شاكر

المستنصر، وأصدر مرسوماً بتقليد على بن المكرم ملك اليمن، ولقب عبد المستنصر[1]. وبذلك لم تنفذ الملكة وصية زوجها، وضمنت استمرار الحكم فى يدها؛ بتولية ابنها الطفل.

على أن عبد المستنصر لم يلبث أن توفى؛ وتزوج أبو حمير سبأ الملكة أروى بأمر من الخليفة المستنصر، وقد بذل كل جهد فى تقوية أمر الدعوة الإسماعيلية؛ والقضاء على الحركات المناهضة للدولة الصليحية حتى وفاته سنة ٤٩٢هـ[2].

أخذت الدولة الصليحية في الضعف بعد وفاة أبى حمير سبأ، وانفصلت الولايات عن الدولة؛ واستولى السلطان حاتم بن الغشم المفلس الهمدانى على صنعاء وأعمالها، فضبط أمورها وأطاعته قبائل همدان[3]. كما استقل بنو زريع بعدن.

عهدت الملكة أروى إلى المفضل بن أبى البركات بأن ينوب عنها فى إعادة الوحدة إلى مملكتها، وقمع حركات التمرد والعصيان، وعهدت إليه الملكة بولاية حصن التعكر، ولهذا الحصن أهمية كبيرة، ففيه خزائن وذخائر الصليحيين[4]، وكان المفضل يتصرف طبقاً لتعليماتها، ويدخل عليها مع خواص وزرائها والأمراء والأكابر من رجال الدولة، وكانت الملكة لا تبحث أمراً إلا بعد مشورته. لذا كانت أمور الدولة كلها فى يده، وتدبيرها من صنعه[5].

انتهز الفقهاء السنيون فرصة ضعف الدولة الإسماعلية، وعولوا على تحقيق أملهم الذى راودهم منذ زمن طويل، وهو التخلص من هذه الدولة المخالفة لعقيدتهم، فأعلنوا الثورة ضد الملكة أروى، واستولوا على حصن التعكر، وبايعوا رجلا منهم يعرف بإبراهيم بن زيدان، وانحازت إليهم قبيلة خولان، فعاد المفضل إلى ذى جبلة، وحاصرحصن التعكر[6]، غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليه، ولم يلبث أن توفى سنة ٥٠٤هـ، فطلبت الملكة من الفقهاء

(١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص١٢٢.

(٢) عماره: المفيد١٥٣.

(٣) الشيبانى: قرة العيون ص٢٦٨.

(٤) الشيبانى: قرة العيرن ص٢٦٩.

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٥٨.

(٦) الشيبانى: قرة العيون ص٥٦٩.

مغادرة الحصن، والنزول منه، على أن تحقق لهم رغباتهم، فأجابوا بشروط وافقت عليها الملكة، وعهدت إلى مولاها فتح بن مفتاح بولاية التعكر[1].

ازدادت الدولة الصليحية ضعفاً وتدهوراً بعد وفاة القادة والدعاة الأقوياء والمخلصين، وانكمشت رقعة الدولة باستقلال البلدان عنها، فأرسل الخليفة الفاطمى الآمر إلى اليمن، الداعى على بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣هـ، ليعيدالأمور إلى نصابها فى الدولة الصليحية، ويقضى على الحركات المناهضة والمواقف العدوانية ضد الدولة والملكة.

قدم ابن نجيب الدولة إلى اليمن فى وقت عجزت فيه الملكة عن السيطرة الكاملة على بلاد اليمن، وانتقضت الأطراف، واستقلت الولايات عن الدولة الصليحية التى انكمشت وضعفت[2].

أعد ابن نجيب الدولة جيشاً من همدان، وشن غزوات على البلاد التى انفصلت عن الدولة الصليحية، وهزم الخولانيين، الذين أثاروا الشغب فى البلاد، وشنوا حملات كبيرة على اليمنيين الموالين للصليحيين[3] وطهر منطقة ذى جبلة منهم، فأمنت الملكة واطمأنت. وتوقف الخولانيون عن شن الغارات والحملات العدوانية على بلاد الملكة سنة٤٨٥هـ[4]، كما استطاع ابن نجيب الدولة تأديب عناصر الشغب فى الدولة الصليحية، فأمنت البلاد، ورخصت الأسعار، وساد الأمن والرخاء، وحكم الناس بالعدل، وأقرهم على أموالهم وأملاكهم «وأقام الحدود وعز به جانب الملكة[5]». وتوقف زعماء اليمن عن انتزاع أراضى الدولة الصليحية.

حرص الوزير البطائحى فى مصر- وزير الآمر- على تقوية أمر الدعوة الفاطمية فى اليمن، فعمل على تقوية أمر ابن نجيب الدولة وأرسل يؤيده ويناصره، وأرسل إليه أربعمائة جندى أرمنى وسبعمائة مائة جندى أسود، فقوى أمره وعظم بأسه، وقويت شوكته[6].

---

(١) المصدر السابق ص٥٧٤.

(٢) عماره: المفيد ص١٦٢.

(٣) الشيبانى: قرة العيون ص٢٧٥.

(٤) عماره: المفيد ص١٦٦-١٦٧.

(٥) عماره: تاريخ اليمن٧٦.

(٦) الشيبانى: قرة العيون ص٢٧٥.

لما كثر جند ابن نجيب الدولة شن حملة على زبيد سنة ٥١٨هـ، للتخلص من بنى نجاح الأعداء التقليديين، واسترداد مدينة زبيد، ولكنه هزم هزيمة منكرة وقتل الكثير من جنده، وكاد ابن نجيب الدولة أن يقتل فى المعركة[١]، وعاد إلى الجند «هو ورجاله يجرون أذيال الفشل والخيبة»[٢].

على أن هذه الهزيمة لم تمنع ابن نجيب من مواصلة الحرب ضد أعداء الدولة الصليحية، فغزا بلاد سليمان بن أبى الزر[٣]، ثم عقد هدنة معهم، وغزا آل زريع حكام عدن، ولكنهم لم يمكنوه من بلادهم، وقد أضعفت هذه الهزائم من شأن ابن نجيب الدولة، وفقد مقدرته على السيطرة على أرجاء الدولة، فعادت الحركات المناهضة للحكم الصليحى إلى الظهور.

ومن عوامل ضعف أمر ابن نجيب الدولة سوء علاقته بالملكة الحرة، ففى سنة ٥١٩هـ، عول على سلبها السلطة والنفوذ، وقال: «قد خرقت، واستحق عندى أن أحجر عليها[٤]» عندئذ حرضت الملكة سلاطين اليمن المعارضين لابن نجيب الدولة على محاربته، فحاصروه فى الجند، وأوقعوا به الهزيمة، ومازالوا يحملون عليه حتى رأفت الملكة بحاله، وطلبت من السلاطين الكف عنه، فعاد ابن نجيب الدولة إلى الطاعة والولاء للملكة.

أدت هزائم ابن نجيب الدولة الأخيرة، وتدهور علاقته مع الملكة إلى ازدياد قوة سلاطين وملوك اليمن، كما ترتب عليه ضعف الدعوة الإسماعيلية. وهذا على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها ابن نجيب الدولة- من قبل- فى تقوية أمر الدعوة الفاطمية، والدولة الصليحية، والتصدى بكل عنف وبكل شدة لأعدائها المتربصين للنيل منها[٥].

ولم يلبث أن ذهب ابن نجيب الدولة ضحية مؤامرة دبرها ضده أعداؤه اليمنيون بعد أن بذل جهوداً مضنية فى تقوية الدعوة الفاطمية، ومنع الحركات الانفصالية عن المملكة

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٥

(٢) الشيبانى: قرة العيون ص٢٧٥.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٥٩.

(٤) عماره: تاريخ اليمن ص٧٧.

الشيبانى: قرة العيون ص٢٧٦.

(٥) الشيبانى: قرة العيون ص٢٧٦.

الصليحية، وأخذت الدولة الصليحية فى الضعف والتدهور بعد ذلك؛ وازداد نفوذ الملوك والسلاطين فى بلاد اليمن؛ وأظهروا الاستقلال[١].

ولما توفيت الملكة أروى سنة ٥٣٢هـ، تدهورت الدولة الصليحية وقد أوصت قبل وفاتها بحصون وقلاع دولتها المتبقية إلى منصور بن المفضل بن أبى البركات الحميرى، ولما تقدمت به السن ولم يعد فى استطاعته حماية هذه القلاع من أطماع الطامعين، باع حصون ومدن آل الصليحى سنة ٥٤٧هـ، وهى ثمانية وعشرون حصناً ومدائن منها، مدينة ذى جبلة وحصن التعكر، وذى أشرق وأب، وقد اشتراها محمد بن سبأ بن أبى السعود الزريعى بمائة ألف دينار، وتزوج محمد بن سبأ من امرأة صليحية، فآل إليه ما ورثته من أموال وذخائر الصليحيين[٢]، وبقيت هذه الحصون والمدن فى أيدى ملوك بنى زريع؛ إلى أن استولى على بلادهم عبد النبى بن على بن مهدى، ولم يبق لبنى زريع إلا عدن[٣].

ومن قبل استقلت أجزاء من بلاد اليمن، فاستقل النجاحيون بتهامة وزبيد بعد موقعة الكظائم سنة ٤٧٩هـ، ثم استولى عليها على بن مهدى الرعينى سنة ٥٥٤هـ، وانفصلت صنعاء عن الدولة الصليحية، حينما استولى عليها السلطان حاتم ملك صنعاء، وصارت عدن ونواحيها إلى تعز والجند وجبلة وغيرها من المعاقل والمدن فى حوزة بنى زريع بن العباس بن المكرم الجشمى الهمدانى. وكان سليمان وعمران بنو الزر من خولان قد استقلا بحصن خدد والتعكر سنة ٥٢٤هـ وذلك بعد أن غادر ابن نجيب الدولة اليمن، ثم استولى عليها الزريعيون، وفى سنة ٥٢١هـ، رفع الصليحيون أيديهم عن صعدة بعد واقعة ثلا، وصارت صعدة وما يليها لبنى الهادى، وشهارة وما يليها لبنى القاسم العيانى، وتهامة إلى وادى عين للأشراف من بنى سليمان.

وتوفيت الملكة أروى- كما قلنا- فى شعبان سنة ٥٣٢هـ، ودفنت فى المقبرة التى أعدتها لنفسها ملحقة بالجامع الذى شيدته فى ذى جبلة[٤].

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٩-٦٠.

(٢) الشيبانى: قرة العيون ص٢٨٢

(٣) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ١٢٣.

(٤) أبن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص١٢٣

علاقة الملوك الصليحيين بالأئمة الفاطميين

كان على بن محمد الصليحى يحكم بلاد اليمن باسم الخليفة الفاطمى فى القاهرة على اعتبار أنه الإمام الإسماعيلى، ورئيس الدعوة الإسماعيلية؛ فلما سيطر على ابن محمد الصليحى على بلاد اليمن، ودانت له بالولاء والطاعة أرسل إلى الخليفة المستنصر الفاطمى هدية نفيسة تتكون من سبعين سيفا مقابضها من عقيق وخمسة أثواب وشى وفصوص عقيق، ومسك وعنبر، ورسالة يطلب فيها أن يقلده حكم اليمن، فأرسل إليه المستنصر رايات، كتب عليها الألقاب، وعهد إليه بالولاية[1]، ولقبه عمدة الدولة. وبذلك اكتسب حكم على الصليحى لليمن الصفة الشرعية فى نظر الإسماعيلية. أما السنيون والزيديون فى اليمن فلا يعترفون بشرعية الخليفة الفاطمى فى الإمامة، فالسنيون موالون للخلافة العباسية. أما الزيديون فموالون للإمام الزيدى.

وكان الصليحى يقيم الخطبة على منابر بلاده باسم الخليفة الفاطمى مقدما على اسمه، ويضرب العملة باسم الخليفة الفاطمى قبل اسمه، إلا أن هذه التبعية كانت مذهبية فقط، وليست سياسية، فالصليحى مستقل تماماً فى حكم دولته، وليس عليه أتاوات يرسلها إلى الخليفة الفاطمى، كما هو الحال فى الولايات العباسية، إنما اقتصر الولاء على الناحية المذهبية وإضفاء الصفة الشرعية على حكم الصليحيين.

ولما اعتزم الصليحى تولية ابنه محمد عهده، استأذن الخليفة الفاطمى فى ذلك سنة ٤٥٦هـ، فورد إليه سجل الإمام المستنصر بالله يخبره بموافقته، ودعا للأمير بالتوفيق، ولقبه بالأمير الأعز شمس المعالى، وأذن له الإمام الفاطمى بأن يذكر هذا اللقب على منابر البلاد اليمنية، وعهد الصليحى لابنه وولى عهده بحكم زبيد.

ولم تطل ولاية الأعز للعهد بل توفى سنة ٤٥٨هـ، فأرسل الخليفة المستنصر سجلا إلى على بن محمد الصليحى يعزله فى وفاة ولده. وعين المكرم ولياً للعهد بعد أخيه الأعز. وكتب الإمام سجلا إلى الأمير المكرم يعظه ويطلب منه أن يسمع لأبيه ويطيع «فاتق الله فيما قلدك من هذه الأمانة حق تقاته، وشمر لابتغاء مرضاته، وقم بالمحافظة على سائر أركان

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢١٤

الشريعة، وتحصن بحصونها المنيعة،... وابسط بساط العدل والإنصاف... واسهر لترقد رعيتك رقاد الأمن، وأنزل عليهم من سماء عدلك شبه السلوى والمن... هذا عهد أمير المؤمنين إليك، فاقبله بقبول حسن... والله يوفقك ويسعدك، وإلى صلاح الدارين يرشدك برحمته إن شاء الله تعالى..»

كان الصليحى يحكم بلاد اليمن على اعتبار أنه نائب عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وحرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للخلفاء الفاطميين فى مصر، وتدل الرسائل التى تبادلها الصليحى مع الخليفة الفاطمى المستنصر على ما كان بين الرجلين من علاقة وثيقة، فكان المستنصر يرسل إلى الصليحى يخبره بتطورات الأمور فى دولته، بل أخبره بمولد ابنه أحمد الملقب أبى القاسم وطلب منه إعلان هذا الخبر فى جميع أنحاء اليمن.

وبلغ من ثقة وتقدير الخليفة المستنصر لداعيه ونائبه على اليمن على الصليحى أن يعهد إليه بالعمل على دعم النفوذ الفاطمى ليس فقط فى اليمن بل وفى الحجاز أيضاً، ولقبه عمدة الدولة[١].

شرع الصليحى فى زيارة مصر ليحظى بمقابلة الإمام المستنصر والمثول بين يديه. لكن المستنصر أرسل إليه يطلب منه تأجيل هذه الزيارة خوفا عليه من مشقة الطريق. ويبدو أن المستنصر كان يخشى من زيارة داعيه لأن الأحوال الداخلية فى مصر كانت مضطربة كل الاضطراب، فانخفض ماء النيل، وقاست مصر على مدى سبع سنوات المجاعة والبؤس أو ما يسمى بالشدة العظمى، كما تعددت ثورات الجند فى مصر خصوصا ثورة ناصر الدولة الحمدانى والأتراك، وثورة السودانيين، فرأى المستنصر ألا يزور الصليحى مصر حتى لايرى من قرب الاضطرابات الداخلية وضعف مكانته ومهابته بين القادة والجند، فينعكس ذلك على مكانته عند الصليحى وبالتالى عند اليمانية.

على أن المستنصر أذن لداعيه الصليحى بأداء فريضة الحج سنة ٤٥٩هـ،... وتطهير الأرض المقدسة من المفسدين، وإعادة الأمن والنظام إليها، وتثبيت الدعوة الفاطمية فيها[٢].

---

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص٨٠

(٢) عماره: المفيد ص ٢٥٦

استخلف الصليحى على اليمن ولده المكرم أحمد بن على، وسار «فى أهبة عظيمة وملك كبير»[1] ومعه جميع آل الصليحى وغيرهم من ملوك اليمن حتى لايتمردوا عليه فى غيابه، فلما بلغ موكب الصليحى تهامة نزل بظاهر المهجم فهاجم سعيد بن نجاح سرادقه وقتله[2] انتقاماً أبيه.

ولما ولى المكرم أحمد ملك اليمن بعد وفاة أبيه، بعث إليه الخليفة المستنصر رسالة سنة٤٦٠هـ، عبر فيها عن أسفه لوفاة والده، وعزاه وواساه وأثنى على والده وإخلاصه فى رئاسة الدعوة في اليمن وخارجها؛ وقلد المكرم شؤون الدعوة خلفا لأبيه، ووجه إليه النصح والإرشاد[3].

حرص المكرم على إظهار الولاء والطاعة للخليفة المستنصر، كما حرص الخليفة على تحسين علاقته بالمكرم حتى يضمن استمرار الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن، فلما علم المستنصر بانتصار المكرم على سعيد بن نجاح، واسترداده مدينة زبيد من النجاحيين السنيين، أرسل إلى المكرم رسالة يهنئه فيها بهزيمته لبنى نجاح والانتقام لمقتل أبيه، وإنقاذ أمه من الأسر. ومما جاء فى هذه الرسالة:«لله درك أيها الأجل؛ لقد زكا غرسك وطاب، وحق أمير المؤمنين فى تقديم قدمك وما خاب. فاعلم أنك خليفته فى بلاد اليمن، وعماده وعدته وسناده. وقر عينا بما أعطاك الله من الرتبة السنية، والدرجة العلية، وقد أنعم عليك فى هذه الرسالة بلقب أمير الأمراء[4]»

كما أرسل الخليفة المستنصر إلى المكرم يبشره بمولد ابنه أبى القاسم (المستعلى) سنة ٤٦٧هـ ومما جاء فيه:... يحمده أمير المؤمنين أن زين سماء مجده بزهر النجوم، فرجم بها الشياطين كل الرجوم:... وسجل أمير المؤمنين إليك، وقد وهب الله له غلاماً زكياً يشد أزر الإمامة ودل على بقاء كلمته فى عقبه إلى اليوم القيامة؛ مولوداً أصبح بمولده كوكب الهدى مضيئاً مسفراً... سماه أحمد؛ وكناه أبا القاسم، فالمسرة به تعم الدنيا والدين.. أتحفك أمير المؤمنين بهذه البشرى؛ لتأخذ بحظك بها من السرور[5]».

(١) العرشي: بلوغ المرام ص٢٦.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ١٣٨.

(٣) عماره: المفيد ص ١٢٨.

(٤) السجلات المستنصرية: رقم ٦٠ ص ١٩٦-١٩٩

(٥) إدريس عماد الدين : عيون الأخبار جـ٧ ص١٢٢.
العرشي: بلوغ المرام ص٢٦.

وكان المستنصر يرسل إلى المكرم يخبره بالتطورات السياسية فى دولته، فلما استعان ببدر الجمالى- والى عكا- لإعادة الأمن والنظام إلى مصر أرسل إلى المكرم كتاباً فى ذى القعدة سنة ٤٧٠هـ يخبره باستعانته ببدر الجمالى؛ والدور الكبير الذى لعبه هذا الوزير فى تحسين أحوال البلاد المعيشية، والقضاء على الفتن والثورات التى أنهكت مصر اقتصادياً واجتماعياً، وحثه على طاعته واستشارته فى الأمور الدينيه والسياسية، وقال[1]: «وقد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رميما، ونضر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيما، لم يكن لأمير المؤمنين بد من أن يرقيه فى الرفع والإعلاء فوق الفراقد، ويحله منه محل الوالد، ويجعل له مقام الملك... فول وجهك نحو هذا السيد الأجل، واجعله قبلة دينك فى مصادرك ومواردك، وارجع إليه فيما عراك فى شئون الدين، واشتبه عليك من فتاوى المؤمنين، ليرسل إليك من علمه شهاباً قبساً، ويضرب لك فى بحر ما اشتبه عليك طريقاً يبسا...» وكان المستنصر قد فوض أمور دولته لبدر الجمالى وقلده وزارة السيف والقلم، وعهد إليه بالنظر فى أمور مصر الفاطمية والولايات التابعة لها، وعهد إليه بأمر الدعوة الإسماعيلية، وقد أكد الخليفة المستنصر لرؤساء الدعوة هذه الحقيقة، فأرسل إلى الملكة أروى يقول: «فهو خليفتنا وباب دعوتنا الحال منا محلا لم يحله أحد قبله، من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس، وهو مليك شفيق، ولمصالح حالكم سالك فى كل طريق..»

أوصى المكرم قبل وفاته بأمر الدعوة الإسماعيلية فى اليمن إلى أبى حمير سبأ ابن أحمد بن المظفر بن على الصليحى، وأرسل الخليفة المستنصر إلى الملكة أروى يعزيها فى وفاة زوجها المكرم ويثنى عليه، ويشيد بذكره، وقلد ابنها الطفل عبد المستنصر ملك أبيه، وأمور الدعوة فى اليمن. ووصفه بأنه سليل الدعوة ونجلها.

وبذلك استجاب المنتصر لرغبة الملكة أروى «ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين وولية أمير المؤمنين، وكافة أوليائه الميامين» وعهد المستنصر بدلا من أبى حمير سبأ- الذى عهد إليه المكرم قبل وفاته- وفى ذلك تكريم للملكة أروى، ودليل على ثقة المستنصر فيها، إذ أن تولية ابنها، تكفل للملكة الاستمرار فى حكم اليمن، ومباشرة الدعوة، كما أن تولية عبد المستنصر تتمشى مع أسس المذهب الإسماعيلى الذى يوجب ضرورة تولية الابن الأكبر بعد أبيه الملك والدعوة.

(١) السجلات المستنصرية رقم ٢٤-١٠٦-١٢٩.

وقال أنه: «قلده الدعوة الهادية فى سائر أعمال اليمن وما يليها سهلا ووعراً وبراً وبحراً...» وقد أيده المستنصر تأييداً كاملا، واستنكر كل من اعترض على تولية هذا الطفل أمر الدعوة، وقال: «سترمقك العيون وتجول فى عظيم ماخصصت به الظنون، إذا وليت هذا الأمر العالى قدره، وأنت فى سن الصبا، فأنكر أمير المؤمنين ذلك عليهم..لأن الله تعالى فوض إلى أمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمانى سنين، وقد جاز هذا فى الإمامة، وهى الدرجة التى تلى النبوة» على أن إسناد أمر الدعوة لعبد المستنصر، قد واجه اعتراضات شديدة من زعماء الدعوة الإسماعلية، وخصوصاً أبو حمير سبأ، وحاول المستنصر فض هذا النزاع وأرسل كتبا إلى الأطراف المتنازعة، يحثهم فيها على الولاء والطاعة لعبد المستنصر، وعلى فض المنازعات والخلاف بينهم، حتى لايؤدى ذلك إلى شغل أمراء اليمن ودعاتها بالخلافات بينهم. الأمر الذى يعرض الدولة للضعف والزوال[١].

ومما جاء فى خطاب الخليفة «لما عرف أمير المؤمنين ما كان منكم من النصر، من حميد المساعى... شكر لكم هذه المناقب... وأمير المؤمنين يأمركم بالجرى على هذه السنن... وأن تعتمدوا الائتلاف، والتحذير من عواقب المقاطعة والاختلاف، وأمير المؤمنين يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم الملك الأوحد المنصور العادل المكرم عمدة الخلافة.. سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه عبد المستنصر... ويأمر أن تعتمدوا الجد والتشمير فى متابعته ومناصرته.. والجهاد تحت رايته..» واختتم خطابه بأن يسمعوا ويطيعوا للملكة الحرة والدته[٢].

استجابت الأطراف المتنازعة لنداء الخليفة المستنصر. وتم عقد الصلح فعلا بين أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى، وسليمان ابن الأمير الزواحى، وأرسلت الملكة أروى تخبر الخليفة المستنصر بانتهاء النزاع بين الطرفين، وقد سر الخليفة الفاطمى لذلك، وعبر عن فرحته فى خطاب بعث به إلى الملكة الحرة[٣].

على أن النزاع بين الرجلين عاد من جديد بعد وفاة عبد المستنصر وتطلع كل منهما إلى رئاسة الدعوة الإسماعيلية، ورأى أبو حمير سبأ أن يتزوج من الملكة الحرة حتى يضمن لنفسه رئاسة هذه الدعوة، ولكن الملكة رفضت وكرهت ذلك وأنكرته[٤]، فجمع أبو حمير

(١) عماره: المفيد ص١٥١.

(٢) السجلات المستنصرية، رقم ١٢٨،١٢٢،٣٧.

(٣) السجلات المستنصرية، رقم ٣٨ ص ١٢٨-١٣٤.

(٤) الشيباني: قرة العيون ص٢٦٧.

سبأ جيشاً وأعدت الملكة جيشاً أيضا، ونشب قتال فى ذى جبلة بين الطرفين، استمر أياماً، وأنهى سليمان بن عامر الزواحى النزاع بينهما، وعقد هدنة بين الطرفين حتى يفصل الخليفة المستنصر فى هذا الأمر، فعاد سبأ إلى حصنه أشيح- مستقر ملكه- وبعد قليل جاء جواب المستنصر إلى الملكة الحرة يأمرها فيه بالزواج من أبى حمير سبأ.

دخل مندوبو الخليفة المستنصر على الملكة الحرة فى قصرها بذى جبلة، هى جالسه بين وزرائها وكتابها[1]، وقرأ أحد المندوبين رسالة الخليفة المستنصر للملكة أروى، فقال: أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة» وأثنى عليها بالصفات الجميلة ومجدها إلى أن قال لها «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا[2]» وقد زوجك أمير المؤمنين من الداعى الأوحد سبأ بن أحمد ونعته بالصفات الجميلة، على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف وطيب وكساوى[3].

فردت الملكة الحرة بقولها: أما كتاب مولانا وأمره فأقول فيه أنه ألقى إلى كتاب كريم الآيات، ولا أقول فى أمرى «يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون» وأما أنت يا ابن الأصبهانى- وهو أحد الرسولين من سبأ إلى المستنصر- فو الله ما جئتمونا من سبأ بنبأ يقين. ولقد حرفتم القول عن موضعه، وسولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون[4]. ثم تقدم إليها كبار رجال الدولة وألحوا عليها بالموافقة على الزواج حتى وافقت. وبذلك انتهى النزاع بين سبأ والملكة الحرة[5].

واستجابت الملكة لهذا الزواج كارهة إرضاء لرغبة الخليفة المستنصر، ولم تمكن سبأ ابن أحمد الصليحى من مشاركها شؤون السياسة والدعوة إلا بأمرها. واستأثرت بالنفوذ والسلطان فى الدولة والدعوة. وظل الخليفة المستنصر يوليها ثقته الكاملة، ويرسل إليها رسائل التأييد، ويعتمد عليها فى مباشرة أمور الدعوة فى اليمن، بل أسند إليها أمر الدعوة فى عمان وبلاد الهند، فكانت تعين الدعاة من قبلها فى هذه البلاد. وتتولى تنظيم الدعوة فيها.

---

(١) عماره: المفيد ص١٥١.

ابن خلدون: العبر وديون المبتدأ والخبر جـ٤ ص١٣٩.

(٢) الشيبانى: قرة العيون ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٣) عماره: المفيد ص١٥٢.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص١٣٩.

(٥) عماره: تاريخ اليمن ص٦٨.

وبذلك يتضح لنا ما كان يتمتع به الخليفة المستنصر من نفوذ في بلاد اليمن، وقد رأينا كيف استطاع إنهاء النزاع بين سبأ والزواحى، وبين سبأ والملكة أروى باصدار أوامر لها بالتزوج من سبأ بعد أن جمعت جنوداً أعظم من جنوده، ونشبت الحرب بين الفريقين واحتكم الطرفان المتنازعان إلى الخليفة المستنصر فأمر الخليفة المستنصر الملكة أروى بقبول الزواج من أبي حمير سبأ، فقبلت النزول على أمر مولاها الإمام المستنصر. وتم الزواج، واحتفل أبو حمير سبأ بهذا الزواج احتفالا كبيراً، وأقام الولائم على طول شهر كامل فى ذى جبلة، وأنفق على عساكره من المال ما يعادل ما قدمه لها من مهر- أى مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وطيب وكساوى، وخاطبها الخليفة الفاطمى المستنصر بقوله: «الحرة الملكة، السيدة الرضية الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيرين ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين».

ظل أبو حمير سبأ يقف إلى جانب الملكة فى حكم اليمن، ويقضى على عناصر الشغب والفتنة إلى أن توفى، فعهدت الملكة إلى المفضل بن أبى البركات بولاية التعكر، وأسندت إليه إدارة شؤون الدولة، وكان التعكر مقر ذخائر بنى الصليحى التى صارت إليهم من ملوك اليمن، والحرة تطلع من ذى جبلة فى أيام الصيف فتقيم فيه، وإذا برد الطقس سكنت بذى جبلة. والمفضل يأتمر بأوامرها وينفذ ما تأمره به، ويدخل عليها مع خواص وزرائها، والأمراء والأكابر من عبيدها، وهو رجل الدولة ومنفذ سياستها. والحرة الملكة أروى لا تأمر أمراً ولا تصدر قراراً إلا بعد الرجوع إليه[1].

تعرضت الملكة أروى لصدمات عائلية فى حياتها، ولكن لم تثبط هذه الهزائم من عزيمتها. فواصلت جهودها فى حكم بلاد اليمن، والإشراف على الدعوة الإسماعيلية بها، فقد مرض زوجها، واعتكف- كما رأينا- فى حصن التعكر. وبعد وفاته فقدت ولديها الأمير محمد بن أحمد المكرم وأخاه على بن أحمد.

ونستخلص من دراستنا لتاريخها أنها أخلصت للدعوة الإسماعلية.

ولما توفي الخليفة المستنصر، ولى ابنه الأصغر المستعلى بدلا من ابنه الأكبر نزار، وقد اتخذ هذه الخطوة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى، لأنه كان يخشى بأس نزار إذا ولى

(١) عماره: تاريخ اليمن ص٦٧-٦٨.

الخلافة، أما المستعلى فكان صغيراً، وفى نفس الوقت فإنه ابن أخته، وقد اعترض نزار على إقصائه عن الخلافة، ولجأ إلى الإسكندرية، وبايعه أهلها، ولقب المصطفى لدين الله، غير أن الوزير الأفضل الجمالى قمع الثورة وقتل نزار[1].

وقد حرص الخليفة الجديد على اتباع سياسية والده فى توثيق علاقته مع دعاة اليمن، فأرسل إلى الملكة الحرة أروى سجلا يخبرها فيه بتولية الحكم بدلا من نزار بناء على توصية من أبيه، وأبلغها أيضاً بقمع ثورة نزار وقتله[2].

لم تنته حركة نزار بقتله، بل ظهرت فرقتان، فرقة المستعلية وتقول بأحقية المستعلى بالخلافة. وهذا الفرقة يؤيدها المصريون عموماً. أما الفرقة النزارية فتقول أن المستعلى ليس له الحق فى الخلافة، وتنادى بإمامة نزار، وتقول بأن الخليفة المستنصر قال للحسن الصباح- زعيم هذه الفرقة- بأن نزارا ولى عهده، وهذه الفرقة، أقامت لها دولة فى قلعة آلموت فى فارس[3]. ويرى أنصار نزار بأن تولية الخليفة المستعلى تتناقض مع مبادئ الإسماعلية التى تدعو إلى أن يلى الابن الأكبر الحكم والدعوة بعد أبيه[4].

ولم تلتق الدعوة النزارية تأييداً فى بلاد اليمن، فقد وافقت الملكة أروى على تولية المستعلى، وتبعها اليمنيون. وبذلك انضم اليمنيون إلى الفرقة المستعلية[5].

ظل الأمير سبأ بن أحمد بن المظفر فى حصنه أشيح يعمل على تقوية أمر الدعوة ويحافظ على الدولة الصليحية حتى وفاته سنة ٤٩٢هـ. وقد أخذت الدولة الصليحية فى الضعف بعد وفاته، وفقدت سيطرتها على معظم بلدان دولتها، وعهدت الملكة أروى إلى المفضل بن أبى البركات الحميرى بأن ينوب عنها فى حماية الدولة من الأخطار الداخلية[6] والخارجية.

---

(١) ابن الميسر: تاريخ مصر ص٣٥.

(٢) السجلات المستنصرية رقم ٤٣ ص ١٤٥-١٥١

(٣) ابن الميسر : تاريخ مصر ص ٣٦.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبرجـ٤ ص ٦٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) العرشى: بلوغ المرام ص ٢٧.

قام المفضل بن أبى البركات بدوره فى حماية الدعوة، وبذل جهوداً مضنية فى سبيل المحافظة على وحدة الدولة، ولم يلبث أن توفى، فكثرت الحركات الانفصالية فى الدولة حتى أوشكت على الانهيار، فأرسل الخليفة الفاطمى الآمر إلى اليمن الداعى على بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٢هـ ليدبر أمور دولتها، ويقضى على الحركات المناهضة والمواقف العدوانية للدولة والملكة، وكان ضليعاً فى المذهب الإسماعيلى، وفى علوم الظاهر والباطن[١]، فلما وصل إلى جزيرة دهلك فى طريقه إلى اليمن، استقبله الداعى محمد بن أبى عرب. فكشف لابن نجيب الدولة أسرار اليمن وأحوال الناس كلهم وأسماءهم وحلاهم وكنيتهم، وتواريخ ميلادهم وما يميزهم من علامات: شامة أو جرح أو أثر أو نحو ذلك، فكان ابن نجيب الدولة إذا سألهم عن غوامض هذه الأشياء، اعتقدوا أنه يعلم الغيب[٢].

قام ابن نجيب الدولة بدوره الذى أشرنا إليه فى حماية الدولة من الحركات الانفصالية، وتقوية شأن الدعوة الفاطمية. على أن الدولة الفاطمية اضطربت بسبب استئثار الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالسلطة دون الخليفة الآمر، ولم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية، بل أخذ يميل ميل السنيين، فألغى الاحتفال بمولد الرسول ﷺ؛ ومولد ابنته فاطمة، ومولد على بن أبى طالب ومولد الخليفة الفاطمى الآمر. ولم يعد للخليفة الآمر من السلطة إلا اسمها، وأمور الدولة كلها فى يد الوزير الأفضل، لكن الخليفة الآمر لما بلغ مبلغ الشباب لم يقبل أن يظل مسلوب السلطة والنفوذ، فعول على استرداد سلطانه ولا يستطيع ذلك مع وجود الأفضل، فدبر مؤامرة تخلص بها منه سنة ٥١٥هـ، واستوزر بدلا من الأفضل أبا عبد الله محمد بن البطائحى[٣].

ضعف شأن ابن نجيب الدولة حينما بعث المأمون البطائحى– وزير الخليفة الفاطمى الآمر– رسولا من قبله إلى اليمن سنة ٥٢٠هـ فأساء ابن نجيب الدولة استقباله، معتقداً أنه قدم لتولى أمر الدعوة بدلا منه، واجتمع به ابن نجيب الدولة فى مجلس حافل، فقلل من شأنه أمام الناس، وقصد أن يغض من شأنه، فاستاء الرسول منه، وأضمر له السوء، فلاحظ ملوك وسلاطين اليمن المناوئين لابن نجيب الدولة ذلك، فتقربوا إلى رسول الخليفة، وبالغوا فى التودد إليه وحملوا إليه الهدايا، وحرضوه على السعى إلى التخلص من ابن نجيب الدولة

(١) الشيبانى: قرة العيون ص٢٧٤.

(٢) عماره: المفيدص١٥٨.

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٣-٣٠٤.

فحرضهم على أن يكتبوا إلى الخليفة الآمر كتباً يزعمون فيها أنه نزارى، ودعاهم إلى النزارية، وحثهم أن يضربوا سكة نزارية ويرسلوها إلى الخليفة الآمر زاعمين أنها من فعل ابن نجيب الدولة، وذلك حتى يتأكد الخليفة تماماً من أن ابن نجيب الدولة ارتد عن المستعلية، واعتنق النزارية.

لما علم الخليفة الآمر بموقف ابن نجيب الدولة: عظم ذلك عليه وأنكره، فبعث الموفق بن الخياط فى مائة فارس، إلى اليمن للقبض على ابن نجيب الدولة، وإرساله إلى مصر لمحاكمته، فقدم على الملكة الحرة يطلب منها أن تسلمه ابن نجيب الدولة، ولكن الملكة الحرة امتنعت ورفضت ذلك لعلمها أن ابن نجيب الدولة برئ مما نسب إليه، وقالت لابن الخياط: إنما أنت رسول حامل لكتاب، فخذ جوابه وانصرف، أو قم حتى نكتب إلى الخليفة، ويعود علينا جوابه بما يراه[1].

ولكن كبار رجال الدولة حذروها من مغبة عدم تنفيذ أمر الخليفة بإرسال ابن نجيب الدولة، ولم يزالوا بها حتى استوثقت لابن نجيب الدولة بأربعين يمينا من ابن الخياط، وكسبت إلى الخليفة الآمر تشفع فى ابن نجيب الدولة، وطلبت منه العفو عنه، وأن يقبل شفاعتها فيه، وبعثت إليه بهدية عظيمة مع كاتبها محمد بن الأزرى، ثم سلمت ابن نجيب الدولة إلى ابن الخياط، ووضعته فى قفص من خشب والناس ينظرون إليه، فقال: ما تنظرون.. أسد فى قفص[2].

ونكث ابن الخياط بالعهد، بعد أن غادر ذى جبلة، وسبق ابن نجيب الدولة مكبلا بالسلاسل والأغلال إلى عدن، وتآمر أعداؤه مع ابن الخياط على إرسال ابن نجيب الدولة فى مركب سواكنية إلى مصر،وأخروا وصول رسول الملكة الحرة خمسة عشر يوماً حتى لايعلم الخليفة بحقيقة موقف ابن نجيب الدولة منه، ولم يكتفوا بذلك، بل حرضوا ربان السفينة التى أبحر عليها ابن الأزدى، بإغراقه فى الماء فلبى رغبتهم، وأغرقهم عند باب المندب. أما ابن نجيب الدولة، فقد أمر الخليفة الفاطمى بقتله[3].

---

(١) الشيبانى: قرة العيون ص ٢٧٧.

(٢) عماره: تاريخ اليمن ص٥٩.

(٣) الشيبانى : قرة العيون ص ٢٧٧.

ظل اليمنيون موالين للدعوة الفاطمية المستعلية فى عهد الملكة أروى، ولما ولى الآمر الخلافة الفاطمية، أظهرت الملكة ولاءها له، وبقيت على إخلاصها فى إقامة الدعوة المستعلية. لذلك حظيت بتقدير وإعزاز الخليفة الآمر الذى قدر إخلاصها للدعوة، ولما من الله على الآمر بابنه أبى القاسم الطيب، أرسل الآمر إلى الملكة سجلا فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ يخبرها فيه بمولده، وبأنه ولى عهده وسماه الطيب، وكناه أبا القاسم، ومما جاء فى هذا السجل: فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لايحصى لها عد... ومن أشرفها لديه قدراً..، بأن رزقه مولوداً ذكياً مرضياً برا نقيا سماه الطيب لطيب عنصره، وكناه أبا القاسم، كنية جده نبى الهدى.. ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكين، ومحلك الذى امتنع عن المماثل والقرين... أشعرك هذه البشرى، لتأخذى من المسرة بها بأوفى نصيب، وتذيعها فيمن قبلك من الأولياء المؤمنين..»[1].

أذاعت الملكة بشرى المولود الجديد– ولى العهد– فى جميع أنحاء المملكة، وأخذ دعاتها البيعة لولى العهد الجديد، وأمرت الملكة عند قراءة مجالس الحكمة بالصلوات على الطيب بن الآمر. ولم يلبث أن قتل الخليفة الآمر بمؤامرة دبرها النزارية فى شهر ذى القعدة من هذه السنة، فقبض على زمام الأمور بعض قادة الجيش وعهدوا إلى الأمير عبد المجيد ابن عم الآمر بتولى زمام الأمور وبايعه الناس وليا للعهد. لذلك أخفى أمر الإمام الطيب، حتى يخلو الطريق أمامه ولقب الحافظ لدين الله، وأقيم كفيلا لحمل منتظر، لأن الآمر لما توفى ترك إحدى زوجاته حاملا[2].

على أن الحافظ سرعان ما تآمر عليه الوزير أبو على أحمد بن الأفضل ومنعه من مباشرة شؤون الحكم، بل تخلى نهائياً عن المذهب الإسماعيلى وأقام الدعوة الإمامية الاثنى عشرية، وسعى فى البحث عن الإمام الطيب ليتخلص منه، إذ هو صاحب الحق الشرعى فى الخلافة، لكن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل لم يلبث أن دبر الإسماعيليون مؤامرة للتخلص منه سنة ٥٢٦هـ، وأخرجوا الحافظ من سجنه، وأعلنوه ولياً للعهد، وكفيلا لولد الآمر الذى لم يعرف مقره[3].

---

(١) قرة العيون ١٩٣/١٩٢/٧.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٤.

(٣) ابن الميسر: تاريخ مصر ص ٧٤–٧٥.

على أن الحافظ سعى إلى الانفراد بالسلطة. وتولى أمر الخلافة رسمياً فعثر على ابن الآمر وقتله. وبذلك أتيحت له الفرصة لتولى الخلافة. واستقرت له الخلافة وقرئ فى ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ سجل إمامته وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذه العبارة: «اللهم صل على الذى شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره. وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين»[١].

اعترضت الملكة أروى على تولية الحافظ الخلافة. واعتبرته مغتصباً لها من صاحب الحق الشرعى فيها، وهو الإمام الطيب.

وقد حاول الخليفة الحافظ عبثاً التقرب إلى الملكة الحرة. والتودد إليها. والحصول على اعترافها بإمامته. فأرسل إليها سجلين أحدهما بدأ بعبارة «من ولى عهد المسلمين» ثم أرسل إليها سجلا آخر فى السنة التالية مبتدئاً بعبارة «من أمير المؤمنين»؛ ذلك أن الملكة أروى كانت تعلم تماماً بأن الحافظ اغتصب الخلافة من الإمام الطيب- صاحب الحق الشرعى فيها- ودعت إلى إمامته فى بلاد اليمن. وإلى استنكار خلافة الإمام الحافظ. وقالت: «حسب بنى الصليحى ما علموه من أمر مولانا الإمام الطيب».

وبذلك انفصلت بلاد اليمن عن مصر مذهبياً. ولم تعد بلاد اليمن تتبع مصر مذهبياً- كما كان الأمر من قبل-، بل أصبحت تدعو إلى الإمام الطيب وإلى أن الإمامة يجب أن تنحصر فى أعقاب الإمام المستعلى. أما مصر- على المستوى الرسمى على الأقل- فقد استنكرت أمر الإمام الطيب. وأقرت الحافظ إماماً[٢]. على أنه بقى فريق من مصر يعارض خلافة الحافظ. ويرى أن الخلافة يجب أن تكون فى أبناء المستعلى. وبذلك ظهر فريقان من المستعلية. فريق فى بلاد اليمن، وفريق فى مصر. وهو الفريق المعارض للخليفة الحافظ.

بذلت الملكة أروى قصارى جهدها فى نشر الدعوة الطيبية فى بلاد اليمن وفى الحجاز أيضا. كما أن الخليفة سعى إلى نشر الدعوة له فى عدن. وانضم آل زريع فى عدن إلى

(١) المصدر السابق.

(٢) عماره: تاريخ اليمن ص ١٠٢

ابن فضل الله الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٨٦.

الخليفة. الحافظ. الذى قلد محمد سبأ الزريعى أمر الدعوة ولقبه بالداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين[1].

وظلت الملكة الحرة تحافظ على ولائها للإمام الطيب. وتقيم الدعوة له. وكانت الملكة وكبار دعاتها يعرفون مكان اختفاء الإمام الطيب. ويتضح ذلك من وصيتها للسلطان أحمد ابن أبى الحسين بن إبراهيم بن عمر الصليحى بأن يوصل – فى حالة وفاتها – كل ما لديها من مجوهرات وأموال إلى الإمام الطيب. وأن يأخذ عليها الخط الشريف الإمامى بوصول ذلك[2].

وكان عبد المجيد (الخليفة الحافظ) يكاتب الملكة الحرة «حجة الأئمة فى الجزيرة العربية – ذات الرتبة السنية» من ولىّ عهد المسلمين وابن عم أمير المؤمنين. ثم كتب إليها: من أمير المؤمنين.. فقالت: أنا أروى بنت أحمد بالأمس. وهو ولى عهد المسلمين. واليوم أمير المؤمنين «لقد جرى فى غير ميدانه. وادعى أمراً يبعد عن مكانه» وأعلنت أهل دعوتها «أنه قد نكث عهده وخالف رشده وادعى ما ادعاه الظالمون من قبله. وارتقى لمقام ليس من أهله»[3].

على أن الدعوة الطيبية ضعف أمرها بوفاة الملكة الحرة. فقد تدهورت الدولة الصليحية بوفاتها سنة ٥٣٢هـ. ولم يستطع منصور بن المفضل بن أبى البركات الاحتفاظ بما آل إليه من ملك الصليحيين.

---

(١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص١٢٢.

(٢) الهمدانى: الصليحيون ص ١٨٦.

(٣) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٩٢.

عارض الزيديون الدعوة الإسماعيلية، ورأوا فيها خروجاً عن قواعد الدين الحنيف، وعارضوا آراءهم فى الظاهر والباطن، وعن المهدى المنتظر، وأعلنوا فى المساجد والاجتماعات بطلان ما ذهب إليه الإسماعيلية، كما رأى الأئمة الزيدية فى قيام الدولة الصليحية خطراً يهدد نفوذهم وسلطانهم فى اليمن، بل ويهدد دولتهم أيضاً. لذلك تصدى الأئمة الزيدية للدولة الصليحية منذ قيامها «فعول جعفر ابن الإمام القاسم بن على العيانى على مناهضة على بن محمد الصليحى وعرقلة جهوده فى إقامة دولة إسماعيلية، فتحالف مع جعفر بن عباس- أحد زعماء مغارب اليمن الأسفل- وسار الرجلان لمحاربة الصليحى[1]، ودارت الحرب بين الصليحى من ناحية والزيدى وحليفه من ناحية أخرى، وانتهت الحرب بانتصار الصليحى على العدو المتربص به[2]، وقتل جعفر بن العباس ولاذ من نجا من جنده بالفرار. أما الأمير الزيدى فقد عاد إلى بلده مذموما مدحورا، وانفض جنده من حوله[3]، وأثبتت هذه المعركة مدى ما يتمتع به الصليحى من مقدرة حربية، وهابه الناس فى سائر بلاد اليمن، ودخل الكثير من أهل البلاد المجاورة فى طاعته.

وقد أدت هزيمة الأمير الزيدى وأنصاره الزيدية، إلى ضعف الإمام الزيدى أبى الفتح، وتقاعس الناس عن نصرته، وانضموا إلى الصليحى لعلو شأنه، وقهره لمن ناوأه من أقرانه[4]، فجعل الإمام يضرب فى الأرض ويتنقل شريداً من بلد إلى بلد، وسقطت دولته، ومازال على هذا الحال السيئ، حتى سار إلى عنس سنة ٤٤٤هـ فاعترضه الصليحى وقتله، ونكل بأنصاره[5].

على أن جهود الزيدية لم تتوقف عند هذا الحد، ففى سنة ٤٤٨هـ خرج رؤساء همدان، وهم سلامة بن الضحاك، وعلى بن دعفان وغيرهما وتفرقوا فى البلدان اليمنية، ثم حشدوا حشداً كبيراً من حاشد وبكيل ودعوا القاسم بن جعفر بن الإمام القاسم بن على العيانى للانضمام إليهم لحرب الصليحى، فكان من الطبيعى ومن المنتظر أن يقبل الدعوة لأن

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢٤٨.

(٢) العرشى : بلوغ المرام ص٢٥.

(٣) زبارة: أئمة اليمن ص٧٥.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٥٠.

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص٧٧.

الصليحى أزال ملك آبائه وأجداده، وقتل الكثير من أهله، كما أن الرؤساء اليمانية رأوا فى انضمام الأمير الزيدى إليهم دعما روحياً لحركتهم. ومهما يكن من أمر فقد سار الزيديون لحرب الصليحى، وانضم إليهم الكثير من أفراد القبائل حتى وصل الجمع إلى قرية حاز من بلاد همدان واحتشدوا بها[1].

لم يتغاض الصليحى عن التصدى لهذه المعركة المناوئة لسلطانه ونفوذه فى بلاد اليمن، فأرسل جيشاً كبيراً لإخضاع أعدائه، وباغتهم الجيش الصليحى، وهزمهم شر هزيمة، فولوا مدبرين لايلوى أحد على أحد. على أن الأمير الزيدى لم يستسلم للهزيمة بل تحصن فى الهرابة- وهى حصن من وادعه- فانضم إليه كثير من الزيدية حتى اجتمع لديه نحو ألف مقاتل، وقد تعهدوا بنصرته على عدوه الإسماعيلى. ولكن الصليحى لم ينتظر حتى يهاجمه عدوه، بل انقض على الحصن الذى يعسكر فيه الزيدى وأنصاره وحاصرهم وضيق عليهم المسالك، ومنع عنهم القوت أكثر من شهرين[2]، ونصب عليهم المنجنيقات وأدوات الحصار، وقاوم المحاصرون الحصار بكل ما أوتوا من قوة ومن صبر، وقاتلوا جند الصليحى قتالا عظيماً، ولكن الجوع والعطش أضعفهم وأهلكهم فى النهاية[3]، حتى اضطر الزيدى إلى الاستسلام للصليحى، وأكرمه الصليحى وخلع عليه، ودخل الهرابة، ودمرها تدميراً، وأعجب بصبر أهلها على القتال، وقال: لو ملكت رجال الهرابة لأخذت بهم الروم. وعاد الصليحى إلى صنعاء فى صحبة الأمير الزيدى[4].

على أن هزيمة الزيدية وسقوط دولتهم، لم يوقف سعيهم إلى إقامة الدولة الزيدية، وبعثها من جديد، وقاد حمزة بن أبى هاشم ثمانية آلاف رجل، وزحف إلى صنعاء حتى بلغ ملوى[5] فى مستهل عهد المكرم وأنفذ المكرم لقتاله عامر بن سليمان الزواحى لوقف تقدم حمزة بن أبى هاشم، واشتبك الفريقان فى عدة حروب ووقائع، دارت فيها الدائرة على حمزة وجنده، وخرالأمير الزيدى صريعاً فى المعركة[6]، وبذلك فشلت محاولة بعث الدولة الزيدية من جديد.

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٥٢.

(٢) عماره: المفيد ص١١٥.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢٥٢.

(٤) زبارة: أئمة اليمن ص ٩٤.

(٥) فى بلاد أرحب وعلى مقربة منها مشهد الشريف حمزة.

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ص٢٥٥

ونحن نستبعد ما ذكره بعض المؤرخين، ومنهم صاحب كتاب المقتطف وصاحب كتاب غاية الأماني من أن حركة حمزة، قامت في أواخر عهد علي بن محمد الصليحي. والحقيقة أنها قامت في مستهل عهد المكرم، ذلك أن الداعي حمزة قتل في ذي الحجة سنة ٤٥٩هـ. أما علي بن الصليحي فقد قتل في ذي القعدة من نفس هذه السنة[١].

وعلى الرغم من إحباط الصليحيين للحركات الزيدية، ظهرت حركة زيدية أخرى في بلاد ديبان، تزعمها الشريف الفاضل القاسم بن جعفر بن الإمام القاسم بن علي العياني، والتف حوله الكثير من أهل تلك البلاد، ولما قوي أمره، واشتد بأسه، قصد مضارب اليمن، فاستولى على جبل حمدان، ودخل الشريف الفاضل وأخوه ذو الشرفين محمد بن جعفر، شهارة[٢]، واتخذها مقراً له، ودارت هناك بين الجند الصليحي والجند الزيدي وقائع متعددة، انتهت بانتصار الزيدية[٣].

ولكن صعدة- معقل الزيدية وحصنها الحصين وملاذها الأمين-ثارت على الزيدية من بني الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وأعلن أهل صعدة ولاءهم للدولة الصليحية، وقاوم بنو الهادي وأنصارهم الانضمام إلى الدولة الصليحية، وعلم الفاضل وأخوه وأهل شهادة من الأشراف بموقف أهل صعدة، فزحفوا إلى صعدة، واقتحموها على حين غفلة من أهلها، واستولى الأشراف على دار الإمارة[٤]، وبذلك استعاد الزيدية سيطرتهم على صعدة.

لم يكتف الشريف الفاضل بالاستيلاء على صعدة، بل عول على تدمير مراكز الصليحيين القريبة من صعدة، فشن الغارة على شطب واستولى على مدينة بارا في جبل شطب، وطرد الحامية الصليحية منها، ثم توجه الفاضل وذو الشرفين إلى جهات الشرف، فأخربا ما في نوسان[٥] منممتلكات الصليحي، وفرقوا جنده ودخل أهل تلك الناحية في طاعة الشريفين.

لم يكتف الشريفان بذلك. بل سار الفاضل إلى الجوف سنة ٤٦٤هـ وبقي ذو الشرفين في شهاره، فأرسل إليهما منصور بن حسين بن المنتاب- صاحب

(١) زبارة : أئمة اليمن ص٩٥.

(٢) شهاره من حصون صعده.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٢٦٢

(٤) يحيى بن الحسين غاية الأماني ص٢٦٣.

(٥) نوسان تتبع ذمار وهي من مخلاف عنس.

مسور- يطلب منهما الموافقة على حكم جبل مسور، والوقوف إلى جانبه فى طرد الصليحيين[1] فسار إليه ذو الشرفين، ودخل مسور، ودخل أهل تلك الناحية فى طاعته؛ وبذلك اتسع نفوذ وسلطان الفاضل وأخيه ذى الشرفين[2].

أما الفاضل فقد نهض بمن معه إلى وادى شرس، واستولوا عليه، ثم زحف الفاضل إلى بنى شاور، واستولى على حصن حقيل، وواصل الشريف الفاضل وأخوه ذو الشرفين الحرب ضد الصليحيين وأحرزا انتصارات كثيرة عليهم، وانتزع الشريفان من الصليحيين الكثير من المعاقل والحصون[3].

لم يتغاض الصليحيون عن انتزاع الشريفين لبعض أراضى دولتهم، ورأوا فيهما خطراً شديداً على ملكهم، فعولوا على محاربتهم، ففى سنة ٤٦٦هـ خرج بنو الصليحى إلى يناع، واستنفروا أنصارهم أهل حراز، وتهض المكرم بنفسه إلى عرذيب فأقبل إليه أهل حراز من أنصاره، ودارت بين الزيدية والصليحيين عدة وقائع، دارت فيها الدائرة على الصليحيين.

واصل الشريفان بقيادة أنصارهما الزيدية تقدمهما، فشنوا غارات على معاقل الصليحيين، فالتجأ آل الصليحى بمن معهم إلى جبل بيت خولان، وأقبل الشريف الفاضل من جبل مسور على رأس جيش كبير، ودخل ثلا، ثم زحف إلى صنعاء واقترب منها، وشدد عليها الحصار، وشن جنوده على صنعاء عدة غارات، وضيقوا مسالكها، واشتد الحصار على من فيها، وقلت الأقوات، وارتفعت الأسعار، وقاسى أهالى صنعاء الجوع وويلات الحصار[4].

ولم يكتف ذو الشرفين بذلك، بل غادر يناع سنة ٤٦٧هـ، بعد أن عهد بولايتها إلى أحد الأشراف، وسار إلى جهة مسور التى انتفض أهلها على الحكم الزيدى، ولم يتمكن ذو الشرفين من إخضاع الثوار، فأعرض هو وأخوه الشريف الفاضل عن الحرب، بسبب قوة بأس المعارضين لهما[5]. ومل الجند مواصلة القتال، وانفضوا مَن حولهما. هنا شعر الشريفان بصعوبة تحقيق هدفهما فى إقامة دولة زيدية مناهضة للصليحيين، وذلك لأن أنصارهما لم يبقوا على الولاء الكامل والإخلاص لهما، كما أن الدولة الصليحية كانت قوية الجانب

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٢٦٤.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٢٦٤.

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٢٦٦.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ٢٦٧.

(٥) المصدر السابق ٢٦٨.

تستطيع التصدى لكل محاولة مناوئة؛ فسار الشريف الفاضل إلى الجوف، واستقر فيه هو وأنصاره، وأخذ على أهل تلك الناحية المواثيق الغليظة والعهود على الطاعة وحسن الجوار، ولكن لم يلبث أن نقض بعض الأهلين هذا العهد، وقتلوا الشريف الفاضل، وربما تم ذلك بتدبير من المكرم[1].

لم يتغاض ذو الشريفين عن مقتل أخيه، بل عول على الانتقام لمقتله فخرب القرى التى انبعثت منها المؤامرة، وقتل كل من اشتبه فيه، وانتقم لمقتل أخيه شر انتقام.

على أن موت الشريف الفاضل أضعف من نفوذ الدولة الزيدية فى بلاد اليمن فانتفضت البلاد على ذو الشرفين، وانضموا إلى الصليحى، وحاول ذو الشرفين عبثاً قمع الثورات ضده حتى وفاته سنة ٤٧٨هـ فى شهارة، وبايع الزيدية ابنه جعفر بن محمد، وهو آخر من ولى أمر الزيدية من أبناء الإمام القاسم بن على العيانى. وقد أخذ أمر الزيدية فى عهده فى الضعف والانهيار[2].

وبذلك نرى من دراستنا للزيدية فى العصر الصليحى أنهم فشلوا فى الإبقاء على دولتهم، وضعف أمرهم، ولم يعد للأئمة الزيدية إلا سلطان محدود على بلدان قليلة[3].

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ٢٦٨.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ٢٦٨.

(٣) المصدر السابق ٢٧٠-٢٧١.

علاقة الصليحيين ببنى نجاح

واجه على بن محمد الصليحى منذ قيام دولته منافسا قويا، بل أكبر منافس له فى بلاد اليمن، وهو نجاح الحبشى، فقد أقام نجاح دولة سنية المذهب بعد سقوط دولة سادته بنى زياد سنة ٤٠٢هـ[١]، وأقام نجاح الخطبة للخليفة العباسى[٢]. وبذلك ظهرت فى بلاد اليمن قوتان متعارضتان، الدولة الصليحية الإسماعيلية المذهب، وتقيم الخطبة وتدين بالولاء والطاعة للخليفة الفاطمى المستنصر، والدولة النجاحية السنية التى تقيم الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد.

وكان نجاح حاكما قويا مهاب الجانب، وتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال فى دولته، فصار يركب المظلة كغيره من السلاطين[٣]، ويسك العملة باسمه، وبلغ من ازدياد نفوذه أن فوض إليه الخليفة العباسى تقليد القضاء لمن هو أهل له، كما عهد إليه بالنظر فى شؤون البلاد اليمنية، ولقبه المؤيد نصير الدين[٤]. وكان العداء شديداً بين دولة نجاح السنية ودولة الصليحيين الإسماعيليين فكل منهما يدين بمذهب معارض لمذهب الآخر، وكل منهما يطمع فى ملك الآخر، أو على الأقل يخشى على ملكه من الآخر. على كل حال حرص نجاح على قمع كل محاولة يقوم بها دعاة الإسماعيلية لنشر دعوتهم فى بلاد اليمن[٥]؛ لذلك كان على بن محمد الصليحى يرى فى نجاح عقبة كؤودا تقف فى سبيل نشر دعوته ونفوذه فى بلاد اليمن، وقد عمد الصليحى إلى مداراة نجاح، وأظهر أنه يدين بالطاعة له[٦]، وأخذ يتودد إليه ليأمن جانبه، لأنه شعر أنه لاطاقة له به؛ لأن دولته مازالت فى دور التأسيس، ولا يستطيع محاربته والتصدى له، فعول على التخلص منه بالحيلة والخديعة[٧]، فأهدى إليه جارية حسناء سنة ٤٥٢هـ، وشغف نجاح بها حبا، وقربها إليه، ووضع كل ثقته فيها، فلما اطمأن إليها، وشعرت هى بذلك، دست له السم، فمات على أثر

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ١٣٦.

(٢) العرشى : بلوغ المرام ص٢٥.

(٣) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ١٣.

(٤) عمارة: تاريخ اليمن ص١١-١٢.

(٥) العرشى : بلوغ المرام ص٢٥

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٤٦.

(٧) عمارة: المفيد ص١١٧.

ذلك[1]. وبذلك تخلص الصليحى من أكبر قوة فى اليمن مناهضة له. وسقطت دولة بنى نجاح على أثر موت مؤسسها، ودخلت زبيد فى حوزة الدولة الصليحية، وتفرق أولاد نجاح.

على أن أولاد نجاح وأنصارهم من الجيش لم يتغاضوا عن سقوط دولتهم وموت مؤسسها بالسم، بل عولوا على استرداد ملكهم، فتزعم الثورة فرح الحبشى فى زبيد بتحريض من سعد الأحول بن نجاح، وجمع الأحباش من حوله، وحرضهم على استرداد زبيد بقوله: إنه قد اشتهر أمركم فأدركوا نفوسكم، وإلا فإنه قد حان هلاككم[2]» فعلم الصليحى بحركة فرح المعادية لحكمه، وأمر بالقبض عليه، وسيق إلى الصليحى مكبلا بالسلاسل والأغلال، فأمر بقتله. فثار الأحباش فى زبيد وما جاورها. وقتلوا عمال الصليحيين وأنصارهم. ونهبوا أموال أهل حراز[3].

ولم تنته حركة الأحباش عند هذا الحد، بل تحينوا الفرص المناسبة لقتل الصليحى، والتخلص منه ومن نظام حكمه ومن دولته الإسماعيلية وإعادة ملك النجاحيين السيىء الموالى للخليفة العباسى فى بغداد. وتزعم هذه الحركة سعيد الأحول. وكتب إلى أخيه جياش يستدعيه للوصول إليه بمن أمكنه من مواليهم وأنصارهم لغزو الصليحى والتخلص منه. فوصل جياش فى أربعمائة رجل، والتقى بأخيه فى عدد من رجاله، وباغت النجاحيون مخيم الصليحى. وقتلوه ومن معه من رجال الصليحيين. ونادى المنادى فى المعسكر: أن الصليحى قد قتل. فلاذ أنصاره بالفرار، وتفرقوا فى كل مكان، واستولى آل نجاح على خزائن الصليحى وذخائره وخيله[4] وكانت أسماء بنت شهاب زوج الصليحى معه، فأسرها النجاحيون وبالغوا فى استفزازها وإزعاجها، وجعل سعود الأحول رأس زوجها ورأس أخيه أمام هودجها فى طريقها إلى الأسر[5]، وسار سعيد إلى زبيد واستعادها من الصليحيين، وعاد إلى بنى نجاح ملك تهامة بأسرها، كما كان لأبيهم من قبل، وأقامت أسماء فى الأسر فى زبيد سنة كاملة، وفى قاعة منصوب فيها رأس زوجها وأخيه[6].

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ٤ص ١٤٤.

(٢) عمارة: المفيد ١٢٧.

(٣) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص٤٠

(٤) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ١٣٢.

(٥) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٤٠

(٦) عمارة: المفيد ص١٢٧.

لما أخضع المكرم الحركات المضادة والمناهضة لحكمه، عول على الزحف إلى زبيد لإنقاذ أمه من الأسر، واستعادة البلدة من بنى نجاح والتخلص منهم، والانتقام مما ألحقوه بوالده وأفراد أسرته، وكانت السيدة أسماء قد أعملت الحيلة، وأرسلت رسالة إلى ابنها المكرم تستثيره، وتطلب منه أن ينهض لفك أسرها «من العبد الأسود»، وبعثت الكتاب فى رغيف مع مع أحد السائلين، وقرأ المكرم الكتاب على أنصاره، فثارت حميتهم، ودبت الحماسة فى رؤوسهم، وأجمعوا على المسير إلى زبيد لتخليص الملكة[1]. وقام الخطباء والشعراء، يستنفرون العرب للأخذ بثأر ملكهم، وأنشد الحسين بن على القمى- صاحب ديوان الإنشاء قصيدة منها:

ولا تهــــدرى ثأر المظــــفر إنـــــه بنى لكمــو مجـداً وشـاد لكم فخـراً

ســـرى نحـــو بيت الله لله قاصـــداً يروم من الله المثـــوبة والأجــــــرا

أقحطان هزى البيض واعتقلى السمرا وردى العوالى من دماء العدا حمرا[2]

وبذلك اتخذ العداء بين الصليحيين والنجاحيين شكل عداء عنصرى بين العرب اليمانية والأحباش السود، ولم يبق على هؤلاء السود فى اليمن إلا سنيتهم، إذ وجد السنيون اليمانية فى بنى نجاح ملاذا وحصنا وحاميا لمعتقداتهم من الإسماعيلية وآرائهم التى يعتقدون ببطلانها.

ومهما يكن من أمر فقد قاد المكرم جيش العرب إلى زبيد، واشتبك مع جيش سعيد الأحول الحبشى على مشارف زبيد، واشتدت الحرب وحمى الوطيس، وانتصر العرب على الأحباش انتصارا رائعاً، وقتل من الأحباش كثيرون، ونجا سعيد الأحول بنفسه، ولاذ بالفرار من ميدان المعركة هو وقومه إلى جزيرة دهلك[3].

ودخل المكرم زبيد فى غرة شوال، وخطب فى الناس خطبة العيد، وحمد الله على أن وفقه فى الأخذ بثأر أبيه، وإنقاذ والدته من الأسر، ومما قاله: «اللهم فتعهد بغفرانك ورحمتك ورضوانك عبد أمير المؤمنين.. اللهم وأوزعنا شكر ما أنعمت به علينا من توحدك لنا بإدراك

(١) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٣٨.

(٢) الجندى : السلوك ١ ورقة ٨٨.

(٣) الخزرجى: العسجد ١٣٣.

ثأره من الظالمين والإدالة به من أعدائه الفاسقين حتى صاروا بأسيافنا حصيداً خامدين، فما بكت عليهم السماء والأرض، وما كانوا منظرين[1].

وقتل سعيد الأحول، وحملت رأس الأحول أمام هودج زوجته، كما فعل سعيد الأحول بأسماء بنت شهاب، ثم سار الجند الصليحى بأم المعارك ورأس سعيد إلى الملكة أروى، وسرت بذلك، لأنها أخذت بثأر أسماء وعلى الصليحى، وقالت «ليت أسماء بنت شهاب شهدت هذا اليوم»[2].

على أن جياش بن نجاح لم يستسلم لمقتل أخيه وضياع مملكته، بل عول على استرداد زبيد وتهامة، فراسل الأحباش فى زبيد وما حولها[3] حتى اجتمع لديه عدة آلاف، وتمكن من استرداد زبيد، وعلى أثر ذلك استرد بنو نجاح ممتلكاتهم التى اغتصبها منهم الصليحيون[4]، ولم يزل بنو الصليحى وبنو نجاح يتواصلون على ملك تهامة، فكان إذا أقبل الشتاء هبط بنو الصليحى إلى تهامة، وتوجه بنو نجاح إلى دهلك، فيقبض بنو الصليحى خراج تهامة، ويسقطون عن الرعية ما قد سلموه إلى بنى نجاح فى أيام الصيف والخريف، ويمكثون فى تهامة إلى أيام الصيف، ريثما يرتفعون عنها إلى بلادهم، فيخرج بنو نجاح إليها، ويقبضون الضرائب المقررة عليها، ويسقطون عن أهلها ما سلموه إلى بنى الصليحى وعلى هذا النمط جرت عادتهم مدة من الزمان[5].

وكان جياش إذا عاد إلى زبيد نشرت المصاحف، وابتهلت له الرعايا بالدعاء وخرج الفقهاء والعلماء من عزلتهم يعظون الناس فى المساجد[6]، ذلك أن أهل زبيد سنيون يعارضون الإسماعيلية.

على أن جياش أراد أن يستقر به المقام فى زبيد، فأعد العدة لمنع الصليحيين من العودة إلى زبيد، وانضم إليه الشريف يحيى بن حمزة بن وهاس وكثير من زعماء الأحباش فى تهامة، وكاتبوا أبا حمير سبأ- نائب الملكة أروى- غدرا يطلبون منه الذهاب إلى زبيد

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ٦٣.

(٢) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٤٩-٥٠

(٣) العرشى : بلوغ المرام ص ٢٦-٢٧.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ٦٤.

(٥) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٨

(٦) الخزرجى : العسجد المسبوك ورقة ١٣٤

ودخولها، فلما بلغ سبأ باب زبيد، أعد جند جياش والشريف كمينا لسبأ وجنده، ودارت بين العرب والأحباش موقعة الكظائم في أواخر سنة ٤٧٩هـ، هزم فيها سبأ، ونجا بشق النفس، وملك جياش زبيد، ولم يعد ينازعه فيها منازع[١]. «على أن الملكة أروى لم تتغاض عن عودة زبيد إلى النجاحيين- الأعداء التقليديين لآل الصليحي، -فأمرت صاحب حصن الشعر أن يباغت سعيد الأحول بجيش كثيف، وفعلا انقض على سعيد وجنده، ونكل بهم سنة٤٨١هـ.. ووقعت زوجته أم المعارك في أسر الصليحيين، ولما توفى جياش، خلفه ابنه الفاتك ونازعه الملك أخواه إبراهيم وعبد الواحد، وكان الجند يلتفون حول عبد الواحد، وجرت بينه وبين أخيه فاتك وقائع، وانقسم الجند بينهما، ولما انتصر فاتك على أخيه عبد الواحد، عفا عنه وأكرمه وأرضاه[٢].

ولما توفى فاتك سنة ٥٠٣هـ خلفه ابنه منصور- وكان غلاماً صغيراً- فسيطر على البلاد عبيد أبيه، فاعترض عمه إبراهيم بن جياش، واشتبك خارج زبيد في قتال مع عبيد فاتك فانتهز عبد الواحد بن جياش فرصة خلو زبيد من جند فاتك واستولى عليها، ودخل دار الإمارة[٣].

أما عبيد فاتك بن جياش ومولاهم المنصور بن فاتك، فقد لجأوا إلى الملك المفضل ابن أبي بركات- صاحب التعكر- والملكة أروى فأكرما وفادتهم، وطلب عبيد فاتك من المفضل مساعدتهم في استرداد زبيد مقابل أداء ربع متحصل البلاد لهم[٤]، فاستجاب لهم، وأعاد زبيد إلى منصور بن فاتك، وطرد منها عبد الواحد، وبذلك ضعفت دولة بني نجاح، وأصبحت تستمد القوة والدعم من أعدائها السابقين- الصليحيين.

ولم يعد لأولاد فاتك بن جياش من الأمر سوى النواميس الظاهرة من الخطبة لهم بعد بني العباس والسكة والركوب بالمظلة في المواسم والأعياد[٥]. أما الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود وإجازة العقود فلعبيدهم الوزارء[٦].

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٦٣.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٤٤.

(٣) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٣٨.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٦٥.

(٥) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٥٦.

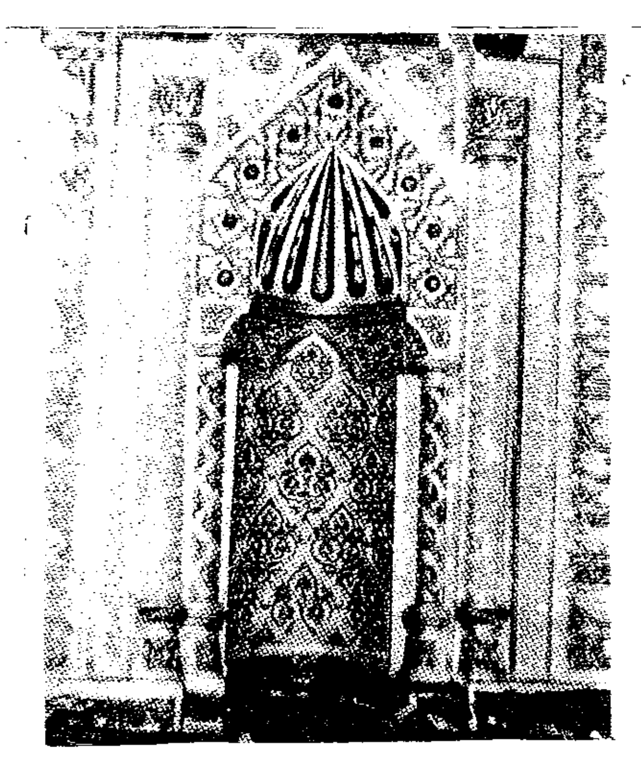
(٦) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٦٥.

الدولة الصليحية من أجلّ الدول الإسلامية التى تعاقبت على حكم اليمن، وعلى الرغم من أن مذهب ملوكها هو الإسماعيلية، الذى يعارضه الكثير من اليمانية، إلا أن ملوكها عرف عنهم التسامح المذهبى فلم يتعرضوا بسوء للمخالفين لهم فى المذهب. وقد امتد نفوذ هذه الدولة السياسى على معظم بلاد اليمن، بل امتد إلى بلاد الحجاز فى بعض فترات تاريخهم، وكان الملوك الصليحيون من أكبر دعاة الإسماعيلية، فكانوا يرسلون الدعاة من قبلهم إلى سائر الجزيرة العربية وبلاد الهند والسند وبعض البلاد الإسلامية الأخرى.

وتأتى أهمية هذه الدولة إلى أن أصحابها يمنيون، حرصوا على إصلاح أحوال بلادهم، وإنعاشها اقتصادياً. وعلى الرغم من كراهة كتاب السنة للصليحيين وحرصهم على التقليل من شأنهم، إلا أنهم لم ينكروا تسامح الملوك للصليحيين المذهبى، وحرصهم الشديد على أن يهيئوا للمواطن اليمنى الأمر والاستقرار والرخاء.



لوحة (٩) منبر الجامع الكبير بمدينة إب.



لوحة (١٠) محراب جامع جبله



لوحة (١١) (ضريح السيدة أروى)

الحياة السياسيّة
فى بلاد اليمن قبل الحكم الأيوبى

انقسمت بلاد اليمن إلى دول مستقلة منذ أن أخذت الدولة الصليحية فى الضعف، وتصارعت القوى المختلفة فى بلاد اليمن حول السيطرة والنفوذ، وقاسى أهل اليمن من النزاع بين الحكام، لأنهم وقود معاركهم وتكاليف الحروب كلها من كدهم.

بعد أن سقطت الدولة الصليحية ظلت دولة بنى نجاح تحكم زبيد، وتاريخ هذه الدولة فى الفترة الأولى -أى فترة حكم نجاح وسعيد وجياش- مرتبط كل الارتباط بتاريخ الدولة الصليحية، لذا تحدثنا عن هذه الدولة فى عصر ملوكها هؤلاء أثناء حديثنا عن الدولة الصليحية.

أما فى الفترة الثانية من حكم بنى نجاح فنلاحظ أن الأمر والنهى صار لعبيدهم، وأول هؤلاء الوزراء العبيد أنيس الفاتكى- وهو حبشى- وكان جباراً غشوماً[(١)] بل تطلع إلى التخلص من سيده، والاستقلال بالدولة، فعمل لنفسه مظلة للركوب وضرب سكة باسمه، ولكن مولاه منصور بن فاتك تغدى بعبده أنيس قبل أن يتعشى عبده هذا به سنة ٥١٧هـ. فدبر مؤامرة تخلص بها منه[(٢)]. وكان لمنصور ابن فاتك جارية تسمى علم، أنجبت من سيدها فاتك، ونالت حريتها ووليت حكم اليمن، واشتهرت بالعدل وحسن السياسة، وإنصاف المظلومين.

ولى الوزارة لمنصور بن فاتك، الوزير مَنُّ الله الفاتكى- وهو من العبيد الأحباش- وعرف بالكرم والشجاعة، وأحرز عدة انتصارات على أعداء الدولة وهزمهم؛ وصدهم عن بلاده، وكان أديبا، يقرب إليه الشعراء، عادلا ينصف المظلوم من الظالم، ويعطى لكل ذى حق حقه[(٣)]، لكنه حذا حذو سلفه أنيس الفاتكى، فتطلع إلى انتزاع الملك لنفسه من سيده فقتل منصوراً بالسم وجعل الملك لولده فاتك ابن السيدة علم[(٤)]، وكان غراً صغيراً. ومما يدل

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٦٦.

(٢) ابن الديبع: بغية المستفيدص٥٧.

(٣) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٥٨.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٦٧

على كثرة الجوارى فى بيوت آل نجاح أن منصور بن فاتك كان قصره يضم ألف سرية.وقد ذهب مَنُّ الله الفاتكى ضحية مؤامرة دبرتها ضده إحدى السرارى سنة ٥٢٤هـ[(١)] وخلفه رزيق الفاتكى، وكان كريماً شجاعاً يغدق بسخاء على الشعراء، وخلفه مفلح الفاتكى-وهو من أصل حبشى أيضاً- وكان من أعيان الناس وأكابر الفقهاء، أديبا سمحا فصيحاً شجاعا[(٢)]. وقد طمع عبد آخر يسمى سرور فى انتزاع الوزارة لنفسه من مفلح، فقاد عبيده فى معارك ضد مفلح وعبيده، انتصر فيها سرور سنة ٥٢٩هـ. غير أن منصور بن مفلح لم يمكن العبد سرور من الوزارة. لذلك ولى الوزارة إقبال الفاتكى. وقد تآمر على سيده السلطان وقتله بالسم[(٣)]، وبعد منازعات بين العبيد ولى سرور الوزارة، وقد اشترته السيدة الحرة علم، وربته تربية خاصة، ولم يلبث أن شب وبلغ مبلغ الشباب، فولته زمام المماليك والتدبير لجميع الدار... والترؤس على من فيه، وتدرج فى سلك الجندية حتى ولى الوزارة بعد إقبال وكان عادلا حريصا على إنصاف المظلوم.

وكان سرور حسن السيرة، يخرج من بيته إلى مسجده بعد منتصف الليل أو ثلثه، حتى يتصل به أصحاب المظالم ممن يمنعهم الحياء أو ازدحام عمل الوزير من الوصول إليه[(٤)]. وفى الصباح بعد الصلاة يزور المرضى، ويواسى أهل من يموت، ويحضر حفلات الزواج، ولا يميز فى ذلك بين غنى وفقير. وفى كل يوم يجلس للنظر فى المظالم فى وقت محدد. وبعد صلاة المغرب يناظر الفقهاء حتى العشاء. ومن وقت لآخر يذهب إلى السيدة الحرة فيشاورها فى أمور الدولة[(٥)].

وقتل سرور فى رجب سنة ٥٥١هـ فى المسجد على يد رجل من أصحاب بنى مهدى وبمقتله أخذت دولة بنى نجاح فى الضعف والتدهور، وحدث بها فراغ سياسى كبير، وتنازع الأمراء وعبيدهم الوزراء حول السلطة والنفوذ، وزاد البلاد ضعفاً تعرضها لغارات المهديين المتكررة؛ وعجز البلاد عن صد هذه الهجمات العنيفة، وسلبت أموال الناس، وتعرض نساؤهم وأطفالهم للقتل والأسر والخطف. وبذلك أصبحت البلاد ممهدة لغزو ابن مهدى. وفى سنة٥٥٤هـ استولى ابن مهدى على زبيد وأعمالها، وسقطت دولة بنى نجاح.

---

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص٦٠

(٢) المصدر السابق ص٦١.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٦٨.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص٦٢-٦٥.

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٦٩.

وهكذا زالت دولة بنى نجاح، وكان حكمهم غير مستقر فى بلاد اليمن، وكان الصليحيون لهم بالمرصاد منذ أن حكم الدولة مؤسسها نجاح، وقد نظر العرب اليمانية إلى حكامهم النجاحيين نظرة احتقار وازدراء، فهم أحباش يذكرونهم بالاستعمار الحبشى الذى تعرضت له اليمن قبل الإسلام. والنجاحيون كانوا موالى للزياديين، والعرب لايقدرون إلا الحكام الذين ينتمون إلى أصل عريق. وقد حكم النجاحيون زبيد وتهامة. ولم يكن فى مقدورهم- كما رأينا- المحافظة على دولتهم من طمع الطامعين، حتى أن الصليحيين أسقطوا دولتهم فى بعض فترات حكمهم. ومن هنا لم يكفلوا لبلادهم الاستقرار الضرورى، الأمر الذى يؤدى إلى إنعاش البلاد اقتصاديا واجتماعياً. ولكن على الرغم من ذلك فقد ازدهرت الحركة الثقافية فى دولة بنى نجاح بسبب تشجيع الملوك النجاحيين. ووجد علماء وشيوخ السنة فى المملكة النجاحية أرضاً خصبة وصالحة لنشر أفكارهم والتعليم والوعظ والإرشاد بعيداً عن بلاد الإسماعيلية والزيدية. وللإنصاف يجب أن نقول أن النجاحيين حالوا دون امتداد التيار الإسماعيلى وسيادته فى سائر اليمن، وفى نفس الوقت حالوا دون انتشار المذهب الزيدى فى بلادها.

دولة بنى زريع فى عدن:

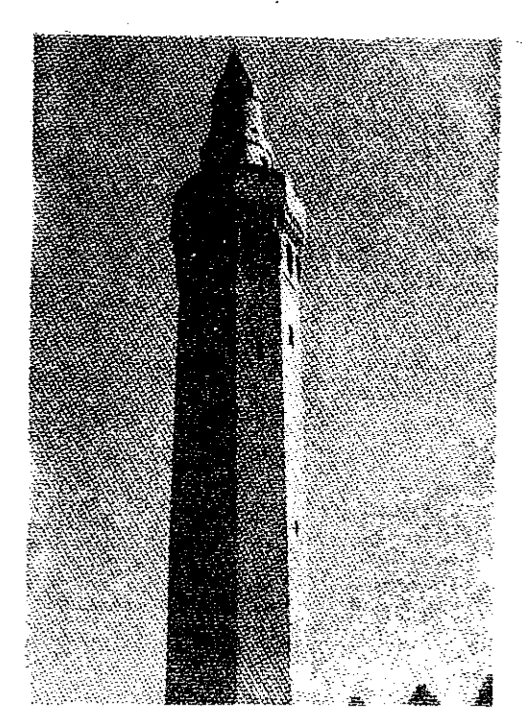
كان بنو معن يحكمون عدن منذ أوائل العصر العباسى الأول، وينسبون إلى معن بن زائدة الشيبانى- والى اليمن فى عهد الخليفة المنصور- وقد حكم بنو معن عدن منذ أيام الخليفة المأمون، وأظهروا الطاعة لبنى زياد من الناحية الشكلية فقط، مثل إقامة الخطبة لهم، ونقش اسم الأمير الزيادى على العملة، واستقلوا تماما فى إدارة شئون دولتهم فى عدن[1].

أبقى على بن محمد الصليحى بنى معن فى حكم عدن، مقابل جزية يؤدونها، ولكن ابنه المكرم طردهم من عدن، وولى عليها بنى المكرم من عشيرة جشم ابن يام من همدان، فظلوا يحكمونها فترة من الوقت، ثم انقسموا على أنفسهم إلى فريقين، بنو مسعود بن المكرم، وبنو زريع بن العباس بن المكرم، وانتهى النزاع بين الفريقين، بتغلب بنى زريع على عدن[2].

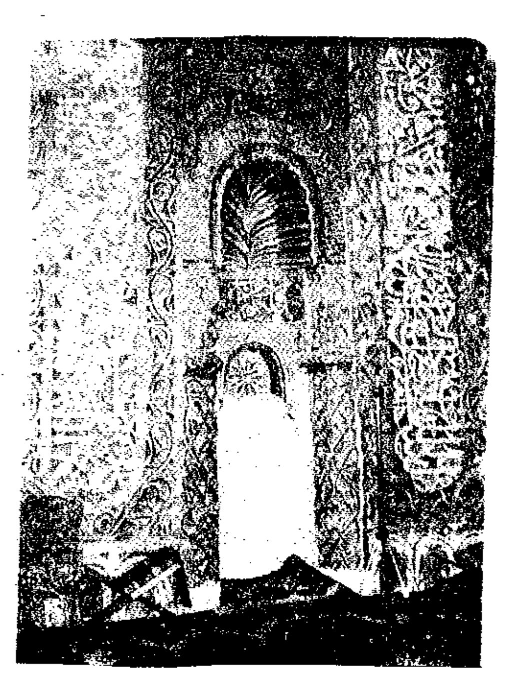
---

(١) العبدلى: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ٥٤.

(٢) عمارة: المفيد ص١٤٤.



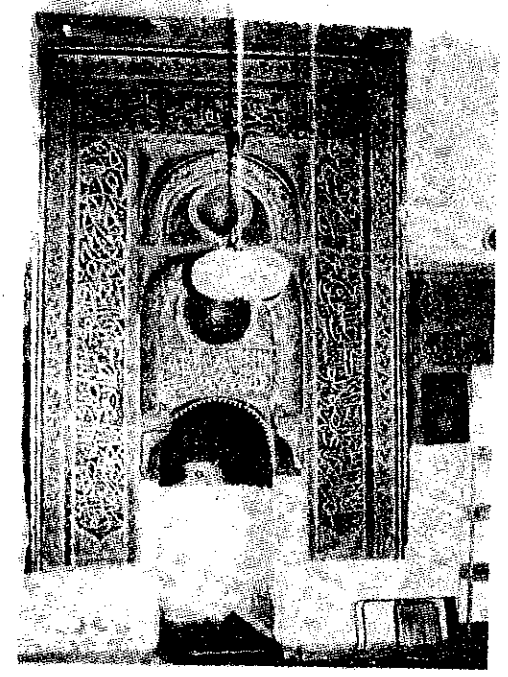
لوحة (١٢) مئذنة جامع الجند



لوحة (١٣) المحراب الرئيسى فى الجامع الكبير بشبام كوكبان



لوحة (١٤) واجهة مسجد صلاح الدين بصنعاء



لوحة (١٥) محراب مسجد صلاح الدين بصنعاء

وأول من ملك اليمن من بنى زريع، سبأ بن أبى السعود بن زريع؛ وخلفه أبناؤه فى حكم عدن، وظل الأمر كذلك حتى حكم عدن، على بن أبى القارات بن أبى السعود بن المكرم- صاحب الزعازع، وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٥٣٣هـ[١].

وخلفه ابنه الأعز- والى حصن الدملوه- وكان بلال بن جرير- مولى بنى زريع- يدبر شئون عدن نيابة عن سيده، وأرسل إلى الخليفة الفاطمى فى مصر يطلب تقليداً لسيده لحكم عدن، حتى يكتسب حكمه الصفة الشرعية، ولما وصل التقليد كان الأعز قد توفى، وخلفه محمد بن سبأ، فغير بلال التقليد بحيث يكون باسم محمد بن سبأ، ولقب الداعى المعظم المتوج المتين، سيف أمير المؤمنين[٢]. وزوجه بلال من ابنته، ومكنه من الأموال التى كانت فى خزائنه، وتوفى بلال تاركا ثروة كبيرة، ورثها محمد بن سبأ، وأنفقها على المحتاجين، واعتزم أن يوسع رقعة دولته، فاشترى حصن ذى جبلة من منصور بن المفضل بن أبى البركات، واستولى عليه، وتزوج سيده بنت عبد الله الصليحى، ولما توفى سنة ٥٤٨هـ خلفه ابنه عمران فى حكم عدن، وطمع وزير الدولة الزريعية- ياسر بن بلال فى الاستئثار بالسلطة والنفوذ دون الأمير الصغير، فزجه فى السجن، وانفرد بحكم عدن، وظل يلى أمرها حتى هاجم توران شاه عدن سنة ٥٦٩هـ[٣]، وقبض عليه، واستولى على عدن، وبذلك زالت دولة بنى زريع.

دولة بنى مهدى:

برز فى بلاد اليمن على بن مهدى، وعرف عنه الورع والتقوى، وكان يلتقى بعلماء العراق ووعاظهم فى مواسم الحج، ويستفيد منهم، وكان فصيحاً طلق اللسان حسن العبارة، ولم يلبث أن اشتهر أمره، وذاع صيته فى البلاد الواقعة بالقرب من زبيد، وأتاه قوم من الجبال، فحالفوه على النصر والقيام معه[٤]، وكانت بيعته بالقضيب، ثم سار على رأس أنصاره إلى تهامة سنة ٥٣٨هـ، واجتمع له أربعون ألفاً، ولكن بعض قادة هذه المنطقة،

---

(١) العبدلى: هدية الزمن ص٥٤.

(٢) عمارة: المفيد ص١٤٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٦ العبدلى: هدية الزمن ص٥٦.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص١٨٢.

شتتوا هذه الجموع، وفرقوهم، فعاد ابن مهدى إلى الجبال، على أن أنصاره لم تفت فى عضدهم الهزيمة، بل بايعوه للمرة الثانية سنة ٥٤٥هـ[1]، وهذا يدل على مقدار تأثيره فيهم، وعاهدوه، على جهاد الأحباش- حكام الدولة النجاحية- ومن يناصرهم من العرب، وبذلك عبر ابن مهدى عن كراهة اليمانية للحكم الحبشى البغيض والدخيل.

شن ابن مهدى عدة غارات على تهامة حتى خرب هذه البلاد، وبطل الحرث والعمارة فى أيامه وانقطعت القوافل، وكان يؤيد آراء بعض فرق الخوارج[2]، فأمر أصحابه بقتل مخالفيهم فى المذهب، وأباح وطء نسائهم، واسترقاق ذراريهم، وجعل دارهم دار هجرة، وكان يأمر بقتل المنهزم من جنده، ومن يرتكب المحارم، ولا يؤدى[3] الفرائض.

اتخذ ابن مهدى حصن الشرق- من أعمال وصاب- لإعلان ثورته منه، وسمى من صعد معه من تهامة، المهاجرين، ومن أتاه من الجبال الأنصار، ثم ساء ظنه بأصحابه، فاحتجب عنهم، وجعل على المهاجرين نقيباً، وعلى الأنصار نقيباً، وسمى النقيبين، شيخى الإسلام[4]. وكان لايسمح لأحد بالدخول عليه من المهاجرين أو الأنصار، وليس لأحد الحق فى الاتصال به، والتحدث معه، وتلقى الأوامر منه إلا النقيبين، وقد يحتجب عنهما أحيانا[5].

شن ابن مهدى عدة غارات على زبيد تمشياً مع سياسته الرامية إلى القضاء على ملك بنى نجاح «ولما هم عليه من الفساد ومخالفة رب العباد»[6] وقد ارتكب جنوده صنوف الشدة والبطش بالأهلين[7].

وكان ابن مهدى يثير حماسة أنصاره ضد الأحباش بقوله «والله ما جعل الله فناء الحبشة إلا بى وبكم، وعما قليل سوف تعلمون... وإنى أحدثكم فلا أكذبكم وأعدكم ولا أخلفكم وإن كنتم قليلاً لتكثرن أو ضعافا لتقوون ولتشرفون، وأذلاء.. لتعزون حتى تصيروا

(١) الخزرجى: العسجد المسبوك ١٥٦.

(٢) عماره: المفيد ص٩٦. ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٧١.

(٣) الخزرجى: العسجد المسبوك ص١٧٠.

(٤) ابن سمره: طبقات الفقهاء ص١٨٢.

(٥) عماره: المفيد ص١٠٠

(٦) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٢.

(٧) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٥٤.

حديثاً فى العرب والعجم، ليجزى الله الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، والثأر الثأر- الأناة الأناة. فوحق الله العظيم على كل موحد مؤمن لآخذ منكم بنات الحبشة وإخوانهم ولأخولنكم أموالهم وأولادهم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً)[1].

ومن هذا الخطاب تتضح لنا النزعة القومية لابن مهدى، وحرصه على تخليص بلاده من الأحباش الدخلاء، ولكن على الرغم من ذلك فقد لاحظنا فى دراستنا لتاريخه وتاريخ أسرته العنف والشدة على مخالفيهم سواء أحباش أو عرب.

على كل حال شن ابن مهدى عدة غارات على تهامة حتى أخرب هذه البلاد ولم يلبث على بن مهدى أن تخلص من سرور الفاتكى- وزير الدولة النجاحية- سنة ٥٥١هـ[2]، فأخذت دولة بنى نجاح فى التدهور والانهيار، ذلك أن أمراءها تنافسوا حول الوصول إلى الحكم، فانتهز على بن مهدى الفرصة، وزحف بأنصاره العديدين إلى زبيد[3]، وحاصرها، وشدد عليها الحصار، وتخلى عرب زبيد عن حكامهم، ولم يقفوا إلى جانبهم فى درء قوات ابن مهدى الزاحفة على بلدهم، بل تطلعوا إلى التخلص من حكم الأحباش الدخلاء، والعودة إلى حكم يمنى خالص، وهنا تجلت النزعة القومية، إذ دارت الحرب بين الفريقين، العرب بقيادة ابن مهدى، والأحباش الذين يدافعون عن سلطانهم ونفوذهم فى زبيد ونواحيها. على كل حال قاوم الأحباش جند ابن مهدى بكل ما أوتوا من قوة، وما زال ابن مهدى يشدد الحصار على زبيد حتى دخلها عنوة سنة ٥٥٤هـ[4]. وبذلك زال ملك بنى نجاح، ودخلت زبيد فى حوزة الدولة المهدية. واتخذ على بن مهدى زبيد حاضرة لدولته التى اشتملت على تهامة وبعض الحصون المجاورة[5].

اتسعت دولة بنى مهدى فى عهد مهدى بن على، وامتد نفوذه إلى عدن، وقبل صاحبها الداعى عمران بن سبأ أداء قدر من المال كل عام لمهدى بن على مقابل إبقائه فى

---

(١) الجندى: السلوك ١٥٤.

(٢) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٥٦

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٣.

(٤) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٦٠.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص١٨٣.

حكم عدن[1]. كذلك أغار مهدى على لحج فى سنة ٥٥٨هـ، ونكل بأهلها، ونهب أموالهم، وزحف إلى الجند ودخلها، ونكل بأهلها، ودمر دورها، وعاث جنده فى البلدة نهباً وفساداً. بل أحرق المسجد بمن فيه من العاكفين... والعابدين[2].

اتسمت حروب آل مهدى بطابع الغزو الخاطف، وقتل الأنفس، ونهب أموال الناس وتخريب دورهم. وفى سنة ٥٦٠هـ أغار مهدى على المخلاف السليمانى وقتل فريقا من سادته الأشراف السليمانيين، واستولى على أموالهم، وسبى نساءهم[3]، ثم سار عبد النبى بن على بن مهدى سنة ٥٦٢هـ إلى اليمن الأسفل، واستولى على مخلاف جعفر، ودخل الجوة وخربها، واستولى على حصن تعز وصبر وشرياف وحصن المجمعة، واحتل جنده أب، وبث السرايا فى البلاد[4] المجاورة حتى اتسعت رقعة دولته، وأصبحت دولة بنى مهدى تشكل خطراً على البلاد اليمنية الخارجة على عبد النبى والخارجة عن نفوذه.

تطلع السلطان حاتم بن على بن سبأ الزريعى- صاحب عدن- إلى الاستقلال بدولته عن مهدى، فاستنجد بالسلطان علي بن حاتم اليامى- صاحب صنعاء- ولكن هذا السلطان لم يستطع تخليص بلاده من نفوذ بنى مهدى، على أن دولة بنى مهدى لم تستمر طويلا بل زالت على أيدى بنى أيوب.

كان أمراء بنى مهدى أسوأ من حكم اليمن فى القرون الهجرية الأولى، فقد اتسم حكمهم بطابع الظلم والبطش وقتل الأبرياء واسترقاق الأطفال وسبى النساء، ولم يكن يعنيهم من أمر البلاد التى يحكمونها سوى السلب والنهب. لذلك تطلع اليمانية إلى الخلاص من هذا الظلم والجور، فأرسلوا رسلا إلى الخليفة العباسى وإلى صلاح الدين يستنجدون بهما على حكامهم الجبابرة العتاة.

ولما توفيت الملكة أروى انتهز الطامعون فى السلطة والنفوذ الفرصة ليحققوا أهدافهم، فدعا الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد أهل صعدة إلى الدخول فى طاعته، فاستجابوا لدعوته، وأحيا دولة الزيدية من جديد بعد انقطاع، وضم إلى دولته الجوف

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٣.

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ١٦٣ الكبسى. اللطائف السنية٥٦.

(٣) العبدلى: هدية الزمن ٦٣١.

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٣١٦.

ونجران والظاهر وبرط وبلاد أرحب ويام[1] ووادعة وغيرها[2]، والتف الناس حوله بعد أن لمسوا فيه العدل، وحسن السيرة وتطلعوا إلى حكم مستقر ينقذ بلادهم من التقلبات السياسية وأطماع الأمراء، بعد أن مروا بعصر يتعاقب عليهم الحكام الذين لاهم إلا اغتصاب أموالهم، وتحويل بلادهم إلى ساحات للحرب بينهم وبين منافسيهم[3].

اتسعت الدولة الزيدية الجديدة، وتطلعت البلاد اليمنية الأخرى إليه ليلى أمرهم: واستنجد به أهل صنعاء، لإنقاذهم من حالة الفوضى السياسية التى يعيشون فيها، وقدم الإمام إلى عيان ثم إلى وادعة، وعاقب المخالفين للدين وأمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر، ثم تقدم الإمام إلى صنعاء، واستقر فى بيت بوس، فأقبلت عليه وفود القبائل تبايعه، حتى اجتمع لديه كثير من الأنصار، وزحف بهم إلى صنعاء، واشتبك مع السلطان حاتم- أمير صنعاء- فى معركة دارت فيها الدائرة على السلطان، ودخل الإمام صنعاء، وضمها إلى حوزته[4] وبايعه أهلها، ونظم أمورها، ولجأ السلطان حاتم إلى المنظر، وأقام فيه. على أن السلطان حاتم لم يركن إلى الهزيمة، ولم يتغاض عن انتزاع الإمام صنعاء منه فجمع جموعه من همدان وغيرها[5]، واشتبك مع الإمام، وأمده صاحب عدن الموالى بالمال والسلاح، واسترد صنعاء، وهزم جند الإمام سنة ٥٤٧هـ، وعقد صلح بين الإمام والسلطان بمقتضاه يتخلى السلطان حاتم عن مذهبه الإسماعيلى، ويعمل بالمذهب الزيدى، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[6].

ولما توفى السلطان حاتم- صاحب صنعاء- سنة ٥٦٠هـ خلفه ابنه على، فأطاعته قبيلة همدان التى حاولت الاستقلال عن طاعته، وقام بتوسيع رقعة دولته، فضم إليه حصن ذى مرمر وكوكبان والعروس وغيرها، وملك بعض بلاد الظاهر والمغارب[7]، وكان جواداً يقطع الرجل من همدان البلد والبلدين، ويمنعه عن مصادرة أهلها، وجعل على كل مخلاف

---

(١) أيام : بلدة فى اليمن أضيف إليها مخلاف من أرض صنعاء- عيان: من مخلاف جعفر، كثير العيون.

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٧٣.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٢٩٧.

(٤) زبارة : ائمة اليمن ص٩٨.

(٥) زبارة : أئمة اليمن ص٩٩.

(٦) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٠٢.

(٧) الكبسى : اللطائف السنية ورقة ٥٧

عاملا. فمتى آن وقت الحصاد أمر عماله أن يأخذوا من الرعية الخمس مجرداً من غيره عن سائر المطالبة[1] على طريقة الشيعة.

قوى أمر السلطان على بن حاتم فى اليمن، حتى أنه لما فشل الإمام أحمد بن سليمان في توحيد دولته، وقامت ضده ثورات عديدة، وعجز عن ضبط الأمور فى البلاد، وقمع حركات الفتن والتمرد، قبض عليه الأشراف وسجنوه فى مصنعه أثافت، فاستنجد أولاد الإمام بالسلطان على بن حاتم فتمكن من فك أسر الإمام واستنجد به الإمام فى إخضاع منافسيه وأعدائه من الأشراف[2]. ولم يلبث أن توفى أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦هـ، وخلفه ابنه عماد الدين يحيى فى صعدة وبلادهم ولم يزل فيها حتى الغزو الأيوبى لليمن[3].

انقسمت بلاد اليمن إلى دويلات مستقلة متنافرة، فكان عدن أبين والدملوه وتعز إلى نقيل صبر لآن زريع -أصحاب عدن- وذمار ومخاليفها لسلاطين جنب، وصنعاء وأعمالها إلى الظاهر وحدود الأهنوم لعلى بن حاتم التامى-صاحب صنعاء[4]- والجوف وما إليه لآل الدعام، وصعدة ومايليها للأشراف بنى الهادى، وشهارة وبلادها لأولاد الإمام القاسم بن على العيانى، والجزيب[5] وما حوله لولد عمر بن شرحبيل الحجورى، وتهامة الشامية إلى حرض للشريف يحيى بن حمزة بن وهاس السليمانى، وزبيد وبلادها إلى حد حرض[6] من جهة اليمن لعبد النبى بن على بن مهدى[7]. وظل أمر اليمن كذلك حتى غزا بنو أيوب اليمن وقضوا على هذه الدويلات وتوحدت بلاد اليمن فى ظل الحكم الأيوبى.

---

(١) زبارة: أئمة اليمن ص١٠٦.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ١٣٤-٥١٣.

(٣) المصدر السابق ٣١٨-٣١٩.

(٤) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص١٣٢.

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٦٣.

(٦) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ١٨٤.

(٧) الخزرجى : العسجد المسبوك ١٦٦.

بلاد اليمن

فى عَهد بنى أيوب

أدى ضعف الخلفاء الفاطميين فى مصر إلى تنافس كبار رجال الدولة على تقليد الوزارة، بل إن بعضهم استعان بأمراء الدول المجاورة، لتحقيق أطماعهم مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم على مصر، فقد تقلد شاور الوزارة فى عهد الخليفة العاضد– آخر الخلفاء الفاطميين–ولم يلبث أن ثار عليه ضرغام– أحد قواد الجيش– وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الاستنجاد بنور الدين محمود صاحب دمشق– ليعاونه على استعادة منصبه[١]، وكان نور الدين محمود يتطلع إلى مد نفوذه إلى مصر، فوجد الفرصة سانحة، فلبى دعوة شاور، وأرسل حملة إلى مصر يقودها أسد الدين شيركوه تصدت لضرغام، وتغلبت عليه وعاد شاور إلى الوزارة، ولم يلبث أن تخلى عن حليفه نور الدين، فطلب من شيركوه العودة إلى بلاد الشام، وبعث إلى أماريك– ملك بيت المقدس– الصليبى يستنجد به، ويحذره من نور الدين إذا تمكن من الديار[٢] المصرية، فسارع إلى تلبية طلبه، وأرسل جيشاً أرغم شيركوه على العودة بجنده إلى الشام[٣].

وكان لهذه السياسة أثرها فى توجيه أنظار كل من نور الدين محمود– صاحب دمشق – والصليبيين فى بيت المقدس إلى غزو مصر، وانتهى الأمر بانتصار حملة شيركوه الثالثة، وعودة أماريك– ملك بيت المقدس– من غير حرب ولاقتال، ثم أسند الخليفة الفاطمى العاضد إلى شيركوه منصب الوزارة، بعد تخلصه من شاور. غير أن شيركوه لم

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص١٣٨–١٣٩.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص١٤٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص ١٤٧.

يستمر طويلا فى الوزارة، فتوفى بعد قليل، واستدعى الخليفة الفاطمى صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وولاه الوزارة[1].

وكان الخليفة مسلوب السلطة مع صلاح الدين الذى عمل على دعم مركزه فى مصر باحاطة نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين محمود أن يرسل إليه أباه وأقاربه، وأسند إليه بعض المناصب الهامة، كما وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر، فأنشأ بعض المدارس لتدريس المذهب الشافعى والمذهب المالكى، ولما أيقن من انهيار سلطة الخليفة العاضد أمر باقامة الخطبة للخليفة العباسى المستضيء، وإسقاط اسم العاضد من الخطبة فى أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧هـ. ولم يعلم الخليفة العاضد بهذا التغيير لمرضه، ثم توفى بعد ذلك بقليل. وبذلك سقطت الدولة الفاطمية[2].

حكم صلاح الدين يوسف مصر باسم الخليفة العباسى وسيده نور الدين محمود بن زنكى- صاحب دمشق، وتطلع صلاح الدين بعد أن قبض على زمام الأمور فى مصر، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة، وتخلص من أنصار العصر الفاطمى، تطلع إلى غزو اليمن.

يختلف المؤرخون حول أسباب الحملة الأيوبية على اليمن، فيذهب البعض إلى أن أهل تهامة قد استاءوا من أميرهم عبد النبى بن على بن مهدى، الذى تمادى فى سفك الدماء، ونهب الأموال، فطلبوا من صلاح الدين الأيوبى تخليصهم من نير عبد النبى بن مهدى الذى زعم أن دولته تطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس[3].

---

(١) كان نجم الدين أيوب فى خدمة عماد الدين زنكى- أتابك الموصل، ولما توفى زنكى، انقسمت مملكته بين ابنيه، فحكم سيف الدين غازى الموصل، على حين ولى نور الدين محمود حلب، ولم يلبث أن اتسعت دولة نور الدين حتى ضم دمشق وبعض بلدان الشام إلى حوزته، وتطلع إلى مواصلة سياسية أبيه فى تكوين جبهة إسلامية متحدة تقف فى وجه الصليبيين. ودخل صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب فى خدمته، وتدرج فى سلك الجندية. وانتهز نور الدين محمود فرصة ضعف الخلافة الفاطمية فى مصر واستعانة بعض الوزراء به لضم مصر إلى دولته، فأرسل حملة بقيادة أخيه أسد الدين شيركوه إلى مصر، وكان صلاح الدين من قادة هذه الحملة.

(عصام الدين عبد الرؤوف: بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ص١١١).

(٢) المقرزى: الخططز جـ٢ ص ٥٧٦.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٥

وقيل إن الشريف قاسم بن غانم السليمانى عبر عن استياء الأهلين من ابن مهدى بشكوى رفعها إلى الخليفة العباسى، ودعاه إلى إنقاذ أهل اليمن من ظلمه وبطشه فأمر الخليفة العباسى صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخليص بلاد اليمن من ابن مهدى.

على أننا نستبعد أن يكون سبب الحملة الأيوبية على اليمن الاستنجاد بصلاح الدين أو الخليفة العباسى. ويذكر ابن الأثير وابن واصل أن صلاح الدين حرص بعد أن اشتدت الخلافات بينه وبين سيده نور الدين محمود على السيطرة على بلد بعيد عن نور الدين وتحصينه، حتى يلجأ إليها، إذا ما طرده نور الدين محمود من مصر. لذلك استقر رأى بنى أيوب على الاستيلاء على النوبة أو اليمن، فإذا غزاهم نور الدين فى مصر، ولم يستطيعوا التصدى له، لجأوا إلى النوبة أو اليمن، فأرسل صلاح الدين حملة إلى النوبة ثم أخرى إلى اليمن.

ولكى يبرر صلاح الدين سبب غزو لليمن، استأذن من سيده نور الدين فى إنقاذ هذه الحملة لتأديب صاحب زبيد، الذى قطع الخطبة للخليفة العباسى. ولا يمكن قبول رواية ابن واصل[1] من أن عمارة اليمنى هو الذى زين لصلاح الدين أمر غزو اليمن، لصرف أنظار الأيوبيين عن مصر، وتوزيع قواهم فى أكثر من جهة حتى تتاح الفرصة، لإحياء الخلافة الفاطمية فى القاهرة، فلا يعقل أن يحرض عمارة الأيوبيين على غزو بلاده، وهو المعروف بحبه لوطنه، وإذا كان عمارة يرجو زوال ملك بنى أيوب فى مصر، فمن باب أولى ألا يسعى إلى إحيائه فى اليمن. ومن ناحية أخرى فقد عرف عمارة بموقفة العدائى من بنى أيوب منذ توليتهم الحكم فى مصر، ونظر إليه الأيوبيون فى نفس الوقت نظرة حذر وريبة، لذلك فنحن نستبعد اتصال الأيوبيين به، واستثارتهم له فى غزو اليمن.

ومهما يكن من أمر فقد أعد صلاح الدين حملة لغزو اليمن، تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل، وأسند قيادتها إلى أخيه توران شاه، وسارت الحملة إلى زبيد والتهائم، ولم يستطع بنو مهدى مقاومة الجيش الأيوبى، ودفعه عن بلادهم، وألحق بهم الأيوبيون الهزيمة، ودخلوا زبيد عنوة، وقتل عبد النبى بن على بن مهدى وأسر جميع إخوته ونكل بهم توران شاه[2]. وبذلك زالت دولة بنى مهدى فى زبيد.

---

(١) مفرج الكروب جـ١ ص ٢٢٨.

(٢) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٥٩.

سار توران شاه إلى الجند، واستولى على حصن تعز، وقاتل أهل صبر ونخر ولم يستطع قهرهم، فاتجه إلى عدن، واستولى عليها وقبض على أمرائها من آل زريع[1]. وبذلك زالت دولتهم في عدن ونواحيها، ثم اتجه إلى مخلاف جعفر واستولى على حصن التعكر.

وفي سنة ٥٧٠هـ سار توران شاه إلى دروان بالقرب من صعدة، وأخذها سلما، وبعد مقاومة شديدة، استولى على ذمار، ثم واصل زحفه إلى صنعاء، فاعترضته جنب وغيرها، فحث أصحابه على بذل كل جهد في القتال[2]، وقال: قاتلوا على أنفسكم، والا أخذتكم العرب، وأين أنتم من ديار مصر «فاشتد القتال وحمى الوطيس، وانتهت المعركة بانتصار الأيوبيين على أعدائهم»[3].

أدت انتصارات الأيوبيين في اليمن إلى ازدياد هيبتهم، فلما علم السلطان علي بن حاتم اليامي- صاحب صنعاء- أنه لاطاقة له بقتال توران شاه، دمر سور صنعاء؛ وجمع أمواله وذخائره وانتقل بها إلى حصن براش[4].

لما غادر السلطان علي بن حاتم صنعاء، رأى أهلها تسليم بلدتهم للسلطان الأيوبي دون مقاومة، بل استقبلوه بالحفارة والتكريم، وأقام بصنعاء عدة أيام نظم أمورها، وطمأن أهلها، وأكد سيطرته على البلدة، ثم غادرها إلى تهامة[5] وفي الطريق لقى مقاومة شديدة من اليمانية، فقد شنوا عدة هجمات على مؤخرة جيشه، واستولوا على قدر كبير من خزائن وأثقال الجيش، وكانت أموالا جزيلة من الذهب والفضة والآلات النفيسة والأمتعة العجيبة، ودخل زبيد واستقر فيها أياماً، ثم سار إلى الجند، حيث قدم له عامل صبر فروض الولاء والطاعة- وكان من عمال بني مهدى- وسلم إليه صبر، ثم نهض إلى ذخر، فاستسلم له صاحبها بل قدم إليه عشرة آلاف دينار كانت وديعة لعبد النبي بن علي[6].

(١) العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص٦٥.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٦٥.

(٣) الكبسي: اللطائف السنية ورقة٦٠.

(٤) براش حصن على جبل نقم يطل على صنعاء ويقع إلى الشرق منها.

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٥.

(٦) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص٧٥-٧٦.

واصل السلطان الأيوبى انتصاراته، فتقدم إلى المعافر، وانتزع بعض حصونها؛ ثم نهض إلى الدملوه، وفيها أولاد الداعى عمران بن محمد بن سبأ ومولاهم جوهر المعظمى، ولكنه لم يستطع التغلب عليهم، فعاد إلى زبيد وبقى بها[(١)].

على أن توران شاه اعتزم العودة إلي مصر، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين الأيوبى يستأذنه في مغادرة اليمن، فأذن له، فولي- من قبله- على بلاد اليمن ولاة يثق بهم[(٢)]، فعهد إلى أبى ميمون مبارك بن منفذ الكنانى حكم زبيد وولى ياقوت التعزى على تعز ونواحيها، ومظفر الدين قايماز على ذى جبلة[(٣)] وعثمان الزنجيلى على عدن ونواحيها[(٤)].

على أن الحكم الأيوبى لليمن لم يلبث أن اضطرب بعد وفاة توران شاه بن أيوب فى الإسكندرية سنة ٥٧٦هـ. وكان عماله فى اليمن يؤدون الخراج إليه، ويحكمون ولاياتهم باسمه، فلما توفى استقل كل منهم بولايته؛ وامتنع عن تأدية الخراج للحكومة الأيوبية فى مصر، وضرب كل منهم عملة باسمه، ومنع أهل ولايته من التعامل بغيرها[(٥)]. وكان عثمان الزنجبيلى أقوى هؤلاء الأمراء شأنا، فهاجم جبلة، وانتزعها من واليها مظفر الدين قايماز،[(٦)] ولم يكتف بذلك بل زحف بجيشه إلى حضرموت، واستولى عليها، وقضى بكل عنف وشدة على المقاومة التى اعترضته[(٧)].

حرص السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على تأكيد سيطرته على اليمن وعول على القضاء على الحركات الانفصالية فيها، فعهد إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين بإعادة النفوذ الأيوبى إلى اليمن، فسار طغتكين إلى اليمن، ودخل مدينة زبيد، ونكل بالولاة المتمردين. أما عثمان الزنجبيلى فقد جمع أمواله وذخائره وغادر اليمن، إلى العراق[(٨)].

---

(١) الخزرجى: العسجد المسبوك ص١٨٠.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٢٤-٣٢٥.

(٣) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة٦١.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٦.

(٥) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٨٠-١٨١.

(٦) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة٦١

(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٢٦-٣٢٧.

(٨) العبدلى: هدية الزمن ص٧٧.

وجه طغتكين اهتمامه إلى القضاء على حركات التمرد والعصيان فى اليمن، ففى سنة ٥٨٢هـ حاصر حصن حب، واستولى عليه بعد أن نكل بعناصر المقاومة فيه، فهابه أهل اليمن، وأقبلت إليه الوفود من القبائل اليمنية يقدمون إليه فروض الولاء والطاعة[١].

لما قوى أمر طغتكين فى اليمن، ودانت له معظم البلاد بالولاء والطاعة رأى ضرورة الانتهاء من القضاء على جيوب المقاومة التى تعترضه فاستولى على ذمار سنة ٥٨٣هـ[٢] وتحصن السلطان على بن حاتم بحصن براش، وضرب سور صنعاء، وقصر غمدان، ولما رأى أنه لاقبل له بالملك الأيوبى، عقد معه صلحاً لمدة سنة، على أن يقدم له ثمانين ألف دينار ومائة حصان[٣].

استعمل طغتكين- بعد سيطرته على ذمار- مظفر الدين قايماز مملوك أخيه توران شاه- واتجه إلى اليمن الأسفل لتأكيد الحكم الأيوبى هناك، فجمع الشيخ زيدان عمر الجنبى جموعا كثيرة من بلاد جنب وعنس وغيرها، وقصد بهم ذمار وانتزعها من الحكم الأيوبى[٤]، فلما علم طغتكين بانفصال ذمار عن حكمه، عظم ذلك عليه وأنكره، فغادر ذى جبلة متجهاً إلى ذمار، ونكل بأهل جنبة وقتل منهم الكثير[٥]، وأعمل فيهم السيف؛ وقضى على جيوب المقاومة فى نواحى جنب واسترد ذمار، وجدد السلطان على بن حاتم الصلح مع طغتكين سنة أخرى بنفس الشروط السابقة، وسيطر كذلك على بعض الحصون مثل حصن دروان، وحصن قيضان وحصن الدملوه[٦].

وعلى الرغم من أن الصلح بين السلطان على بن حاتم وطغتكين يتجدد سنوياً إلا أن السلطان ابن حاتم كان يتطلع إلى الاستقلال عن النفوذ والتبعية الأيوبية، ففى سنة ٥٨٤هـ عمر الحصون التابعة له فى نواحى صنعاء وحسنها وأخرب الضعيف منها، فلما شعر طغتكين بنزعة سلطان صنعاء إلى الاستقلال، زحف إليها، وفى طريقة قضى على حركة

(١) ابن عبد المجييد: بهجة الزمن ص٧٧.
(٢) الخزرجي: العسجد المسبوك ورقة١٨٩.
(٣) يحيى بن الحسين:غاية الأمانى ص٣٢٨-٣٢٩.
حصن حب بناحية جبال بعدان إلى الشرق من اب.
(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٦٢.
(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨.
(٦) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٣٢٩.

التمرد فى أشيح، ثم تقدم إلى صنعاء فى سنة ٥٨٥هـ، وعسكر بها أياماً، أرسل خلالها فرقا من جيشه إلى ذى مرمر وفدة والفص، وحصن عدان، تمكنت من السيطرة على هذه الجهات[١].

ولم يكتف السلطان الأيوبى بذلك، بل سار إلى العروسى واستولى عليه، وسار إلى سواد عزان، وحارب أهل الظفر حتى أخذه قهراً، ثم حاصر السلطان كوكبان، وشدد عليها الحصار[٢]، فطلب واليها عمر بن على بن حاتم من السلطان الأيوبى الصلح، على أن يكون للسلطان الأيوبى كوكبان، ولبنى حاتم العروسى بلاد عينها طغتكين لعمر بن على بن حاتم[٣]. وبذلك ضم السلطان الأيوبى كوكبان إلى دولته فى اليمن، ثم نهض السلطان إلى رفده فحاصرها، ورماها بالمنجنيق، واستولى عليها بعد أن ألحق بها الخراب والدمار، وواصل أعماله التخريبية فى ظهر وغيرها، من بلاد همدان، ثم توجه إلى ذى مرمر وفيه السلطان على بن حاتم، فحاصره من جميع جهاته، وضيق عليه الحصار، وطال الحصار حتى استغرق أربع سنوات، وسئم الجميع من مواصلة الحرب،... وتفاوض الطرفان المتنازعان فى الصلح، وتم فعلا، على أن يسلم الأمير على بن حاتم، الأمير الأيوبى خمسمائة دينار وقدرا من الطعام فى كل عام، وعلى أن يتولى ابن حاتم حكم بعض البلاد[٤].

واصل طغتكين العمل على تحقيق هدفه الرامى إلى إتمام سيطرته الكاملة على بلاد اليمن، فسار إلى صعدة، ودخلها، وقضى فيها عدة أيام نظم إدارتها وترك فرقة من جيشه[٥]، وغادرها إلى جبل الأهنوم، واستولى عليها، ثم احتل حجور وبلاد الشرف وسائر جبال اليمن ومدنه وحصونه ومخاليفه من صعدة إلى عدن، وزالت دولتا آل الصليحى وآل حاتم الإسماعيليتان من بلاد اليمن «بعد أن ملكوا صياصيه ودان لهم مطيعه وعاصيه».

وفى سنة ٥٨٧هـ عهد طغتكين إلى ولاة من قبله بحكم بلاد اليمن، فاستناب الهمام على صنعاء، كذلك عهد إلى ولاة بحكم عنس ورداع وجهران وألهان، وزودهم

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٣٣-٣٣٤.

عدان: حصن من حصون تعز فى جبال صبر.

(٢) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٦٥.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٨.

(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٦٦.

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى.

بالجند والسلاح والعتاد[1]، ووجه جهوده إلى تشييد مدينة تعز، بعد أن أعجبه هواؤها وموقعها[2]، وشيد فيها القصور والدور، وأمر بحفر الآبار، ومد قنوات المياه، وشيد بها الحدائق الغناء مزينة بأنواع الأشجار، وجلب أشجاراً من مصر لغرسها فى تعز، كما اختط مدينة المنصورة- قبلى الجند- وشيد بها قصراً وحماما، وأمر معظم جنده بالإقامة فيها[3].

وعلى الرغم من الجهود المتواصلة التى بذلها طغتكين فى إخضاع بلاد اليمن لسلطانه، فإن هذه الجهود لم تصرف نظره عن تشييد العمائر فى البلاد، فقد شيد قصراً فى صنعاء وقصراً فى الجند، وجدد عمارة حصن التعكر بعد أن هدمه، وكذلك حصن حب وحصن تعز وسور زبيد وسور صنعاء الذى هدمه على ابن حاتم[4]، وزاد فيه من الجانب الغربى من مجرى السيل إلى باب السبحة، وشيد فى صنعاء بستان السلطان نسبة إليه، وبنى فيه الدور، وشيد قصر السلطان وأنفق فى بنائه أموالا طائلة، وزخرف أبوابه بالذهب وألوان الصناعات، ويسر وصول الماء إليه، وأقام حوله الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء، تشتمل على صنوف الأشجار وأنواع الرياحين والأزهار[5].

وكانت حضرموت أكثر بلاد اليمن نزوعا إلى الاستقلال عن الحكم الأيوبى. لذلك سار السلطان طغتكين لإخضاعها، ودخل الإقليم واستولى على حصونه مثل شبام وإيريم وعاد إلى تعز، واستقر بها، واتخذها عاصمة لملكه فى اليمن، وأناب نواباً عنه فى حكم بلدان اليمن. على أن هؤلاء النواب أساءوا السيرة، فثارت عليهم القبائل، واشتبكت معهم فى معارك متعددة، ومن أشد القبائل مقاومة حاشد وبكيل، غير أن طغتكين هزم هذه القبائل وأخضعها. وعاد الهدوء والاستقرار إلى بلاد اليمن[6].

توفى طغتكين بن أيوب سنة ٥٩٣هـ بعد أن قضى على كل مقاومة اعترضته فى بلاد اليمن، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة، وخشيت القبائل اليمنية بأسه، وتوحدت بلاد اليمن تحت قيادته، ودفن فى المدرسة السيفية فى تعز[7].

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص٧٠.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٨.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٢٦.

(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٦٧.

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص١١٢.

(٦) المصدر السابق ص١١٢.

(٧) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٩.

خلف المعز إسماعيل أباه طغتكين، فى حكم اليمن بعهد من أبيه، وواجه فى الأيام الأولى من حكمه حركات تمرد كان عليه مواجهتها[1] فقد دعا لنفسه الإمام المنصور بالله، وأخذ البيعة من الزيدية، ورأى السلطان على بن حاتم فى خروج الإمام فرصة للتحالف معه على إسماعيل بن طغتكين، واسترداد ملكه فى مخلاف صنعاء. ولم يكتف بذلك، بل بذل الأموال الطائلة فى شراء كوكبان وبكر الظفر من عمال طغتكين بن أيوب[2].

لم يتغاض إسماعيل بن طغتكين عن حركة التمرد الصنعائية على حكمه، فسار إلى صنعاء، وقتل الأمير الهمام- نائب أبيه على صنعاء- وعهد بحكم صنعاء إلى الشهاب الجزرى، وأرسل إلى على بن حاتم يستميله. غير أن ابن حاتم ظل موالياً للإمام، ورفض الصلح معه، وكان إسماعيل بن طغتكين ظالماً غاشما، لذلك انضم الكثير من اليمانية إلى الامام الزيدى، ورأوا فيه خلاصا من ظلم ونير بنى أيوب.

دعا الإمام الفخر الآل كرام عبد الله بن حمزة بن سليمان سنة ٥٨٣هـ فى الجوف لنفسه، ونهض إلى صعدة فى جيش عظيم فى الوقت الذى سيطر فيه الإمام المنصور بالله على ميتك وصبره وحصن جزع، وبعث عماله إلى بنى عشب، وانتزع هذه البلاد من بنى حاتم، وحكمها أكثر من سنتين، ولكن طغتكين صده عنها[3].

كما أن الأمير عماد الدين يحيى بن الإمام أحمد بن سليمان سار إلى صعدة سنة ٥٧٨هـ، وهاجمها، وهزم الأيوبيين فيها، وطرد فلولهم من صعدة، وملكها ودعا لنفسه بالإمامة، وأخذ البيعة من الزيدية بها، وكان أول من استجاب لدعوته، وقدم له كل عون، السلطان على بن حاتم، الذى رأى أن يتحالف معه على القضاء على النفوذ الأيوبى فى اليمن[4]، ونهض الإمام المنصور إلى ثلا، وأتت إليه اليمانية من كل حدب وصوب، ورأوا فيه خير منقذ لهم من نير وبطش بنى أيوب، وأرسل فريقا من جنده إلى حضور لتخليصها من الأيوبيين، ولكن الدائرة دارت عليهم وهزم جند الإمام أمام عسكر بنى أيوب[5].

---

(١) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٦٨.

(٢) المصدر السابق ٦٨.

(٣) زبارة: أئمة اليمن ص١١٣.

(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٧٣.

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص١١٣.

على أن هذه الهزيمة لم تفت فى عضد الإمام، فواصل جهوده فى نشر الدعوة له، وكان اليمانية يتطلعون- كما قلنا - إلى التخلص من بنى أيوب، فانضموا إليه، واستقرت أموره فى صعدة، وأرسل إليه أشراف اليمن ورؤساؤها من كل الجهات يطلبون منه القدوم كل إلى جهته، لما يرجونه من الفرج على يديه من الشدة التى يعيشون فيها فى كنف بنى أيوب، فخرج الإمام من الجوف إلى أثافت ثم نهض إلى بنى شاور، ومنه إلى بنى قطيل، ووفد عليه الأمراء من مختلف الجهات بجيوش كبيرة، ولما اجتمع الناس حول الإمام يبايعونه ويناصرونه خطب فيهم خطبة بليغة، وحثهم فيها على الطاعة والقيام بواجب الجهاد، وتنقل بين كوكبان وشبام وغيرها. وفى كل البلاد التى زارها رحب الأهلون بمقدمه، وبايعوه إماماً لهم، وواصل الإمام تقدمه، فأرسل فرقة من جنده، استولت على حصن الظفر ثم نهضوا إلى بيت خولان، فأرسل الملك الأيوبى جيشا من صنعاء مع الشهاب الجزرى، وسيف الدين حكو بن محمد وهزما عسكر الإمام،.. وزحف الجند الأيوبى إلى قرية بيت خولان ونهبوها[1].

على أن القيادة الأيوبية تطرق إليها الضعف والوهن بسبب الانقسام بين الشهاب الجزرى والأمير حكو بن محمد الكردى، بل خلع طاعة سيده المعز إسماعيل وبايع للإمام، وسار إلى ذمار[2].

وقد انضم حكو إلى جند الإمام فى شن الغارات على بلدان بنى أيوب ومحاولة الاستيلاء عليها، واستولى على أموال وذخائر المعز إسماعيل التى أنفذها إلى الشهاب الجزرى- عامله على صنعاء- وبذلك قوى أمر الإمام بحكو، على حين ضعف الحكم الأيوبى بخروج حكو على طاعة المعز إسماعيل[3].

عهد الإمام إلى حكو بالانضمام إلى عمر بن على بن حاتم فى الاستيلاء على صنعاء وانتزاعها من الأيوبيين[4].

---

(١) الخزرجى:العسجد المسبوك ورقة ١٣١.

اللطائف السنية ورقة ٧٣.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٤٣-٣٤٤.

(٣) زبار: أئمة اليمن ص١١٥.

(٤) زبارة: أئمة اليمن ص١١٥.

لما علم المعز إسماعيل بأن جند الإمام وأنصاره متجهون إلى صنعاء لانتزاعها أسرع إلى صنعاء[1]، ولكن شمس الخواص- أحد قادته- خلع طاعته، وانضم إليه عدد كبير من الجند الأيوبى، وانفصلوا من حول الملك المعز إسماعيل، وخرجوا إلى عصر، وأعلنوا ولاءهم للإمام، وانضموا إلى الجند الزاحف إلى صنعاء. وبذلك كان من اليسير على أنصار الإمام انتزاع صنعاء، وطرد الأيوبيين منها، ودخل الإمام صنعاء[2] وأقبل أهلها عليه يبايعونه.

على أن دولة الإمام تعرضت للقلاقل وللفتن، فقد نشب نزاع بين بنى الحرث ويام وشاكر فى ناحية نجران، فشن عليهم الإمام عدة هجمات حتى استسلموا وأذعنوا إلى الطاعة، ثم سار الإمام إلى ذمار، فدخلها عنوة بعد حروب شديدة.

قوى شأن الإمام بانضمام الكثير من البلدان اليمنية تحت لوائه، غير أن المعز إسماعيل رأى أن الحكم الأيوبى معرض للزوال نتيجة لزيادة نفوذ الإمام، فأعد فى اليمن الأسفل جيشا كبيراً، التقى بجيش الإمام بقيادة الأمير حكو بن محمد فى الحقل- قريبا من نقيل صيد، وانهزم جيش الإمام[3]، وخر الأمير حكو صريعا فى المعركة، ولاذ من نجا من جند الإمام بالفرار إلى ذمار[4]، ولما علم الإمام بزحف المعز إلى صنعاء، غادرها إلى شبام[5]، وأقبل الملك المعز إلى صنعاء، فدخلها، واستعمل عليها الشهاب الجزرى[6]. وبذلك استعاد المعز السيطرة الأيوبية على صنعاء.

على أن نفوذ الإمام ضعف بعد أن استعاد المعز صنعاء، وانشق عليه أيضا الأمير يحيى ابن الإمام أحمد بن سليمان، وواجه الإمام- بعد ذلك- الكثير من الصعاب فى التغلب على انتفاضات القبائل عليه. وفى سنة ٥٩٦هـ نهض الملك المعز من اليمن الأسفل إلى صنعاء فى جيش كبير، وجعل طريقه على بكيل[7]، ونكل فى طريقه بالخارجين عليه، وأقام فى صنعاء ثم سار إلى كوكبان ودمرها وانتقل منها إلى شبام، وأعمل فيها الخراب والدمار[8].

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٧٩.

(٢) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٧١.

(٣) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٣.

(٤) الخزرجى:العسجدالمسبوك ورقة ١٩٣.

(٥) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص٤٢.

(٦) زبارة:أئمة اليمن ص١١٦.

(٧) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٠.

(٨) محمد بن إسماعيل الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٣.

ولما علم جند الإمام فى حجة بالأعمال التدميرية وأعمال العنف للملك المعز، فارق كثير منهم معسكر الإمام، ورأى الإمام أن يصرف اهتمام المعز عن كوكبان، فشن غارات على صنعاء حتى اقترب جنده من باب شعوب، وقاوم الإمام أهل صنعاء[1]، وفى غضون ذلك، مال أهل سنحان إلى الإمام فقطعوا على الجند الأيوبى طريق اليمن الأسفل، واضطربت البلاد، وانقطعت المؤن عن كوكبان، وعم القحط واشتد البؤس، وارتفعت الأسعار، وسعى أهل الخير فى الصلح بين الطرفين المتنازعين، وتم فعلا. واتفق الطرفان على أن تكون كوكبان وبكر للمعز، ويطلق بشر بن حاتم من السجن، ولما تم الصلح دخل المعز كوكبان، ووفد بشر بن حاتم عليه، فأكرمه وعفا عنه[2].

كما وفد عليه الشريف على بن يحيى بن الحسين بن الهادى، مبايعا للإمام المنصور بالله، وتعهد للمعز بتسليمه الجهة الشامية، وسار إليها ولكن أهل نجران انتقضوا على الإمام فأخضعهم، ثم سار إلى صعدة[3].

واصل المعز سياسته الرامية إلى السيطرة على كل بلاد اليمن، ففى سنة٥٩٦هـ سار إلى صبيا، وأعمل فيها الخراب والدمار، وقتل منهم الكثير[4]، أما الإمام المنصور فقد استقر سنة ٥٩٧هـ فى براقة وأرسل حملة بقيادة الأمير سليمان بن حمزة إلى مأرب وبيحان، وهزم الثوار من أهل تلك الناحية، وأخضعهم، ثم توجه الأمير سليمان إلى خولان وسنحان، ولما لم يتمكن من السيطرة على بيحان توجه الإمام إليها، فألزمهم بالطاعة والأذان بحى على خير العمل، وإقامة الجمعة والجماعة. ثم نهض الإمام إلى حوث، واستقر فيها فترة من الوقت، ثم تفقد أحوال بلاد الظاهر، وأقام فيها الحدود، وحث الناس على العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وأخضع بلاد حجة.

واجه المعز صعاباً كبيرة فى السيطرة على بلاد اليمن، ففى سنة ٥٩٨هـ شق ورد سار– نائب المعز فى عدن– عصا الطاعة على سيده، وأعلن انضمامه إلى الإمام فى صعدة، وسار إليه، وأكرم الإمام وفادته[5]، ولكن المعز حرص على عدم تمكين الإمام من مد نفوذه

(١) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ورقة ٥٥

(٢) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٩٢.

(٣) زبارة:أئمة اليمن ص١٢١–صبيا: من قرى عثر

(٤) المصدر السابق ص١٢١. الكبسى: اللطائف السنية ٧٣.

(٥) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٦.

في اليمن، فسار في نفس السنة إلى حجة، وأخضع هذه البلاد لسلطانه، ولما عاد الأمير هلندرى إلى الموالاة للمعز إسماعيل، أقطعه بلاد حرض وانفصلت بلاد حجة عن دولة الإمام[1].

وكان المعز سيئ السيرة ظالماً غاشماً، وازداد سخط الناس عليه من عنفه وبطشه وسلطانه، وزاد سخطهم حينما اعتزم إعلان نفسه خليفة، فاستنكر ذلك الأمراء الأيوبيون في مصر، فلم يبال بهم[2]، وأعلن نفسه خليفة، وتلقب الإمام الهادى بنور الله، المعز لدين الله، ونسب نفسه إلى البيت الأموى[3] وتزيا بزيهم، وقطع الخطبة عن بنى العباس، وأقيمت الخطبة له على منابر اليمن باسم أمير المؤمنين المعز إسماعيل بن طغتكين بن شاذى بن مروان الأموى خليفة رب العالمين صلوات الله عليه وبركاته.

وانتساب بنى أيوب إلى بنى أمية باطل من أساسه، فهم ينسبون إلى شاذى من أذربيجان. وقد روج بعض رجال بنى أيوب انتساب هذه الأسرة إلى بنى أمية. ونلاحظ في دراستنا للتاريخ الإسلامى أن القادة الطموحين إلى السلطة ومن أصل غير عربى قد نسبوا أنفسهم إلى البيوت الحاكمة، حتى يحققوا لأنفسهم مجداً ويكتسبوا تقديراً من الناس إذا ما بلغوا مراكز كبيرة في الدولة، فأبو مسلم الخراسانى ينسب نفسه إلى ولد سليط بن العباس، بل إن أبا المبرقع اليمانى الذى ثار في الأردن على الخليفة المعتصم ينسب نفسه إلى بنى أمية وهو يمنى الأصل.

ومهما يكن من أمر فإن المعز قد ساءت سيرته «وخبثت سريرته وقتل كبار أصحابه» لذلك كرهه قادته، فخرج عليه الأمير سنقر، وانضم إليه أكثر الجند فنهض بهم إلى المهجم فاستولى على ما فيه من الأموال، ثم سار إلى الكدراء، واستولى على ما فيها من المؤمن والمعدات، وأباحها للجند، بل دخل في طاعة الإمام المنصور بالله خوفاً من المعز، فرحب الإمام بدخوله في طاعته. وبذلك ظهرت في بلاد اليمن قوتان: الإمام، والمعز، ومن يخرج على المعز يلجأ إلى الإمام، والعكس[4].

---

(١) زبارة: أئمة اليمن ص١٢٣.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٠

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٥٦

(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٣

ولاصحة لما رواه بعض المؤرخين من أن المعز إسماعيل قد اعتنق المذهب الإسماعيلى أو ادعى النبوة أو الألوهية، وأنه أمر كاتبه أن يصدر مكاتباته بعبارة: «من مقر الألوهية» فقد كان لهذا الملك أعداء كثيرون سواء من القادة الأيوبيين أو الزعماء اليمنيين، فنسبوا إليه هذه الادعاءات حتى يثيروا كراهة الناس له ومعارضتهم للسلطان الأيوبى فى حكم اليمن، ولو صحت هذه الادعاءات لما أبقاه السلطان الأيوبى فى القاهرة على اليمن، وأثار عليه الشعب اليمنى، وفى استعراضنا لتاريخ اليمن، وجدنا المؤرخين اليمنيين ينسبون مثل هذه الادعاءات للحكام الطغاة كعلى بن الفضل مثلا.

ومهما يكن من أمر فقد ذهب المعز إسماعيل ضحية مؤامرة، دبرها جنده ضده بالقرب من زبيد، قتله جنده الأكراد، وعادوا إلى زبيد ونهبوها[1]. وعلى أثر مقتله، اضطرب الأيوبيون فى اليمن وأعيدت الخطبة فى اليمن للخليفة العباسى بعد أن قطعها المعز، وكاد يسقط الحكم الأيوبى فى اليمن على أثر مقتل المعز، ولكن سنقر حرص على استمرار الحكم الأيوبى فى اليمن[2]، ودخل فى خدمة الملك الناصر أيوب بن طغتكين فى تعز- وهو الذى تولى تربيته وبايعه،واستمال الأكراد إليه، وتولى زمام الأمور فى الدولة[3].

رأى سنقر أنه لو سارع إلى الانتقام من قتلة الملك المعز إسماعيل لأدى ذلك إلى اضطراب البلاد عليه، فآثر تأجيل هذا الموضوع بعض الوقت حتى يتمكن من القبض على زمام الأمور فى البلاد. وأثبتت الأحداث حسن سياسته، فلم يمانع القتلة فى توليته أتابكاً للسلطان الناصر، وقد قبض سنقر على زمام الأمور فى البلاد نيابة عن الناصر الذى كان لايزال طفلا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم[4].

ولما أمن جانب الثوار تفرغ لمواجهة الفتن التى عمت اليمن بعد مقتل المعز، فقد نهض الشيخ ظهير الدين بن مفضل بن منصور من جهة حبيش إلى ذى جبلة، وانتزعها من الأيوبيين، واستولى على بعض حصون تلك الجهة، وأرغم أهلها على مبايعة الإمام[5] كما أن أهل حصون اليمن، ثاروا على بنى أيوب وأعلنوا انضمامهم إلى الإمام، وتتابعت الكتب

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٠

(٢) المصدر السابق ص٨٠

(٣) الكبسي: اللطائف السنية ورقة ٣.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص٣٥٨.(١)

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٠- حبيش: موضوع بالقرب من تعز.

وأرسل الإمام بالموالاة والانقياد[1]، وأرسل الأيوبيون في صنعاء إلى ورد سار يطلبون منه القدوم إلى صنعاء واستعادتها، وتخليصها من حالة الفوضى التي يقاسون منها[2]، فعهد إليه سنقر بالخروج من حوث والذهاب إلى صنعاء، وضمها إلى دولة بني أيوب، ودخل صنعاء[3].

حرض سلاطين بني حاتم الإمام المنصور بالله على نجدة أهل صنعاء، وانتهاز هذه الفرصة للسيطرة عليها، وأرسل فعلا جيشاً إلى صنعاء، ودارت حروب كثيرة بين ورد سار من ناحية وجند الإمام وأهل صنعاء من ناحية أخرى، كاد أن ينهزم فيها ورد سار، لولا قدوم الأتابك سنقر من اليمن السفلى، وهزم الأعداء وشتت شملهم، واستسلمت له صنعاء[4]، وأعطى أهلها الأمان، وقرر سنقر على أهل صنعاء مالا عقوبة لهم وقدره عشرة آلاف دينار، وعشرة رؤوس من الخيل، وأعطاهم عهداً بالأمان، وأقر سنقر ورد سار على صنعاء[5]، ثم سار إلى حضور، واتجه إلى كوكبان، وسار ورد سار مع صاحبه، واستناب أخاه على صنعاء[6]، فأساء السيرة، وطالب أهل صنعاء بما لاطاقة لهم به من المال، وسامهم سوء العذاب، وزج الكثير منهم في السجون، وألحق بهم أروع الإهانات، واضطر الناس لتغطية مطالبه إلى بيع أراضيهم بأبخس الأثمان، وأخربت أكثر دورهم[7]، ولم يبق لهم ما يقتاتون منه، فغادروا صنعاء، وتفرقوا في كل مكان. وبعد ذلك تمكن سنقر من استعادة نفوذه على مخاليف صنعاء. ولم يلبث أن عقد الصلح بين الإمام وورد سار وسنقر، وبمقتضاه يبقى كل واحد منهم مسيطراً على ما تحت يده من البلاد لمدة سنة[8].

والواقع أن هذا الصلح كان فاتحة خير بين الطرفين، فإن الإمام أتم سيطرته على بلاده، وقبض على زمام الأمور فيها، وولى نوابا عنه في حكم بلاده، وألزم أهالي هذه البلاد بدفع

(١) زبارة:أئمة اليمن ص١٢٥.

(٢) المصدر السابق ص١٢٦

(٣) الكبسي: اللطائف السنية ورقة ٧٦.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٠-٨١

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص١٢٩.

(٦) الكبسي: اللطائف السنية ورقة ٧٨.

(٧) يحي بن الحسين: غاية الأماني ص٣٧٥

(٨) زبارة: أئمة اليمن ص١٢٩

نفقات جنده مدة إقامتهم. وأمر الأهلين بالعمل بكتاب الله ونبذ المنكرات. وعهد الإمام بولاية خولان لمحمد بن نشوان وولى الأمير المؤيد السليمانى تهامة.

أما زبيد فقد ثار فيها الأكراد، ونقضوا الصلح، فاستدعى سنقر ورد سار من صنعاء لوقف تمرد الأكراد، فخرج ورد سار فى جميع كبير، وسار سنقر بمجموعة ووقع القتال فى[1] القرتب ولم يزل ورد سار يكرر الغارات على مخاليف صنعاء شرقاً وغربا وبعداً وقرباً، والإمام يرسل الفرق لمحاربته، ولما تهاون الإمام مع ورد سار، نهض الإمام من ذى مرمر إلى جهات الظاهر، - التى تتبع بشر بن حاتم- وأزال الفساد فى تلك الجهات ، واستطاع إصلاح الخلل فيها، ومداواة عللها، وأرغم أهلها على أداء الواجبات المفروضة عليهم، -وكانوا يقطعون السبيل ويرتكبون[2] الرذائل- كما تحرك ورد سار على أطراف بلاد بنى حاتم الداخلة فى صلح الإمام، وأرسل طائفة من جنده إلى بيت حصن أنعم - أعلى وادى ظهر- لتأديب أهلها الذين امتنعوا عن تقديم المؤن والمعدات له أثناء حربه مع الإمام[3]، وفعلا نكل بهم، واستولى على الحصن، وانتزع أملاك بنى حاتم فى المنظر وما إليه، ثم سار إلى حضور، وفى خلال ذلك ثار أهل صنعاء على ورد سار، وخلعوا طاعته واعتقلوا أخاه، وعاد إلى صنعاء يحاول أن يستولى عليها فما استطاع إلى ذلك سبيلا[4].

ازداد نفوذ الأمير يحيى بن حمزة فى اليمن، ودخل الشهاب الجزرى فى طاعة الإمام، وسار إلى اليمن الأسفل مع يحيى بن حمزة، وجاءت إليهما القبائل من كل جهة تبايع الإمام، ثم نهضا إلى حصن حب فبايعه صاحب الحصن وصاحب الدملوه[5]. أما الإمام فإنه وصل إلى ذى مرمر، وعهد بشر بن حاتم بولاية جهة حضور، وأضاف إليه بلاد حراز، وقدمت وفود البلاد المجاورة إلى الإمام معلنة الدخول فى طاعته[6].

---

(١) ابن عبد المجيد. بهجة الزمن ص٨١

(٢) بامخرمه: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص١٦.

(٣) زيارة أئمة ص١٣٠.

(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٧٤-٧٥

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الامانى ٣٧٣.

(٦) الكبسى:اللطائف السنية ورقة ٧٧

كذلك خرج الإمام المنصور بالله من ذى مرمر إلى حوث، وكتب إلى ورد سار يعاتبه ويذكره العهود، فأعلن طاعته وولاءه له، وقدم الهدايا إلى الإمام وكان يضمر له السوء، وأقام ورد سار بصنعاء، والبلاد غير موالية له لذلك لجأ إلى حصن عضدان، فثار عليه أهله، واشتبكوا مع رجاله، وقطعوا المؤن والمعدات عن الحصن.

على أن حاتم بن أحمد صالح ورد سار سنة ٥٩٩هـ على نصف بلاد الرحبة وعلى إطلاق أملاكهم في وادى ظهر والمنظر[١]. وتوجه إلى الإمام وبايعه، وقصد صنعاء، ودخلت فى طاعة الإمام، واستناب الإمام عماد الدين يحيى بن حمزة للقيام بأمر صلاة الجمعة، وتبصير الناس يشئون دينهم، وتنفيذ الأحكام، وأرسل[٢] الإمام إلى صنعاء، مفرج بن مسعود قاضيا على صنعاء، وأقام القاضى الحدود على مستحقيها وزج البغايا فى السجن، وزوج الكثير منهن، وأذن فى صنعاء يحى على خير العمل[٣]. كذلك أعاد الإمام الهدوء والسكينة إلى ريده، وقضى على عناصر الفساد فيها، واستعان به أهل الكدراء لإعادة الأمن والهدوء إلى البلاد بعد أن قطعت السبل، كما نهض الأمير يحيى بن حمزة إلى ذمار،... ودخلت فى طاعته، واستقامت أمورها[٤]، بالقرب من زبيد، فانهزم سنقر أما وردسار فقد صمد للأكراد، وقاتلهم حتى هزمهم، وعادوا من حيث أتوا، وقتل منهم كثيرون، ودخلوا زبيد ونهبوها، وأخرجوا الفقهاء الشافعية منها، وصرف وقف الشافعية إلى الأحناف فى مكة المكرمة[٥].

ازدادت رقعة دولة الإمام بعد أن أخذ الحكم الأيوبى فى الضعف، حتى أن العامل الأيوبى على كوكبان، سلمها إلى الإمام سنة ٦٠٠هـ. على أن الإمام أعاد كوكبان سنة٦٠٢هـ إلى وردسار، بعد أن صالحه لمدة سنتين مقابل الكف عن التعرض لبلاد الإمام[٦].

(١) زبارة: أئمة اليمن ص١٢٥-١٢٦.
(٢) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٧.
(٣) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٧.
(٤) زبارة: أئمة اليمن ص١٢٩.
(٥) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٧.
(٦) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٣٨٠-٣٨٣.

والملاحظ أن اتفاقيات الصلح بين الإمام وقادة الحكم الأيوبى فى اليمن فرضتها الضرورة، فإذا احتاج أحدهما إلى فترة سلام، يعيد فيها تقوية أمره، وكسب أنصار جدد، طلب الصلح، وإذا اشتد بأسه، عاد إلى الحرب من جديد، وفى خضم هذا الصراع كانت القبائل اليمنية تعمل على ازدياد نفوذها، فينضمون إلى أحد الفريقين لتحقيق أطماع توسعية أو انتصارات على عناصر معادية فى الجانب الآخر[1].

ومهما يكن من أمر فقد توفى سنقر فى ثغر سنة ٦٠٨هـ، فانفرد الملك الناصر أيوب ابن طغتكين بالسلطة على الرغم من حداثة سنه[2]، وجعل القائم على أعماله صاحب بابه وأستاذ داره، غازى بن جبريل، ولم يلبث أن استبد بالسلطة، وحرص على إبعاد كبار رجال الدولة عن شئون الدولة، وساء ظنه بهم، فقتل أكثرهم بالسم، وعهد إلى وردسار بحكم صنعاء وما إليها[3].

حرص الناصر على ضبط الأمور فى دولته، والتصدى لحركات التمرد والعصيان، فسار إلى حجة سنة ٦٠٩، وأعاد الهدوء والأمن والنظام إلى ربوع تلك البلاد، بعد أن كثرت فيها القلاقل والاضطرابات، وعاد أهلها إلى طاعة السلطان الأيوبى. أما الأمير بكتمر السيفى الذى أثار الفتن ضد السلطان فقد أرغمه السلطان على مغادرة اليمن والعودة إلى الشام.

كذلك عقد الناصر العزم على القضاء على دولة الإمام، وضمها إلى حوزته، ولكن لم يمهله القدر، فتوفى سنة٦١١هـ، وحامت الشبهات حول وزيره، وقد نسب إليه قتل السلطان بالسم، ولما توفى نهب المماليك داره«وهنا خشي غازى أن ينكشف أمره، ويثور عليه الأمراء والقادة، فأغدق عليهم الأموال وأخذ منهم العهود والمواثيق على الطاعة والولاء له، وتطلع إلى التربع على عرش اليمن، فتلقب بالملك الظافر[4]».

على أن اليمانية لم يعترفوا بغازى ملكا، وثاروا عليه، كما أن أم الناصر لم تتغاض عن مقتل ابنها، فحرضت مماليكها على قتل غازى والانتقام منه، وفعلا انضم جند بنى أيوب

---

(١) المصدر السابق ص٣٨٥

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨١.

(٣) زبارة: أئمة اليمن ص١٣١.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨١.

إلى هؤلاء المماليك وانقضوا على غازى وقتلوه[1]، وبذلك لم يجن غازى شيئا من مؤامراته ودسائسه واغتيالاته، ولم يحقق هدفا من أهدافه، بل شرب من نفس الكأس الذى أسقاه للآخرين[2].

لما قتل الناصر أيوب لم يكن فى البيت الأيوبى أمير يضطلع بأعباء الحكم؛ لذا بايع الجند بعد تخلصهم من غازى- أخوات الملك الناصر لحكم البلاد،... وأسندوا تدبير الدولة لأتابك من المماليك يسمى المجاهد[3].

وقد أدى ضعف البيت الأيوبى إلى ازدياد نفوذ الإمام؛ وواتته الفرصة لتوسيع رقعة دولته، وفعلا انضمت البلاد إليه. وفضل الناس أن يحكمهم الإمام بدلا من النساء وأتابكهن المملوك[4].

ظل نساء بنى أيوب يحكمن البلاد حتى قدم إلى اليمن رجل من بنى أيوب يسمى سليمان بن تقى الدين، ويعرف بالصوفى[5]، استدعته أم الناصر وطلبت منه أن يضطلع بأعباء الحكم، وقالت له: قم بملك ابن عمك. على أن الملك الجديد لما تسلم زمام الأمور فى الدولة لم يستطع القبض عليها، وفشل فى إدارة شؤون الدولة لضعفه وقلة خبرته وكفاءته، فانتهز الإمام المنصور بالله بن حمزة الفرصة، واستولى على صنعاء وذمار، وانتقضت صبر على الحكم الأيوبى فسار إليها سليمان وأعاد الهدوء إليها[6]، ولكن الأتابك مجاهد أغضبه ضعف نفوذه، بعد أن ملك سليمان البلاد، فانتهز فرصة مغيب سليمان عن تعز، واستولى عليها، غير أن سليمان قبض عليه، وزجه فى السجن، واسترد تعز، كما استولى سليمان على التعكر، ولكن لم يستطع السيطرة الكاملة على بلاده، فأخذت البلاد فى الاستقلال عن دولته، أو الانضمام إلى دولة الإمام، كما أن الأمراء والقادة، خلعوا طاعته وسعى كل منهم إلى العمل لنفسه[7].

---

(١) المصدر السابق ص ٨١

(٢) زباره: أئمة اليمن ص١٣٤.

(٣) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٨٠

(٤) زبارة: أئمة اليمن ص ١٣٥.

(٥) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٢.

(٦) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٨٢.

(٧) زبارة: أئمة اليمن١٣٦-١٣٧.

وهكذا سادت الفوضى والاضطرابات فى بلاد اليمن، فالقادة الأيوبيون منقسمون على أنفسهم، تارة مع الإمام، وتارة مع السلطان. وفى حاجة إلى قائد قوى يجمع شملهم، ويوحد كلمتهم، وكل قائد يعمل لنفسه على حساب زملائه ووطنه، وكانت الحكومة الأيوبية فى القاهرة مشغولة عما يجرى فى اليمن من فتن وقلاقل، فهى مهددة من قبل الصليحيين سواء فى مصر أو الشام، أو منصرفة إلى الانقسامات بين أمرائها.

على أن السلطان الأيوبى الكامل الذى استقرت دولته، عول على استعادة السيطرة الأيوبية فى اليمن، وتخليص هذه البلاد من الانقسامات بين قادتها ومن ضعف الحكم الأيوبى فيها، فأرسل حملة إلى اليمن سنة ٦١١هـ بقيادة ابنه الملك المسعود، وأسند ولاية اليمن إليه وأرسله فى صحبة أتابكه جمال الدين فليت[١].

يختلف المؤرخون حول أسباب إنفاذ الملك الكامل الأيوبى حملة من مصر إلى اليمن، فيذهب البعض إلى القول بأن الإمام عبد الله بن حمزة– بعد أن سيطر على معظم بلاد اليمن مستغلا ضعف سليمان – أرسل يهدد الخليفة العباسى،..– ويزعم أنه سيقيم الخطبة لنفسه فى بغداد عما قريب، فطلب الخليفة العباسى من سلطان مصر، إنفاذ حملة إلى اليمن، وإنقاذها من سيطرة الإمام الزيدى.

ويقول آخرون أن بعض اليمانية استاءوا من الحكم الزيدى فأرسلوا إلى السلطان الأيوبى يستنجدون به. ويروى البعض أن أم الملك الناصر– وهى التى استدعت سليمان وولته اليمن– قد لمست فشله فى إدارة شئون البلاد، واستاءت منه، وخشيت أن يتسبب فى إنهاء الحكم الأيوبى كلية من اليمن، فأرسلت تستنجد بالملك الكامل، وتحذره من مغبة سيطرة الإمام الزيدى على ملك بنى أيوب.

ولكننا نستطيع أن نقول بأن هذه الأسباب مجتمعة هى التى دفعت الملك الكامل إلى إرسال هذه الحملة، بدليل ما يشير إليه المؤرخون من استغاثات يمنية، ومن أم الناصر، بعضها للخليفة العباسى، وبعضها للسلطان الأيوبى فى مصر.

ومهما يكن من أمر، فقد أرسل الملك الكامل الأيوبى حملة قوية، زودها بالسلاح والعتاد، وأسند قيادتها إلى ابنه الملك المسعود، وعهد إلى فليت– أتابك ابنه المسعود– بأن يرافقه ويعاونه فى مهامه[٢]، وخرج المسعود «فى جيوش عظيمة وأموال جليلة» وغادرت الحملة ميناء قوص إلى عيذاب، ومنه عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقد أعطى المسعود أماناً

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٢

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٢–٨٣

لشريف مكة- قتادة بن إدريس- وخلع عليه، وتبرع بمال كثير لفقراء الحرمين، وأقيمت له الخطبة فى مكة[1].

سار الملك المسعود على رأس حملته إلى اليمن، ولم يكد يصل إلى حدودها حتى خرج إليه كبار رجال اليمن، للقائه، وأحسنوا استقباله، ورحبوا بمقدمه وكان على رأس مستقبليه الأميران الكبيران حسن بن على بن رسول، وأخوه نور الدين عمر، فخلع الملك المسعود على القادة والزعماء الذين استقبلوه الخلع النفيسة، وأقطع الأمير حسن الرسولى الفحمة، وأخاه صبهان- جنوب أب-[2] ولما بلغ الملك المسعود زبيد فى مستهل سنة ٦١٢هـ هرب منها سليمان إلى تعز. فرأى الملك المسعود أنه لايستطيع أن ينفرد بحكم بلاد اليمن إلا بعد أن يتخلص من حاكمها- تقى الدين سليمان- ولكنه أدرك أنه لايمكنه التخلص منه مرة واحدة، فأرسل يخاطبه فى الصلح على أن تكون الجبال له والتهائم للمسعود، فاعترض على ذلك مستشاره بدر الدين على رسول، وحث المسعود على التخلص من سليمان، والانفراد بملك اليمن لأنه لايستطيع البقاء فى البلاد مع وجود سليمان. فأمر الملك المسعود جنده بالقبض على سليمان، وسيق سليمان إلى مصر، وأعلنت تعز ولاءها للمسعود[3].

واستقر الملك المسعود بعض الوقت فى زبيد، أقر الأمور فيها وأرسل السلطان الأيوبى فى القاهرة الإمدادات العسكرية إلى ابنه المسعود فاشتد بها بأسه، وقوى بها أمره، كما اطمأن إلى ولاء تعز له، بعد القبض على سليمان وأنصاره، فسار الملك المسعود إلى تعز ودخلها، وقبض على زمام الأمور فيها، وأمر أتابكه فليت بالاستيلاء على اليمن الأسفل، فاستولى عليه شيئا[4] فشيئاً، ثم جمع جيشاً كبيراً اتجه إلى ذمار، فوفدت إليه الوفود من كل جهة -ومنها قبائل سنحان وبنى شهاب- تؤيده، وتعلن الدخول فى طاعة الملك المسعود[5].

وأقام الأتابك فليت فى ذمار حتى أقر أمورها، وكان لابد له من الزحف إلى صنعاء للسيطرة عليها حتى تعود بلاد اليمن كلها إلى الحكم الأيوبى[6]، ولما وصل صنعاء رأى

(١) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٧٤

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٣.

(٣) زبار: أئمة اليمن ص١٤١.

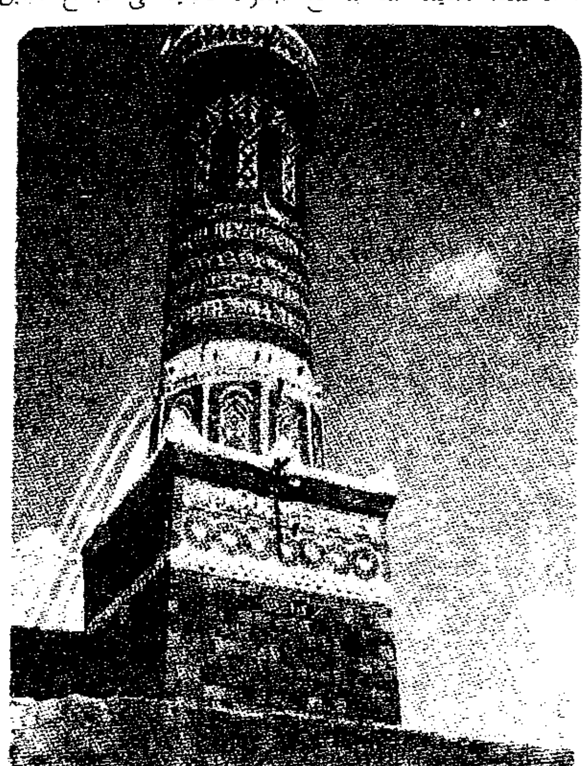
(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٣- سنحان إلى الجنوب من صنعاء.

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص١٤١.

(٦) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٨٤



لوحة (٥) الاعمدة القديمة متداخلة مع الجدران الحديثة فى الجامع السابق



لوحة (٦) المئذنة فى الجامع الكبير بشبام كوكبان

الإمام أنه لايستطيع التصدى للقائد الأيوبى، فغادرها إلى كوكبان بعد أن ألحق الخراب والدمار ببيوت بنى أيوب وجندهم فى صنعاء، دون مقاومة تذكر[1]. ولما أقرت الأمور فيها، خرج حاكمها فليت إلى بيت أنعم[2]، فاستولى عليه قهراً بالسيف، ولم يستطع السيطرة على شبام. على أنه ظل يطارد الإمام، حتى أدرك تماماً بأنه لاقبل له بفليت، فسعى إلى عقد صلح معه، وعقد الصلح فعلا بين الرجلين بمقتضاه يحتفظ فليت بالبلاد التى انتزعها من الإمام ويتبادل الرجلان الأسرى. وبذلك ضعف الإمام، وتناقصت رقعة دولته، وعاد إلى صنعاء، وظل يشن الغارات على مخاليفها، حتى استولى على أكثرها، وعاد إلى تعز بعد أن استخلف عليها جمال الدولة كوخ[3]. واستعاد الحكم الأيوبى بذلك قوته، وسيطر الأيوبيون فى عهد الملك المسعود على معظم أرجاء اليمن والحجاز.

لم يكف الأتابك فليت عن المحافظة على دولة بنى أيوب فى اليمن، فلما علم بحدوث قلاقل واضطرابات فى سنة ٦١٣هـ فى اليمن الأعلى، نهض إليه لمنع المتمردين الذين عسكروا فى كسنن[4] فقطعوا طريق اليمن الأسفل، وانضموا إلى الإمام، وخلعوا طاعة بنى أيوب، وطلبوا من الإمام أن يرسل إليهم الإمدادات، واستطاع فليت قمع الفتن فى سنحان، وعاد أهلها إلى الطاعة وهزم جند الإمام[5].

وظل فليت يضبط الأمور فى الأقاليم حتى توفى سنة ٦١٤. وبوفاته فقد الملك المسعود قائداً مخلصاً بذل كل جهد لإحياء وبعث الحكم الأيوبى فى اليمن، واضطر الملك المسعود أن يباشر شئون الحكم بنفسه، فسار إلى اليمن الأعلى لمواصلة جهود أتابكه، واستولى على حصن براش[6]، ثم تقدم إلى كوكبان وأدخله فى حوزته، بعد أن تغلب على المقاومة التى اعترضته، وعقد صلحا مع الأشراف وعاد إلى صنعاء، وأقر جمال الدولة كوخ على عمله فيها[7].

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٤٠٤-٤٠٥

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٢.

(٣) زبارة: أئمة اليمن ص١٤١.

(٤) جبل من خولان.

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص١٤٢.

(٦) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٨٤.

(٧) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص٤٠٥.

ولم يكتف الملك المسعود بذلك بل سار إلى حصن شوافى. وسار إلى اليمن الأعلى، وتوجه إلى حوث، ولما ثار أهلها عليه، خرب بلدانهم، ثم قاومه الأشراف بالقرب من ظفار وأعادهم إلى الطاعة، ثم نهض إلى ريده، كما سار إلى اليمن الأسفل، وهذه الجولة التى قام بها الملك المسعود قد رفعت من شأنه فقد دحض كل مقاومة اعترضته فى هذه البلاد التى ذكرناها، وهابه الناس وأطاعوه[1].

واصل الملك المسعود انتصاراته وتوسيع نفوذه، فاستولى على حرض، واشترى حصن بكر بعشرة آلاف دينار مصرية[2]. وبذلك اتسعت رقعة دولة بنى أيوب فى اليمن.

حرص الملك المسعود على تأكيد سيطرته على بلاد الحجاز، فلما اختلف معه أشراف بنى قتادة فى مكة، وخلعوا طاعته، سار إليها سنة ٦١٩هـ،... فقاتل الشريف الحسن بن قتادة بن إدريس وهزمه، ودخل مكة، وأمر جنده بالكف عن القتال، وأمن الناس على أرواحهم وأملاكهم، وعزل الشريف عن حكم مكة، وعهد إلى نور الدين عمر بن على بن رسول بحكم مكة، وعاد إلى اليمن[3]، ولم يمكن نور الدين عمر الرسولى الشريف الحسن ابن قتادة من استعادة سيطرته على مكة، فهزمه وطارد جنده، وعاد الملك المسعود إلى مصر بدعوة من أبيه، واستناب عنه فى حكم اليمن نور الدين عمر الرسولى.

على أن أهل اليمن لم يستمروا فى طاعتهم للملك الأيوبى، بل انتهزوا فرصة غياب الملك المسعود وتطلعوا إلى الثورة ضده، وتحينوا الفرص لظهور زعيم يقودهم ووجدوا فى مرغم الصوفى ضالتهم المنشودة، حينما أعلن الثورة، فى يريم، وزعم أنه داع إمام حق، وأنه منصور حمير، الذى يخرج كنوزهم ويناصر المهدى الذى يخرج آخر الزمان. وبذلك فقد عبر هذا الثائر عن رغبة أهل اليمن فى التخلص من الحكام الدخلاء، والعودة إلى حكم يقوده يمانية يعيدون فيها البلاد إلى ماضيها العريق[4].

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص١٨٤

حرض بلد فى اليمن من نواحى مكة.

ريده: مسيرة يوم من صنعاء ذات عيون وحدائق.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٤.

(٣) يريم أحد أودية السراة وموضع فى وادى زبيد.

(٤) زبارة: أئمة اليمن ص١٤٧.

وقد أحاط هذا الثائر نفسه بسياج من القدسية، حتى يكتسب ولاء العامة فادعى العلم بالغيب، وموه على الناس، وأطاعه أهل موطنه عنس والتف الناس حوله من عنس والبلاد المحيطة به[1].

لم يتغاض نور الدين عمر الرسولى عن هذه الثورة التى تهدد الحكم الأيوبى فى اليمن، بل سار إلى عنس، وشن عدة هجمات على الثوار حتى قمع الثورة، وعادت البلاد إلى الهدوء والطاعة، وكان لثورة الصوفى أثر سيئ على الصوفية فقد اضطهدهم الملك المسعود[2].

كذلك ثار الزيديون فى غياب الملك المسعود، فنهض الأمير عز الدين محمد بن المنصور بالله وإخوته إلى صنعاء فى سبعمائة فارس وألفى رجل، وعسكروا فى عصر[3]، وكان الأمير الرسولى غائبا عن صنعاء، وأصبحت صنعاء فى خطر من غير حامية تذود عنها، وتدفع عنها الخطر المحدق بها، ولكن أنجدها الأمير سالم بن على بن حاتم، والأمير علوان بن بشر بن حاتم، وأهل ذى مرمر. واشتبك الزيديون مع أهل صنعاء وحلفائهم فى عدة معارك، هنا وصل إلى صنعاء الأمير الرسولى نور الدين عمر وأخوه الحسن على رأس جنده والحرب قائمة، وقد قتل من الفريقين المتنازعين كثيرون إلا أن وصول الأمير الرسولى وقيادته المعركة ضد الزيدية، منع الخطر الزيدى عن مدينة صنعاء[4]؛ وحمل الأمير الرسولى على الزيدية حملة قوية، وهزمهم شر هزيمة، ولاذ من استطاع بالفرار من المنهزمين إلى ثلا، وتفرق الزيدية وفشلت محاولتهم فى السيطرة على صنعاء[5].

خشى الملك المسعود وهو فى مصر من سيطرة بنى رسول على اليمن والانفراد بحكمها دونه، كما علم باضطراب البلاد اليمنية، وكثرة الفتن فيها فى غيابه فعاد إليها للقبض على زمام الأمور فيها سنة ٦٢٤هـ[6]، وقبض على أولاد على بن رسول، وأرسلهم إلى مصر ولم يبق منهم إلا نور الدين عمر وكان يثق به وبإخلاصه دون إخوته،

---

(١) زبارة: أئمة اليمن ص١٤٧.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٥.

(٣) عصر بالقرب من صنعاء.

(٤) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٣

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص١٤٦.

(٦) المصدر السابق ص١٤٨.

ويطمئن إليه. فاستنابه على اليمن بره وبحره، وسهله ووعره، فحكم البلاد بالعدل، وحسنت سيرته[1].

أما الملك المسعود فقد انتقم من البلاد التى ثارت ضده فى غيابه، فسار إلى الحقل[2] وأقر الأمور فيها، ودمر بلد بنى سيف[3] لمناصرتهم مرغم الصوفى، وعاد إلى تعز.

على أن الملك المسعود لم يبق فى اليمن طويلا، فقد توفى الملك المعظم عيسى- صاحب دمشق- واستولى عليها الملك الكامل، وضمها إلى دولته، ورأى الملك الكامل لكى يؤكد سيطرته على دمشق أن يوليها لابنه الملك المسعود، واستدعى ابنه من اليمن.

أعد الملك المسعود سنة ٦٢٥هـ العدة للمسير إلى مصر بما جمعه من أموال اليمن من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والغلمان والجوارى، واستناب على اليمن جميعه الأمير نور الدين عمر بن على بن رسول، ثم سار إلى مكة فى طريقه إلى الشام. غير أنه توفى بها سنة ٦٢٥هـ[4].

انعزلت بلاد اليمن إلى حد كبير عن العناصر التى شكلت الدولة الإسلامية مثل الترك والفرس، ولم يقدم إلى اليمن مع ولاة العباسيين إلا القليل من جند الفرس أو الترك بعكس الحال فى الولايات الإسلامية الكبرى. والدول الإسلامية المستقلة التى حكمت اليمن- باستثناء دولة بنى نجاح- دول عربية خالصة جل اعتمادها على الجند العرب، أما الأيوبيون فى اليمن، فقد جلبوا بكثرة إلى بلاد اليمن الترك والكرد، واستقر كثيرون منهم فيها.

والعلاقات بين مصر واليمن تطورت تطورا كبيرا فى العصرين الفاطمى والأيوبى، فلما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر، كانت تبعية الدولة الصليحية فى اليمن للدولة الفاطمية تبعية مذهبية فقط، وليست سياسية، فالملوك الصليحيون يظهرون الولاء والطاعة للإمام الفاطمى ويقيمون الخطبة للخليفة الفاطمى، ويحصلون منه على التقليد بالحكم ويستمدون

(١) الكبسى: اللطائف السنية ورقة٨٦

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص٨٣.

(٣) زبارة: أئمة اليمن ص ١٤٨.

(٤) الكبسى: اللطائف السنية ورقة ٨٧.

العون والتأييد منه. أما عن سياسة الصليحيين فى اليمن فكانت مستقلة تماما عن الأئمة الفاطميين فى مصر. سياستهم الاقتصادية مستقلة تماما، ولم يلتزموا بإرسال قدر من المال إلى مصر سنويا. كما هو الحال فى الولايات التابعة لدولة الخلافة.

ويختلف الموقف تماما بين مصر واليمن فى عهد بنى أيوب، فالحكم الأيوبى لليمن يتضمن سيطرة كاملة لبنى أيوب على اليمن. بحيث تصبح اليمن تابعة لمصر. وبذلك فقدت اليمن استقلالها، وصارت ولاية من ولايات الدولة الأيوبية. حقيقة أنقذ الغزو الأيوبى بلاد اليمن من الاضطراب السياسى الذى عانت منه اليمن فى عهد بنى مهدى وغيرهم من الحكام الطامعين، والذين تنافسوا حول السيطرة على بلاد اليمن. ولم يكن يعنيهم من أمر هذه البلاد إلاسلب ثرواتها واستذلال أهلها. ولكن الحكم الأيوبى لليمن أنهى صراع القوى المحلية، ليخلق فى البلاد صراعا جديدا بين قواد بنى أيوب حال بينهم وبين العمل على إصلاح مرافق البلاد، والنظر فى أمور المواطنين. أما الحكام الأيوبيون فى اليمن فقد اقتصر جهدهم على قمع الثورات الداخلية والحركات المضادة لنظام حكمهم واستنزاف أموال المواطنين.

قيام دولة بنى رسول

ينسب بنو رسول إلى جدهم محمد بن هارون بن أبى الفتح بن يوجى بن رستم، وكان هذا الرجل يقوم بمهام دبلوماسية بين الأمراء الأيوبيين فى البلاد الإسلامية أو بينهم وبين حكام البلاد الأخرى، وقد عرف عنه الأمانة والدقة فيما كلف به، لذلك لقب «رسول».

وقد اختلف المؤرخون فى نسب بنى رسول، فيذكر بعضهم أنهم تركمان لأن جدهم محمد بن هارون كان يتكلم التركمانية. ويعتقد آخرون أنهم من أبناء الغساسنة، ويوفق البعض بين الرأيين فيقول أنهم غساسنة تركمان، بمعنى أن أجدادهم الغساسنة نزحوا إلى بلاد التركمان، واستوطنوا فيها، ويروى البعض أنهم فرس لأن جدهم يسمى رستم. ولكن ليست هذه التسمية دليلا كافيا على أنهم فرس. ولكننا نرجح أنهم تركمان بدليل أن جدهم محمد بن هارون كان يتكلم التركمانية، كما أن عز الدين أيبك-أول سلاطين المماليك فى مصر كان يلقب بالتركمانى، وهو أصلا من مماليك محمد بن هارون. أما القول بأنهم غساسنة فيبعد عن الحقيقة، ونسبهم مؤرخوهم إلى الغساسنة تمشيا مع الاتجاه السائد فى العالم الإسلامى آنذاك، وهو أن تنسب الأسر غير العربية- الذين وصلوا إلى حكم بعض الولايات- أصلها إلى عائلات عربية عريقة كالغساسنة، أو بنى أمية كما فعل الأيوبيون.

وليس عندنا تحديد دقيق عن بداية مقدم بنى رسول إلى اليمن، ولكننا أول ما نسمع عنهم، مقدم على بن رسول إلى اليمن فى صحبة طغتكين.

ومهما يكن من أمر فقد بدأ أبناء على بن رسول يظهرون على مسرح الأحداث فى عهد الأتابك سنقر (٥٩٨-٦٠٨هـ) فقد أقطع هذا الأتابك بدر الدين حسن بن على إقطاعا فى اليمن، وفى عهد الناصر بن طغتكين (٦٠٨-٦١٠هـ) أقطع بدر الدين الحسن حرض والهلبة وظلت وصاب فى حوزته. يضاف إلى ذلك أنه أصبح من كبار قادة الجيش الأيوبى فى اليمن.

وقد لعب بدر الدين الحسن دورا رئسيا فى تولية سليمان بن تقى الدين الأيوبى اليمن؛ فلما قدم من مكة إلى حرض، وكانت أم الناصر تحكم بمفردها بعد مقتل ابنها- بايعه على حكم اليمن، ولقبه المعظم، وبايعه الناس فى زبيد، وسار إلى تعز وتزوج أم الناصر

وحكم البلاد، وعلى الرغم من ذلك فقد توجس سليمان على ملكه خيفة من بدر الدين حسن، واعتقد أنه ينازعه الملك والسلطان، فساءت العلاقات بين الرجلين، واشتبكا في قتال، وكان من أثر ذلك، انضمام بدر الدين الحسن إلى أنصار الإمام الزيدى عبد الله بن حمزة من ثورة الجند في زبيد.

وكان من أثر العداء بين بدر الدين الحسن ونور الدين عمر-ابنى رسول- من ناحية وسليمان تقى الدين من ناحية أخرى أن انضم هذان الرجلان إلى الملك المسعود بن الملك الكامل حينما قدم إلى اليمن، فلما عسكر بجيشه بالقرب من زبيد في بلدة الهلبة، سار إليه كل من بدر الدين وأخيه نور الدين على رأس جماعة من خيرة الجند، فأكرمهما الملك المسعود وأغدق عليهما. ووقف الأميران الرسوليان إلى جانب الملك المسعود فى حملته إلى تعز للتخلص من سليمان. وبذلا فى ذلك كل جهد، فأقطع المسعود صنعاء إلى بدر الدين الحسن بعد تخلصه من الأمير الزيدى عبد الله بن حمزة- الذى كان مسيطرا عليها- واستناب الملك المسعود عنه نور الدين عمر فى حكم مكة بعد استيلائه عليها سنة ٦١٧هـ، فأحسن إدارة هذه البلاد، وأحبط محاولة الحسن بن قتادة - شريف مكة السابق فى استعادتها، فارتفع شأنه عند المسعود، وقدره كل التقدير، واستدعاه إلى اليمن سنة٦٢٠هـ وجعله نائبا عنه، لما رحل إلى مصر، وظل يحكم اليمن نيابة عن المسعود حتى سنة ٦٢٤هـ حيث عاد المسعود إلى اليمن.

ولما غادر المسعود اليمن نهائياً استناب عنه فى حكم اليمن أيضاً نور الدين عمر حتى يعهد الملك الكامل لأحد أمراء بنى أيوب بحكم اليمن، وقد نسب إلى المسعود أنه قال لنائبه: لقد عزمت على السفر، وقد جعلتك نائبى فى اليمن، فإن مت فأنت أولى بملك اليمن من إخوتى، لأنك خدمتنى، وعرفت منك النصيحة والاجتهاد. وإن عشت فأنت على حالك. وإياك أن تترك أحداً يدخل اليمن من أهلى، ولو جاءك الملك الكامل- والدى- مطويا فى كتاب- فإذا ألح عليك أعلمتنى حتى أجتمع أنا وعمى الأشرف عليه ونحاربه ونشغله[1].

ومما لاشك فيه أن هذا الكلام لم يصدر من الملك المسعود، وادعى ذلك نور الدين ليبرر اغتصابه الحكم من بنى أيوب.

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٤

لما توفى الملك المسعود، أضمر نور الدين الاستقلال بالملك ولكنه رأى أن ينتظر بعض الوقت، فحكم البلاد باسم الملك المسعود، ولم يغير السكة ولا الخطبة، وجعل يولى فى الحصون والمدن من يضمن ولاءه وطاعته، ويعزل من يخشى من تمرده، ومن ظهر منه عصيان نكل به[1]، واستطاع أن يثبت سيطرته على تعز وصنعاء والتعكر وخدد[2]. واستولى على حصن حب سنة ٦٢٨هـ، ولما قوى بأسه فى اليمن، وعظم أمره، رأى الأشراف أنهم لاقبل لهم به، فوفدوا إليه، وعقدوا صلحاً معه، وقالوا له: يامولانا نور الدين تسلطن فى اليمن، ونحن نخدمك ونبايعك على شرط عدم تمكن بنى أيوب من دخول اليمن مرة أخرى، وتم الصلح وتصافوا، ولم يحدث بينهم قتال إلى أيام الإمام أحمد بن الحسين سنة ٦٤٦هـ فوصلهم نور الدين بصلات سنية، وأقرهم على ماهم عليه من البلاد، وبذلك دانت بلاد اليمن بالولاء والطاعة لنور الدين، وتوطد فيها سلطانه.

لما سيطر نور الدين على اليمن تطلع إلى بسط نفوذه على البلاد والحجاز فأرسل حملة بقيادة ابن عيذار مع الشريف راجح بن قتادة، وبعث معهما مالا كثيراً، ولكن الجيش الأيوبى فى الحجاز يدعمه قوات جاءت من مصر، أحبطت محاولة نور الدين السيطرة على مكة، وهزم جنده هزيمة منكرة، ونكل الأيوبيون بمن ناصر حملة اليمن[3]. وكشفت هذه الحملة عن نوايا نور الدين الاستقلالية، وعن عدم ولائه للبيت الأيوبى، بل موقفه العدائى نحو بنى أيوب.

لم يعد هناك ما يدعو نور الدين إلى إظهار ولائه لبنى أيوب بعد أن وقف منهم موقفه العدائى فى حملته على مكة، فأمر فى سنة ٦٣٠هـ بضرب اسمه على السكة، وأمر بحذف اسم السلطان الأيوبى من الخطبة، وإقامة الخطبة باسمه فى سائر اليمن.

على أن هزيمة حملة نور الدين على مكة لم تجعله يعدل عن سياسته الرامية إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز، فسير حملته إلى مكة سنة ٦٣١هـ.. تمكنت من إخراج جند مصر من مكة والسيطرة على هذا البلد[4].

رأى نور الدين عمر ضرورة إضفاء الشرعية على حكمه، فأرسل هدية عظيمة إلى

---

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٤٦.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص٤٧.

(٣،٤) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٤٩-٥٤.

الخليفة العباسى المستنصر بن الظاهر العباسى، وطلب منه تقليده السلطنة فوافق الخليفة، وأرسل فى سنة ٦٣٢هـ رسولا إلى نور الدين معه العقد والخلع- وكان السلطان نور الدين فى الجند- فصعد الرسول المنبر وقال (يانور الدين إن العزيز يقرئك السلام ويقول. قد تصدقت عليك باليمن، ووليتك إياه) وألبسه الخلعة الشريفة الخليفية على المنبر، وبذلك اكتسب حكم نور الدين لليمن الصفة الشرعية[1].

لم يحاول الأيوبيون استعادة سيطرتهم على اليمن. نظراً لانشغال سلاطينها بالحروب الصليبية، وشن الصليبيون حملات على مصر، بذل فيها الأيوبيون كل جهد لطردهم من البلاد.

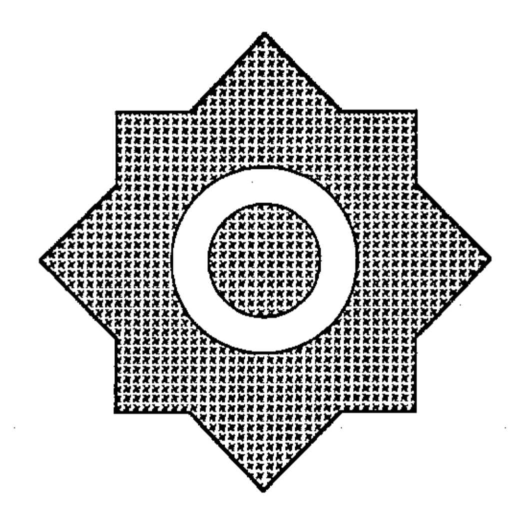
على أن مكة المكرمة ظلت موضع تنافس شديد بين الأيوبيين والسلطان نور الدين عمر، وانتهى الأمر بأن تمكن السلطان نورالدين من السيطرة نهائياً على مكة، بل استولى على ينبع وفيها خزائن بنى أيوب من السلاح والعتاد والمؤمن، واستغل فرصة الانقسام الذى حدث بين البيت الأيوبى بعد وفاة السلطان الملك الصالح.

ومازال السلطان نور الدين عمر يحبط كل مؤامرة تعترضه من الزيدية الأشراف من بنى حمزة، أو من القوى المحلية، ويحافظ على ملكه فى اليمن، حتى تآمر عليه جماعة من مماليكه، وقتلوه، واتهم ابن أخيه أسد الدين محمد بن الحسن بن على بن رسول بتدبير المؤامرة، حينما اعتزم نور الدين أن يعزله عن صنعاء التى أقطعة إياها[2].

على كل حال استطاع السلطان المنصور نور الدين عمر بن رسول إقامة دولة جديدة فى اليمن على أنقاض الحكم الأيوبى، وسيطر على معظم بلاد اليمن سيطرة كاملة، وأحبط كل محاولة استقلالية عن حكمه، بل مد نفوذه إلى بلاد الحجاز.

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٤٩-٥٤.

(٢) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٨٢.



الباب الثالث

مظاهر الحضارة فى بلاد اليمن

منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بنى رسول

١ – الحالة الاقتصادية منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بنى رسول

٢– المظاهر الاجتماعية.

٣– الحياة الثقافية.


المكتبة التاريخية اليمنية

مظاهر الحضارة الإسلامية

فى بلاد اليمن منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بنى رسول

المعروف أن بلاد اليمن ذات حضارة عريقة فى التاريخ القديم، وبعد انهيار سد مأرب تدهورت الزراعة فى بلاد اليمن، وفقدت بلاد اليمن العنصر الرئيسى للحضارة وهو الاستقرار، فهاجر اليمنيون إلى بلاد العرب وخارجها يتلمسون حياة أفضل وسبلا للعيش أيسر، كما أن بلاد اليمن تعرضت للاستعمار الحبشى ثم الفارسى، وجاء الإسلام وانتشر فى بلاد اليمن فى وقت كانت بلاد اليمن تعيش فيه فى وضع اقتصادى سيئ وتخلف اجتماعى وفكرى، فرفع الإسلام من شأن اليمانية، وأحيا فيهم ماضيهم العريق، ولكن فى ثوب قشيب هو ثوب الإسلام الحنيف فخرجوا من عزلتهم يساهمون فى الفتوح الإسلامية، وساهموا بدور كبير فى نشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام، واختلطوا بالشعوب الأخرى المتحضرة، فرفع ذلك من شأنهم الاجتماعى والثقافى.

كما أن اليمانية وجدوا فى الإسلام مادة خصبة للدراسة والبحث، فأقبلوا على الدراسات الإسلامية بشغف كبير، وألفوا الكتب القيمة فى علوم الإسلام، كما أحيا الإسلام فيهم روح التمسك بلغة القرآن، فأقبلوا على الدراسات الأدبية واللغوية وظهر منهم علماء أجلاء فى مجال اللغة والأدب.

كما أن الوضع الاقتصادى فى بلاد اليمن قد تحسن إلى حد كبير فى ظل الإسلام فلم تعد بلاد اليمن ترزح تحت طائلة الاستعمار الحبشى أو الفارسى الذى لاهم له إلا سلب أموال الناس، ولا يعنى بإصلاح أحوال البلاد الاقتصادية، فلما أصبحت بلاد اليمن جزءا من الدولة العربية الإسلامية أعطى الإسلام لليمنيين الفرصة للعيش فى وضع أحسن، فالإسلام لا يفرض على المسلم إلا العشر على محصول أرضه، أما الذمى فعليه الخراج والجزية. وهذه الضرائب كلها محدودة إذا قيست بالضرائب فى عهد الاستعمار. كما أن الإسلام فرض الزكاة لتؤخذ من الأغنياء لتعطى الفقراء فلم يعد الفقراء يتضورون جوعا كما كان الحال من قبل – حقيقة ولى أمر اليمن فى بعض الفترات ولاة اشتطوا فى جمع الضرائب وفرضوا على الناس ضرائب تزيد على الضرائب الشرعية، ولكن هذه حالات فردية

سرعان ما أنقذ الله اليمنيين منها- واليمنى فى ظل دولة الإسلام الكبرى إذا ضاقت به سبل الحياة فى بلده يستطيع أن ينتقل إلى بلد إسلامى آخر يعمل فيه، الإسلام يمتد من بلاد المحيط الصينى شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا، والمسلم مواطن فى هذه الدولة الكبرى يتنقل فى كل بلادها بدون جواز سفر، ويعيش ويتكسب فى أى بلد من بلادها بحرية.

أما عن الوضع الاجتماعى فى اليمن فقد تحسن تماما فى ظل الإسلام الذى ضبط قواعد الزواج والطلاق ورعاية الأطفال، وكفل للأسرة العيش فى أمن واستقرار، وحدد الحقوق والواجبات للرجل والمرأة، ونظم وضع الرقيق، وحدد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، كما أن مبادئ الإسلام حرمت على الفرد كل ما يعرضه ويعرض المجتمع للانهيار والتدهور كالقتل وشرب الخمر والزنا ولعب القمار والسرقة.. إلخ، وألزمت الفرد باتباع مكارم الأخلاق التى تحمى المجتمع والفرد وتخلصه من الشرور والآثام.

إذن ازدهرت الحياة الثقافية فى اليمن فى ظل الإسلام كما تحسن الوضع الاقتصادى فيها بعد أن أصبحت بلاد اليمن جزءا من الدولة العربية الإسلامية، وتخلص المجتمع اليمنى من الصفات الاجتماعية السيئة التى حرمها الإسلام، وبذلك ازدهرت الحضارة فى اليمن فى ظل الإسلام وفى كنف الدولة الإسلامية، وللأسف الشديد فإن مؤرخى الحضارة الإسلامية لم يلقوا بالا فى كتاباتهم عن حضارة الإسلام فى اليمن، وإنما صرفوا كل اهتمامهم إلى مصر والشام والعراق وفارس والمغرب والأندلس. وأعتقدأن السبب الرئيسى فى ذلك هو قلة المصادر أو ندرتها التى يمكن الاعتماد عليها. فالمادة العلمية عن حضارة اليمن فى ظل الإسلام قليلة ومتناثرة فى بطون الكتب والمخطوطات، بل إنها- إن وجدت- فهى مدونة بشكل غير مباشر.

ولنستعرض العناصر الرئيسية للحضارة الإسلامية فى اليمن، وهى الحالة الاقتصادية، والمظاهر الاجتماعية والحياة الثقافية.

الحالة الاقتصادية فى بلاد اليمن منذ فجر الإسلام

حتى قيام دولة بنى رسول

١- الزراعة:

عرفت بلاد اليمن منذ فجر تاريخها باليمن الخضراء أو اليمن السعيد لازدهار الزراعة فيها، وجودة ما تنتجه أرضها من ثمار مختلف ألوانه وأنواعه واستعماله، ولبلاد اليمن حضارة زراعية عريقة، ولم ينقطع أهلها عن الاهتمام بالزراعة، فالفلاح اليمنى شديد التعلق بأرضه، على الرغم من أن الزراعة تكلفه الكثير من الجهد، لذلك لايغادر أرضه إلا فى الظروف القصوى. ويقول ابن الفقيه:[1] باليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائف الشجر مالا ينبت فى بلاد الأكاسرة والقياصرة.

ومن أهم الحاصلات الزراعية فى الحقبة التاريخية التى نتحدث عنها: الموز والرمان والتمر هندى. وهذه الفواكه اشتهرت بها الفحمة[2] وتجلب منها إلى مختلف البلدان، ويزرع بها أيضاً النارنج والأترنج والليمون، وهذه الأشجار لم تكن ملكا لأحد، ويجنى الناس ثمارها ويبيعونها فى الأسواق القريبة[3].

وفى أودية الشام قرى كثيرة، وخصوصا وادى فشال، ففيه ثمانمائة قرية، يزرع أهلها على المطر الدخن والذرة، وفى سنة ٦٢٣هـ زرع بها الحنطة والشعير والأرز[4].

وفى إقليم تهامة ينمو النخل بكثرة، وينتج أنواع التمور، ويجئ إليه الناس من باب حرض إلى آخر أعمال أبين، وينزل أهل الجبال إلى تهامة، ويقيم الناس هناك مدة شهرين أو ثلاثة لرعاية النخل، ويقضون هذه الفترة فى لهو ومرح وسرور، ويجمعون البر والتمر، ويحصلون من ذلك على ثروة كبيرة، تكفى لمعيشتهم طول العام، وتحصل الدولة على ضرائبها من هذا التمر على نحو مائة وثلاثين ألف دينار، وكان ضمانه فى عصر دولة بنى نجاح فى العام سبعين ألف دينار يأخذونه نقدا[5].

---

(١) البلدان ص ٣٤.

(٢) تاريخ ابن المجاور ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق ص ٦٣.

(٤) تاريخ ابن المجاور ٦٣.

(٥) تاريخ ابن المجاور ٢٠.

ولقد لاحظ سيف الإسلام طغتكين أن الفلاح يبذل جهدا كبيرا ومشقة بالغة فى زراعة الأرض، فالفلاح يحرث ويبذر ويحصد، ويعزق الأرض، ويذرى فى الهواء، فأوصى بالرفق به فى تقدير ضريبة الأرض وفى جبايتها. أما أصحاب النخيل فإنهم يجنون الثمار من العام إلى العام بلا عناء ولاتعب (والنخل باسقات لها طلع نضيد) وكان السلطان يصادر النخل الذى يهرب منه أصحابه، ويسمى الصوافى، أى يصفى لبيت المال، وبلغت ضريبة النخل سنة ٦٢٤هـ مائة وعشرين ألف دينار نقدا[١].

وفى سنة ٦١٥هـ زرع الفلاحون فى جميع جبال اليمن الفوه- وهو نوع من الأصباغ - وأقلعوا عن زراعة الغلال كالحنطة والشعير، فقد كان إنتاج الجريب خمسة دنانير. أما الفوه فكان إنتاجها خمسة دنانير، فلما لاحظ الناس العائد الكبير الذى يعود عليهم من زراعة هذا النبات، زرعوه على اختلاف طبقاتهم، ولما ملك الملك المسعود بلاد اليمن منع الناس من زراعته، وكان آخر العهد بزراعة هذا النبات سنة ٦٢٤هـ.

كذلك امتلأ جبل شبام بالقرى الزراعية، ونما بصنعاء الزعفران والفواكه كالتفاح والمشمش والخوخ والسفرجل والعنب والتين والكمثرى ونما فيها الورد والنرجس والياسمين وسائر النباتات ذات الروائح الطيبة العطرة كالرياحين[٢] كما أن أشجار اللوز تنتشر فى سائر بلاد اليمن[٣].

وفى المنصورة تنمو أشجار الفواكه المختلفة مثل الموز وقصب السكر والنارجيل والرمان والعنب والليمون والأترج والنخل والنارنج والنبق والروم، وقد جلب بنو أيوب بذور هذه النباتات من مصر والحجاز والعراق[٤]، لأنهم حرصوا على ازدهار الزراعة فى اليمن، واستغلال أرضها الصالحة الخصبة لزراعة الزروع، وقد أمر طغتكين بزراعة البساتين الواسعة بأصناف الأشجار وجلب الغرس من مصر[٥].

كما يكثر فى بلاد اليمن زراعة النباتات التى تستخدم فى العقاقير الطبية والنباتات الصالحة لتغذية الحيوانات.

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق ١٨٥.

(٣) المصدر السابق ١٩١.

(٤) تاريخ ابن المجاور ص ١٩١ - يحيى بن الحسين، غاية الامانى ص ٣٣٦.

(٥) المصدر السابق ٣٦٥.

ويبلغ من ازدهار زراعة الحبوب فى بلاد خولان أن الهمدانى وصفها بأنها خزانة اليمن لكثرة ما تنتجه من الحبوب كالقمح والشعير والذرة[١] كما وصف الهمذانى بلاد ذمار ورعين والسحول بأنها مصر اليمن، لشهرتها بزراعة الحبوب[٢].

وكانت أشجار العنب أكبر ما تكون فى اليمن، ويقال أن بعض عمال الرشيد، حمل إليه وهو يؤدى فريضة الحج فى سنة ما، عنقودين من العنب كل منهما حمل بعير[٣]، ويقول صاحب كتاب الأعلاق النفيسة بأن صنعاء كانت تنتج سبعين نوعا من العنب[٤].

واشتهرت بلاد اليمن منذ القدم بإنتاج البخور، وكان من أكبر صادرات اليمن فى العصور القديمة؛ وبطل استعماله فى عصور الإسلام، وأصبح من العادات القديمة، وحل محله العنبر، وكانت اليمن تنتج أحسن أنواعه، وينمو فى اليمن- فى الفترة التى نبحثها- الزعفران، وهذا النوع العربى يسمى الورس- وهو نبت يشبه السمسم، وكانت جمال اليمن التى تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحمالها الغالية[٥]، وكان للزعفران نصيب كبير من التقدير، ويروى أن الخليفة العباسى لما أرسل رسوله إلى ملك الروم فى أمر الفداء سنة ٤٢٦هـ، بعث فى جملة هداياه القيمة مقداراً كبيراً من الزعفران[٦].

والزراعة على المدرجات من الخصائص التى تميز اليمن، وقد قام أهلها بذلك نتيجة لطبيعة البلاد الجغرافية، حيث أبرزت الطبيعة منحدرات من الجبال بشكل مدرجات يسندها البناء بالأحجار المجوفة، وقد يعلو هذا البناء إلى ارتفاع مئات الأمتار، وهذه الطريقة تمكن الفلاح اليمنى من استعمال المياه المنحدرة، ومن محاربة انجراف الأرض والاستفادة إلى أبعد الحدود من الرياح الموسمية، وتزرع فيها الحبوب والموالح وغيرها[٧].

والرى فى تهامة يتم من الأودية المتعددة التى تصب فى البحر الأحمر، أو بالاعتماد على مياه الآبار، ويزرع فيها التبغ والحبوب كالذرة بأنواعها، ويجنى منها الفلاحون ثلاثة

---

(١) صفة جزيرة العرب ١٠٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ - ١٠٧.

(٣) ابن الفقيه: البلدان ص ١٢٥.

(٤) المصدر السابق ص ١١١.

(٥) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٢٠٠.

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص ٣٧٧.

(٧) العطار، التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ص ١٦٧.

محاصيل في السنة الواحدة: ويتم الرى بواسطة الثقالة، وتعتمد إلى حد كبير على مياه واد أو نبع يحجز وراء سدود صغيرة، وجمعها وتوزيعها بواسطة القنوات، ويتمكن الفلاح من توجيه المياه نحو الحقول السفلى، وبشكل يصل معه إلى أقصى نقطة فيها، ويدل على مهارته في استغلال الانحدار، ويحفر المساكب والسواقى في الأرض[1].

والطريقة الثانية هي استعمال مجارى الأودية، وهذه الأودية تصل إلى السهول على شكل واحد، وتمر قبل دخولها إلى تلك السهول بأودية صخرية متقاربة الحافتين، ويقوم الفلاحون ببناء قنوات على شكل أحواض صهاريج بقصد توجيه قسم من مجرى الماء نحو الحقول، وبذلك يجرى الماء من صهريج إلى آخر في هذه السلسلة من المحطات. وأحياناً تنقطع هذه السلسلة قبل أن تتمكن من رى بقية الحقول رياً كافياً، فيظل الرى في هذه الناحية ناقصاً. وهذه الطريقة تدل على مستوى عال من المهارة. وهاتان الطريقتان المعتمدتان على تحويل المجارى تصبحان غير ممكنة الاستعمال عندما يتسع السهل، فيلجأ الفلاح إلى الطريقة الثالثة، وهى رفع مياه الآبار، ويلجأ حينئذ إلى الاعتماد على الأحواض الباطنية، لسد الحاجة، فيرفع الماء منها بواسطة الدلو، أو ببعض آلات الرفع[2].

وقد أوضح الهمداني[3] مدى الصعاب التي يواجهها الفلاح اليمنى في حل مشكلة جمع الماء الجارى للاستعمال، وكانوا يبنون المصانع، وهى عبارة عن غدر مرصوفة من جوانبها بالصفا. أما في المناطق الجبلية مثل صنعاء فكانوا يبنون سدوداً لها فتحات في أسفلها، يجرى منها الماء، ويوزع في قنوات صغيرة.

وذكر ابن بطوطة[4] أن اليمنيين يعتمدون في رى أراضيهم على آبار شديدة العمق، ولكى يقوموا بهذا العمل؛ يربطون دلوا كبيراً بعدة حبال، ويشدون أطرافها الأخرى بواسطة العبيد، فيجر هؤلاء الدلو متسلقين عموداً من خشب أقيم حول البئر، ثم يصبون الماء في صهريج ينطلق منه الماء لرى الأرض؛ وأحياناً يشده حمار أو ثور، وجدير بالذكر أن طغتكين أصلح وسائل الرى في اليمن، فحفر الآبار، واستخرج الأنهار[5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) العطار: التخلف الاقتصادى والاجتماعى في اليمن ص ١٦٠.

(٣) صفة جزيرة العرب ص ١٣٨.

(٤) رحلة ابن بطوطه جـ١ ص ١٢٠.

(٥) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ٣٣٦.

وتعرضت بلاد اليمن لعدة مجاعات بسبب قلة الأمطار التى تعتمد عليها الزراعة أو الزلازل، ففى سنة ٤١٨هـ اشتد القحط باليمن، ومات كثير من الناس، وخلت عدة قرى من أهلها وتدهورت الزراعة(١).

كما حدث زلزال كبير فى اليمن، من صنعاء إلى عدن، هلك فيه الكثير من الناس، ودمر القرى والحصون(٢)، كما عم القحط سائر اليمن سنة ٥٩٩هـ بسبب قلة المياه الناتجة عن قلة الأمطار، وانعدمت المحاصيل(٣)، وفى سنة ٦٠١هـ حدث سيل عظيم وصل إلى صنعاء، وأخرب القرى والدور، وأهلك الزرع(٤).

أبقى الرسول ﷺ الأرض فى يد أهلها اليمانية يزرعونها، ويستثمرونها كيفما شاءوا، وكان المسلم يؤدى العشر عن أرضه، أما الذمى فيؤدى الخراج، ولا يجوز للذمى أن يشترى أرض المسلم، حتى لا يزداد ثراء الذميين على حساب المسلمين، ولكن فى ظل الاضطرابات السياسية التى حدثت فى اليمن فى القرنين الثانى والثالث الهجريين، اشترى الذميون أراضى من المسلمين مستغلين حاجتهم إلى بيعها، وبقيت هذه الأرض أرض عشر، ولما ولى الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين الحكم فى اليمن، وجد من الصعب إعادة هذه الأرض إلى أصحابها، ووجد فى نفس الوقت أنه لا يجوز أن يتساوى المسلمون والذميون فى أن تبقى أرضهم عشرية، لذلك فرض على هذه الأرض ضريبة التسع، وأصبحت أرضا تسعية(٥).

وقد منع الرسول عن الفلاحين اليمانية استغلال المرابين لهم، وكان يشيع فى اليمن شراء المحصول قبل نضجه بثمن بخس، فرفض الرسول ذلك.

وذكر الجندى أن طغتكين، لما سيطر على اليمن، وأطاعه أهله اعتزم شراء أرض اليمن، وأمر المثمنين بتقدير سعر الفدان، وتحديد تعويض لكل فلاح، وتئول ملكية الأرض إلى الدولة، ومن أراد زراعة أرض استأجرها من الديوان المختص، ولكن أهل اليمن أثار ثائرتهم هذا القرار، وغضبوا كل الغضب، لأن الفلاح اليمنى- كما قلت- يعتز بأرضه ويحافظ

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٤٤.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق ٣٦٧.

(٤) المصدر السابق ٣٦٧.

(٥) سيرة الإمام الهادى إلى الحق، يحيى بن الحسين ص ١٢٥.

على ملكيته لها، على أن هذا القرار لم يوضع موضع التنفيذ بسبب وفاة طغتكين سنة ٥٧٣هـ[1].

ومما يجدر ذكره أن بلاد اليمن كانت تمتلك ثروة حيوانية كبيرة، يقوم بتربيتها أهالى شمال البلاد وشرقها، ويقودون حيواناتهم فى رحلات منتظمة طويلة بحثاً عن المرعى، وقد اشتهرت جيلان[2] بالبقر الجيلانية، وكانت المدن اليمنية تتسابق فى الحصول عليه لجودة نوعه وعرف عن منطقة صنعاء عناية أهلها بتربية الأبقار، والإبل المهرية.

ب- الصناعة:

وكان لأهل اليمن براعة فى صناعة مركبات الفاكهة، وتتكون من عدة فواكه وكانت من الأكلات الطيبة المحببة لأهل اليمن، وكان الشهد الجامد الذى يزرع فى اليمن، يجففونه فى الشمس بطريقة خاصة، ويضعونه فى قصب اليراع، ويوضع القصب أياماً فى مكان بارد، حتى يعود إلى جموده، ويصدر هذا النوع إلى العراق ومكة وسائر البلدان لأنه حلو المذاق[3].

وكان الجزع الملون المخطط المجلوب من اليمن محبوباً بنوع خاص فى صنع بعض الآلات، ويعمل ألواحاً وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين، وكان لتنوع لونه ولمعانه تصنع منه أدوات المائدة للسادة والكبراء[4].

وقد برع الزنوج فى صناعة الجلود، وكانوا يمدون غرب آسيا بالجلود، ولما كان إنتاج اليمن من الجلود متوافراً وخصوصاً جلود الأبقار فى صعدة فقد تعلم اليمانية من الزنوج الصناعات الجلدية[5] وقد زار المقدسى عدن، واشتغل بتجليد الكتب على طريقة أهل الشام، وأعجب أهل اليمن هذا التجليد الحسن، وكانوا يبذلون فيه أجراً كبيراً، فكانوا يعطون المقدسى الكتب ليجلدها مقابل دينارين عن تجليد المصحف الواحد[6].

---

(١) يحيى بن حسين: غاية الأمانى ص ٢٤٠.

(٢) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٢٢٢.

(٣) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٣٠٦.

(٤) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٢٨٣.

(٥) متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ١٢٧.

(٦) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٠١.

وازدهرت فى بلاد اليمن صناعة الأوانى والأطباق ونصال السكاكين والخزف والفخار وخاصة فى قرى المعافر وبعض الأوانى والأقداح، وكذلك صناعة الأسلحة كالدروع والسيوف والخناجر والرماح[1]، ويقول الثعالبى[2]: من خصائص اليمن السيوف، ويقال إن السيف إذا كان «من الهند وطبع اليمن فناهيك به».

كما عنى اليمنيون بصناعة النسيج والثياب والبرود، وبرع اليمنيون فى هذه الصناعة حتى أن البلاد الأخرى فى القرن الرابع الهجرى كانت تتسابق إلى استيراد هذه المصنوعات[3]، ولم يكن لليمن فيها منافس، وازدهرت فى اليمن كذلك صناعة العطور من النباتات التى تنمو فى اليمن[4]. ويقول ابن الفقيه[5]: برع اليمنيون فى صناعة الحلل اليمانية والثياب السعيدية والعدنية والشب اليمانى، وهو ماء ينبع من قمة جبل، فيسيل على جانبه قبل أن يصل إلى الأرض، فيجمد ويصير هذا الشب اليمانى الأبيض.

تنوعت المعادن فى بلاد اليمن فى العصور الوسطى، ومن أهمها العقيق[6] ويحمل من مخلاف صنعاء، وبعضه يصنع فى اليمن، ويحمل إلى البصرة، وأجود هذه الأنواع وأثمنها البقرانى، ومنه العروانى والفارسى والحبشة والمعسل والمعرق[7]، وكان يستخرج من جبل شبام، ومن ذمار ومنطقة صنعاء فى ألهان ومقرى وشهارة[8].

وجدير بالذكر أن قيمة العقيق انخفضت فى القرن الرابع الهجرى، وذلك لأن الملوك والأمراء وكبار الأغنياء، قل إقبالهم عليه، واهتمامهم به، وصاروا لا يتخذون منه إلا ما كان حجراً كبيراً، وتعمل منه آلة قيمة كالقدح ونحوه[9]، وكان أجود أنواعه يستخرج من صنعاء، ومن أراد العقيق كان يشترى قطعة أرض فى صنعاء، ويحفر فيها، فربما استخرج

---

(١) الأعلاق النفيسة ص ١١١.

(٢) لطائف المعارف ص ١٦٦.

(٣) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٥) البلدان: ص ٣٦.

(٦) الثعالبى: لطائف المعارف ص ١١٤.

(٧) ابن الفقيه: البلدان ص ٣٦.

(٨) تاريخ ابن المجاور ص ١٨٤ – الهمدانى الصفة ص ٧٧.

(٩) متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٣٢١.

منها العقيق[1]. كذلك كان يستخرج الزعفران من منطقة صنعاء[2]، والكبريت يستخرج من أرض ذمار، ويجلب منها إلى سائر أنحاء اليمن[3].

أما الفضة فكانت تستخرج من جبل معدل فى حضرموت[4]، كذلك يستخرج الذهب من جبل يسمى سرواح وترابه أصفر[5]، وكانت ذمار مركزاً قديماً لإنتاج الذهب، وسميت بعض قراها باسمه مثل سامة العليا وسامة السفلى، وكذلك استخرج الذهب والفضة من أرض همدان وخولان وصعدة والجوف[6].

أما أودية الرضراضى من بعد مأرب، فيستخرج منها معدن يسمى الرضراض، والفضة من قرية الفضة، وكان بنو يعفر يحسنون استخراج معادن هذه المنطقة، وبعد مقتل محمد بن يعفر خربت هذه البلاد، وبطل استخراج المعادن منها[7].

ويستخرج الحديد من نقم بالقرب من صنعاء ومن غمدان[8]، وكان التجار يتسابقون على شرائه من صنعاء، واستخرج العدنيون الحديد من جبل الحديد فى عدن[9]. كذلك يوجد الحديد فى منطقة صعدة، وقد استخرجه أحد الأئمة الزيدية، وضرب منه عملة[10].

كذلك كان يستخرج من زبيد معدن الزبرجد، كما استخرج النحاس من رداع والبيضاء ويريم[11]، كذلك كان يستخرج من برط معادن كثيرة كالرصاص الأسود الصافى

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٠١.
(٢) تاريخ ابن المجاور ص ١٨٩.
(٣) المصدر السابق ص ١٩١.
(٤) تاريخ ابن المجاور ص ١٩٩.
(٥) المصدر السابق ص ١٩٩.
(٦) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٧٧ - ٨١.
(٧) المصدر السابق ص ١٥١.
(٨) الأعلاق النفيسة ص ١١١.
(٩) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٢٥٨.
(١٠) السنبانى: معالم الآثار اليمنية ص ١٢١.
(١١) السنبانى: معالم الآثار اليمنية ص ١٢٢.

الجيد، وظهر في الزيدية من تهامة بئر يخرج منه مادة قابلة للاشتعال قد تكون بترولا[1]، وكذلك استخرج البلور من مواضع كثيرة في اليمن[2].

ومن الطبيعي أن تزدهر الصناعات المعدنية نظراً لتوافر المعادن التي أشرنا إليها في اليمن- كصناعة الخرز والفصوص من العقيق والجزع والذهب في صنعاء وظفار[3].

وكانت بلاد اليمكن غنية بأخشابها لوفرة الأشجار والنخيل بها، ومن أجود الأشجار شجر الكاذي، ويكثر على ساحل البحر، وكان الخشب الذي يقطع في الليالي المقمرة لايسوس، وكل خشب يقطع في الليالي غير المقمرة يتلفه السوس[4].

والخلاصة أن الصناعة ازدهرت وتنوعت في اليمن في الفترة التي نتحدث عنها، وكثر فيها استخراج المعادن، الأمر الذي أتاح الفرصة لنمو اليمن اقتصادياً.

النشاط التجاري

حرص حكام اليمن منذ صدر الإسلام على تيسير سبل التجارة، فنشروا الأمن والطمأنينة في أنحاء دولتهم، وأقاموا المحطات والآبار في طرق القوافل، وكان لعملهم هذا أثر كبير في انتعاش التجارة.

والتجارة داخل اليمن مركزها الأسواق، فتقيم كل طائفة من التجار في سوق معين، وفي وقت معين. ويذكر ابن المجاور[5] أن بلدة أسامي[6] يقوم فيها سوق البز بعد صلاة الظهر، وكل أرباب البيوتات حكارون للدخن والذرة والسمسم، والغلال بالمد[7]، ويباع الحرير في أسامي، ونسيج خليط من الحرير والكتان، ويباع فيها كذلك الملايات والفوط والزنجبيل المقصوص والمطحون والتمرهندي والزيت.

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤.

(٣) الأعلاق النفيسة ص ١١١.

(٤) تاريخ ابن المجاور ص ٨٧.

(٥) تاريخ ابن المجاور ص ٨٨.

(٦) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٧) المرجع السابق: ص ٨٩.

ولما كانت عدن من المدن التجارية الكبيرة فى اليمن، فقد وجه حكامها عناية خاصة لتنظيم أسواقها، فبنى ابن الزنجبيلى قيسارية خاصة بالدكاكين ومخازن السلع والإقامه للتجار، وشيد الملك المعز إسماعيل بن طغتكين مجموعة دكاكين للتجار لها باب واحد يحكم إغلاقه ليلا، وشيد للعطارين قيسارية جديدة. وأدى ازدهار حركة التجارة فى عدن إلى ازدحامها بالسكان، وازدياد العمران فيها، وشيد الناس الدور الفخمة، وحفروا الآبار وبنوا المساجد[1].

ومن أسواق اليمن المشهورة، الجريب، وهو سوق لأهل تهامة ومكة وعثر، وجميع بلاد همدان، والمخلقة سوق لحجور، يتسوقه أهل تهامة وأهل الجبال[2] وتباع الأخشاب فى سوق القويدرة فى شمال شرق زبيد[3]. وكذلك تزدهر التجارة فى تهامة، حينما ينضج البلح وينتج الناس أنواع التمور، ويجئ الناس من باب حرض إلى أعمال أبين، وينزل أهل الجبال إلى تهامة، ويجمع المحصول، ويشتريه الناس من أصحابه، ويبيعونه فى أسواق بلادهم[4].

وعدن المركز التجارى الكبير بين أفريقية وبلاد العرب، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر، ويسميها المقدسى «دهليز الصين»، ويقول أنه سمع أن من الناس من دخلها بألف درهم وخرج بألف دينار، ومنهم من دخلها بمائة، فرجع بخمسمائة[5] لذلك ازدهرت حركة التجارة فيها، وعرضت فى أسواقها منتجات البلاد الأخرى.

وكان المحتسب يتعهد الناس فى أسواقهم، ويتفقدهم فى مكاييلهم وموازينهم، وما يتبايعون به، فيما بينهم، ويحملهم فى ذلك على اتباع الحق، وعليه ألا يتساهل مع أحد فى تعديه ومجاوزته والتعرض لما يبخس به حق مسلم أو معاهد، ولا يكون منه فى ذلك ظلم للباعة، ولا تحامل على المبتاعين[6]. وكان على الوالى الاستعانة بخيار المحتسبين «حتى لايتخطاها عابث، ولا يلبث فيها من المفسدين لابث» وعلى الوالى مراقبة باعة الأسواق، فانهم لا يخلون من بخس فى مكيال وباخس فى ميزان وغش لضعيف» وعليه أن يراجع

(١) المرجع السابق: ص ١٣٠.
(٢) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ٢٤٨.
(٣) تاريخ ابن المجاور ص ٧٧.
(٤) تاريخ ابن المجاور: ص ٧٩.
(٥) أحسن التقاسيم ص ٣٤.
(٦) الأكوع: الوثائق السياسية ص ٢٣٦.

موازين الباعة، ويتأكد من سلامتها وصحتها، وكذلك مكاييلهم، ويقوم بهذه المهمة بواسطة عامل يسمى المعاير، ولابد أن يكون ثقة مشهوراً باستقصائه، فمن وجده مبتدعا أدبه، وأن يقدم النصح للباعة ويرشدهم إلى الطريق الصحيح[1].

ويروى أن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين كان يطوف بالأسواق والشوارع ويتفقد ما قد يكون فيها من المنكرات ويقف على أهل كل بضاعة يأمرهم ويحذرهم بعدم غش بضائعهم وينقيها من الغش، ويسعر ما يبيعه التجار، ويكفل الحياة الآمنة للتجار الغرباء[2]، فكانوا يقيمون الأشهر الطوال آمنين على أموالهم وأرواحهم، ومارسوا أعمالهم التجارية بحرية واطمئنان، الأمر الذى أدى إلى انتعاش التجارة، وكفل للمواطنين الحصول على ما يحتاجونه بسعر مناسب وليس فيما يشترونه غش سواء فى البضاعة أو الميزان أو المكيال.

كانت عدن من أهم مراكز التجارة الخارجية فى الجزيرة العربية، تصل إليها المراكب التجارية من الهند والحبشة وسائر البلاد المجاورة، ويقول ابن المجاور[3] عن وصول المراكب إلى عدن وطرق تفتيشها وتحديد رسوم جباية البضائع عليها: «وخروج الإنسان من البحر، كخروجه من القبر» فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعد، ويقوم نواب والى عدن بمعرفة الجهة القادمة منها المركب، والذاهبة إليها وسعر البضائع التى على المركب ويستجوبون صاحب المركب، ويكتب أسماء التجار الذين يتعامل معهم فى عدن، ويبرز صاحب المركب ما فيها من بضائع، ويرفع نواب الوالى كل الأخبار التى جمعوها عن المركب إلى الوالى. ثم يقوم المفتش بتفتيش الرجال الذين على المركب تفتيشاً دقيقاً، وتفتش امرأة عجوز النساء بنفس الطريقة، للتأكد من عدم وجود أسلحة أو ممنوعات أخرى لديهم كالمخدرات والمواد السامة والخمور.وبعد أن يثبت عدم وجود ممنوعات فى المركب، وبعد ثلاثة أيام تنزل البضائع فإن كانت قماشاً، تعد ثوباً ثوبا، وإن كانت من البهار توزن، وتفرض حكومة عدن رسوماً جمركية على هذه البضائع الواردة من الخارج. وقد ذكر ابن المجاور[4] قائمة كبيرة بالرسوم المقررة على كل سلعة، وإذا باع صاحب المركب البضائع– التى على المركب– يؤخذ منه

---

(١) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ١٢٤.

(٢) زبارة: أئمة اليمن ص ١١.

(٣) تاريخ ابن المجاور: ص ١٣٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٤٠.

ضريبة التجارة، وقدرها ١٠٪ من قيمة أرباحه، وكانت الدولة تحرس البضائع من عبث اللصوص نظير حصولها على العشر[١] والبضائع التي لا يؤخذ عنها عشور، يؤخذ عنها زكاة إذا كان أصحابها مسلمين، وأسست حكومة اليمن دار الوكالة سنة ٦٢٥هـ، ويقيم فيها التجار القادمون من خارج اليمن[٢].

إذن الضرائب المقررة على التجارة الخارجية خمس عشورات في مدة واحدة عشور قديم، وعشور الشواني (أي المراكب) ودار الوكالة على الدينار قيراط، ودار الزكاة والدلالة[٣].

وكانت عدن تحصل على أموال طائلة من رسوم البضائع التي تصل إليها، ويقال أنه وصل إليها مركب وزن عشوره ثمانون ألف دينار. وكان يرسو في كل عام تحت جبل صيره من سبعين إلى ثمانين مركبا. ويرفع من عدن كل عام في العصر الأيوبي أربع خزائن إلى حصن تعز. خزانة قدوم المراكب من الهند، وخزانة دخول الفوة إلى عدن، وخزانة تصدير الخيل من عدن إلى الهند، وخزانة سفر المراكب إلى الهند، وكل خزانة تتضمن حوالي ١٥٠ ألف دينار[٤].

ويأخذ الدلال دلالته عند القاضي، ويحكم له على كل دينارين يحصل عليهما التاجر عن تجارته بجهود الدلال، فلسين دلالة، وإذا باع جملة، فعلى المائة دينار ديناراً، وإذا أراد بعض الناس الخروج لوداع مسافر من الباب أو السفر خارج عدن لا يؤذن له إلا إذا كان معه تصريح من الوالي، وضامن يضمنه بما يظهر عليه بعد وقت من مال قد حصل عليه خلسة أو من تهريب بضاعة، والتصريح يوقع عليه الوالي في عدن، وإن لم يوجد ضامن للمسافر، ينادى مناد في الأسواق أن فلان بن فلان مسافر فكل من له عليه شئ يطالبه[٥].

ونسمع سنة ٤٩٧هـ في بلاد اليمن عن تجار كبار على مستوى دولي مثل محمد ابن عبد ربه النهرواني؛ ومن نسل أسرة احترفت التجارة، وكان كثير المال يسكن جزيرة

(١) المرجع السابق ص ١٤٠.

(٢) تاريخ ابن المجاور: ص ١٤٢.

(٣) المصدر السابق ١٤٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٥.

(٥) المصدر السابق ص ١٤٦.

كمران فى البحر، ويسافر عبيده وجلابه إلى الحبشة ومكة والهند وعدن لجلب البضائع وبيعها لحسابه فى اليمن أو لحمل البضائع من اليمن وتسويقها فى هذه البلاد، وقدرت ثروته بحوالى ستين ألف دينار معظمها مع الوكلاء فى البلاد التى له فيها تجارة[1].

قامت حضارة اليمن قديما على التجارة بفضل توسطها العالم القديم، فكانت تأتى إليها المتاجر من الهند وجزر الهند الشرقية وبلاد الصين وسواحل أفريقية، فترسو بها السفن على شواطئ اليمن، ثم تنقل إلى صنعاء أو مأرب ومنهما على ظهور الإبل فى قوافل ضخمة إلى الشام والعراق ومصر وحوض البحر المتوسط، وكانت سبأ تتقاضى مكوساً وضرائب جمركية على البضائع المارة بها، وقوافلها تحمل متاجر البلاد الشمالية إلى اليمن، كما كانت تحمل منها بعض الإماء من غزة أو يثرب أو غيرها للخدمة فى المعابد، وأكثر ما تحمله القوافل إلى الشمال الذهب والقصدير والعاج والتوابل وريش النعام والأحجار الكريمة، ومن بين ما تحمله إلى الشمال بعض منتجات اليمن كالبخور والمر واللادن والعطور والطيب والصموغ مما كان يحتاج إليه فى المعابد، وترجع القوافل بحاصلات الشمال كالحنطة والزيت والخمور والمنسوجات والأصباغ والآنية وسبائك الفضة. وكانت التوابل والبخور من السلع المقدسة التى لا يجوز أن يتجر فيها أى إنسان.

ظلت علاقة اليمن التجارية فى العصر الإسلامى مع بلاد العالم القديم على ما كانت عليه من الازدهار، وكانت تربطها طرق تجارية مع هذه البلاد، ومن أهم هذه الطرق طريق من عدن إلى مكة، ويتفرع منه طريق يصعد إلى الجبال، وطريق يسلك تهامة[2]؛ كذلك الطريق من رأس الجبل سمارة (نقيل صيد) إلى السيانى على مسافة ثلاث مراحل[3]، ويعتبر أول الطرق الممهدة فى اليمن إلى الآن.

وكانت بلاد اليمن ترتبط بطرق تجارية تعبرها القوافل الكبيرة إلى البصرة والكوفة كل عام مرتين على طريق اليمامة والحسا، وكان طريق الرمل من الجوف إلى البصرة يقطعها التجار والمسافرون فى سبعة أيام، وكانت عامرة بسكانها، فخربها داود بن المنصور بالله عبد الله بن حمزة، وطم آبارها، حتى لا يغزو بلاده الجيش العباسى عن هذا الطريق الممهد، وفى سنة ٥٢٤هـ انقطع هذا الطريق لضعف الدولة العباسية فى العراق، وظهور القرامطة، ولم يسلكه

(١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ١٩٦.

(٣) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٢٠٦.

بعد ذلك إلا بعض النجديين بمرافقة سكان تلك الأطراف[١]. أما الطريق من اليمن إلى حضرموت، فسلوكه من ثلاث جهات أحدها طريق شبوه يقطعها المارة فى ثمانية أيام من بيحان إلى حضرموت، والثانية يقطعونها كذلك فى ثمانية أيام إلى مأرب، وتأتى صعوبة هذا الطريق فى قلة الماء به، لذلك كان المسافرون يحرصون على حمل الماء معهم على المطايا، والأرض قاحلة ما بين الجوف إلى حضرموت. وأهل التجارات الكبيرة يخشون هذا الطريق حتى لا يتعرض لهم البدو، وإنما يسلكون طريق الساحل من عدن، ومنهم من يسلك طريق رداع إلى بنى أرض إلى بلاد العوالقة ثم إلى بلاد عبد الواحد ثم هينن فحضرموت، وتقطع المسافة من رداع إلى حضرموت فى عشرين يوما تقريبا[٢]، ومن بغداد إلى ظفار ومرياط الطريق آمن يسلكه البدو فى العام مرتين، يجلبون الخيل، ويأخذون عوضه العطر والبر. على أن السلطان الأيوبى المعز إسماعيل فى اليمن، قطع الطريق خوفاً من غزو عباسى مرتقب[٣].

كانت الملاحة فى البحر الأحمر من الأمور العسيرة، ففيه شعاب بارزة ورياح معاكسة، ولهذا كانت الملاحة فيه تتم نهاراً فقط[٤]. وكان هبوب الرياح فيه يجعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط فى فصل من السنة ومن الجنوب إلى الشمال فى الفصل الآخر. وكانت عيذاب من الموانى الهامة، ونقطة الاتصال بين تجارة البحر الأحمر وتجارة نهر النيل، وترد إليها البضائع من اليمن وغيرها بطريق البحر الأحمر، ثم تحمل على الإبل فى الصحراء إلى أسوان أو قوص، ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل، وقد وصفها ابن جبير[٥] بأنها أحفل مراسى الدنيا، لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها.

ولم يكن البحر الأحمر آمنا فى الملاحة، فلم يكن الناس يجرءون على ركوب البحر الأحمر من غير مقاتلة ونفاطين، وكانت جزيرة سقطرى وكراً خطيراً للقرصان، وإذا مرت بها المراكب يستبد الفزع والهلع بركابها حتى يتجاوزوها، وتأوى إليها بوارج قرصان الهند، ليقطعوا الطريق على المسلمين.

---

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٩٢.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٩٤.

(٣) تاريخ ابن المجاور ص ٢٦٣.

(٤) منز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٤٢٨.

(٥) رحلة ابن جبير ص ٦٤ – ٦٦.

أما عن التبادل التجارى بين بلاد اليمن والبلاد الأخرى، فكانت تصدر إلى بلاد الحجاز التمر والدخن والذرة، وتستورد من الحبشة الجوارى[1]. ويستورد اليمانية من مصر الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون والزيوت والزيتون المملح وعسل النحل، وهذه السلع كانت معفاة من الضرائب، لأنها سلع استهلاكية[2]. ويجلب من بلاد الهند والصين إلى عدن نصال السيوف المرصعة والجلود المحببة والمسك وسروج الخيل، والفلفل والبهار وجوز الهند والقرفة والتوابل والأبنوس والكافور وجوز الطيب والقرنفل ومختلف المنسوجات والعاج والقصدير[3].

والمعروف أن أهل اليمن كانوا من أنجح التجار فى مملكة الإسلام الكبرى ولهم جاليات فى جميع البلاد التى تجلب منها التجارة. ويقول ابن الفقيه[4] حوالى عام ٢٩٠هـ:

«أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى أو حميرى، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلابد أن يرى فيها بصريا وحميريا».

الإدارة المالية

تنوعت موارد اليمن، ومن أهمها الزكاة والجزية والخراج. أما الزكاة فليست موردا ماليا للدولة بالمعنى الصحيح، وإنما هى ضريبة تفرض على الأغنياء وتوزع على المحتاجين، إذن الزكاة ضريبة لإصلاح أحوال المجتمع فى حدود معينة، وقد عرف الماوردى[5] الزكاة بقوله: الزكاة صدقة، والصدقة زكاة، يفترق الاسم ويتفق المسمى، ولا يجب على المسلم فى ماله حق سواها، وسميت بذلك، لأن إخراج شئ من مال الإنسان والتصدق به يؤدى إلى تنمية هذا المال وإنزال البركة فيه، ولأن إخراج شئ من المال يزكى صاحبه، ويطهره.

(١) تاريخ ابن المجاور: ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٢.

(٣) ابن الفقيه: البلدان ٣٦.

(٤) البلدان ص ٥١.

(٥) الأحكام السلطانية ص ١٠٨.

وقد قرر الرسول ﷺ الزكاة على أهل اليمن الذين يمتلكون أرضا زراعية بحيث يؤدى الفرد عشر ما سقت العين، وسقت السماء، ونصف العشر على الأرض التى تروى بجهد ومن مسافات بعيدة؛ ويؤدى الفرد عن كل أربعين من الإبل، لبونا وعن ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وعن كل خمس من الإبل شاة، وكل عشرة شاتين وكل خمسة من الإبل شاة، وعن كل أربعين من البقر، بقرة، وعلى كل ثلاثين من البقر تبيع أو جذعة، وعلى كل أربعين من الغنم سائمة، ولا يؤخذ من الصدقة هرمة ولا عجفاء ولا ذات عوار ولا تيس[1].

وكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر عما يمتلكونه من مال وهذه هى زكاة النقد، ويقول يحيى بن آدم[2]: وأما الزكاة فى الأرض والزروع والثمار فما كان من أرض من هذه الأرضين التى لم يوضع عليها الخراج، فهى العشر، والعشر هو الصدقة وهو الزكاة المفروضة على المسلمين فى زروعهم وثمارهم.

وحدد الرسول على أهل اليمن زكاة أموالهم من كل خمس أواق ربع العشر، ولا يؤخذ من أقل خمس أواق شيئا حتى يبلغ خمسا فما زاد، وإذا زاد المال على خمس أواق، فلا يؤخذ أقل من الأوقية شيئا، وإذا ما بلغ المال أوقية يؤخذ ربع العشر، وما كان على الذهب، فعلى قدر ذلك[3].

وكانت أموال الزكاة والصدقات تقسم على الأشخاص المذكورين فى قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)[4] فكانت توزع الصدقات على الفقراء، وهم الذين لا يستطيعون سد حاجتهم، والمساكين وهم الذين لا يملكون شيئا، كذلك كان يعطى جزء من الصدقات للعاملين عليها، وهم القائمون بجبايتها وتوزيعها، وكان للمؤلفة قلوبهم- وهم الذين أظهروا إسلامهم فى بداية العهد الإسلامى- نصيب من الصدقات، وتنفق الصدقات فى شراء العبيد وإعتاقهم، كما أن الغارمين وهم الذين يعجزون عن تسديد ديونهم- كانوا يأخذون ما يقضون به ديونهم، وكان للغزاة وأهل الجهاد نصيب من

(١) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٤٧.

(٢) الخراج ص ٧٢.

(٣) الأكوع: الوثائق السياسية اليمنية.

(٤) سورة التوبة: ٦٠.

الصدقات. (وابن السبيل) المراد به الذى لا يحوز نفقة سفره إلى بلده ومستقره يعطى من الصدقة وإن كان غنيا فى بلده[1].

الجزية: مبلغ من المال يؤديه أهل الذمة، كما يدفع المسلمون الزكاة، حتى يتكافأ الفريقان فى تحمل المسؤولية، وهما رعية لدولة واحدة، كما تكافآ فى التمتع بالحقوق، وتساويا فى الانتفاع بالمرافق العامة للدولة، ويلزم لهم ببدلها حقان، أحدهما الكف عنهم والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين[2]. وترفع الجزية عمن أسلم، وتثبت بنص القرآن فى قوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون)[3] وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على أدائها ولا تؤخذ من فقير معدم، ولا من لا قدرة له على الدفع ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون أو غيرهم من ذوى العاهات ولا من أحد من المترهبين فى الأديرة إلا إذا كانوا أغنياء[4].

وجدير بالذكر أن الرسول ﷺ أقر أهل نجران النصارى على الجزية وكتب لهم عهدا جاء فيه: «هذا أمان من الله ورسوله فى كل ثمرة بيضاء أو صفراء ورقيق فيترك لهم ذلك كله بشرط أن يؤدوا الجزية والخراج. وعلى نجران مؤونة رسل النبى ما بين عشرين يوما فمادون ذلك، وعليهم عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا، إذا كان كسيد باليمن ذو معرة، وعلى رسلى رد ما أعاروه لهم، وإذا فقد عليهم سداده لهم. ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، وليس عليه رماية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله أبدا حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير متلبسين بظلم»[5].

---

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١١٧ - ١١٨.

(٢) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٧.

(٣) سورة التوبة: ٢٨ : ٢٩.

(٤) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٧.

(٥) أبو يوسف: الخراج ص ٧٨.

ولما ولى أبو بكر الخلافة جدد لأهل نجران النصارى عهد الرسول ﷺ وأمنهم فى هذا الكتاب على أنفسهم وأرضهم وملتهم وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم، والأساقفة والرهبان أحرار فى ممارسة شعائرهم فى كنائسهم[1]. وكتب إليهم عمر بن الخطاب «من سار منهم آمنا بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبى ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه»[2].

وكانت الجزية فى عهد أبى بكر الصديق دينارا واحدا، ولما ولى عمر بن الخطاب جعلها حسب الطاقة، ولذلك قسم أهل الذمة ثلاث طبقات، تدفع الطبقة العليا منهم أربعة دنانير والطبقة الوسطى دينارين، والطبقة الدنيا دينارا واحدا[3]، ولما ولى الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين، وجد أن حكاما سبقوه قد تعسفوا فى فرض الجزية، ولم يلتزموا بالقواعد التى حددها عمر بن الخطاب، وبالقدر الذى فرضه؛ لذلك أمر بإعادة الجزية إلى ما كانت عليه فى عهد عمر بن الخطاب، وأعفى من أدائها كل من يقل دخله عن خمسة دنانير سنويا[4].

وكان الرسول ﷺ قد أمر بأن «من كان على يهوديته، أو على نصرانيته فإنه لا يرد منها، وعليه الجزية على كل حاكم ذكرا أو أنثى حرا أو عبدا دينارا أو عوضه ثياباً، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله ورسوله وإن منعها فإنه عدو الله ورسوله»[5].

الخراج: هو مقدار معين من المال أو الحاصلات يفرض على الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة، وعدل الخليفة عن تقسيمها بين المحاربين، ووقفها على مصالح المسلمين، كما يؤخذ أيضا من الأراضى التى فتحها المسلمون صلحاً، وتركوها فى يد أهلها على أن يؤدوا خراجها[6]، وفرض الخراج على أرض اليمن التى بقيت فى أيدى أصحابها من أهل الذمة.

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩.

(٢) المصدر السابق ص ٧٩.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣١.

(٤) على بن محمد العباسى: سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٤٧.

(٥) الخزرجى: الكفاية والإعلام ص ٤٧.

(٦) يحيى بن آدم: الخراج ص ٣٤.

ويقول أبو يوسف[1]: إن أرض اليمن لا يزاد عليها، ولا ينقص منها، لأنه شئ قد جرى عليه أمر رسول الله وحكمه، وقد جعل الرسول على أرض اليمانية المسلمين التى تسقى بماء السماء أو الماء الذى يجرى إليها تلقائياً، العشر. ونصف العشر على الأرض التى ينقل إليها الماء من الآبار أو العيون على مسافة بعيدة وبمشقة وجهد، لأن العرب من عبدة الأوثان، حكمهم القتل أو الإسلام. وكل أرض يمنية غير عامرة وليست لأحد ولا فى يد أحد، ولا ملك أحد ولا وراثة ولا عليها أثر عمارة، فأقطعها الإمام رجلا فعمرها، فإن كانت فى أرض الخراج أدى عنها الذى أقطعها الخراج، وإن كانت من أرض العشر، أدى عنها الذى أقطعها العشر، وأرض العشر كل أرض أسلم عليها أهلها فهى أرض عشر، مثل أرض اليمن. ويجوز للخليفة أن يقطع أرضا عليها العشر كذلك.

وبذلك فإن كل أرض من أرض العرب كاليمانية مثلا، وأسلم أهلها فهى لهم. وهى أرض عشرية. وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية، ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل من عبدة الأوثان من العرب، فأرضهم أرض عشر، وإن ظهر عليها الإمام[2].

وجه عمر بن الخطاب يعلى بن أمية إلى اليمن، وأمره أن يقاسم أهل نجران الأرض على الثلث والثلثين، مما أخرج الله منها من غلة وأن يقاسمهم ثمر النخل ما كان منه يسقى سيا فللمسلمين الثلثان ولهم الثلث، وما كان يسقى بصعوبة فلهم الثلثان وللمسلمين الثلث[3].

على أن بعض الولاة لم يلتزم بالقواعد الشرعية للمعاملة المالية لأهل اليمن، والتى حددها الرسول، فلما ولى اليمن محمد بن يوسف الثقفى من قبل عبد الملك بن مروان، أساء السيرة، وأخذ أراضى بتهامة لنفسه، وقرر على أهل اليمن خراجاً، أى جعلها خراجية لا عشرية، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب إلى عامله على اليمن يستنكر ما قام به ويأمره بالتزام القواعد الشرعية فى المعاملة المالية لأهل اليمن. ومما جاء فى خطابه: «فدع ما أنكرت، وخذ ما عرفت من الحق بالغا بك ما بلغ فإن بلغ مهج أنفسنا، فإن الله يعلم أنك إن لم تحمل إلى من اليمن إلا حفنة من كتم (حنة) أحب إلى من إقرار هذه الوظيفة،

(١) أبو يوسف: الخراج ص ٦٤ – ٦٥.

(٢) أبو يوسف: الخراج ص ٧٥.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص ٩٢.

فإنى بذلك مسرور، إذا كان ذلك موافقا[1]». ولما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، أذن لولاته على اليمن بفرض الخراج على أرض اليمن بدلا من العشر.

وهكذا فرضت على الأراضى اليمنية ضرائب تزيد عن التحديد الذى حدده الرسول، وظل الأمر على ذلك حتى أقام الإمام الهادى إلى الحق دولته فى اليمن، فجدد السنة المحمدية، وأمر ولاته بأخذ العشر كاملا عن الزرع الذى يسقى سيحا أو بماء السماء، وما يسقى بالدوالى نصف العشر، وأما أصحاب الضياع من اليهود والنصارى، فمن كان فى يده قديماً بالوراثة عن آبائه وأجداده، ولم يشتر من أموال المسلمين شيئاً فليس لنا عليه سبيل، ومن اشترى منهم من المسلمين، فالحكم فيه أن يردوه على المسلمين، ويؤخذ ثمنه، لأنه لو أطلقت أيديهم فى شراء أموال المسلمين لبطلت أعشار المسلمين وأموالهم[2].

وقد لاحظ الإمام أن الذميين اشتروا أرضاً من المسلمين فملكوها وبمساحات شاسعة وبذلك أصبح لاعشر عليها بعكس ما كان الحال حينما كان يمتلكها المسلمون لأنه لازكاة على الذميين، وبذلك انكسر على المسلمين جزء من مال الزكاة الذى كان ينفق على المحتاجين، وحلا لهذه المشكلة، وجد من الصعب إعادة هذه الأرض إلى المسلمين لتعذر معرفة من كان يمتلكها قديماً، وورثته، فعقد اتفاقا مع أهل الذمة بمقتضاه يملك أهل الذمة ما شاءوا من الأرضين، ويقيمون على ما أرادوا من أموال المسلمين فى مقابل أن يؤدوا التسع فيما سقى سيحا أو بماء السماء، ونصف التسع فيما سقى بالدوالى أو بصعوبة وجهد، وأجاز لهم بذلك شراء ما أحبوا من ممتلكات المسلمين الزراعية[3].

- من الموارد المالية الضرائب التى كانت تفرض عل تجار أهل الذمة، وقد حددها عمر بن الخطاب بمقدار $\frac{١}{٢٠}$ من قيمة بضائع التجار، إذا كانوا يقيمون فى دار الإسلام، وتجب مرة فى السنة، بشرط أن تزيد قيمة التجارة عن عشرين ديناراً أو مائتى درهم. وعشر قيمة بضائع التجار القادمين من خارج دار الإسلام، إن زادت القيمة على عشرين ديناراً أو مائتى درهم[4]. وفى ذلك يقول أبو يوسف[5]. ويعشر الذمى من أهل نجران كسائر أهل الذمة من أهل الكتاب فى أخذ نصف العشر منهم.

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٨٠.

(٢) على العباسى: سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٤٨.

(٣) على العباسى: سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٣٦ - ٣٧.

(٤) أبو يوسف: الخراج ص ١٤١ - ١٤٢.

(٥) المصدر السابق ص ١٤٤.

تعددت طرق جباية الضرائب فى اليمن، فكانت الجباية تتم أحياناً عن طريق عامل يعينه الحاكم، ويخضع لسلطانه المباشر، ويختص بجباية الضرائب، والإنفاق على عمارة الدولة، ودفع رواتب الموظفين وإرسال ما تبقى إلى بيت المال، ويخضع لهذا العامل عدد من الموظفين يقوم كل منهم فى ناحيته بجمع الضرائب. أما الجباية عن طريق الضامن، فكان على الضامن للمدينة أو الولاية، أن يقدم للحكومة مبلغاً معيناً من المال سبق أن اتفق مع الحكومة عليه، وإذا ما أخل الضامن بالتزامه كأن يعجز عن دفع المال المتفق عليه، فإن الحكومة تفرض عليه عقوبات، وقد ألحق الضامن ضرراً كبيراً بالمزارعين وبالأرض. لأن الضامن كان يلجأ فى بعض الأحيان إلى استخدام العنف للحصول على المال المحدد بالضمان. فيسلمه إلى الحكومة فضلا عن الربح الذى يحرص على جمعه من دافعى الضرائب. وكان ضمان النخيل- على سبيل المثال- فى إقليم تهامة فى عهد بنى نجاح وبنى مهدى فى كل عام سبعين ألف دينار[1]. وضمان بلدة أسامى من الخضر والفواكه ثلاثة عشر ألف دينار. وضمان النخل مائة ألف دينار[2]. وكانت ضرائب لحج التى تؤديها إلى بيت المال كل سنة ألف دينار ملكى[3]، وضمان سوق السمك فى زبيد كل يوم ثلاثة عشر دينارا[4].

ومن مصادر اليمن المالية الهامة أخماس المعادن والضرائب المفروضة على البضائع التى تنقل من منطقة إلى أخرى، كذلك فرضت ضرائب على الدور والحوانيت والأسواق، ويطلق على هذا النوع من الضرائب مستغلات.

وكانت هذه الإيرادات تنفق على رواتب الولاة والقضاة وسائر الموظفين والجند، وإعدادهم بالسلاح والعتاد والمؤن، وتنفق أيضاً فى إصلاح مرافق البلاد وغيرها.

المعاملات المالية والتجارية[5]:

أقر أبو بكر الصديق وخليفته عمر بن الخطاب الدنانير الهرقلية أو الرومية التى كانت مستعملة قبل الإسلام، وكان الدينار قطعة من الذهب يزن مثقالا، والمثقال من الذهب وزنه

(١) تاريخ ابن المجاور: ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق ص ٩٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٥٤.

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٣.

(٥) الكرملى: النقود العربية وعلم النميات ص ٨٩ – ٩٠.

٤,١٣ جراما، ولم نكن قيمة الدنانير ثابتة، بل كانت تختلف من عشرة دراهم إلى ثلاثة عشر إلى خمسة عشر، وقد يزيد على ذلك، وضرب الخلفاء الأمويون والعباسيون دنانير ودراهم إسلامية عليها عبارات دينية، وعبارة ضرب هذا الدينار سنة كذا.

ظلت بلاد اليمن تتعامل بالدنانير والدراهم الأموية ثم العباسية، وأبقى بنوزياد فى بداية حكمهم على العملة العباسية، لاعترافهم بالسيادة العباسية، ولكن الأمير الزيادى أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم لم يلتزم بسياسة أسلافه، فى جعل العملة السائدة عملة بنى العباس، وضرب دنانير باسمه، سميت بالعثرية، نسبة إلى عثر التى ضربت فيها[١].

ولما انتقل ملك زبيد وتهامة إلى نجاح سك عملة باسمه، وسك سعيد الأحول دنانير سميت بالسعيدية، وتعددت العملات فى بلاد اليمن، فمنها العملة العباسية والعملة الزيادية والعملة السعيدية. ولما ولى المكرم بن على الصليحى حكم اليمن، أمر بسك الدينار الملكى الذى ينسب إليه، وكتب عليه: «السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين[٢]» وظل هذا الدينار الملكى مستعملا فى اليمن حتى ولى الحكم الداعى الملك عمران بن محمد الزريعى، فسك ديناراً آخر كتب عليه «أوحد ملوك الزمن ملك العرب واليمن عمران بن محمد[٣]» وأراد بذلك أن يكون لليمن عملة موحدة بدلا من عدة عملات حتى تتيسر المعاملات المالية والتجارية، ويمنع المضاربة بالعملات المختلفة.

ولما سيطر الأيوبيون على اليمن، فرضوا على البلاد العملة المصرية، وكان الدينار المصرى يساوى ٤,٥٠ دينار ملكى، وينقسم الدينار إلى أربعة أرباع، كل ربع ثلاث جوز، وكل جائز ثمانية فلوس، وكل فلس بيضتان[٤].

ولكن على الرغم من تعدد العملات فى اليمن تبعاً لتعدد الحكام فإن العملة العباسية ظلت أكثر انتشاراً واستعمالا فى اليمن، وقدر لها الاستمرار، وفى سنة ٦٠١هـ رأى الإمام المنصور بالله أن يخلص دولته من مظاهر السيادة العباسية، فضرب دراهم سميت الإمامية، ورفض الناس التعامل بها لأنهم يطمئنون إلى العملة العباسية، فأرغمهم الإمام على التعامل بها. ولكن استعمال هذه العملة كان مؤقتا ومرهونا ببقاء هذا الإمام[٥].

---

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٤٠.

(٢) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ٤٠.

(٣) تاريخ ابن المجاور ص ١٤٥.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٤٠.

(٥) زبارة: أئمة اليمن ص ١٣٠.

المظاهر الاجتماعية فى اليمن

١- طبقات المجتمع:

ينقسم المجتمع اليمنى منذ عصور قديمة إلى السادة ورؤساء القبائل والتجار والحرفيين والفلاحين، فالأخدام فالعبيد. والسادة ليسوا بالضرورة من كبار الملاك، ولكنهم يتمتعون بنفوذ أدبى ومركز رفيع مرموق فى المجتمع، والسادة غير مترفعين على الناس، بل متواضعون، ويستقبلون الناس فى بيوتهم من مختلف الطبقات، والسادة يشكلون الطبقة النبيلة الأرستقراطية، وبعضهم من كبار الملاك الإقطاعيين أو الحكام فى الأقاليم ولهم دور كبير فى تولية الحكام وعزلهم، والسادة، شافعية أو زيدية، لهم دراية تامة بعلم الأنساب ويحفظون عن ظهر قلب أصولهم، وتحرص كل عائلة حرصاً شديداً على المخطوط الذى يتضمن شجرتها، ويقيمون فى دور فخمة، ويعيشون فى فراغ فيما عدا فئة قليلة منهم تحترف التجارة[١].

والسادة الهاشميون على رأس السلم الطبقى، فهم علية القوم، وعرف عن اليمنيين محبتهم لآل البيت، ووفد كثير من الهاشميين إلى بلاد اليمن منذ فجر الإسلام فرارا من الاضطهادات لتى تعرضوا لها فى العصرين الأموى والعباسى، بل لنسمع عن وجود علويين فى اليمن منذ خلافة على بن أبى طالب، وقدم إلى اليمن إبراهيم بن موسى وجماعة من أهل بيته، وأعلن الثورة فى اليمن- كما أشرنا- سنة ١٩٩هـ[٢] كذلك قدم يحيى بن الحسين يبشر بالمذهب الزيدى؛ وقدم عبد الله بن الحسين من الحجاز إلى اليمن، ومعه نفر من العلويين لتدعيم دولة أخيه، وكان لقيام الدولة الزيدية فى اليمن أثلة، فى استمرار قدوم العلويين إلى اليمن. بل قدم إلى اليمن علويون من بلاد الديلم، وفضلوا المعيشة فى محيط عربى، وازداد نفوذ الأشراف فى العهد الصليحى. وفى سنة ٤٥٩هـ، دعا الأمير حمزة بن أبى هاشم بن عبد الرحمن بن يحيى الحسنى لنفسه، بعد أن التف حوله فريق من الناس، وهزم وقتل فى موقعة الملوى- كما أشرنا-.

---

(١) محمد سعيد العطار: التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) انظر الباب الأول.

كذلك أيضا أعلن الشريف القاسم بن جعفر العيانى الثورة، وانضمت إليه بعض القبائل، ووعدهم بظهور عمه الحسين بن القاسم .وكانت همدان قد قتلته قبل ذلك الوقت بستين عاما، وأفهمهم أنه سيظهر ويملأ الدنيا عدلا؛ بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، ومال إليه فريق من الناس، وقمع الصليحيون هذه الحركة سنة ٤٦٠هـ[1] وقد أوضحنا فيما سبق حركة الشريف الفاضل وذى الشرفين لإحياء الدولة الزيدية فى اليمن، وتضامن معهما الأشراف.

وفى سنة ٥١١هـ وصلت إلى اليمن دعوة الإمام أبى طالب يحيى بن المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى من جهة الديلم، فتلقاها الأمير المحسن بن أحمد بن المختار بن الناصر بن الهادى إلى الحق بالقبول التام، وقام بها أتم قيام، ودعا الناس إليها، وعلى أثر ذلك، توافد الأشراف فى أسرة الهارونى على اليمن بكثرة[2]، ويتضح لنا من دراسة دولة الأئمة الزيدية فى اليمن فى الفترة التى نتحدث عنها، كثرة عدد الأشراف من أنصارهم وقدوم الأشراف إلى اليمن باستمرار ودون انقطاع ليعيشوا فى كنف دولة الزيدية فى أمن، واستقرار، بعيدا عن الأخطار والاضطهادات التى تعرضوا لها من الحكومة العباسية.

كذلك كان لقيام الدولة الإسماعيلية الأولى فى اليمن والدولة الصليحية أثره فى قدوم الأشراف الإسماعيليين إلى اليمن.

كذلك وفد على حضرموت الإمام أحمد بن عيسى الحسينى العلوى- جد آل أبى علولى- وهو الآن جد لأكبر قبيلة حضرمية يقدر عدد أفرادها بما لا يقل عن سبعين ألفا «وقد كانوا بين الناس ملحوظى النسب، مرعيى الشرف، ينظر إليهم بعين الإكرام، وهم الذين وجهوا الحياة الأدبية والثقافية فى حضرموت»[3].

وكان الشريف أحمد بن عيسى من أعلى العلويين همة، وأمضاهم عزيمة وأصلبهم عوداً، وأوسعهم تفكيراً، وكان عالماً أديباً واعظاً فذا هاجر من العراق بسبب اضطرابها إلى المدينة المنورة، هو وبنوه وبنو عمومته، وأقام فى المدينة، ولكن مكة منيت بهجمات القرامطة فقرر الرحيل هو وقومه، وفضل اليمن لهجرته، إذ رآها فى ذلك الحين سالمة من المحن والفتن، التى عمت البلاد الإسلامية، فاتجه إلى اليمن بصحبة أهله وابنه عبد الله واثنين من

(١) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ١٢٧.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٨٢.

(٣) صالح بن حامد العلوى: تاريخ حضرموت جـ١ ص ٣٠٤.

بني عمه، أحدهما- جد بني الأهدل محمد بن سليمان بن عبد الله بن عيسى بن علوى ويلقب بالأهدل، والثاني جد بني قديم الأشراف، وهاجر معهم كثير من الخدم والموالى فى مستهل القرن الرابع الهجرى[1].

أما جد الأشراف بني الأهدل، فتوطن بوادى سهام باليمن. وأما جد الأشراف بنى قديم، فنزل بوادى سردد باليمن. وأما الشريف أحمد بن عيسى فلم يزل مستمراً فى رحلته متنقلاً فى بلدان اليمن حتى بلغ حضرموت، وأقام فى بلدة الهجرين بالقرب من نذيم هو ومن صحبه من الأهل والبنين والموالى، واستقر هو وقومه بها، واشترى نخلا وعقارا، ولكن لم يطب له المقام بها، فوهب نخله وعقاره إلى غلمانه، واستقر فى الحسية بالقرب من تريم، واشترى أرضا هناك، وكان بهذه البلدة محط الأنظار، تشد إليه الرحال، لطلب العلم[2]، وكان مجلسه حافلا بالشيوخ وطلاب العلم؛ ولم يكف فى مقره عن تبصير الناس بشئون دينهم، ووعظهم وإرشادهم إلى طريق الصلاح والتقوى، وناهض الإباضية، وقارعهم بالحجج والبراهين، حتى أقنع الكثير بالخروج عن هذا المذهب وبدأت فرقة الإباضية منذ ذلك الوقت فى اللضعف، وخفت صوتها حتى انقرضت[3].

وقد صحب الإمام العلوى معه إلى اليمن، ابنه عبد الله، ولهذا الأخير ثلاثة أبناء، علوى وبصرى وجديد، فعلوى وبصرى أمهما علوية النسب، اسمها أم البنين بنت الشريف محمد بن عيسى،أما جديد، فولد وبدأت حياته فى حضرموت، لذا سمى جديداً، وأمه- على ما قيل- أم ولد. وتزوجها عبد الله بعد وفاة زوجته[4].

توفى الإمام العلوى سنة٣٤٥هـ على حين توفى ابنه عبد الله سنة ٣٨٤هـ، وواصل دعوة أبيه، وقد أعقب هؤلاء الأولاد جميعاً، فأما بصرى وجديد، فكان لهما أعقاب يقال لهم بنو بصرى وبنو جديد، وقد انقرض بنو بصرى وبنو جديد، حوالى سنة ٦٠٠هـ وينسب إليهم مسجد فى تريم[5]. وأما علوى فأعقابه منتشرون بحضرموت واليمن عموماً وبعض البلاد الإسلامية[6].

(١) صالح بن حامد العلوى: تاريخ حضرموت ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق ٣٠٥.

(٣) العلوى: تاريخ حضرموت ص ٣٠٦.

(٤) العلوى: تاريخ حضرموت ص ٣٠٩.

(٥) العلوى: تاريخ حضرموت جـ١ ص ٣٣٥.

(٦) المصدر السابق جـ١ ص ٣٣٦.

وقد أوضحنا فيما سبق دور الأشراف السليمانيين، وآل حمزة فى الحياة السياسية فى اليمن، بل سميت منطقة كبيرة فى اليمن باسم المخلاف السليماني. ويذكر بن المجاور[1] بأن الأشراف لما كثروا فى أرض الحجاز وضاقت بهم سبل العيش، وفد فريق منهم على الخليفة الأمين، وشكوا له ما هم فيه من فقر وفاقة، والتمسوا منه أن يمنحهم أرضاً يزرعونها ويتعيشون من ثمرها، فأقطعهم منطقة تمتد من مكة إلى الهليبية، طولا ومن صعدة إلى ساحل البحر عرضاً، فبقيت هذه الأراضى فى أيديهم وعاشوا فى هناء، يأتيهم رزقهم رغداً، وبقيت الأرض ملكا لهم حتى سنة ٦١٥هـ، فاضطهدهم الأيوبيون، وضعفوا ووهنوا فغادروا اليمن بحثاً عن حياة أفضل، واستولى الأيوبيون على أراضيهم.

يأتى بعد السادة فى المرتبة الاجتماعية، شيوخ القبائل، وفى اليمن عشرون من كبريات القبائل، وقد استقرت القبائل اليمنية منذ القدم كل فى منطقة معينة، وسميت هذه المناطق باسم القبائل التى تسيطر عليها، وقد يستقر فى منطقة معينة قبيلة أو أكثر ، ويكون لها الحق مع القبيلة التى قدمت عليها فى استغلال الموارد الاقتصادية للأرض التى تقيم فيها. ومن المناطق الهامة فى اليمن المنطقة التى تقيم فيها همدان، وتمتد من الرحية شمال صنعاء إلى صعدة، وهى جزء من هضبة اليمن الوسطى، وهذا الجزء أقل تعقيدا من القسم الواقع جنوبى صنعاء وأكثرها اتساعاً وأوديتها قليلة وغير عميقة.

يلى ذلك منطقة خولان، ويبدو أن قبيلة خولان لم تنفرد بمنطقتها أو بمدينة صعدة، أما منطقة نجران فتقع إلى الشمال من صعدة فى المنخفض الشرقى لسراة اليمن، وهى منطقة يخترقها وادى نجران بفروعه المتعددة، وإنتاجها الزراعى ينهض دليلا على توافر المياه فيها، وتقع منطقة حضرموت جنوب شرق هضبة اليمن الوسطى إلا أنها أقل تعقيداً منها، ومن القبائل التى استوطنت فى حضرموت قبائل حضرموت وكندة.

ومنطقة الجوف ومأرب– أرض سبأ– ممتدة شرقى صنعاء فيما بين حضرموت جنوبا ونجران شمالا. وتقع منطقة تهامة على ساحل اليمن من حده الشمالى عند أم جحدم إلى المندب وهى سهول ساحلية محصورة بين البحر والهضاب الوسطى.

ومن كبار قبائل اليمن التى تقطن المناطق– التى أشرنا إليها– ومن أبرزها قبائل حاشد وبكيل والزرانيق، والأخيرة تستقر فى تهامة. وقبائل اليمن عبارة عن دويلات قائمة بذاتها،

---

(١) تاريخ ابن المجاور ص ٥٧.

وصلتها بالحكومة اليمنية عن طريق شيوخ القبائل. أى أن الشيوخ يحكمون أفراد القبيلة حكماً ذاتيا، ولا تربطهم بالحكومة المركزية إلاصلات محدودة. ولشيوخ القبائل- بحكم نفوذهم على أفراد القبيلة- دور حاسم فى تثبيت الحاكم أو عزله، والقبائل منها الرحل، ومنها المستقر(١).

وتقف القبيلة عقبة فى سبيل الوحدة القومية، فهى تقسم البلد إلى مايشبه الدويلات، كل منها مستقل فى إدارة شئونها، وولاء الفرد وطاعته للقبيلة أكثر منه الدولة، ومن هنا كانت القبيلة عقبة كؤودا فى وحدة الدولة، وأفراد القبيلة الواحدة مرتبطون ببعضهم البعض كل الارتباط برابط القرابة والدم ووحدة المصير، وروابط المعيشة والحماية والأمن، ومعظم القبائل اليمنية تشتغل بالزراعة، والقليل يحترف الرعى. وكل قبيلة- حسب قوتها وإمكانياتها- تمتلك أرضا تتضمن عدة قرى. ولما كانت القبيلة وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية مستقلة بذاتها وأفراد القبيلة قوامها، فقد حرصوا كل الحرص على الدفاع عن استقلالهم وكيانهم وأمتهم حتى يكفلوا لأنفسهم الحياة الحرة الكريمة. لذلك فقد تمسك كل فرد من أفراد القبيلة بعادات وتقاليد قبيلته، وحرص على التصدى بكل ما أوتى من قوة لكل من يعتدى على قبيلته، وشيخ القبيلة هو رئيس القبيلة وزعيمها ويطيعه أفراد القبيلة طاعة عمياء، لما يتمتع به من سلطة أبوية على أفراد القبيلة التى تجمع بينهم رابطة الدم.

وتنقسم القبيلة إلى بطون وعشائر وأفخاذ، ولقد أدت طبيعة بلاد اليمن بأقسامها المختلفة وجبالها وسهولها- التى لا تحتمل وجود جماعات بشرية كبيرة متفاعلة إلى وجود هذا التقسيم.

وجدير بالذكر أن القبائل الرحل التى تقوم بالرعى، حياتها ترحال وتجوال، وتدافع بكل عنف عن مضاربها، وإذا اضطرتْ هاجمت مراعى الآخرين، لذا اتسم الرعاة بصفات العنف والقسوة.

ولما كانت سبل العيش متعذرة فى شمال اليمن، فقد هاجرت القبائل إلى السهول الخصبة فى الغرب والجنوب، وهذه الهجرات كانت تتم دائماً بالغزو والهجوم العنيف.

يلى طبقة السادة والشيوخ، طبقة التجار والحرفيين والفلاحين؛ والمجال مفتوح للدخول فى نطاق هذه الطبقة، أمام من يثبت دراية ومعرفة فى حرفة من الحرف، وكانت

(١) العطار: التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ص ١١٨.

توجد فى بلاد اليمن عائلات تتوارث مهنا معينة كالحدادة أو النجارة أو غيرها، ويلحق بهذه الطبقة العمال والأجراء.

أما طبقة الأخدام فهى الطبقة الدنيا فى السلم الاجتماعى باليمن وأقل الطبقات شأناً، بل هى أدنى من طبقة العبيد، والأخدام يرجعون إلى أصل حبشى ويعملون بالأعمال الشاقة والمنحطة الوضيعة، ويظهرون مقدرة على القيام بهذه الأعمال، وقد سماها أحد الكتاب بطبقة المنبوذين فى اليمن؛ وتعيش هذه الطبقة فى عزلة كاملة عن المجتمع اليمنى، ومن هنا حافظت على تقاليدها وعاداتها الموروثة[1].

وعلى الرغم من الرابطة الإسلامية التى تجمع بين اليمانية، إلا أنهم منقسمون إلى طوائف مذهبية، لكل طائفة كيانها وآراؤها، وسياستها التى تتعارض مع الأخرى، والصلة بين هذه الطوائف متأرجحة حسب الجو السياسى، أحياناً يسودها الوئام، وأحياناً يفرق بينها النزاع. وهذه الطوائف هى، الشافعية والزيدية والإسماعيلية، أما الزيود- اتباع المذهب الزيدى- فآراؤهم تتمشى مع آراء السنة فى أغلب الأحوال؛ وهذا من عوامل قوة انتشار المذهب الزيدى فى اليمن، والمذهب الزيدى فتح بابا الاجتهاد، فجعل مبادئ المذهب موضع تأويلات وتفسيرات كثيرة لخدمة الأطماع الشخصية.

ولذلك شهد التاريخ الإسلامى فى اليمن عددا كبيرا من الأئمة المدعين الذين أعلنوا دعوتهم من أجل ابتزاز الأموال أو الوصول إلى السلطة والنفوذ، وساعدت ظروف المنطقة الجبلية الشمالية بإمكانياتها الطبيعية المحدودة، ولكثرة المنازعات القبلية بها على انتشار المذهب، فكانت بعض القبائل تشترك فى حروب الأئمة من أجل الحصول على الغنائم، وقبائل أخرى تدخل فى طاعة الإمام حتى يشتد ساعدها فى حروبها مع جيرانها. وأحيانا تغرى بعض القبائل الأئمة على إعلان دعوتها فى أقاليمها حتى يكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة[2].

أما الشافعيون فيكثرون فى السهول وسواحل تهامة والمرتفعات الوسطى فى منطقة تعز وأب، وكذلك فى المرتفعات الشرقية، وانتشرت الإسماعيلية فى اليمن- كما أوضحنا- على أيدى الدعاة ابتداء من ابن حوشب حتى نهاية الدولة الصليحية، ولم يعد لها بعد ذلك من

(١) محمد سعيد العطار: التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ص ١١٩.

(٢) سيد سالم: تكوين اليمن الحديث ص ٢٢ - ٢٤.

نصير إلافئات قليلة فى حراز وغيرها ، وقد أدى تعرضهم للاضطهاد من الأئمة أو الحكام السنية، إلى انطوائهم عن المجتمع وإظهار التقية، والانعزال بدعوتهم عن الناس.

الرقيق:

كانت بلاد الحبشة وشرق أفريقية منذ العصور القديمة تصدر العبيد بكثرة، إلى بلاد اليمن، وكان لهؤلاء العبيد الإفريقيين مناطق على البحر الأحمر. ولا سيما فى ميناء عدول، حيث كانوا يحملون فى السفن إلى اليمن، وجاء الإسلام، وكان العبيد الأفارقة يقاسون من ظلم وبطش سادتهم، فرفع الإسلام من شأنهم ورغب المسلمين فى عتقهم وأعد الله الجنة لمن يطيع الله ولو كان عبداً حبشيا. والنار لمن عصاه ولو كان سيداً عربياً؛ لذلك سارع العبيد إلى اعتناق الإسلام.

وقد اشتغل الأحباش بالخدمة فى البيوت أو زراعة الأرض لسادتهم أو التجارة لسادتهم؛ كما قاموا بنصيب كبير فى إحياء حفلات الغناء والطرب ، ولم يكن لدى العرب المقدرة الفنية على الغناء، فكانوا يأنفون من هذه المهنة ويفضلون الاشتغال بالتجارة أو الزراعة، فانفرد الأحباش فى اليمن بصنعة الغناء والرقص واللعب بالحراب فى الحفلات العامة والأعياد، وكان العرب فى الجاهلية يعيرون عبيد الحبشة بسواد لونهم وركاكة أنسابهم،وكان شعراء الحبشة فى الجاهلية يردون عليهم شتائمهم فى رفق وحذر، ويتضح ذلك من قول سحيم:

إن كنت عبداً فنفسى حرة كرماً   أو أسود اللون إنى أبيض الخلق

كثر الرقيق فى بلاد اليمن منذ العصور القديمة- كما قلنا- وكان يجلب إليها بكثرة من بلاد الحبشة وشرق أفريقية، وازداد الرقيق بصفة خاصة فى عصر دولة بنى زياد: فالمعروف أن الزياديين قيسيون، وليسوا يمنيين، لذلك رأوا أن خير وسيلة لتوطيد نظام حكمهم هو الاعتماد على عنصر غير عربى، فقد رأوا أن اليمنيين يميلون دائماً إلى الاستقلال ومعارضة حكام ليسوا منهم، لذلك اعتمدوا على عنصر غير يمنى وهو الأحباش، وجلبوا الأحباش الأرقاء بكثرة إلى اليمن، واتخذوا جندهم منهم، وتدرج الكثير من الأحباش فى سلك الجندية، حتى تولوا قيادة الجيش، وحكم الولايات، بل ولى بعضهم وزارة بنى زياد، وظل نفوذهم فى ازدياد حتى ورثوا ملك سادتهم الزياديين، فلما توفى أبو الجيش إسحاق كفل ابنه

الطفل ، عبد لأبيه حبشي يسمى رشيد[1]، ولما مات رشيد كفل الطفل عبد آخر نوبى يسمى الحسين بن سلامه، وكان سيده رشيد قد هذبه وأحسن تربيته وتأديبه. لذلك كان حازماً عفيفاً، ضبط أمور الدولة، وساس الرعية بالعدل والإنصاف[2]، كثير الخيرات والصدقات، شيد الكثير من المساجد والمنارات فى الصحارى والمفازات، وشيد السبل، ومحطات البريد على الطرقات من حضرموت إلى مكة، كما شيد سوراً حول صنعاء، ومن المساجد التى شيدها مسجد الأشاعر ومسجد الجامع ومسجد معاذ، وجامع حلى، واسمه منقوش على كثير من تلك المساجد التى شيدها[3]. والمعروف فى كافة البلاد الإسلامية أن الذين تقلدوا الحكم- وأصلهم من العبيد- يحاولون فى الغالب، القيام بإصلاحات دينية واجتماعية، للتقرب بذلك إلى قلوب الرعايا، حتى يجذبوا الناس إليهم، بدلا من أن ينظروا إليهم احتقارا وازدراء على اعتبار أنهم من الرقيق.

ومهما يكن من أمر فقد تعاقب الرقيق على حكم اليمن، ولما توفى الحسين بن سلامة سنة ٤٠٢هـ أو ٤٠٣هـ، تولى العبد مرجان حكم بنى زياد نيابة عن طفل من الزياديين، وكان لمرجان عبدان صغيران رباهما صغيرين، وولاهما الأمور، لما بلغا مبلغ الشباب تولى أحدهما، ويسمى نفيس، وزارة الدولة، وتولى نجاح أعمال الكدراء والمهجم ومور والواديين، ووقع التنافس بين الوزيرين العبدين نجاح ونفيس حول الوزارة، انتهى بمقتل نفيس آخر ملوك بنى زياد سنة ٤٠٧هـ[4] وبذلك انتهى ملك بنى زياد على أيدى عبيدهم. على أن نجاح لم يتغاض عن تآمر نفيس على سادته. لذلك قتل نفيس، وولى بلاد زبيد وتهامة خلفاً لسادته الزياديين. ولأول مرة فى تاريخ الإسلام فى اليمن نسمع عن تولى عبد حبشى ملك بلاد يمنية. وقد تشبه نجاح بالملوك، فركب المظلة، ونقش العملة باسمه، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة العباسى، وقوى أمره وعظم شأنه، واكتسب حكمه الصفة الشرعية بعد أن أرسل إليه الخليفة العباسى، العقد والخلع، ولقبه المؤيد نصير الدين، وفوض إليه القضاء لمن رآه أهلا له. وخوطب وكوتب بالملك وبمولانا[5]. وظل نجاح وبنوه يحكمون بلاد اليمن معتمدين على الأحباش من العبيد.

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٢٥ ، ٤٠.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٢٨.

(٣) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٤٢.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٤٢.

(٥) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ص ٤٥.

ولما اعتزم سعيد الأحول الانتقام من الصليحى– الذى دبر قتل والده– استعان بخمسة آلاف عبد حبشى[1]، ولما استعاد سعيد الأحول زبيد من الصليحى أعد جيشاً من عشرين ألف عبد حبشى[2]، ونسمع عن جوار من أجناس أخرى جلبن إلى اليمن، فقد جلب بنو نجاح جوارى من الهند، وكانت أم فاتك بن جياش جارية هندية، وحين عول جياش بن نجاح على استرداد ملك أبيه، جمع خمسة آلاف عبد من أنصار بنى نجاح متفرقين، واسترد بهم ملكه، ولما قوى أمره فى زبيد، صار له عشرون ألف عبد يعملون جنوداً تحت قيادته، وازداد نفوذ العبيد فى دولة بنى نجاح منذ أن ولى فاتك بن جياش الحكم، وعظم شأنهم وقويت شوكتهم[3]. وكان لكل أمير من أمراء بنى نجاح عدد من العبيد. وحرص كل أمير أن يقوى من شأنه بالعبيد، ولما ولى منصور بن فاتك الملك، انقسم العبيد إلى فريقين: فريق عبيد فاتك. وفريق عبيد المنصور بن فانك، وتنازعوا وتخاصموا، وظل العبيد يتولون الوزارة فى دولة بنى نجاح: وكان آخرهم، سرور الفاتكى، وهو عبد لسيدته علم أم فاتك بن المنصور، وقد اشترته سيدته، وربته تربية خاصة، وعنيت بأمره، ولما بلغ مبلغ الشباب عهدت إليه بتولية رئاسة المماليك، والتدبير لشئون الدار والترؤس على من فيه، وكان موفقا فى عمله، ثم ولى العرافة على طائفة من الجند، ثم تولى السفارة بين السلطان والوزراء، ولم يلبث أن ولى الوزارة لما ثبت لدى سيدته حسن إدارته وتدبيره للأمور[4]. وعرف عن سرور عدله، وحرصه على إنصاف المظلوم، فكان يخرج من بيته فى ساعة متأخرة من الليل، ليتصل به أصحاب الحاجات ممن لايمكنهم مقابلته نهارا إما لفرط الحياء أو لكثرة الناس، وكان يعود المريض، ويزور الصالحين، ويلبى دعوات عقد القران، وحرص على إنصاف المظلوم من الظالم، وبلغ من تحريه لسير العدالة، أنه متى حضر مجلس الحكم، يقوم بين يدى الحاكم إجلالا للشرع، ويقتدى به من سواه[5]، وكان يجل العلماء والشيوخ، ويقضى جزءاً من وقته فى القراءات الدينية ومناظرة الفقهاء، وله مسجد فى زبيد يعرف باسمه، وكان كثير الصدقات فى رمضان، وينفق على الطعام يومياً ألف دينار، ويجل سيدته علم كثيراً، وبلغ من تقديرها له أنها كانت تقول له: أنت يا أبا محمد وزيرنا، بل مولانا، بل رجلنا الذى لا يحل لنا الخروج

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق ص ٤٨.

(٣) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٥٢ – ٥٤.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٦١.

(٥) المصدر السابق: ص ٦٣.

عن طاعته، وقد ذكر عمارة أنه كان يمنح الجوائز الجزيلة للعلماء والفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع سنوياً، خارجا عن رواتهم. وبذلك بدأ حكم العبيد الوزراء فى اليمن برجل صالح مصلح هو الحسين بن سلامة، وانتهى برجل مثله هو سرور.

وكان العرب اليمانية، يستولدون الجوارى السود الحبش، لذلك نشأ فريق من المولدين يجمع بين الدماء العربية والدماء الحبشية، وقد شكل الأرقاء فى زبيد وتهامة بصفة خاصة طبقة اجتماعية تميزهم، ومما زاد فى تماسك هذه الطبقة أن أفرادها تزوجوا من نفس طبقتهم، الأمر الذى أدى إلى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم، وتعلموا اللغة العربية، واعتنقوا الإسلام.

وقد استخدم اليمانية الرقيق فى الجندية والأعمال الزراعية والخدمة فى البيوت. وقد نصح الإسلام بحسن المعاملة للرقيق، والعمل على تحريرهم. قال تعالى، (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل)[1] وللعتق أسباب كثيرة أهمها فى الإسلام إظهار العبد التقوى أو دخوله فى الإسلام، أو فداء عن يمين أو فداء بنذر، أو التماساً للثواب، أو شكر الله على نعمه[2]، وجدير بالذكر أن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين أوجب على بيت المال شراء العبيد الذين يسلمون وهم مملوكون لأهل الذمة. لأن من مصارف الزكاة، فك الرقاب، ولأنه لا يصح أن يكون لغير المسلم على المسلم سبيل فى دار الإسلام.

ويقول نشوان الحميرى: رجل يشترى عبداً فيغله كل يوم ديناراً، ثم يجب له رده على بائعه لعيب يجده فيه، كان به قبل ابتياعه، فإنه يرده على بائعه، وله ما أغله بضمان رقبته، لأنه لو تلف عنده كان من مال المشترى[3].

ولم يكن العتق يقطع الصلة بين العبد وسيده، بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى الولاء، فالمعتق مولى العاتق، ويترتب على الولاء أن العبد يدفع دية عن مولاه، إذا ارتكب جريمة قتل، وأن يرث السيد معتقه، ومولى العاتق يورث ولا يرث[4].

(١) سورة النساء: ٣٦.

(٢) المنذرى: الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٦١- ٦٣.

(٣) الحور العين ص ٢٨٣.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٣ ص ١٧٢.

وكان العبد يعمل فى كل ما يأمره به سيده من أعمال وضيعة أو غير شريفة. فيحدثنا ابن المجاور[1] أن رجلا أشرك عبده معه فى قطع الطريق ما بين حرض والممالب سنتين ونصف، وأنهما ألحقا الذعر بالأهلين فى تلك الأصقاع، وألحقوا بالناس خسائر جسيمة.

وكان الأرقاء يعملون فى الأعمال الشاقة، فالحجر الذى كان يجلب من عدن من أعمال أبين للعمارة وبناء البيوت، كان يحمله الجوارى والعبيد، فاشترى أبو الحسن على بن الضحاك للكوفى عبيدا سودا، يقطعون الحجر من جبال عدن، وكانت الجوارى ينقلنه على أعناقهن[2].

ازداد الرقيق فى بلاد اليمن فى عهد بنى أيوب، ولكن تغير لونه وجنسه فكانوا من الترك أو الأكراد، وهى العناصر التى جلبها معهم الأيوبيون حينما قدموا إلى اليمن، ولم يلبثوا أن ازداد نفوذهم السياسى، فلما شعر طغتكين بدنو أجله، عهد بضبط البلاد من بعده لمملوكه أبو ريا، وأرسله إلى البلاد العليا، ولما توفى ولى ابنه المعز إسماعيل، وتسلم حصن تعز وغيره من البلاد، وفقد ثقته بمماليك أبيه، وخشى بأسهم، وانتزاع الحكم منه، لذلك قتل عدداً منهم، وزحف إلى صنعاء، وقبض على أبو ريا، وقتله سنة ٥٩٤هـ[3].

ولما أعلن الملك المعز أنه أمير المؤمنين؛ وادعى الانتماء إلى بنى أمية، استنكر أعمامه فى مصر مزاعمه. وخشى أن يتمرد عليه مماليك أبيه، فاشتد عليهم، ففروا منه، ومن بينهم الأنابك سنقر، ولما توفى المسعود سنة ٥٩٨هـ عاد سنقر إلى تهامة وأحسن الأمراء والجند استقباله، وجعلوه أتابكا للملك الناصر بن سيف الإسلام، وهو يومئذ طفل صغير، وحكم سنقر البلاد، وبذلك خضعت اليمن لمملوك تركى، وقد شيد هذا الأتابك مدرسة فى زبيد، وظل سنقر يحكم اليمن حتى وفاته بحصن تعز سنة ٦٠٧[4].

وكان مماليك الملك الناصر بن أيوب من الوفاء له، بحيث إنه لما اتهم وزيره غازى بن جبريل بدس السم له وقتله، لم يتغاضوا عن هذه الجريمة النكراء، فهاجموا بيت غازى بن جبريل، وقتلوه بعد ستة أشهر من قتل سيدهم[5] وبذلك أخذوا الثأر له.

---

(١) تاريخ ابن المجاور ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦.

(٣) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٧٦.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٧٧ – ٧٨.

(٥) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٦٨.

وكان الرقيق يجلب إلى اليمن من بلاد الهند والسند والترك وغيرها من طريق عدن، وقد وصف لنا ابن المجاور[1] طريقة بيع الجوارى فى عدن، فتتبخر الجارية وتتطيب، وتعدل، ويشد وسطها بمئزر، ويأخذ المنادى بيدها ويدور بها فى السوق وينادى عليها، ويحضر المشترون، ويفحصونها جيداً، فإذا اشتراها، واتضح أن بها عيبا، طلب من الحاكم أن يعيدها إلى صاحبها، فإذا لم يقتنع الحاكم بالعيب، رفض إعادتها وإذا اقتنع أعادها إلى صاحبها، ورد الثمن إلى صاحبه.

كما ازدهرت تجارة الرقيق المستورد من أفريقية الشرقية فى منطقة تهامة حتى أن إحدى بلدان اليمن الصغيرة سميت باسم «بيت العبيد».

أهل الذمة[2].

لما ظهر الإسلام، كان فى بلاد اليمن مسيحيون ويهود، أما اليهود فقد قدموا إلى بلاد اليمن، فى القرن الأول الميلادى، حينما اضطهدهم الرومان فى فلسطين ودمروا بيت المقدس سنة ٧٠م ومزقوا اليهود فى هذه المدينة كل ممزق، وفروا إلى البلاد المختلفة، ولجأ فريق منهم إلى الجزيرة العربية، واستقر فى اليمن، وكانوا يحظون بعطف الفرس أعداء الرومان، وشكل اليهود فى اليمن جاليات لها طابعها الخاص، وقد اشتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة، ولم ينسوا فى مهجرهم تنكيل الرومان بهم وبقومهم، فتعرضوا لتجارتهم الآتية من الهند فى الطريق إلى الحبشة ومصر، وانتشرت اليهودية فى اليمن، حتى اعتنقها بعض ملوك حمير. والمعروف أن ملك حمير- تبان أسعد أبا كرب - أول ملك حميرى اعتنق اليهودية ومن أبنائه ذو نواس الحميرى الذى اضطهد النصارى.

أما المسيحية فى بلاد اليمن فقد دخلتها على يد بعض الرسل السوريين، وأول من بشر بها فى اليمن، بعثة من الرسل برئاسة ثيوفلس، أوفدها الإمبراطور البيزنطى قسطنطين سنة ٣٥٦م، وقد استطاعت هذه البعثة ضم فريق من اليمانية إلى المسيحية، واستطاع ثيوفلس إقامة ثلاث كنائس فى ظفار وعدن وعلى مدخل الخليج العربى، وكان الإمبراطور البيزنطى حريصاً على إيجاد جالية يمنية تدين بالمسيحية حتى يتمكن من خلالها من توطيد نفوذه فى اليمن، والحيلولة دون سيطرة الفرس عليها، وتيسير مرور تجارة الروم عبر البحر الأحمر[3].

---

(١) تاريخ ابن المجاور: ص ١٤٥.

(٢) Hitti: Hist. of The Arabs p.61

(٣) Hitti: Hist of The Arabs. p.62

وكانت نجران أكبر معقل للمسيحية فى بلاد اليمن، وقد انتقلت إليها عن طريق قس سورى، يسمى فيميون حوالى سنة ٥٠٠م، وهو منوفستى المذهب، أسس بها كنيسة كبيرة، وأقام بنو عبد الدار بن الديان الحارثى كنيسة على غرار الكعبة، وأسماها كنيسة نجران[١].

ويقول الأعشى فى كعبة نجران:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابهـا

نزور يزيدا وعبد المسـيح وقيسا هم خير أربابها

وكان الأعشى يجالس أساقفة نجران، ويأخذ عنهم الحكمة[٢].

شكل النصارى فى نجران جالية مستقلة فى تنظيم شئونها الداخلية وعلاقتها الخارجية، وتتألف حكومتهم من السيد والعاقب والأسقف؛ أما السيد صاحب رحلتهم فمسئول عن تسيير القوافل التجارية، وتنظيمها والإشراف على علاقة جاليته بالقبائل العربية وحكومة صنعاء، ويتولى العاقب إدارة السياسة الداخلية للجالية ومباشرتها، ويقوم الأسقف بمباشرة الشئون الدينية، ويشارك فى السياسة الداخلية والخارجية للجالية، ولا يصدر حكما، ولا تنفذ سياسة داخلية أو خارجية إلا بموافقته.

ولم تنتشر المسيحية فى بلاد اليمن إلا فى قلة من الناس، بدليل أن الكتاب المقدس لم يترجم إلى العربية فى عصر ما قبل الإسلام، وترجم إلى لغات البلاد التى انتشرت فيها المسيحية. وليس ثمة ما ينهض دليلا على أن الكنائس اليمنية استخدمت اللغة العربية، ويغلب على الظن أنها استخدمت السريانية أو العبرية. ومهما يكن من أمر فقد كان باليمن أربع كنائس قبل الإسلام فى ظفار وعدن وعلى مدخل الخليج العربى وفى نجران[٣].

اشتد التنافس والجدل بين اليهود والنصارى فى اليمن قبل الإسلام، كل يقلل من شأن دين الفريق الآخر، ويدعوه إلى الدخول فى دينه، فكان أسقف كنيسة ظفار ويدعى جرجنتيوس يدعو الحميريين إلى المسيحية، وكتب فى ذلك رسائل كثيرة[٤].

---

(١) Philby: Th.e Backgrounm of Islam: p.122

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٨ ص ٢٦٢.

(٣) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب ص ٩٤ - ٩٧.

(٤) لويس شيخون: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ٤٦.

ظل المسيحيون واليهود فى اليمن يشكلون أقلية متنافسة فى المجتمع اليمنى حتى ظهور الإسلام، وأقبلت الوفود اليمنية على الرسول ﷺ، معلنة دخولها فى الإسلام، وقدم وفد نصارى نجران على الرسول وعليهم ثياب الحيرة وأردية حريرية، فأعرض عنهم النبى، استنكاراً لما يرتدون، فارتدوا زى الرهبان: وقدموا إلى الرسول فاستقبلهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، ودخل معهم النبى فى حوار دينى[1] فأبقاهم الرسول على دينهم لأنه «لا إكراه فى الدين» وصالحهم على ألفى حلة، وكل حلة أوقية من الأواقى، ألف فى رجب وألف فى صفر، ثمن كل حلة أربعون درهما، وعلى أن يضيفوا رسل الرسول شهراً فما دونه، كما صالحوه على أن يؤدوا له ثلاثين درعا وثلاثين رمحاً، وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً، وتعهد الرسول بألا يندبهم للحروب ولا يأخذ منهم عشر أموالهم، ولأهل نجران جوار الله وذمة محمد على ألا يتعاملوا بالربا، على أن السيد والعاقب أسلما بعد قليل، وظل نصارى نجران على عهدهم مع النبى ﷺ حتى وفاته.

ولما انتدب الرسول الكريم معاذ بن جبل إلى اليمن، لتفقيه الناس فى الدين والقضاء بينهم، أوصى معاذ بأهل الكتاب خيرا وقال: «إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة فإن هم أطاعوك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم؛ وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك، فخذ منهم «وإياك وكرائم أموالهم»[2].

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ أمر بأن يدعى أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن قبلوا الإسلام، فعليهم الالتزام بأوامره ونواهيه، وإن بقوا على دينهم، فالإسلام يكفل لهم الحياة الحرة الكريمة فى كنف دولته بشرط أدائهم الجزية؛ وطلب الرسول من معاذ أن يدخل مع المسيحيين فى حوار بناء، ويقارعهم الحجة بالحجة، وإذا سألوه عن مفاتيح الجنة، يجيب بأنها شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له[3] فمن أقام على دينه وأقر بالجزية ترك ودينه، وله ذمة الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين، لا يقتل ولا يسبى ولا يكلف إلا طاقته ولا يفتتن لترك دينه والله له بالمرصاد، فمن أبى فليقاتل حتى يقر بما يدعى

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير: جـ٢ ص ١٢٩.

(٢) الأكوع: الوثائق السياسية اليمنية ص ١٢٧.

(٣) الأكوع: الوثائق السياسية ص ١٢٨.

إليه أو يقتل فإن أصبتموه وماله وذريته فما غنمتم من ذلك، فادفعوا خمسه لله، وما أفاء الله على رسوله ﷺ ممن لم يقاتلكم وأقر بالجزية، فاجعلوه فيئا لله مع الخمس: يوضع حيث أمر الله تعالى «لئلا يكون ما أفاء الله عليكم دولة بين الأغنياء منكم»[1].

بعث الرسول ﷺ عهداً إلى نصارى نجران يتضمن تأمينهم على أموالهم وكنائسهم، ومما جاء فيه: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته... ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين»[2].

وقد حدد الرسول ﷺ الجزية على أهل الذمة بدينار واحد فقط فى السنة، فقال: «ومن أسلم من يهودى أو نصرانى فله ما للمسلم وعليه ما على المسلم، ومن أبى فعليه الجزية على كل حالم من ذكر أو أنثى حراً أو عبداً دينار واحد، كما حدد الرسول عليهم الخراج، يدفع مرتين فى السنة، مرة فى شهر صفر وأخرى فى رجب[3].

وظل أهل الذمة فى اليمن، يؤدون الجزية، كما قررها الرسول ديناراً واحدا أو ما يعادله، وكذلك فى عهد أبى بكر الصديق، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة قسم أهل الذمة إلى ثلاث طبقات، تؤدى الطبقة العليا، أربعة دنانير، والوسطى دينارين، والدنيا ديناراً واحدا، وكان ذلك فى أوائل عهد عمر بن الخطاب، ولكن علم عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه الذى توفى به: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان» فأجلى عمر بن الخطاب النصارى عن نجران واشترى عقاراتهم وأراضيهم[4]، وكان نصارى نجران قد أساءوا إلى المسلمين، وتعاملوا معهم بالربا، فخافهم عمر على الإسلام، فأجلاهم وكتب لهم: «فمن وقعوا من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض، وما اعتملوا من شئ فهو لهم، مكان أرضهم باليمن، فغادروا اليمن، واستقر بعضهم فى الشام، والبعض الآخر فى النجرانية بناحية الكوفة، وبهم سميت.

(١) الأكوع: الوثائق السياسية ص ١٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٩٣.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٧٣.

وجدير بالذكر أن عدد نصارى نجران بلغ أربعين ألفا[1] «ولم يجل عمر بن الخطاب من اليمن إلا نصارى نجران فقط، لأنه خشي على المسلمين من سطوتهم وثروتهم. أما باقى أهل الذمة فى اليمن من النصارى غير النجرانيين واليهود، فقد ظلوا فى اليمن يزاولون أعمالهم فى بلاد اليمن بحرية كاملة وفى أمن واطمئنان، وبقى فى اليمن مجوس من بقايا الحكم الفارسى، وعاملهم المسلمون معاملة أهل الذمة.

على أن نصارى نجران الذين هاجروا من بلاد اليمن، سرعان ما عادوا إليها– وهم من بنى الحارث– فى أواسط العصر العباسى، وامتلكوا الضياع واشتغلوا بالتجارة وكونوا الثروات الكبيرة.

ولما سيطر الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين على صعدة، واتخذها قاعدة لدولته الزيدية، أعاد الجزية على نصارى نجران كما سنها عمر بن الخطاب، وأعفى من أدائها كل من يمتلك أقل من خمسة دنانير، وأقر الضياع التى ملكها النصارى واليهود فى أيديهم إذا كانت قد آلت إليهم بالوراثة. أما الذى اشترى أرضاً من المسلمين فليأخذ ثمنها، ويردها إلى المسلمين، لأنهم لو انطلقوا فى شراء أرض المسلمين لبطلت أعشار المسلمين وأموالهم[2].

كانت العلاقات بين نصارى نجران واليمانية المسلمين تتدهور من وقت لآخر، من ذلك الفتنة الخطيرة التى نشبت بين نصارى نجران والمسلمين، فسار الهادى سنة ٢٨٤هـ إلى نجران فى عسكر كثيف لقمع الفتنة وإعادة الهدوء والسكينة إلى الإقليم، وأكرم أهل نجران وفادته، وتطلعوا إليه لتخليصهم من الفتنة التى أنهكتهم، وما تسببت فيه من قتل الرجال وذهاب الأموال وانقطاع الطرق وهتك الأعراض وخراب المنازل والديار، وشكا إليه بنو الحارث من المنازعات الطاحنة بينهم وبين همدان، فأنهى الإمام النزاع ورد المظالم، وتصالحت الأطراف المتنازعة، فاطمأن أهل نجران، وأمنوا وعادوا إلى ضياعهم، وأمر كل من اغتصب مالا من خصمه برده إليه[3].

ولما اطلع الهادى على أحوال أهل الذمة مباشرة، لاحظ أنهم اشتروا أراضى كثيرة من المسلمين، وامتلكوها، وصار ما امتلكوه لا عشر عليه لأنه لا زكاة على الذميين، وبذلك انكسر على المسلمين مورداً مالياً كبيراً، وهو العشر الذى كان ينتفع به المحتاجون، فلم يقبل

---

(١) الأكوع: الوثائق السياسية ص ١٧٧.

(٢) على بن محمد العباسى: سيرة الهادى إلى الحق الإمام يحيى بن الحسين ص ٤٨.

(٣) على بن محمد العباسى: سيرة الهادى إلى الحق الإمام يحيى بن الحسين ص ٤٨.

الإمام هذا الوضع، فاجتمع بأهل الذمة واستشارهم فى رد أراضيهم إلى المسلمين التى اشتروها فى ظل الإسلام، فغضبوا. هنا رفض الإمام أن يقرر عليهم العشر: حتى لا يتساووا بالمسلمين، لأنه لا زكاة على الذميين، لذلك عقد صلحاً بين المسلمين والذميين، يملك به الذميون، ما شاءوا، ويقيمون على ما أرادوا من أموال المسلمين، وفرض على أرضهم ضريبة التسع فيما سقى سيحاً أو بماء السماء، ونصف التسع فيما سقى بالدلو أو بمشقة بصفة عامة. ورضى لذلك الذميون، وأجاز لهم بذلك شراء ما أحبوا من أراضى المسلمين بشرط تأدية ضريبة التسع أو نصف التسع[1] «وبذلك وضع الإمام حلا عادلا لهذه المشكلة فلم يغضبهم بانتزاع الأرض منهم» كما أنه ضمن فى مقابل ذلك حق المسلمين فى الأراضى التى كانت لهم. بأن جعل عليهم التسع أو نصف التسع.

كما قرر الإمام الهادى الجزية على أهل الذمة، وقسمهم إلى ثلاث فئات تدفع كل فئة جزية محددة كما أمر عمر بن الخطاب، وأعفى من أداء الجزية النساء والمماليك والصبيان وذوى العاهات والشيوخ، وكتب عهدا بما على الذميين من واجبات ومالهم من حقوق، واشترط عليهم أن يعملوا بهذا الصلح حقناً لدمائهم، وتضمن هذا الصلح حرص المسلمين على عدم التعرض لهم أو ظلمهم، وأشهد على هذا الصلح جمعاً من نصارى نجران وجمعا من المسلمين سنة ٢٨٤هـ[2]، وظل الذميون يؤدون الجزية طبقاً للقاعدة الإسلامية، ويؤدون التسع أو نصفه على أرضهم، كما اتفق معهم الإمام.

وذكر ابن المجاور[3] أن أهل نجران ينقسمون ثلاثة أقسام، ثلث يهود وثلث نصارى وثلث مسلمون[4]، وذكر الهمدانى أن بجزيرة سقطرى عشرة آلاف نصرانى، وملك اليهود والنصارى الضياع والآبار[5]، واشتغلوا بالأعمال التى تدر عليهم الربح الوفير. وكانت معاملة المسلمين لهم تنم عن العدل والتسامح والكرم.

(١) على بن محمد العباسى: سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٧٧.

(٢) على بن محمد العباسى: سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٧٧.

(٣) تاريخ ابن المجاور ص ٣٠٩.

(٤) صفة جزيرة العرب ص ٧٠.

(٥) تاريخ ابن المجاور ص ١٣١.

والمظهر الذى كان عليه أهل الذمة فى اليمن يتضح لنا من كتاب الرشيد إلى القاضى هشام بن يوسف الأبناوى؛ كتب إليه «ألا يدعو نصرانياً ليتشبه بالمسلمين في زيهم، ولا يركبوا على سروجهم وأن يمنعوهم من لبس الأقبية ويأخذوهم بجز النواصى وعقد الزنانير، وأن يحملوا اليهود على عقد العمائر، وأهل كل دين على زيهم الذى كانوا عليه»[1].

---

(١) الأكوع: الوثائق السياسية اليمنية ص ٢١٥.

المرأة اليمنية وأثرها فى الحياة الاجتماعية

رفع الإسلام من مكانة المرأة، ونقلها من ذل الجاهلية ومن العبودية التى كانت ترزح تحت نيرها إلى حياة نعمت فيها بالكرامة والحرية، وسوى الإسلام بينها وبين الرجل فى الحقوق والواجبات، وكان الزواج قبل الإسلام يخضع لقانون مجحف بالمرأة، فالرجل يتزوج المرأة كرهاً دون رأيها، ولا يمهر لها مهراً، ويطلقها دون حقوق لها، وانتشر الفساد والعلاقات غير المشروعة، كانت المرأة ضحيتها، وترتب على ذلك اختلاط الأنساب وشيوع الفساد والبغاء، فمنع الإسلام العلاقات الفاسدة، ووضع نظاما دقيقاً ومحكما للزواج، حفظ فيه المرأة والرجل من الانحراف، ويكفل التناسل بطريق حلال.

جاءت أحكام الشريعة الإسلامية لتضع الرجل والمرأة فى سياج واحد، وسوى بينهما فى الحقوق والواجبات. قال تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها».

عدلت الشريعة الإسلامية من وضع المرأة، فمنعت ما كانت تتعرض له النساء من قسوة الرجال، وحرر إنسانية المرأة روحا وجسداً، وأتاحت لها فرصة التزود بالعلم والمعرفة، وكفلت لها حقوقها المالية. وربطتها برسالة الأمة ودعوتها العامة، فالمرأة فى السلم والحرب عنصر فعال، وفى مجال تعاليم الإسلام، لا يقل وعى المرأة عن الرجل بأمور الدين والدنيا معاً.

ولقد بين القرآن الكريم المساواة بين المرأة والرجل، والتباين بينهما يكون بالأعمال وما يحسنه كل منهما. قال تعالى (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) والقرآن الكريم قد رسم الخطوط العامة التى يشترك فيها الرجل والمرأة والتى يتضح منها أن وضع المرأة بصفة عامة هو من نوع وضع الرجل، وأن الوضعين يشكلان الوضع العام للحياة فى مسئولياتها، وواجباتها وحقوقها[1].

كانت المرأة اليمنية قبل الإسلام ممتهنة وليس لها حقوق، فلما جاء الإسلام رفع من شأنها، وسوى بينها وبين الرجل- كما ذكرنا- إلا أنها عاشت بعد الإسلام- كما كانت

---

(١) انظر مكانة المرأة فى الإسلام للدكتور محمود عبد المجيد أبو زيد.

من قبل- فى عزلة عن الحياة الاجتماعية، واقتصر اهتمامها على تحمل أعباء الأسرة، وشاركت زوجها فى بعض مجالات العمل كالزراعة وتربية الماشية.

على أن بعض النساء اليمنيات تخطين هذا الستار من العزلة، وشاركن الرجل فى الحياة السياسية، واشتغلن بالعلم والمعرفة، ومن هنا برزت نساء كثيرات فى بلاد اليمن فى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

ومن النساء اللائي لعبن دوراً بارزاً فى الحياة السياسية فى بلاد اليمن، هند أخت أبى الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد- أمير زبيد- فلما توفى سنة ٣٩١هـ خلفه طفل اسمه عبد الله، وقيل زياد، وقيل إبراهيم، فكفلته عمته هند، وتحملت مسئولياتها فى الحكم كوصية على ابن أخيها، واستعانت فى إدارة شئون الدولة بموالى بنى زياد، وهم رشيد والحسين بن سلامه، ومرجان، وهذا الأخير استعان فى إدارة شئون البلاد- كما أسلفنا- بنفيس ونجاح، وكانت المرأة الزيادية- الوصية على الطفل- تبغض نفيس، وتفضل نجاحاً، لأن نفيس استحوذ على أمور الدولة دونها؛ لذلك استعانت بنجاح ليخلصها من نفيس حتى تسترد سلطانها ونفوذها فى الدولة، ولكن مرجان اكتشف هذه المؤامرة، وخشى أن تبعد هذه المرأة العبيد عن السلطة فتخلص منها ومن ابن أخيها، وكان ذلك سبباً فى زوال دولة بنى زياد[١].

على أننا نلاحظ أن نساء بنى الصليحى تميزن بقوة البأس وفرض المساواة بينهن وبين الرجال، وتجلى ذلك فى نشاط زعيمات البيت الصليحى فى الحياة العامة، ونذكر هنا، الملكة أسماء، فقد أحبها ابن عمها- على بن محمد الصليحى- واعتزم الزواج منها، فقصدها فى زبيد، فاشتط أبوها عليه فى المهر، وقالت أمها: لا تزوجها إلا لبعض ملوك همدان، فأمده رجل من أهل المعروف والخير بمال جزيل، أدى به الصليحى ما طلب منه من مهر، وجهاز يتناسب مع مقامها، وكانت أسماء قليلة النظير فى الجمال، أديبة عاقلة، تقدر الشعراء والأدباء، وتغدق عليهم بسخاء، وتصلهم بالجوائز السنية، كثيرة الصلات فى سبيل الله وفى سبيل المروءة والخير، وفيها يقول الشاعر:

وسنت فى السـماح سنة جود   لم تدع من معالم البخل رسما[٢]

---

(١) عمارة: تاريخ اليمن ص ٤٤.

عمارة: تاريخ اليمن ص ٤٤.

(٢) عمارة: تاريخ اليمن ص ٤٧.

ومما يدل على قوة نفوذ الملكة أسماء فى الدولة الصليحية، وفى سياسة الدولة عموماً أن على بن محمد الصليحى- زوجها- لما آلت إليه زبيد وتهامة بعد تخلصه من نجاح، أقسم ألا يوليها إلا لمن وزن له مائة ألف دينار؛ واعتزمت أسماء تولية أخيها؛ أسعد بن شهاب فقدمت لزوجها على الصليحى المال الذى طلبه، فقال لها زوجها: يامولاتنا أنى لك هذا. فقالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فأدرك أن هذا المال من خزانته، فاستلمه وقال. هذه بضاعتنا ردت إلينا. وعهد إليه بحكم تهامة[1].

والملكة أسماء أول امرأة فى تاريخ اليمن، بل وفى تاريخ الإسلام عموماً يخطب لها على المنابر؛ فكان يخطب أولا للمستنصر ثم لعلى الصليحى ثم لأسماء، فيقال: «اللهم فأدم أيام الحرة السديدة كافلة المؤمنين»[2].

بلغ من ثقة زوجها بها وتقديره لها أن أذن لها بمشاركته فى إدارة شئون الدولة؛ وكانت تقدم له المشورة المخلصة والرأى السديد، لذلك أجلها إجلالا عظيما، وإذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين[3]. وبذلك حطمت الحجب التى فرضت على المرأة فى ذلك العصر.

ظلت أسماء تشارك زوجها فى شؤون الحكم وإدارة البلاد، حتى تعرضت لمحنة مروعة سنة ٤٥٩هـ، حيث قتل سعيد الأحول زوجها فى طريقه إلى مكة المكرمة، وأسر الملكة أسماء فى زبيد، وأسرها فى غرفة لمدة سنة، وركز فى طاقتها رأس زوجها وأخيه. وقاست أسماء فى هذا المعتقل الشئ الكثير. ومن الصعب الاتصال بابنها، ولكنها احتالت فى إيصال كتاب منها إلى المكرم فى رغيف وأعطته لسائل ضعيف، فأوصله إلى المكرم، وقد استثارت ابنها فى هذا الخطاب، ولم يجد مفراً من الإسراع لإنقاذ أمه مهما كانت التضحيات والشدائد[4]، فجمع أنصاره، وقرأ عليهم كتاب أسماء فضجوا بالبكاء، وثارت الحفائظ، وسار المكرم على رأسهم إلى زبيد، وفى الطريق انضم إليهم كثيرون، لأنهم يعرفون قدر هذه الملكة ومكانتها، ولما بلغ المكرم زبيد، ألقى فى جنده خطابا ألهب فيه مشاعرهم وقال: فأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم، لأنكم توغلتم عليه خلسة، وإنما هو الموت أو العار بفرار

(١) المصدر السابق ص ٥٢.

(٢) ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ١٢ ص ٨.

(٣) الأزدى: الدولة المنقطعة ورقة ٦٩.

(٤) عمارة: تاريخ اليمن ص ٥٥ - ٥٦.

لا يجدى. واستولى المكرم على زبيد، وأسرع إلى معتقل والدته، واعتذر لها عن تأخره فى إنقاذها، فقالت له: «من كان مجيئه كمجيئك فما أبطأ ولا أخطأ» وعادت أسماء إلى صنعاء، واستقرت بها حتى وفاتها سنة ٤٦٧هـ.[١].

وفى ذلك يقول الشاعر:

أوبة أسـماء إلى قصـرها	بعـد فراق الملك الأوحد
وبعد عوصاء الخطوب التى	رمت بنى قحطان بالمؤيد
كرجعة الشـمس قد جنها	دجن وسربان دجى أسود

ومن أبرز وأشهر سيدات اليمن، سيدة بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحى، وهى الملكة أروى المعروفة، ولدت سنة ٤٤٠هـ، وتولت أسماء بنت شهاب تأديبها وتهذيبها، ويقال إنها قالت لأسماء يوماً: رأيت البارحة كأن بيدى مكنسة وأنا أكنس قصر مولانا، فقالت لها أسماء: كأنى بك والله ياحميراء وقد كنست آل الصليحى، وملكت أمرهم. ومهما يكن من أمر فقد ثقفت أروى ثقافة واسعة وحفظت الأشعار والأخبار والتواريخ[٢]. وقد لمس على بن محمد الصليحى مواهبها وفطنتها، ويقال إنه قال لأسماء: أكرميها فهى والله كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر على من بقى منا[٣]. ومما يدل على سعة ثقافتها أن لها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على سعة ثقافتها، وعمق دراستها، وكان يقال لها بلقيس الصغرى، تمييزاً لها عن بلقيس الكبرى التى ملكت صنعاء فى التاريخ القديم، وكانت متبحرة فى علم التنزيل والتأويل والحديث الثابت عن الرسول والأئمة، وكان الدعاة يتلقون أصول الدعوة منها مباشرة[٤].

تزوجت الملكة أروى من الأمير المكرم أحمد ولى العهد سنة ٤٥٨هـ، وعمرها يقرب من ثمانى عشرة سنة، وأصدقها الصليحى عدن حين زوجها لابنه، ومازالت ضرائب عدن تئول إليها منذ زواجها، وتقدر بمائة ألف دينار وتزيد أو تنقص[٥].

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨ – ٥٩.

(٢) عمارة: تاريخ اليمن ص ٥٨ – ٥٩.

(٣) المصدر السابق ص ٦١.

(٤) عيون جـ٧ ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٥) عمارة: تاريخ اليمن ص ٤٩.

تحملت الملكة أروى مع زوجها مسئولية حكم الدولة، وقد فوض أمورا كثيرة لها، وتفرغت تماما لشؤون الحكم، واستعفته فى نفسها، وقالت: «إن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير، فدعنى وما أنا بصدده[1]».

ومما يدل على مدى تأثيرها ونفوذها فى الدولة، أنها هى التى أشارت على زوجها بنقل حاضرة الدولة من صنعاء إلى ذى جبلة، ولما رفض قالت له: أرسل إلى أهل صنعاء فليحشدوا فى غد، ليحضروا إلى هذا الميدان، فاحتشدوا فى الميدان، وهم مدججون بالسلاح، ولما توجهت إلى ذى جبلة، طلبت من المكرم أن يحشد أهل ذى جبلة ومن حولها، فاجتمعوا حاملين الهدايا إلى السلطان. وبذلك أثبتت عمليا أن العيش أفضل بين أهل ذى جبلة، لأنهم يؤثرون السلم، ويميلون إلى الموادعة، أما أهل صنعاء فميالون إلى إثارة الفتن والاضطرابات[2]. وبذلك اتخذ المكرم ذى جبلة حاضرة لدولته وشيدت الملكة أروى فيها، المسجد الجامع، واعتكف المكرم فى حصن التعكر لمرضه، وبقيت الملكة أروى فى ذى جبلة تدير أمور الدولة.

وجدير بالذكر أن الملكة أروى دبرت مقتل سعيد الأحول انتقاما لقتله على الصليحى وأخاه، وانتقمت للسيدة أسماء أيضا بأن أمرت بنصب رأس سعيد الأحول تحت الطاقة المعتقلة فيها أرملة سعيد الأحول وتسمى أم المعارك، وهنا شعرت أروى أنها أخذت بثأر على الصليحى وأسماء، وقالت: ليت لك عينا يامولاتنا حتى تنظرى رأس الأحول تحت طاقة أم المعارك. وتمنت الحرة بذلك لو كانت أسماء على قيد الحياة لترى ما حل بها على أيدى سعيد، قد حل بزوجته أم المعارك[3].

أوصى المكرم قبل وفاته سنة ٤٧٧هـ بالدعوة إلى الأمير أبى حمير سبأ بن أحمد المظفر بن على الصليحى، ولكن الملكة أروى اعتزمت التصدى لأبى حمير سبأ، وعدم تمكينه من بسط نفوذه على اليمن حتى تظل مستحوذة على السلطة والنفوذ فى الدولة، ورفضت عرض أبى حمير سبأ بالتزوج منها، كحل لمشكلة النزاع حول السلطة، واشتد الخلاف بينهما، وتنازعا، وسار من أشيح يريد حربها فى ذى جبلة[4] وانتهى النزاع بزواجه

(١) المصدر السابق ص ٦٢.

(٢) عمارة: تاريخ اليمن ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق ص ٦٤.

(٤) المصدر السابق ص ٦٧.

منها بأمر الخليفة المستنصر، ولكنها ظلت تستبد بالملك، وهو يعمل بناء على تعليماتها وأوامرها.

ولما توفى الخليفة المستنصر، وانقسمت الدعوة الإسماعيلية إلى مستعلية ونزارية أيدت الخليفة المستعلى، ورفضت الدعوة النزارية. ولكنها رفضت ما حدث من تلاعب بعد مقتل الخليفة الآمر. وهو تجاهل إمامة الطيب، وانشقت منذ ذلك الحين على الحكم الفاطمى فى مصر، وأقامت الدعوة باسم الإمام الطيب.

حكمت الملكة أروى بلاد اليمن حكما مستنيراً، وسعت إلى تنمية اقتصاد البلاد، ورفع مستوى المعيشة. فاهتمت برعى الماشية، وتحسين النسل، لكى توفر لشعبها متطلباته من اللحوم والألبان، وأقطعت أراضى واسعة لرعى البقر فيها، ومهدت الطرق لتيسير سبل التجارة واهتمت بالتعليم، وأنشأت الكثير من المدارس والمساجد، ووسعت جامع صنعاء، ويقال أنها أمرت أن يكتب فيه جميع أسماء الأئمة من على بن أبى طالب إلى إمام عصرها فى الحائط القبلى من المسجد الجامع، وشيدت مسجد الضربة فى بلاد يريم، والمسجد الجامع فى ذى جبلة[1]، ولما احتاجت إلى من يعاونها فى إدارة شئون الدولة بعد وفاة الدعاة المخلصين، استدعت من مصر ابن نجيب الدولة.

أوصت الملكة أروى سنة ٥٣٢ هـ بثروتها للإمام الطيب، وأمرت السلطان أحمد ابن الحسين بن إبراهيم بن محمد الصيلحى، بأن يقوم بتنفيذ ما تضمنته الوصية ويوصلها بجملتها إلى باب الإمام الطيب، ويأخذ عليه الخط الشريف الإمامى بوصول جميع ذلك[2]. ومما يدل على ما تركته الملكة من أثر طيب فى نفوس أهل اليمن، أن ذكراها ظلت فى الأذهان ردحا من الزمن، فكان قبرها يزوره كثير من المسلمين، ويعترف بفضلها الخاص والعام، ويأتى إلى قبرها من وقع عليه ظلم، أو ألم به مرض، فيتقربون إلى الله بزيارة قبرها.

عرف عن نساء الصليحيات- كما أسلفنا- الكفاءة والمقدرة وشدة البأس، فكانت فاطمة بنت الملكة أروى زوجة لعلى بن السلطان سبأ بن أحمد الصيلحى، فتزوج عليها فرفضت ذلك، واستنجدت بأمها، فأمدتها بالمفضل بن أبى بركات فى عدد من الجند،

(١) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق.

وتزيت فاطمة بزى الرجال «وانضمت إلى عسكر المفضل» واشتركت معه فى محاربة زوجها، وانتهى النزاع بالتخلص منه نهائياً سنة ٤٩٥هـ[١].

ومن نساء اليمن البارزات، السيدة علم، وكانت جارية لأنيس الفاتكى- وزير آل نجاح- وآلت إلى المنصور، وأنجب منها فاتكا، وكانت صالحة ورعة، تحج بأهل اليمن براً وبحرا[٢]، وهى من أهل الفضل والعقل والدين، وكان لها رأى صائب فى السياسة والملك، بحيث إن المنصور وأهل دولته، لا يقطعون أمراً دون مراجعتها، وكانت كثيرة الصدقات تكرم الفقهاء والعباد[٣].

انفردت علم بحكم الدولة النجاحية بعد مقتل المنصور، وحكمت باسم ابنها فاتك، واستوزرت- رزيق الفاتكى، وقادت دولة بنى نجاح فى الفترة المضطربة الأخيرة من تاريخها، وكل وزير يثبت عدم جدارة بالحكم تعزله، وتسند الوزارة لمن هو أصلح، وكان سرور آخر وزراء دولة بنى نجاح، وقد اشترته علم وربته تربية خاصة، وتدرج فى سلك المناصب حتى ولى الوزارة[٤]. وكان يؤدى مهامه بعد الرجوع إلى سيدته علم ويستشيرها فى كل صغيرة وكبيرة.

وكانت امرأة عبد النبى بن مهدى صالحة كثيرة الصدقة، لاسيما إذا حجت، فإن فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة وخيراً كثيراً ومعروفا عظيما[٥].

كذلك تحملت نساء بنى أيوب مسؤولية الحكم فى اليمن، بعد أن اضطربت البلاد وكثرت الثورات فيها، فلما تآمر غازى بن جبريل على سيده الملك الناصر، وتخلص منه سنة ٦١١هـ، لم تتغاض أم الناصر عن هذه الجريمة النكراء؛ وعولت على الثأر والانتقام، وكانت تقيم بحصن، فقبحت مماليك ولدها وحملتهم على قتل غازى بن جبريل، فقتلوه فى مدينة أب.

---

(١) عمارة: تاريخ اليمن ص ٦٩.

(٢) ابن الديبع: بغية المستفيد ٥٧.

(٣) المصدر السابق ص ٥٨.

(٤) المصدر السابق ص ٥٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

تولت أم الناصر مباشرة شئون الحكم فى اليمن، لعدم وجود أمير من البيت الأيوبى، وانتقلت إلى تعز، وأدارت شئون البلاد ستة أشهر، ثم استدعت سليمان ابن تقى الدين، وقالت له: تكون سلطانا فنحن نساء نخشى أن تطمع بنا العرب وحكم البلاد.

وقد ساهمت المرأة اليمنية بنصيب فى الحياة الثقافية، ومن نساء اليمن البارزات فى هذا المجال، صفية بنت المرتضى، اشتغلت بالعلم منذ شبابها، ودرست على يد والدها علم الفقه والأصول، وقضت كل وقتها فى العلم والبحث فيه، وبلغ من شغفها بالعلم أن نسخت بخطها كتباً كثيرة، وتزوجت بالعلامة محمد بن يحيى حتى تتعلم منه وتسير معه فى طريق البحث والدراسة، والاطلاع على علم الكلام، فى حين أخذ عنها زوجها علم النحو، الذى برزت فيه، ولقد تصدت للتدريس والفتوى والأمور العلمية ولها رسائل جيدة منها رسالة «الجواب الوجيز على صاحب التجويز» ورسالة فى نصيحة ابنتها حورية بنت محمد بن يحيى القاسمى، وكانت تناظر العلماء[1].

وكانت فاطمة بنت على بن محمد امرأة تقية ورعة عالمة، عاشت مع أخيها الناصر صلاح الدين بن محمد إمام اليمن، وظلت منهمكة فى العبادة والإصلاح الاجتماعى، ولم تكن موفقة فى حياتها الزوجية، وكان أخوها الناصر يعتمد عليها فى أمور الدولة، ويسألها النصح والمشورة، لرجاحة عقلها وسعة أفقها، وقد رثاها أحد الشعراء بعد وفاتها ووصفها بأنها أميرة المؤمنات[2].

أما دهماء بنت يحيى المرتضى، فقد عرفت بقدرتها على التأليف والتصنيف، تلقت علومها عن أخيها الهادى بن يحيى، وأخيها أحمد بن يحيى، ولها مؤلفات كثيرة منها كتاب «الأنوار فى شرح كتاب الأزهار» فى أربعة مجلدات، وكتاب شرح «منظومة الكوفى فى المواريث»، وكتاب شرح «منتهى ابن الحاجب فى الأصول»، وكتاب «الجواهرى فى علم الكلام». وقد ظلت تواصل نشر العلم فى مدينتها ثلا فلما أراد أخوها محمد بن يحيى المهدى، أن تقيم معه، توسل أهل ثلا لإبقائها عندهم. للاستفادة من علمها، وما زالوا يلحون عليه حتى قبل[3].

(١) عبد الله الحبشى: دراسات فى التراث اليمنى ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) عبد الله الحبشى: دراسات فى التراث اليمنى ص ٧٥.

(٣) الحبشى: دراسات فى التراث اليمنى ص ٧٦.

وأما فاطمة بنت أحمد بن يحيى، والدها المهدى بن يحيى المرتضى من أشهر علماء اليمن عامة، وعنه تلقت علومها، ولقد ناقشها، ووجد أنها تستنبط الأحكام الفقهية بكفاءة، وهذا يدل على علو مكانتها العلمية، وكان زوجها يرجع إليها فى حل المشكلات العلمية، وإذا أراد استشارتها فى ذلك، أطلعها على ما يريده ويخرج من عندها حاملا الحل، ويقول له أصحّابه ليس هذا من عندك، وإنما هو من خلف الستار، وأشار إليها والدها بقوله:

نســـاؤنا فاقـــت أئمـــتنا فى الفضل والتدريس والإخلاص[1]

والنساء اللاتى تحدثنا عنهن وبرزن فى المجتمع اليمنى لا يمثلن المرأة اليمنية من عامة الشعب، فلم يكن لها نشاط فى المجتمع ولا دور رئيسى فيه إنما اقتصر اهتمامها على خدمة زوجها وإنتاج النسل وشئون البيت أو مساعدة زوجها فى الزراعة أو الرعى، ومما يدل على تدهور مكانتها الاجتماعية، وضاعة مكانتها بالنسبة للرجل المثل القائل «المرأة ناقة وإن هدرت»[2].

ويقع على عاتق المرأة الريفية مشاركة زوجها فى الأعمال الزراعية الشاقة كالزراعة على مدرجات الجبال وفى قاع الوديان بوسائل بدائية شاقة، وبأمور الزراعة الأخرى كالحرث والبذر، وكذلك تربية الماشية ورعى الأغنام، وحمل المنتجات الزراعية والحيوانية إلى السوق لبيعها، وقد تعمل بالأجر فى حقول الآخرين، وأحياناً تزاول مهنة حياكة الملابس، وغزل الكوفيات والطواقى، وأحياناً بعض الصناعات التى تقوم على الخامات، أما المرأة فى المدينة، فتقضى حياتها فى البيت، وينصرف كل اهتمامها إلى حياتها العائلية.

والمرأة اليمنية تلتزم بما فرض عليها من حجاب فى العصور الإسلامية، وكان الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين إذا رأى امرأة سافرة فى الطريق أمرها بالحجاب فهو أول من أدخل البراقع فى اليمن[3].

وكان أبناء السادة أو الشيوخ أو أفراد القبائل عموماً لا يتزوجون إلا من بنات القبائل، وكانوا يرفضون الزواج من بنات أصحّاب الصناعات والحرف البسيطة كالحلاقين أو صانعى الأحذية أو غيرهم، وحينما يقع اختيار الأب على زوجة ابنه، يذهب إلى بيت العروس ومعه بعض الهدايا مثل الحلوى والعطور والبخور، وإذا كانت أسرة العروس فى قرية أخرى، يأخذون

(١) المصدر السابق ص ٧٨.

(٢) محمد سعيد العطار: اليمن الدولة والمجتمع ص ١٢٠ وما بعدها.

(٣) أحمد صبحى: الزيدية ص ١٥٥.

معهم بعض الأغنام والماعز، ويتفق والد العريس مع ولى أمر العروس على المهر والشروط التى يطلبها ويحدد القران بعد الاتفاق، وفى اليوم التالى للخطبة يرسل والد الفتى لأسرة الفتاة هدية فاكهة الموسم من الزبيب واللوز والتمر والحلوى، ويرتفع المهر بارتفاع مستوى أسرة العروس، وإذا كانت العروس مطلقة أو أرملة ينخفض مهرها، وقد تتزوج بدون مهر. وفى الغالب لا يرى العريس زوجته إلا فى ليلة الزفاف.

وعندنا إشارات حول العلاقات الاجتماعية بين النساء فيحدثنا ابن المجاور أن النساء فى تهامة كن يتبادلن الهدايا فى المناسبات من التمر أو نحوه من الفاكهة، فاذا أهدت امرأة هدية للعروس ردت إليها هدية من نفس قيمتها فى عرس مثله، وإن كان فى ختان ردت الهدية فى ختان وإن كانت فى ولادة ردت إليها فى ولادة، ولا ترد إلا فى الوجه الذى كان منه وفيه بعينه. ويكون للنساء عليها سلف، وإذا لم تستطع رده فى مناسبة مماثلة اقترضت لتسده[1].

وكان أهل ذمار يتساهلون فى الزواج قليلا، فإذا أراد رجل أن يخطب بنتاً يقول له أبوها: أقدم إلى السوق الفلانى، ستراها فيه، شاهدها فى بيعها وشرائها وجمالها وكمالها، فينتظرها العريس على قارعة الطريق، حاملة ما تريد بيعه، فتبيع ما معها، وتشترى متطلباتها، ويتتبعها العريس، وهى تقطع الجبال والأودية والشعاب والسهل والجبل واللين والوعر، فإذا أعجب الرجل حالها وجمالها وشيلها وبيعها وشراها وقوة صبرها على حمل الثقيل، عند ذلك يتزوجها، وتبقى فى عملها هذا إذا أراد[2].

عرفت بلاد اليمن الموسيقى والغناء منذ عصر ما قبل الإسلام، والموسيقى حميرى، أو حنفى، ويقول المسعودى[3] إن الثانى كان يعشقه الناس، ويقبلون على سماعه أكثر من الأول. وفى عهد بنى نجاح برع الأحباش فى الغناء والرقص والموسيقى. وبصفة عامة نستطيع أن نقول أن الغناء فى اليمن لم يتخذ الصورة النشطة التى كان عليها فى البلاد الإسلامية الأخرى. ولم نسمع عن حاكم يعقد مجالس الغناء أو يشجع المغنين والموسيقيين، واقتصر الغناء والرقص فى حفلات العرس، أو الأغانى الصوفية عند الدراويش، وحاول بعض الأئمة الزيدية كبح جماحهم، ومنعهم عن هذا اللون من الغناء الذى يرددونه فى مدح بعض الأولياء.

(١) تاريخ ابن المجاور: جـ١ ص ٨٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٩١.

(٣) المسعودى: جـ٢ ص ٥٣٦.

ويرتبط الغناء الصنعائى بالعزف على الآلات، وخصوصاً العود. وعرف أهل صنعاء الرقص على نغمات الألحان الصنعائية، وبينما نجد نساء عدن يرقصن فى مناسبات الزواج على إيقاع الطبول، تضربها عازفات من أصل زنجى، ومنها أن أقارب العريس وأصدقاءه، يرقصون، وبأيديهم السيوف المجردة والخناجر، ويرقصون رقصاً خفيفاً على قرع الطبول خارج السرادق الذى يقام مساء الاحتفال الكبير بالعرس، بينما العريس وسيفه فى غمده، يخطر جيئة وذهاباً على نغمات العود، وإلى جانبه المشرف على تنظيم الاحتفال، والمغنى فى العادة يغنى لحناً لقصيدة شعرية[1].

والناس فى اليمن كانوا يقضون أوقات فراغهم فى الاستماع إلى قصائد الشعراء، وكان للناس ولع بالشعر والنوادر والقصص التاريخية والأخبار القديمة، وقد برز فى اليمن كبار القصاص والإخباريين القدماء مثل وهب بن منبه وعبيد بن شريه[2].

كذلك كان بعض اليمانية يقضون أوقات فراغهم فى الصيد ولعب الشطرنج، وعرف عن جياش بن نجاح أنه لا يغلب فى لعب الشرنج، وكان اليمانية يستجيدون الخيل السباقى ويبذلون فى سبيلها الأموال، وكان يقام سباق الخيل بصفة خاصة فى وادى نخلة بالقرب من زبيد عقب جنى محصول النخيل.

ويقول نشوان الحميرى[3]: وليس من الناس أشد عجباً بالخيل من العرب، ولا أصلح لها، وأكثر لها ارتباطاً، وأشد لها إيثاراً، ولا أمدح لمن اتخذها وأكرمها ولم يهنها، ولذلك فضل الناس الفرس العربى، وكان العرب يؤثرون الخيول على أنفسهم وأولادهم، ويحرصون على تغذيتها والعناية بها لأنها حصونهم ومعاقلهم.

واحتفل اليمنيون بعيدى الفطر والأضحى بإظهار البهجة والسرور ويذبحون الذبائح ويتزاورون ويلبسون الثياب الجديدة. على أن بلاد اليمن انفردت دون سائر بلاد الإسلام بالاحتفال بأول جمعة فى الإسلام فى بلادهم، فالجمعة الأولى من رجب وهى الجمعة التى صلى فيها معاذ بن جبل بالناس أول جمعة فى اليمن فى تاريخها الإسلامى- عيد يحتفل به اليمانية احتفالا كيراً فيلبسون فيه فاخر الثياب، ويتبادلون الهدايا ويقيمون الولائم للأقارب والأصدقاء[4].

(١) محمد عبده غانم: شعر الغناء الصنعائى ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨.

(٣) الحور العين ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٤) الحور العين ص ٢١٩ - ٢٢٠.

العادات والأخلاق:

من دراستنا التحليلية اليمانية فى الفترة التى نتحدث عنها، يتبين لنا أن من أبرز صفاتهم التمسك بالعادات والتقاليد القبلية، وهى الأخذ بالثأر والكرم والمروءة ومناصرة أخيه فى القبيلة ظالماً أو مظلوماً، والدفاع عن كيان وشرف وممتلكات القبيلة. ومن هنا انخرط الشعب اليمنى فى حروب قبلية مريرة طوال تاريخه. والفرد الذى تطرده القبيلة لعدم الالتزام بتقاليدها أو العدوان على أفرادها، وكذلك الذى لا ينتمى إلى قبيلة يعتبر منبوذاً لا يجد من يدافع عنه أو يحميه، وتتعرض حياته وممتلكاته للخطر.

ولما كانت الحياة فى بلاد اليمن صعبة وشاقة بسبب صعوبة مسالكها، وتعقيد تضاريسها وصراعاتها القبلية التى لا تكاد تنقطع فقد لجأ بعض اليمانية إلى الزهد فى الحياة، والعيش فى تقشف، والهروب من شهوات النفس، وكان زهداً خالصا فى بادئ الأمر، ثم دخل إليه بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية إلى أقدم صورة نعرفها للتصوف الإسلامى، وكان كبار الزهاد فى بادئ الأمر من كبار علماء السنة والقراء والوعاظ.

ومما يجدر ذكره أن من عوامل ظهور الزهد فى هذا العصر المبكر استبداد ولاة الخلافة فى اليمن، واستهانة الخلفاء والولاة بأحكام الدين وازدياد التراخى بين الناس فى المسائل الخلقية، وظهور الفرق الإسلامية والصراع بينها وبين الخلافة. وهذه الفرق كان لها مبادئ تتنافى مع الإسلام، يضاف إلى ذلك أن المسيحية كان لها أثر فى الزهد الإسلامى فكان الناس فى الصحراء يلتقون بزهاد المسيحيين واليهود فى صوامعهم فى الصحراء، ويستمعون إليهم، ويتأثرون بهم، وردد الزهاد المسلمون أقوال هؤلاء الزهاد وأقاصيصهم، ومما يدل على ذلك المجموعة المعروفة بالإسرائيليات التى يقال أن وهب بن منبه قد جمعها[1]. وقد ذكر وهب ابن منبه أنه صحب راهبا سبعة أيام، ليستفيد منه شيئا، فوجده مشغولا عنه بذكر الله. وفى اليوم السابع التفت الراهب إلى وهب وقال: ياهذا قد علمت ما تريد، حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فى الدنيا رأس كل خير، وتضرع إلى ربك أن يخلصك من سحر الدنيا، وقال له: كان جدى رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء بالماء الملح يغر ولا يروى ويضر ولا ينفع وبسحاب الصيف وبظل الغمام وبزهر الربيع، ينضر ثم يصفر فتراه هشيما، وبأحلام النائم يرى السرور فإذا استيقظ لم يكن فى يده إلا الحسرة، وبالعسل المشوب بالسم

(١) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٤٧.

يفر ويفتل. وقال الراهب: لقد زدت أمراً ثامنا بعد تدبر دام سبعين سنة فشبهت الدنيا بالغول التى تهلك من أجابها، وتترك من أعرض عنها[1].

وتطور الزهد فى بلاد اليمن حتى ظهر التصوف فيها بين الكثير من الناس. والفرق بين الزهد والتصوف، أن الزاهد يترك الدنيا خوفا من الحساب والمتصوف يقبل على صفاء النفس، لتتصل بالله، فغاية الزاهدين هى السلامة، وغاية الصوفية هى الوصول، فالزاهد يخاف الدنيا لأنها قد تبعده عن الجنة، والصوفى يخاف الدنيا لأنها قد تشغله عن الله. وعلى ذلك نرى زهاداً، وصوفية فى الدين، وانتشر الزهد فى اليمن فى فجر الإسلام، أما التصوف فقد ظهر بعد الإسلام بثلاثة أو أربعة قرون بتأثير الشيعة، والرغبة بالاهتمام بدرس أسرار القلوب. ونسمع أن على بن الفضل حينما قدم إلى اليمن داعيا أظهر الزهد، ليجتذب إليه قلوب الناس. وفى العصر الأيوبى أعلن أحد الصوفية الثورة وانضم إليه الكثير من الناس، وهذا الصوفى كان إسكافيا، وأنصاره من الفقراء، وتدل ثورته التى تزعمها وقاد فيها الألوف من الناس على مدى ما كان يتمتع به الصوفية فى العصر الأيوبى من نفوذ.

واتخذ بعض الناس الصوفية شعاراً ليجذبوا إليهم الأنصار. ويضمنوا ولاءهم. من ذلك أن البيت الأيوبى لما استدعى تقى الدين سليمان إلى اليمن لحكمها، قدم إلى اليمن بلباس الصوفية، وأسماه الناس الصوفى، ولما قبض على زمام الأمور فى اليمن، تبين للناس أنه دنيوى فخاب أملهم ورجاؤهم فيه.

وجدير بالذكر أن شابا في اليمن من ذوى الثراء العريض قد زهد فى الدنيا، وترك أهله وحشمه وخدمه، وخرج سائحا على وجهه واعتزل الدنيا والناس فى عرفة حتى فاضت روحه، ودفنه أحد الزهاد ووجهه يضئ ويتلألأ نوراً، وأبلغ أمه فى اليمن بوفاته، فقالت:

يافقيدا أضحى وحيدا غريبا	ياعزيزا أمسى ذليلا كئيبا
قد هجرت الدنيا بعد أنس	وسكنت القفار فردا سليبا
وتغربت فى البلاد حزينا	انفرادا ولست تدعو مجيبا[2]

ونسب إلى الزاهدين فى اليمن الكرامات مثال ذلك ما رواه الخزرجى[3] من أن ثلاثة من الزهاد قد تنبئوا للمنصور بأن الملك سيؤول إليه، ويكون فى عقبه إلى آخر الزمان، وروى

(١) زكى مبارك: التصوف الإسلامي جـ١ ص ٢٧٤.

(٢) زكى مبارك: التصوف الإسلامى جـ١ ص ٢٨٢.

(٣) العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٥.

أن أحد الزهاد حج ولم يستطع لأسباب خارجة عن إرادته زيارة قبر الرسول، فزاره الرسول ﷺ في المنام ودعا له ولأسرته، وعاش هو وذريته في أهنأ حال[1].

٣- الحياة الثقافية

اليمنيون ورثة حضارة عريقة قديمة موغلة فى القدم. حقيقة تدهورت بلاد اليمن وانهارت فى القرون السابقة للإسلام. ولكن جذور حضارتهم ظلت تجرى فى عروقهم، وتؤثر فى نفوسهم، وفى حاجة إلى من يبعثها من جديد، ويعيد إليها الحياة ويغذيها، فجاء الإسلام، وأقبل اليمانية على اعتناقه، وأحيا فيهم الإسلام طاقاتهم الكامنة، وبفضل الإسلام عادت إلى اليمانية أصالتهم الفكرية التى جمدها الاستعمار الذى تعرضوا له، وصراع القبائل الذى شغلهم عن توجيه جهودهم للسير قدما فى ركب الحضارة. لذلك أقبل اليمانية على دراسة العلوم الدينية واللغوية بشغف شديد، وساهموا مساهمة فعالة فى ازدهار علوم الإسلام. وبرز منهم علماء كثيرون: يشار إليهم بالبنان، صنفوا المصنفات القيمة فى مختلف فروع العلم، وخصوصاً فى مجال الدراسات الدينية واللغوية، ولا أدل على ذلك من المخطوطات التى يصعب إحصاؤها والمنتشرة فى مدن اليمن وقراها، ويحافظ عليها اليمانية؛ ويحرصون على عدم تسربها، لأنهم يدركون أن أغلى ما يعتز به المواطن هو تراثه القومى. ولكن هذا الحرص قد بلغ حد المبالغة، فالأفراد أكثرهم لا يسمحون بأى حال من الأحوال لأحد بالاطلاع على هذه المخطوطات أو الاستفادة منها، الأمر الذى يجعلها حبيسة فى دورهم تحتاج إلى من ينشرها ويحققها، فتكون فى متناول الدارسين، وتضيف إلى العلم جديد؛ فيعم النفع، وتزداد الفائدة، ومع ذلك فلن يستمر هذا الأمر طويلا لأن انتشار العلم، وتقدم الفكر سيخرج هذه المخطوطات من المعتقلات لتحقق وتنشر.

* * *

والدراسات اليمنية منذ ظهور الإسلام حتى قيام دولة بنى رسول - وهى الفترة التى نتناولها بالبحث- تدور بالدرجة الأولى حول علوم الدين واللغة، أما الدراسات العلمية فى مجال علوم الطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والموسيقى والجغرافيا والفلك، فلم يكتب عنها اليمنيون إلا النزر اليسير.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩.

وجدير بالذكر أن الحاجة ظهرت إلى الاستفادة من العلوم التى توصل إليها الناس، فقسم العلماء المسلمون العلوم إلى نقلية تتصل بالقرآن الكريم، وتشمل علوم التفسير والقراءات وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبيان والشعر ويطلق عليها أحياناً العلوم الشرعية[1].

والنوع الثانى العلوم العقلية، وتشمل الفلسفة والطب وعلم الفلك وعلم النجوم والكيمياء والتاريخ والجغرافيا والموسيقى، ويطلق عليها أحياناً العلوم الحكمية أو علوم العجم أو العلوم القديمة.

والعلوم العقلية يهتدى إليها الإنسان بفكره، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها حتى يعرف الخطأ من الصواب، ويصيب الحقيقة. أما العلوم النقلية فهى مستندة إلى الخبر عن الواقع الشرعى ولا مجال فيها للعقل إلا بإلحاق الفروع من مسائلها بالأصول[2].

ونلاحظ من دراستنا للحياة الثقافية فى بلاد اليمن فى الفترة التى نتحدث عنها، اهتمام العلماء والدارسين بالعلوم النقلية أكثر بكثير من اهتمامهم بالعلوم العقلية، ونشير الآن إلى ازدهار العلوم النقلية.

(١) علوم القرآن:

وجه اليمانية منذ دخولهم فى دين الإسلام اهتماماً كبيراً لدراسة علوم القرآن، وظهر منهم علماء أجلاء كتبوا الكثير فى هذه العلوم، فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه، ونزل جملا جملا وآيات آيات، ووضح الرسول لأصحابه سبب نزول الآيات ومعانيها، فكان ذلك ينقل عن الصحابة، وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقلوا عنهم، ولم يزل متناقلا، حتى صارت المعارف علوماً، فدونت هذه الأقوال، وهذا هو التفسير بالمأثور، وكان المفسرون إذا احتاجوا شيئا عن بدء الخليقة والكون وأسرار الوجود يسألون أهل الكتاب، ويأخذون برواياتهم، فامتلأت التفاسير بالأخبار التى نقلت عنهم[3]. وقد أخطأ المفسرون الذين نقلوا هذه الأخبار فى كتبهم دون مناقشة، على الرغم من أن الكثير منها غير صحيح، وكان رائد هذا النوع من التفسير يمنيا تابعيا، يسمى كعب الأحبار، وقد ترك ديانته اليهودية واعتنق الإسلام فى

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ - ٥٤٤.

(٢) المصدر السابق ص ٥٤٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

عهد أبي بكر الصديق، وكتب وهب بن منبه في التفسير على نمط كعب الأحبار، وقد قرأ الكثير من الكتب السماوية وامتلأت كتبه بالإسرائيليات، ونقل المفسرون عن كعب الأحبار ووهب بن منبه الكثير من معلوماتهم عن الأمم الغابرة والأنبياء السابقين للرسول ﷺ. ومن كتب وهب ابن منبه «الزهر الأنيق في قصة يوسف الصديق[1]».

ظل المفسرون اليمنيون يتبعون منهج وهب بن منبه وكعب الأحبار في التفسير حتى ظهرت مدرسة الحديث في اليمن على يد معمر بن راشد الأزدي (ت ١٥٣هـ) فكتب تفسيراً يعتمد على الرواية الصحيحة عن الرسول والصحابة والتابعين، وتبعه تلاميذه، ومن أبرز المفسرين نشوان الحميري (ت ٥٧٣هـ)[2] ومن كتبه في التفسير «التبيان في تفسير القرآن»، «العدل والميزان في موافقة القرآن[3]».

ومن العلماء الأجلاء عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المعروف بصاحب الزعفرانة، جاء إلى اليمن مع أخيه الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، ومن كتبه: طبقات الزيدية الكبرى- مطلع البدور- كتاب الناسخ والمنسوخ من القرآن- كتاب تفسير القرآن[4].

كذلك وجه اليمانية عنايتهم نحو جمع الحديث النبوي وتدوينه، ومن أقدم علماء الحديث في اليمن، همام بن منبه (ت ١٣١هـ)[5] الذي روى الأحاديث عن أبي هريره، وصنف همام «الصحيفة الصحيحة» وأخذ عنه معمر بن راشد، وهو من الرواد الأوائل في جمع الحديث وتدوينه، ومن كتبه «الجامع للسنن» وهو من أقدم كتب الحديث[6] في اليمن، وكان يقيم في صنعاء، ويفد إليه الطلاب من كل البلاد، وتوفي سنة ٢١٢هـ. ومن علماء الحديث في اليمن، أبو هاشم عبد الملك بن عبد الرحمن الذماري أخذ عنه أحمد ابن حنبل والبخاري، وتوفي سنة ٢٠٠ هـ[7].

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٥ ص ١٤٣.

(٢) الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ص ١٥.

(٣) عمارة: المفيد ص ٥٧٣.

(٤) الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ص ١٥.

(٥) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ١٥.
طبقات الخواص ص ١٧٤.

(٦) طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٢٩٧.
المصدر السابق جـ٦ ص ٢٧٥.

(٧) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٦٧.

كذلك ظهرت مؤلفات قيمة فى علوم الدين، تدل على سعة معرفة مؤلفيها، الذين رحلوا إلى البلاد الإسلامية للاستفادة من شيوخ أهل العلم، وعادوا إلى بلادهم ينشرون معارفهم على الناس، ومن هؤلاء طاووس بن كيسان اليمانى، وهو من أبناء الفرس فى اليمن ارتحل إلى مكة والمدينة لطلب العلم، واستمع إلى عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس وأبى هريرة، وكان انقطاعه إلى ابن عباس فى مكة حيث صار من أخص تلاميذه، وكان من أبرز شيوخ اليمن فى الحديث والفقه، وتجاوزت شهرته اليمن إلى مكة والمدينة، أخذ عنه عمرو بن دينار والزهرى وابنه عبد الله بن طاووس، ولى قضاء صنعاء وتوفى سنة ١٠٦هـ، ويقول عنه صاحب كتاب تذكرة الحفاظ أنه شيخ أهل اليمن ومفتيهم[١].

أما عطاء بن أبى رباح، فهو من مولدى الجند، نشأ بمكة، وكان المفتى فى مواسمها، ومن أعلم الناس بالمناسك (ت ١١٥هـ)، كذلك حرص الناس على الاستفادة من عمرو بن دينار الذى توفى سنة ١٢٥ أو ١٢٧هـ[٢].

ومن أصحاب على بن أبى طالب، ومن رجال الطبقة الأولى من التابعين حجر بن قيس المدرى نسبة إلى مدرات بوادى جند، وهو الذى قصده الشافعى للأخذ منه، وكثير من علماء وطلاب اليمن والحجاز.

كذلك برز فى علم الحديث علماء أجلاء فى بلاد اليمن فى القرن الثانى الهجرى كان يقصدهم طلاب هذا العلم من كل البلاد، ومنهم معمر بن راشد البصرى- الذى أشرنا إليه- سمع عن همام بن منبه والزهرى وكتابه «الجامع المشهور فى السنن» أقدم من الموطأ، وله كتاب المغازى مرويا عن شيخه الزهرى[٣].

ومن علماء الحديث الحكم بن أبان العدنى، أخذ عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس، ولى قضاء عدن، وسمع عن شيوخ اليمن، وقصده الشيوخ والطلاب ومنهم أحمد بن حنبل[٤].

---

(١) ص ٢١٢.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ٢ ص ١٢٢.

(٣) ابن سمره: طبقات الفقهاء ص ٦٦.

(٤) المصدر السابق ٦٦.

وروى الإمام الشافعى عن محمد بن خالد الجندى[1]، وكذلك عن عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعائى الحميرى، أخذ عن معمر والثورى وابن جريج وغيرهم من الحفاظ وارتحل إليه إسحاق بن راهويه، وغيره، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل، وله مصنف قيم يرويه الحنابلة فى بغداد مسنداً إلى أحمد، وتوفى سنة ٢١٢هـ[2].

أما موسى بن طارق اللحجى، فكان عالما بعلوم القرآن، له كتاب «الجامع المشهور» وله دراسات قرآنية اقتبسها من الإمام مالك والإمام أبى حنيفة ومعمر وابن جريج وسفيان الثورى، وقد استفاد من أساتذته مثل القارئ نافع بن أبى نعيم المدنى- أحد السبعة القراء- وكان يتردد للتدريس بين لحج وعدن ومكة وزبيد، وترك تلاميذ فى كل هذه البلاد، وله آثار طيبة فيها[3].

ومن المصنفين المعروفين، محمد بن إبراهيم الشعبى الجندى، له تصانيف قيمة رواها عن الترمذى وغيره من العلماء، وكان قاضى عدن محمد بن أبى عمر العدنى، من الحفاظ المشهورين. ومن العلماء الكبار البارزين، ولى قضاء عدن، وروى عنه الترمذى[4].

ومن علماء اليمن الأجلاء على بن محمد بن أحمد الهمدانى، بلغ درجة كيرة من الشهرة فى القرن الأول الهجرى، ومن أسرته الشيخ شمس الدين يوسف بن موسى التباعى، ويرجع إليه الفضل فى إدخال مذهب مالك إلى اليمن[5]، أفنى عمره فى الإفادة والاستفادة، كان يتنقل فى القرى للتدريس، وأينما حل وارتحل يفد إليه تلاميذه ويحضرون مجالس علمه[6]، وتفقه على شيوخ أهل زمانه، ومن أهم مؤلفاته «التعليق» ويتضمن معانى المهذب، وتوفى أول القرن السابع[7].

ومن شيوخ اليمن، موسى بن أحمد، توفى سنة ٦٢١هـ على الأرجح وكان رجلا عابداً زاهداً فى الدنيا، وقد ضاقت به سبل الرزق، فكان لا يجد ثمن المصباح الذى يستضئ

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩.

(٢) المصدر السابق ص ٧٠.

(٣) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٠.

(٤) المصدر السابق ص ٧٢.

(٥) الوصابى: الاعتبار فى التواريخ والآثار ص ١٦٥.

(٦) الوصابى: الاعتبار ص ١٦٥.

(٧) المصدر السابق ص ١٦٦ - ١٦٧.

به، فكان يستضيء بعود يشبه الشمع، وارتحل إليه الناس من الآفاق لطلب العلم، وصنف تصانيف مفيدة، منها شروحات اللمع الثلاثة، وكتاب «المقنع» و «غرر الغوامض فى علم الفرايض» وكتاب «الرسالة الدرية فى الرد على القدرية» وشرح المهذب فى أربعة مجلدات. وفقدت أكثر مصنفاته، ولم يبق منها إلا القليل، ويقال أن مصنفاته تقع فى خمسمائة مجلد[1].

وكان الشيخ محمد بن يوسف لا يفارق الكتب حضراً ولا سفراً، وتلاميذه المقيمون معه ثمانون رجلا[2].

وكان بنو عبد الوهاب علماء فى الدين، ومن أبرزهم، أحمد بن محمد بن عبد الوهاب- ومسكنهم كونعة - حيث يوجد بها شيوخ أجلاء. وبلغ من تقدير هؤلاء الشيوخ للعلم وأهله، أن بعضهم كان يوقف ماله وتركته لتلاميذه ولمدرسته التى كان يدرس بها[3].

* * *

أدى تنوع المذاهب الإسلامية فى اليمن إلى تنوع الثقافات الدينية وظهور العديد من المؤلفات التى يناقش ويشرح فيها مؤلفوها مذاهبهم ويبرزون سماتها ومميزاتها ويردون على المذاهب الأخرى، ويدحضون حجج معارضيهم.

عرفت بلاد اليمن فى فجر الإسلام، مذهب الإمام مالك، وهو يمنى من قبيلة ذى أصبح، عاش بين عامى (٩٤ - ١٨٩هـ) وكان مقره المدينة المنورة، ويوصف مالك بأنه إمام أهل الحديث، وله كتاب فى الحديث مرتب حسب الموضوعات، اسمه الموطأ، وقد عرف مالك بدقته فى تحرى الصحة فى الرواية، ولذا فكتابه من الكتب الموثوق فيها، وعرف عنه أنه رجل صالح فاضل يحترم صناعته كمحدث، وواجبه كإمام، وعرف عنه سعة العلم، فكان يدرس فى المسجد النبوى - فطار صيته فى الآفاق الإسلامية، وسار إليه طلاب الحديث من الشرق والغرب. ومن الطبيعى أن يتتلمذ عليه الكثير من اليمانية، وينقلون فكره وآراءه إلى اليمن.

---

(١) الجندى: السلوك ص ٣٥٠.

(٢) الوصابى: الاعتبار ص ١٨٢.

(٣) الجندى: السلوك ص ١٥٥.

واعتنق بعض اليمانية مذهب أبى حنيفة، ولكن بمجرد أن ظهر مذهب الشافعى فى بلاد اليمن، قل عدد المعتنقين للمذاهب الأخرى. وبقى عدد قليل من أهل تهامة يتمذهبون بمذهب الأشاعرة.

على أن المذاهب الرئيسية التى انتشرت فى بلاد اليمن، وكان لها تأثير كبير على حياة الناس السياسية والدينية والاجتماعية، هى مذاهب الشافعية والزيدية والإسماعيلية.

والإمام الشافعى هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى جمع بين أقوال أهل الرأى وآراء أهل الحديث، وهو أول من تكلم فى أصول الفقه، وأول من وضع أسسه ومبادئه، كثير المناقب. جم المفاخر. منقطع القرين «درس علوم القرآن دراسة وافية شاملة. وألم بأقوال الصحابة والتابعين وآراء الفقهاء وعلوم العربية، وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى، وقال عن الشافعى: أنه كالشمس للدنيا، والعافية للبدن[1].

لما قدم الشافعى إلى اليمن، تقلد عملا فى نجران، وساس الناس بالعدل والناس أمامه سواسية، لا يفرق بين فقير وغنى. ويقول فى ذلك الشافعى: وليت نجران وبها بنو الحارث بن عبد المدان وموالى ثقيف، وكان الوالى إذا أتاهم صانعوه، فأرادونى على نحو ذلك، فلم يجدوا عندى، فكان الشافعى يرفض أن يتقرب إليه أحد بأساليب الملق والمصانعة، ولكن العدل دائماً مركب صعب لا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال وهم يتعرضون لمصاعب الحياة[2].

لم يرض الشافعى بظلم الحكام، فتعرض للوالى بالنقد الشديد، واستنكر المظالم التى ألحقها باليمانية، ونصحه بأن يسلك بين الناس مسلكا ينطوى على العدل والمساواة، فرأى الوالى أن بقاء الشافعى فى اليمن يغير عليه الناس، ويحركهم ضده، وخصوصاً أن الشافعى قد كشف لليمانية انحرافات هذا الوالى، فأوغر بذلك صدره عليه، وعول على التخلص منه، وأرسل إلى الرشيد تسعة من العلويين تحركوا وقال فى كتابه: إنى أخاف أن يخرجوا، وأن هاهنا رجلا من ولد شافع المطلبى لا أمر لى معه ولا نهى. وقال أنه يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه، فاستدعى الرشيد التسعة سنة ١٨٤هـ، وقتلهم ما عدا الشافعى بسبب قوة حجته، ودفاع العلماء المقربين إلى الرشيد عنه. وقد قال للرشيد: ياأمير المؤمنين ما تقول

(١) المالكى: رياض النفوس ص ١٦٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٧٧.

فى رجلين أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده أيهما أحب إلى. قال الذى يراك أخاه. قال: فذاك أنت ياأمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد على، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس وتروننا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم[١].

وناظره الرشيد، فرأى عن كثب علمه وفضله وغزارة مادته. فأعجب به وقدره لأن الرشيد كان عالما، والعالم لا يضيع فى وسط الجهال، والمعروف أنه لم يجتمع على باب خليفة من الشعراء والعلماء والفقهاء والقراء والكتاب والقضاة والندماء والمغنين ما اجتمع على بابه، وكان يصل كل واحد منهم بأجزل صلة، ويرفعه إلى أعلى مرتبة، وكان فاضلا شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار، وكثيراً ما يتلثم ويحضر مجالس العلماء وهو لايعرف[٢]؛ ويبدو أن المسئولين اليمنيين قد لاحظوا محبة الإمام الشافعى للطالبيين، وذيوع صيته فى بلاد اليمن، وإقبال اليمانية عليه من كل حدب وصوب، ينهلون من علمه، ويأخذون عنه. ويتتلمذون على يديه، وكان الشافعى شديداً فى التشيع لآل البيت، وكان يقول: لا أتكلم فى مجلس يحضره أحد أفراد أهل البيت، وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل، وأعجب به الرشيد وظهر صدقه وزهده حينما كان يرفض صلات الرشيد[٣].

والشافعى هاشمى قرشى ولد بغزة سنة ١٥٠هـ. وتربى فى محيط عربى لذلك نشأ بارعاً فى اللغة والشعر القديم. وطلب العلم من شيوخ عصره وخصوصاً الإمام مالك وأم الشافعى يمنية من الأزد. وكان لها الفضل فى تنشئته.

أوتى الشافعى من أسباب العلم ما جعله يحظى بمنزلة سامية عند شيوخه وطلابه وقد أوتى علم القرآن الكريم، ففقه معانيه وأدرك كثيراً من أسراره ومراميه. وقد قال بعض تلاميذه: إذا أخذ الشافعى فى التفسير، كان كأنه شاهد التنزيل، وأوتى علم الحديث. فروى أحاديث من كانوا بمكة من بقية التابعين، وروى أحاديث الإمام مالك، فقرأ عليه الموطأ الذى يعد أول مدون كامل فى الحديث، وأوتى فقه الرأى وضبط قواعد الفقه ووضع ضوابط القياس، وضوابط النسخ. وكان قوياً فى إدراكه العلمى، وصاحب ذاكرة واعية حافظة، يقرأ الموطأ فيحفظه قبل أن يلتقى بشيخه مالك، حاضر البديهة؛تنثال عليه المعانى فى وقت الحاجة إليها وكان نافذ البصيرة عميق الفكرة، قوى البيان[٤].

(١) أبو زهره، الامام الشافعى ص ١١٢.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ١ ص ٢٩٧.

(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢٩٥.

(٤) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٢٤٦.

وصنف الشافعى كتبا فى العراق، فلما قدم إلى مصر، نسخ كتبة التى بالعراق وصنف بدلا منها كتبا جديدة، رواها عنه الربيع بن سليمان المرادى- وهو يمنى- وقد نقل كتب الشافعى بمصر[1].

ترك الإمام الشافعى فكره وآراءه فى بلاد اليمن، وذهب رواد المعرفة والعلم إلى مكة المكرمة أو إلى مصر لدراسة مذهب الإمام الشافعى على أيدى تلاميذه، وعادوا إلى بلاد اليمن لينشئوا أول مدرسة للمذهب الشافعى فى القرن الرابع الهجرى، وكانت مدرسة موسى بن عمران المعافرى بمخلاف المعافر ومدرسة عبد الله بن زرقان المرادى بقرية ذى أشرق من مخلاف جعفر، ومدرسة الحسين بن جعفر المراغى فى سهفنة هى المدارس الأولى فى اليمن التى تخرج منها فقهاء الشافعية، وكانت قرية سهفنة من أكثر بلدان اليمن إقبالا على دراسة المذهب الشافعى، وكعبة الراغبين فى تعلم أصول هذا المذهب. وكان لجهود الشيخ القاسم ابن محمد بن عبد الله الجمحى القرشى أثر كبير فى تعليم الدارسين أصول هذا المذهب وعاش فى القرن الخامس الهجرى[2]، وتخرج على يديه الكثير من علماء المذهب الشافعى فى الجند والمعافر وزبيد وعدن، وينسب إلى موسى بن عمران المعافرى فضل كبير فى نشر المذهب الشافعى فى اليمن.

وكان للفقيه الشافعى الكبير أبو بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المخائى، رحلة إلى زبيد فى كل عام، يناظر فيها القاضى محمد بن أبى عوف الحنفى، وكان يحفظ كتب الفقه الشافعى، وقدر اليمانية هذا العالم الجليل، وكانت له صحبة مع جياش بن نجاح، ورأى فيه جياش خير من يرد على آراء الإسماعيلية[3] وتوفى سنة ٥٠٠هـ.

وصنف عبد الله بن يزيد اللعفى الحرازى فى أصول الدين وعلم الكلام «السبع الوضائح فى أصول الدين على مذهب السلف الصالح» كما صنف إسحاق بن يوسف بن يعقوب بن عبد الصمد الصرو فى كتاب «الكافى فى الفرائض والحساب» وتوفى فى القرن السادس الهجرى[4].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧١.

(٢) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ٨٩ وما بعدها.

(٣) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٩٧.

(٤) المصدر السابق ص ١٠٧.

ومن شيوخ الشافعية أبو بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المخائى[١] وكان يحفظ كتاب «الجامع فى الخلاف» الذى ألفه أبوه، وكان يرحل فى كل عام إلى زبيد يناظر فيها القاضى الحنفى محمد بن أبى عوف.

ومن فقهاء الشافعية محمد بن عبدويه النهروانى، وكان صاحب تجارة رابحة، وينفق على طلاب العلم المال الكثير، وقد صنف كتابا فى أصول الفقه أسماه «الإرشاد» وتوفى سنة ٥٢٥هـ[٢]، وكان الشيخ محمد بن عبدويه مفخما عند الناس معظما كثير المال كثير الجاه كريم النفس غزير العلم، فارتحل إليه الناس وكبار فقهاء اليمن لطلب العلم والاستزادة منه، لكثرة علمه وجودة إتقانه وفهمه لما يعبر عنه[٣]. وروى عنه بعض تلاميذه كتابه «الإرشاد فى أصول الفقه» وتفقه به الكثير من الناس[٤].

ومن فقهاء الشافعية الكبار والأوائل حسين بن على الطبرى ومن ذريته الفقيه إبراهيم ابن على بن حسين الطبرى. وجدير بالذكر أن الشيخ الحسين الطبرى كان ينصح تلاميذه بالاشتغال بالعلم ولا تصرفهم العبادة عن طلب العلم، لأن العلم يقوم مقام العبادة، وروى عن رسول الله ﷺ قوله: ألا لاخير فى عبادة ليس فيها فقه ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر[٥].

أما الشيخ يحيى بن أبى الخير، فقد كان يحب طلبة العلم والفقه، واجتماعهم، ويكره لهم الخوض فى علم الكلام، وصنف كتاب «الانتصار فى الرد على القدرية الأشرار» وقد ألف هذا الكتاب كما ذكر فى مقدمته عندما علم أن قاضيا زيديا معتزليا هو القاضى جعفر بن أحمد بن عبد السلام، قدم إلى أب، وأظهر القول فيها بأن العباد يخلقون أفعالهم وأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم، ودعا السنيين إلى مناظرته، فصنف يحيى بن أبى الخير هذا الكتاب فى الرد على آراء الشيخ المعتزلى.

وأضاف الشيخ إلى ما ذكره فى الانتصار عن مسائل القدرية، مذهب الأشعرية والرد عليهم، وقد فند آراءهم وأدحضها وفرح فقهاء اليمن بكتاب الانتصار، وحرصوا على نسخه

(١) المصدر السابق ص ١٤٣.

(٢) الجندى: السلوك ١٢١.

(٣) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ١٤٥.

(٤) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٥) ابن سمره: المصدر السابق ص ١٨٠.

واقتنائه كما صنف الشيخ كتاب «غرائب الوسيط» ومختصراً عن إحياء علوم الدين للغزالى، وتدارس هو وأصحابه وتلاميذه صحيح البخارى وسنن أبى داود، وتوفى سنة ٥٥٦هـ[١]، وانتفع المسلمون فى كل مكان بآراء الشيخ ودراساته حتى قال الشاعر:

يحيى لقد أحيا الشريعة هاديا بزوائـــد وغرائـــب وبيان

هو درة اليمـن الذى ما مثله فى أول فى عصرنا أو ثان

أما أستاذ أساتذة المذهب الشافعى، وشيخ المصنفين، فهو زيد بن عبد الله بن جعفر اليفاعى، تلقى الفقه من أستاذه وصهره الشيخ إسحاق الصردفى خصوصا فـى الفرائـض وأبى بكر بن جعفر فى الفروع، ورحل إلى مكة لطلب العلم، وكان يقرئ الخاص والعام ممن يطلب منه القراءة دون أن يسأل عن حسبه ونسبه ومنصبه. أما أستاذه أبو بكر فكان لا يقرئ إلا خاصة الناس، وقد تعرض هذا الشيخ لاضطهاد المفضل بن أبى بركات المخالف له فى المذهب فغادر اليمن وعاش فى مكة عدة سنوات، عاد بعدها إلى اليمن، فاجتمع له فقهاء الشافعية وطلاب العلم من تهامة وأبين وحضرموت والسحول، وتوفى سنة ٥١٥هـ[٢].

ومن فقهاء الشافعية زيد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أبو الطائش، كان عالما فى القراءات، وقد استفاد برحلاته الكثيرة إلى مكة وغيرها لطلب العلم، ويقال أن مصنفاته قاربت خمسمائة، من أهمها كتاب فى مذهب الشافعى، سماه «التهذيب» واستفاد منه الكثير من الدارسين وتوفى سنة ٥٢٨هـ[٣].

أما يحيى بن أبى الخير العمرانى فقد قال عنه ابن سمرة[٤] «هو الإمام الذى انتشر عنه الفقه فى البلدان، وجاوز علمه البحر والسودان، وسارت بتصانيفه الركبان فى اليمن والشام» وقد استفاد من رحلاته العلمية إلى مكة، وأخذ عن فقهائها ووعاظها، وناظرهم فى الفقه والأصول، وعنه أخذ مشايخ الشافعية كتاب «التبصرة» لأبى الفتوح فى أصول الدين. ومن أهم مؤلفاته «البيان» ويقع فى عشرة مجلدات، ولهذا الكتاب أهمية علمية كبيرة، وقد تنقل هذا الشيخ فى بلدان اليمن، وفى كل بلدة يحط رحاله فيها، يقوم بالتدريس للناس والوعظ والإرشاد.

(١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٠.

(٢) ابن سمرة: فقهاء اليمن ص ١٠٢.

(٣) الحبشى: أعلام الفكر الإسلامى ص ٥٧.

(٤) طبقات فقهاء اليمن ص ١٢٧.

ومن كبار علماء الشافعية اليمانية، عبد الله بن زرقان المرادى، درس فى ذمار، ولما اعتزم توسيع معرفته بالمذهب الشافعى، رحل إلى مكة وتعلم فيها أصول المذهب الشافعى، وجمع الكثير من الأحاديث، وعاد إلى بلاده ينشر علمه ومعارفه[1].

ومن علماء الشافعية الحسين بن جعفر المراغى، وهو من سهفنة وله كتاب فى علم الكلام يسمى «الحروف السبعة فى الرد على المعتزلة».

أما القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحى فقد وصفه ابن سمرة[2] بأنه إمام أئمة الشافعية فى صنعاء وعدن، وقد أفاد الكثير من طلاب العلم، وتوفى فى سهفنة سنة ٤٣٧هـ، وقد ذاع صيته فى أرجاء اليمن، وأقبل عليه كل من أراد التزود بفقه الإمام الشافعى، وانتشر مذهبه فى الجند وصنعاء وعدن، ونقل عنه فقهاء الشافعية فى هذه البلاد، وكذلك المعافر ولحج وأبين والسحول، وكان يدرس فى سهفنة، ويأتيه الطلاب فيها من أقاصى البلاد، وكان القاسم قد استفاد من فقهاء عصره، فتتلمذ على كبار أشياخ اليمن وفقهائها، ورحل إلى مكة سنة ٣٨٨هـ وأخذ عن أبى بكر أحمد بن إبراهيم المروزى وروى عنه كتاب السنن لأبى داود، وقد برع القاسم فى علوم الفقه والحديث والكلام وأصول الفقه وعلم القراءات، وكان مجلسه يضم طلابا من بلاد شتى، وبرع من تلاميذه شيوخ اشهروا بالعلم فى اليمن[3].

ومن أشهر تلاميذ القاسم، الشيخ جعفر بن عبد الرحيم المخائى، ت ٤٦٠هـ، عرف عنه الزهد والورع والتقوى، وكان عالما فى الفقه وأصوله، وله كتاب فى الخلاف، سماه الجامع.

كذلك اشتهر من تلاميذ القاسم، أبو حفص عمر بن إسحاق، سكن وادى ظباء، وصنف المذهب والجامع[4].

ومن تلاميذ القاسم، أبو الخير أيوب بن محمد بن كويس سكن سوق ظباء وقد ذاعت شهرته فى الجزيرة العربية، حتى أنه كان ينادى له فى الحرم من كل عام من أراد الورق والسماع العالى، فعليه بأيوب بن محمد بن كويس فى ظباء من أرض اليمن[5].

---

(١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٠.

(٣) المصدر السابق ص ٨٧.

(٤) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ٩٠ – ٩٤.

(٥) المصدر السابق ص ٩٧.

وكان للمذهب الشافعي أنصار كثيرون في بلاد اليمن، وعلى الرغم من أن الدولة العباسية تعتنق مذهب أبي حنيفة إلا أن أنصاره كانوا قليلين، وواجه المذهب الشافعي تحديا كبيراً في عهد الصليحيين الإسماعيليين، إلا أن على الصليحي كان متسامحا مع أهل السنة عموما، إلا أن الشافعية والسنيين عموما كانوا متحاملين على الإسماعيلية، وقد وصفهم الحمادى اليماني بالكفر وإباحة المنكرات، ويقول إنه مذهب الراحة والاستباحة، يريح أتباعه مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله[1]. كما ثار الفقهاء السنيون في حصن التعكر على الملكة أروى الصليحية، واستولوا على الحصن، وناصرت قبيلة خولان الفقهاء، ومازالت الملكة بهم حتى صرفتهم عن الحصن. وكان الفقهاء الشافعية من عوامل استمرار دولة بني نجاح، فقد أيدوها كل التأييد.

ولما حكم الأيوبيون اليمن، عارضوا المذهب الشافعي، لأنهم أحناف، واضطهدوا الشافعية، وأغلق الأتابك سنقر مدرسة كبيرة تسمى مدرسة المعز، وأخرج الفقهاء الشافعية منها، وحول وقفها إلى الأحناف[2].

وقبل أن نتحدث عن علماء المذهب الزيدى في اليمن وجهودهم العلمية يجدر بنا أن نشير إلى أن الإمام زيد كان فقيها راوية للحديث، التقى بواصل بن عطاء وأخذ عنه آراءه في الاعتزال في البصرة التي كانت موطن الفرق الإسلامية[3]؛ حتى أن مذهب المعتزلة هو في الجملة مذهب الزيدية، ومن أصول مذهب الاعتزال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والزيدية تعتقد- كما يرى الشيعة- بانفراد أبناء على بعلم فطرى ضرورى من غير تعلم، كما كانوا يحتفظون بعلم مكتوم يأخذه بعضهم عن بعض، وهم يرفضون التقية، ومن مذهبهم الأذان بحى على خير العمل، ويعارضون التصوف.

ومذهب الزيدية في الفقه يعتبر مذهباً خامساً بعد المذاهب الأربعة، والشروط التي يجب أن تتوافر في الإمام، أن يكون من أولاد فاطمة، سواء كان من أبناء الحسن، أو من أبناء الحسين، وواجب الإمام أن يخرج داعياً لنفسه شاهراً سيفه، كما أجاز هذا المذهب خروج إمامين في قطرين من الفواطم[4]، ومن ثم انضم الأئمة من أولاد الحسن إلى المذهب الزيدى.

---

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٧٦.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ص ٢١٨.

(٤) المصدر السابق ٢١٠.

واعتبر الإمام زيد، الإمامة إقامة لمصلحة عامة، وأن الذى بويع بها معروف بالوصف لا بالشخص، وأنه يطاع الأصل، إذا اختير بدل الأفضل، وتجوز إمامة المفضول، مع وجود الأفضل، لتبرير شرعية خلافة أبى بكر وعمر مع أفضلية على، وليس هذا بقاعدة عامة، إنما فقط لتبرير شرعية خلافة أبى بكر وعمر، ولا يعترف الزيدية بعد ذلك إلا بإمامة على وأبنائه من فاطمة وهم الأئمة الأفضل، ورفض الزيدية فكرة الإمام المستور، أو ما يسمى بالمهدى المنتظر، لأن الإمام يجب أن يخرج داعيا لنفسه، شاهراً سيفه[1].

والزيدية ترى أن الإمام يجب أن يكون واسع العلم، وقد طبق الزيدية هذا المبدأ، فنلاحظ أن أئمتهم كانوا علماء، ويتضح ذلك من مؤلفاتهم الكثيرة، وتتفق الزيدية بأنه قد يأتى زمان بغير إمام[2]، ومن هنا كانت سلسلة الإمامة غير متصلة عبر التاريخ.

والإمام زيد كان أول أهل البيت الذى يحمل فكرا ومذهبا، انتهج لنفسه سبيلا فى الدعوة، وخاض فى كل المسائل الدينية، التى خاض فيها علماء عصره وطاف بالبلاد الإسلامية، واختلط بالفرق الشيعية، وتعرف على آراء المذاهب الأخرى ورد على المنحرف منها، وأبدى لهم آراءه وتعاليمه، ودون الفقه المروى عن آل البيت وكتابه فى الفقه استند فيه إلى الحديث الصحيح.

فلا غرو إذن أن يلتف حول هذا الامام رجال العلم والفقه، ولما تخلى عنه أهل الكوفة بقى الفقهاء والقراء والمحدثون وأهل التقى يقاتلون إلى جانبه، حتى انتهت المعركة[3]؛ ولذلك وصفت ثورة الإمام زيد أنها ثورة فقهاء.

والإمامية الزيدية من أكثر فرق الشيعة تساهلا وأقربها إلى السنة، فأتباعها لا يكفرون أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب والصحابة[4]. وحينما سأل أصحاب زيد عن رأيه فى أبى بكر وعمر- كما سبق أن أشرنا- قال لا أقول فيهما إلا خيرا وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيراً وإنما خرجت على بنى أمية الذين قاتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيت الله بالمنجنيق والنار ففارقوه. لذلك فمذهب الزيدية لا يكفر الشيخين، وإنما ينص على أن عليا كان أفضل الناس بعد رسول الله وأحقهم بالأمر[5].

(١) أبو زهرة: الإمام زيد ص ١٩٥.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٢١٠.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٥هـ.

(٤) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٥ - ٢٦.

(٥) الشهرستانى: الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ٤ ص ٩٢.

على أن الزيدية انقسمت فرقا، وقالت طائفة أن الصحابة ظلموا على بن أبى طالب وهم الجارودية، وقالت أخرى أن الصحابة لم يظلموه، لكنه نفسه طابت بتسليم حقه إلى أبى بكر وعمر، وأنهما إماما هدى، ووقف بعضهم فى عثمان، وتولاه بعضهم، وجميع الزيدية لا يختلفون فى أن الإمامة من جميع ولد على، من خرج منهم يدعو إلى الكتاب والسنة وجب سل السيوف معه وأوجبوا سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك[1]، ولا تجوز الصلاة خلف الفاسق لأن الله يتقبل من المتقين[2].

وقد بقيت بعض المقتطفات التى نسبت إلى زيد بن على، وتتضمن تفاسير لبعض آيات القرآن الكريم، ومسألتى الإمامة والحج، وتشمل بصفة عامة مجملا كاملا للفقه، وتعرض لمسائل فى الدين والشريعة والشعائر والسياسة فى صورتها الحالية، ويرجع السبب إلى ما فيها من تناقض إلى أن الأئمة الذين خلفوا الإمام زيدا قد أضافوا إليها بعض آرائهم، وحذفوا آراء تتعارض مع اتجاهاتهم، وانقسمت الزيدية فرقا كل فرقة لها معتقداتها التى تختلف عن الفرقة الأخرى.

أما علماء وفقهاء الزيدية، فكان منهم كثيرون فى بلاد اليمن، ولهم مصنفات عديدة، والمعروف أن أئمة الزيدية علماء وفقهاء حرصوا- كما حرص علماؤهم – على إبراز حقيقة مذهبهم وتوضيح أسسه ومبادئه وسماته. وقد عاصروا الإسماعيلية ردحا من الزمن، وردوا على ادعاءاتهم، وعارضوا اتجاهاتهم المعارضة لمذهبهم والمتنافية مع آرائهم ومعتقداتهم.

والإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين، له مصنفات عديدة فى التفسير والحديث والفقه والأصول. وكان مجتهداً شأن أئمة وعلماء الزيدية[3].

ومن مصنفاته: الأحكام فى الحلال والحرام، ويشتمل على موضوعات الفقه، ثم يختتم الكتاب بموضوعات الإمامة.

المنتخب: وقد جمعه محمد بن سليمان الكوفى. وعلى كتابى الأحكام والمنتخب يعتمد الهادية فى الفقه.

---

(١) الشهرستانى: الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ٤ ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق جـ٤ ص ١٧٦.

(٣) نشوان الحميرى: الحور العين ص ١٩٦.

كتاب الفنون فى الفقه والفرائض - كتاب المسائل- رسائل العدل والتوحيد- مسائل محمد بن سعيد- كتاب القياس- المسترشد- الرد على أهل الزيغ- معانى القرآن فى تسعة مجلدات- الفوائد- مسائل الرازى- مسائل الطبريين- السنة- المدرك فى الأصول- الديانة فى التوحيد- تثبيت إمامة أمير المؤمنين على بن أبى طالب- إثبات النبوة والقصة - الرد على الإمامية[1].

أحاط الهادى إحاطة كاملة بعلوم الدين، وأخصها الكلام والفقه، إلى جانب مثابرته على الجهاد دون كلل، وطبع المذهب الزيدى فى اليمن بطابعه وبخاصة فى الفقه، وتعرف الزيدية فى اليمن باسم الهادوية، وهو من كبار علماء الكلام والفقه.

على أن الإمام الهادى كان له رأى فى الإمامة يختلف عن رأى الإمام زيد إذ هو ينتقد تولى أبى بكر الخلافة ويخالف فى ذلك رأى الإمام زيد ويخطئه فى مسائل فدك على اعتبار أنها كانت فى ملك فاطمة قبل وفاة النبى الذى كان قد وهبها إياها، ويعتقد أن أبا بكر قد رد الجميل إلى عمر حين عهد إليه بالخلافة من بعده، ويعد عليا وصى النبى، ولا تثبت الأمامة بإجماع الأمة، وتثبت لصاحبها بتثبيت الله لها فيه ويعقدها فى رقاب من أوجبها عليهم من جميع خلقه، وتضل الأمة إذا أخذت العلم من غير الأئمة، الذين أمروا بطاعتهم والاقتداء بهم، على أن آراء الهادى فى الإمامة، لم يرددها الزيديون بعده، وإنما بقيت الأصول التى أرساها الإمام زيد بصدد قبول آراء المذاهب الأخرى فقهية وأصولية فضلا عن موالاة الشيخين، واعتباره خلافتيهما شرعية[2].

وللأئمة الزيدية علماء صنفوا مصنفات قيمة فى مختلف فروع العلم. فوصف الإمام الناصر بترجمان الدين، ومن مؤلفاته الأصول فى العدل والتوحيد وجواب ابن فضل القرمطى[3]- «رسالة الامام المرتضى إلى أهل طبرستان» «الرد على الروافض»- «الشرح والبيان فى تفسير القرآن» وكتاب فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب- نبذة من كتاب اللآلىء الدرية[4].

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٤.
المحلى: الحدائق الوردية جـ٢ ص ٢٣٧.
صبحى: الزيدية ص ١٥٧.

(٢) أحمد صبحى: الزيدية ص ٢٠٢.

(٣) زبارة: أئمة اليمن ص ٥٢.

(٤) زبارة: أئمة اليمن ص ٦٠.

ومن مصنفات الناصر لدين الله أحمد بن يحيى بن الحسين «الرد على الإباضية» «الرد على القدرية»- «كتاب التوحيد في نهاية البيان والتهذيب»- وكتاب الفقه[1]. ومن مؤلفات الامام القاسم بن على بن عبد الله العيانى «رسالة إلى طبرستان والجبل والديلم» وكتاب الرد على الرافضة، وكتب أخرى فى علوم القرآن[2]، وصنف الحسن بن القاسم ابن على العيانى: الإمامة - الأدلة على الله - الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين.

وصنف أبو هاشم الحسين بن عبد الرحيم بن يحيى، سياسة النفس، وهو مؤلف يدعو الناس إلى تجنب المعاصى وتقوى الله[3]. ومن مؤلفات الإمام الناصر أبو الفتح بن الحسين ابن محمد الديلمى «البرهان فى تفسير غريب القرآن» وللإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر مصنفات منها «أصول الأحكام فى الحلال والحرام» جمع فيه ثلاثة آلاف حديث، من أحاديث الأحكام ومرتبة حسب أبواب الفقه، وله كتاب حقائق المعرفة فى معرفة النظر ووجوبه وذكر فيه تفاصيل المعارف وهى ثلاث عشرة معرفة، وهى معرفة طريقة النظر ووجوبه ومعرفة الصنع، ومعرفة الصانع ومعرفة التوحيد ومعرفة العدل، ومعرفة النعمة، ومعرفة شكر النعم، ومعرفة البلاء، ومعرفة الجزاء، ومعرفة الكتاب، ومعرفة الرسول ومعرفة الإمام ومعرفة الاختلاف[4].

وكتب المنصور بالله عبد الله بن حمزة عدداً كبيراً من المؤلفات تزيد على ستين مؤلفا، ومنها الرد على المطرفية- «زبدة الأدلة فى معرفة الله سبحانه وتعالى» «المهذب من فتاوى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة» وكتاب عقد الفواطم[5].

ومن كتب الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين «أنوار اليقين فى إمامة أمير المؤمنين وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين»[6].

(١) المصدر السابق ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق ص ٨١.

(٣) المصدر السابق ص ٩٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المؤيدى: التحف ص ١٠٦.

(٦) المصدر السابق.

ومن علماء الزيدية المعروفين أحمد بن موسى الطبرى، قدم إلى اليمن، وعاهد الإمام الهادى، وعلى يديه انتشر مذهب الهادوية فى اليمن، وكانت بينه وبين علماء المذاهب مناظرات، وكان جعفر بن عبد السلام من كبار شيوخ الزيدية أدرك الإمام عبد الله بن حمزة، وناهض أتباع المذهب المطرفى، وكانت له مناظرات مع أعداء الزيدية، وتوفى سنة ٥٧٣هـ، أما ابن أبى الفضائل بن منصور بن أبى الفضائل، فقد عاش فى جبله وتوفى سنة ٥٩٠هـ، وله كتاب فى الرد على الشريف عبد الله بن حمزه، اعترض فيه على آرائه، وأبرز بعض أخطائه اللغوية، ومن علماء الزيدية أحمد بن محمد المحلى الوادعى وهو من أنصار الإمام أحمد بن الحسين وتوفى سنة ٦٥٢هـ. ومن مؤلفاته «الرسالة الكاشفة عن لوازم الإمامة لطالب الأمن فى القيامة» ويدافع فيه عن حق الإمام أحمد بن الحسين فى الإمامة[1].

تتضمن العقائد الإسماعيلية العبادة العملية أى علم الظاهر، ويتصل بالفرائض الدينية والتكاليف الشرعية. أما العبادة العلمية أى علم الباطن فيتضمن التأويل. لذلك من الخطأ القول بأن طائفة الإسماعيلية تؤمن بالباطن فقط، ولكنها تؤمن بالظاهر أيضاً. لذلك كانت تسميتهم بالباطنية خطأ وقع فيه القدماء، والإسماعيليون يؤمنون بالإمام المعصوم من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وطاعة الإمام ركن أساسى من أركان معتقداتهم، إذا أدى الإنسان أركان الدين الخمسة، ومن لم يطع الإمام فهو آثم فى معصيته وقد عصى الله وأن بالإمام يعبد الله، وبه يطاع الله، وبه يعصى الله، وجعل الإسماعيلية صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم فى مرتبة فوق البشرية، فالإمام وجه الله ويد الله وجنب الله، وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة، وأنه هو الصراط المستقيم والذكر الحكيم والقرآن الكريم. وبرروا ذلك بتأويل تفسير بعض آيات كتاب الله، وقالوا بعدم جواز تطبيق أوامر الشريعة الظاهرة على الأئمة، لأنهم ينتمون إلى عالم الحقيقة الباطنية المطلقة، وزعموا أن الإمام يساوى النبى فى العصمة والاطلاع على حقائق الخلق فى كل الأمور، إلا أنه لا ينزل عليه الوحى، وإنما يتلقى ذلك عن النبى، لأنه خليفته وبإزاء منزلته، ولا يعصم غيره من الخلق حتى الأنبياء أنفسهم[2].

---

(١) الحبشى: مصادر الفكر الإسلامى فى اليمن ص ١٠٠.

(٢) عصام الدين عبد الرءوف: الدول الإسلامية المستقلة ص ٢٤٠.

والإمامة فى نظر الإسماعيلية تتركز فى أبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى يوم الدين، وقد أوضح جعفر بن منصور اليمن ذلك بقوله: فالإمامة لا تتغير أبداً مع مرور الدهر، فالأئمة ينتقلون ويصيرون إلى دار كرامته ومحل رضوانه بغيبة أشخاصهم، وقيام الخلف منهم مقام السلف باتصال الإمامة، لأن الإمامة تنتقل ولا تزول، وإنما الأئمة صلوات الله عليهم يتوارثون بالانتقال والاتصال خلفاً عن سلف[1].

ومن أهم معتقدات الإسماعيلية التأويل بالباطن، وهو نظرية فلسفية تنص على أن الله جعل كل معانى الدين فى المخلوقات التى تحيط بالإنسان، فيجب أن يستدل بما فى الطبيعة وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين؛ وقسموا المخلوقات قسمين قسما ظاهرا للعيان واضحا للناس كل الوضوح، وقسما مجهولا باطنا، فالظاهر يدل على الباطن، فجسم الإنسان مثلا ظاهر، وباطنه النفس.

وأمور الدين من العبادة العملية، وما جاء فى ظاهر آيات الله هى معان يعرضها للعامة، وينطق بها علماء السنة والفرق الشيعية الأخرى، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويل باطن لا يعلمه إلا الأئمة وكبار الدعاة، وقالوا أن التأويل من عند الله وأنه خص به على بن أبى طالب والأئمة من بعده، ثم عادوا فخصوا حجة الإمام أو داعى دعاته بالتأويل.

أصبحت الشهادة فى تأويلهم هى معرفة الله عن طريق الإمام. أما الطهارة فهى أن يتجاوز الإنسان عن قواعد السنة، ويعتبر كل ما يقول الإمام حقا، والصلاة هى ألا يغفل المرء قط عن طاعة الله ورسوله وخليفته أى الأمام، والصوم إنذار أعضاء الجسد فى الظاهر والباطن لأمر الله. والجهاد جهاد النفس والتغلب على هواها، والحج هو طلب الدار الآخرة، والزهد فى الحياة الدنيا الفانية، ويجب على الإنسان التطهر من علم الظاهر. والوضوء الرجوع إلى علم الإمام، وبالغوا فى شأن على بن أبى طالب، وارتضوا بمنزلة سلمان الفارسى، وجعلوه بابا من أبواب الجنة[2].

ويلى الإمام فى المرتبة داعى الدعاة، ويليه الداعى الكبير، ويأتى بعد الدعاة الكبار، الدعاة العاديون، وكانت المراتب العالية تتكون من هؤلاء جميعاً، وكلهم على علم قائم بأصول المذهب وسياسته.

---

(١) اسرار النطقاء ص ٥١ – ٥٢.

محمد عبد الفتاح عليان: قرامطة العراق ص ١٨٠.

(٢) عصام الدين عبد الرءوف: الدول الإسلامية المستقلة ص ٢٤١.

كذلك ظهر علماء فى اليمن، كتبوا رسائل ومصنفات فى المذهب الإسماعيلى؛ وازدهرت الثقافة الإسماعيلية فى مصر بعد أن اتخذ الخليفة العزيز من الجامع الأزهر مركزاً للدراسات الإسماعيلية، وعين فقهاء وعلماء فى الجامع لتدريس المذهب الإسماعيلى، وكانت حلقات الدرس تعقد بعد صلاة الجمعة حتى العصر. وقد اجتذبت دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله، الدارسين من مختلف بلدان الشرق.

وهذه الدراسة المزدهرة للمذهب الإسماعيلى والمصنفات العديدة التى انبثقت عنها كان لها صداها العميق فى بلاد اليمن، فانتشرت المؤلفات الإسماعيلية فى اليمن، ووفد طلاب كثيرون على مصر، لتلقى أصول المذهب الإسماعيلى، وعادوا إلى بلادهم أساتذة يدرسون للناس فلسفة المذهب الإسماعيلى، ويصنفون المصنفات، ومن أقدم آداب الدعوة الإسماعيلية التى احتفظت اليمن بها، مؤلفات أبى حاتم الرازى ومن أهمها كتاب «الزينة فى الأحرف ومعانيها» وكتاب «أعلام النبوة»[1] ومن المؤلفات التى انتشرت فى اليمن مؤلفات أبى يعقوب السجستانى كتاب «إثبات النبوة» وكتاب «الموازين» وكتاب «الافتخار» وكتاب «المقاليد» وكتاب «مسيلة الأحزان» وكتاب «سلم النجاة» وكتاب «سرائر المعاد والمعاش» وكتاب «كشف المحجوب»[2]. وهذه الكتب انتشرت فى بلاد اليمن، وأفادت الدعاة اليمنيين والمؤلفين اليمنيين فى مجال الدعوة الإسماعيلية.

وأضيفت إلى المكتبة اليمنية مؤلفات القاضى النعمان، وهو من أبرز رجال الدعوة الإسماعيلية. ومن أبرز الدعاة اليمنيين الذين تبحروا فى علوم الظاهر والباطن جعفر بن منصور اليمنى، وله عدة مؤلفات فى هذا المجال، أبرزها كتاب الفرائض وحدود الدين، وكتاب «الشواهد والبيان» و «سرائر النطقاء» و «أسرار النطقاء» فى بيان تأويل قصص الأنبياء، وله مؤلفات فى الظاهر والباطن، ومن أهمها كتاب تأويل الزكاة وكتاب الكشف وكتاب الفترات والقرانات وكتاب العالم والغلام، ورسائل فى تأويل سورة النساء، وكتاب المراتب والمحيط ورسالة فى معنى الاسم الأعظم ورسالة الرضاع فى الباطن[3].

---

(١) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٧.

وكان شهريار بن حسن من علماء الفرس، دخل فى خدمة الدولة الصليحية، وأوفده الملك المكرم إلى مصر لتلقى علوم الدعوة وأسرارها فأخذ عن المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى، واستفاد منه ومن مصنفاته وله عدة رسائل فى علوم الظاهر والباطن[1].

ومن أشهر دعاة اليمن فى العصر الصليحى القاضى لمك بن مالك الحمادى، تلقى أصول الدعوة فى مصر، ومن تلاميذ المؤيد فى الدين، ولقب داعى القلم، وفى عهد الملكة أروى، لقب داعى البلاغ. وكان لهذا الداعى تلاميذ نشروا آراءه وأفكاره ورسائله. ومن بينهم يحيى لمك والذؤيب بن موسى الوادعى، وإبراهيم بن الحسين الحامدى[2]. ولم يكن لدى المكرم أو لدى الملكة أروى الوقت للاستفادة من هذا الشيخ، نظراً لانشغالهما بشئون الحكم والإدارة.

أما يحيى بن لمك فقد واصل سياسة أبيه فى نشر علوم الدعوة وإظهار معالم الدين وإحياء مراسمه حتى توفى سنة ٥٢٠هـ، وله كتاب يسمى «فصل فى بيان الأرض وما عليها من المعادن»[3].

وخلفه فى رئاسة الدعوة الذؤيب بن موسى الوادعى، وعينته الملكة أروى داعيا مطلقا للإمام المستور، بعد أن انفصلت الدعوة عن مصر، بسبب تبنى الملكة للدعوة الطيبية، وأصبحت حجة الإمام ومن حقها تعيين الدعاة من قبلها فى اليمن، وكان الذؤيب من العلماء الأفذاذ، وله رسالة تسمى رسالة النفس، ورسالة معرفة الموجودات، وقد خلفه الداعى إبراهيم بن الحسين الحامدى الهمدانى. وعين داعيا مطلقا للإمام المستور فى اليمن وما جاورها من بلاد الهند والسند وعمان والبحرين وغيرها فى سنة ٥٣٦هـ وكان مقره صنعاء، وولى بعد وفاة الملكة أروى، لذلك فضل أن يكون فى حماية السلطان حاتم بن أحمد الهمدانى، وقد ضعفت الدعوة الطيبية وانتشرت الدعوة المجيدية فى أنحاء اليمن على حساب الدعوة الطيبية بفضل تبنى آل زريع فى عدن لها[4].

ومن أبرز من ساهم فى الدعوة تحت رئاسة الحامدى، القرشى والحارثى وحاتم الحامدى، وكانوا علماء أجلاء واسعى المعرفة بعلوم الكلام والتأويل، وترك كل منهم كتبا

(١) الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٢٦٦.

(٢) عيون جـ٧ ص ١٠٤.

(٣) الهمدانى: الصليحيون ص ٢٦٩.

(٤) الهمدانى: الصليحيون ص ١٦٩.

ومؤلفات لها شأن خطير فى تطور آداب الدعوة الإسماعيلية، وقد ألف إبراهيم الحامدى كتابا فيما أسماه «كنز الولد» وذكر فيه من آداب الدعوة لأول مرة، رسائل إخوان الصفا والرسائل الأخيرة الجامعة منها، وقد استفاد علماء الدعوة من دراسته فيما بعد، وله أيضا كتاب الابتداء والانتهاء[1].

ولقد تضمنت رسائل الشيخ على بن الحسين القرشى (٥٦٩هـ) فى كتاب «مجموع التربية» وهو كتاب جامع ألفه الشيخ محمد بن طاهر الحارثى وقد أورد فيه مقالاته ورسائله وبحوثه ورسائل العلماء الدعاة من دورى ظهور الأئمة واختفائهم والمقتبسات فى كتبهم، وقد استفاد فى كتبه من رسائل جعفر بن منصور اليمنى، ورسائل إخوان الصفا ومجالس المؤيد فى الدين، وأوضح إثبات إمامة الطيب ابن الآمر، ويتضمن الكتاب أقوال أرسطو وعلى بن أبى طالب والسجل الوارد إلى اليمن ببشارة المولود الجديد من الآمر[2] ولهذا الكتاب أهمية كبيرة، لما تضمنه من هذا السجل ومن أقوال ورسائل الدعاة المشار إليهم، وغيرهم من اليمانية.

أما الداعى حاتم بن إبراهيم بن الحسين الحامدى الهمدانى، فقد قام بالدعوة فى جزيرة اليمن بعد وفاة أبيه، وكان عالما فقيها واسع الاطلاع، وله مؤلفات كثيرة وتأثر به كثير من الناس، والتفوا حوله وخصوصا من حمير وهمدان، وقد اضطهده بنو حاتم- حكام صنعاء- لذلك كان يقوم بالدعوة سراً فى كهف، وجعل فى كل بلد من بلدان اليمن مأذونا، ولهذا الداعى مؤلفات ومصنفات، ومن أهمها «تنبيه الغافلين فى الأخلاق- التحاسد والتباغض، وضمن الكتاب رسالتين من رسائل إخوان الصفا فى آداب الإخوان وحسن المعاشرة، وفصلا عن مجلس الخليفة العزيز بالله الفاطمى، ورسالة «النقد على أهل المخاط فيما ارتكبوا من الفسق والخباط فى ذم المنكرات واتباع الشهوات» وكتاب المجالس، وكتاب جامع الحقائق، وهو تلخيص للمجالس المؤيدية، ورسالة التذكرة تشتمل على آراء المؤلف وأفكاره عن المبدأ والمعاد والثواب والعقاب، والوصول إلى ولاية أولياء الله، ثم يتلو ذلك فصول ومقتبسات من مؤلفات الدعاة السابقين[3].

(١) الهمدانى: الصليحيون ص ٢٧١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٢.

(٣) الهمدانى: الصليحيون ص ٢٧٩.

وخلفه فى رئاسة الدعوة ابنه على بن حاتم بن إبراهيم الحامدى ت ٦٠٥هـ وأخذ يرسل دعاته في الآفاق، ومقره صنعاء، وله رسالة «روضة الحكم الصافية وبستان العلوم الشافية» وتتضمن سبع عشرة مسألة فى الحقائق، وفيها شرح بعض أقوال أبى يعقوب السجستاني، وتقلد أمر الدعوة بعده، على بن محمد بن الوليد القرشى ت ٦١٢هـ، وارتفع شأن الدعوة فى زمن رئاسته لها، والتف حوله سلاطين همدان، وكان هذا الداعى مخلصاً فى نشر الدعوة بلسانه وقلمه، على الرغم من الصعاب التى واجهته، فقد سقطت الدولة الصليحية- حامية حمى المذهب والدعوة- ومن مؤلفاته كتاب «تحفة المرتاد وغصة الأضداد فى الرد على الفرقه المجيدية وإثبات إمامة الطيب بن الآمر» وذكر تسلسل الإمامة، وفيه نبذ من علم الحقائق. ورسالة جلاء المعقول وزبدة المحصول ورسالة «الرسالة المفيدة فى إيضاح ملغز القصيدة» وأورد فيها من رسائل إخوان الصفا فصلا عن علة كراهية الجميع الموت ومحبتهم البقاء بتمامه وكماله[1]، وكتاب ضياء الألباب المحتوى على المسائل والجواب، ويشتمل على اثنتين وثلاثين مسألة وإجابة كل منها، وتتضمن هذه الرسائل، التوحيد ودورى الكشف والستر والظاهر والباطن والتأويل، وماشاكل ذلك من مسائل علم الحقائق الخاصة بالدعوة، وله بحوث ورسائل فى كل هذه الموضوعات.

أما الداعى على بن حنظلة بن أبى سالم المحفوظى الوادعى ت ٦٢٦هـ فقد رأس الدعوة بعد على بن حاتم الحامدى، وكان يقصده طلاب العلم من كل مكان، وله مكانة عند بنى أيوب، وبنى حاتم، وقد أرسل الدعاة من قبله إلى سائر اليمن والبحرين وبلاد الهند. ومن مؤلفاته قصيدته «سمط الحقائق» وتحتوى على ستمائة وثلاثة وستين بيتاً فى التوحيد والصلوات والنصيحة فى محاسبة النفس للنفس وإطاعة أولى الأمر والحدود، ويتكلم عن التوحيد وعالم الإبداع والأفلاك والأركان والمزاج والممتزج، وأدوار الكواكب السبعة وأهل الجنة الإبداعية ودور الكشف وأهله ودور الستر وأهله والمعاد المحمود والمعاد المذموم والبعث والحساب والخلود فى الثواب والعقاب وله رسالة تسمى «ضياء الحلوم ومصباح العلوم».

وصنف المتصوفون فى اليمن الكثير من المصنفات، فالمتصوف جمال الدين بن الخياط، كتب مسائل وأرسلها إلى العلماء ببلاد الإسلام، وقال: هذه عقائد الشيخ محيى

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩.

الدين بن عربى[1]، وذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، الأمر الذى أثار العلماء والمتصوفة على ابن عربى[2].

ومن كتاب الصوفية فى اليمن مخطوط يسمى «بغية الراغبين» لمؤلفه عبد الله بن عمر يقول فيه: «يأأسير الشهوات أنت مغرور وأنت مشغول عنه تعالى- إذا زاد إيمانك نقلك من حال إلى حال، والحقيقة له تعالى، حتى تطلبه تعالى[3]».

ويقول: أعد الله لعباده الصالحين- وهم العارفون بالله ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولما أراد الله أعطيتهم وما دمت قد فنيت فى الله فقد فنيت عن نفسك، فحينئذ يكشف لك الله عن أسرار الألوهية، فتضمحل عنك العبودية أى تذهب فى الوحدانية، فتفنى فيها، والمحب يرى الله لمحبته، لأنه خاضع لعظمة مجبوبه، متجرداً عما سواه[4].

ومن كتب الصوفية المعروفة كتاب فتوح الشيخ أحمد بن علوان وهو مخطوط يتضمن آراء وأفكار الصوفية، وبدأ الكتاب بقوله: فتح من الفتوح المصونة والأسرار المكنونة المخزونة، وسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، وهم الذين يزهدون فى الدنيا ومتاعها وملذاتها، وفى الصدق فى القول والعمل، وفى الصبر والخشوع والإحسان إلى الخلق، والتوكل على الله، والإذعان التام لإرادته. وهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار العلم الباطن[5].

---

(١) ولد ابن عربى فى مرسية بالأندلس وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ، وكان مرهف الحس والذوق.

(٢) زكى مبارك: التصوف الإسلامى جـ١ - ص ١٦١.

(٣) ورقة عبد الله بن عمر: بغية الراغبين ورقة ٢.

(٤) عبد الله بن عمر: بغية الراغبين ورقة ٤.

(٥) ورقة ٢ وما بعدها.

الأدب واللغة

كان أهل اليمن قبل الإسلام يتكلمون لغة سامية ليست اللغة العربية الشمالية وهى تمت إلى الحبشة بصلة، ومن لغات القسم الجنوبى للمجموعة السامية، وقد تفرعت إلى لهجات بحسب عصور الحكم مثل اللهجة المعينية واللهجة السبئية واللهجة الحميرية، وأبجديتها مثل الأبجدية الفينيقية، ويعرف الخط اليمنى القديم بالمسند، لأن الحروف تستند إلى أعمدة، وتتكون الأبجدية من تسعة وعشرين حرفاً، هى الثمانية والعشرون فى اللغة العربية يضاف إليها السين الثانية العبرية. وكان اليمنيون يكتبون من اليمين إلى الشمال. وبعض النقوش اليمنية يقرأ منها سطر من اليمين إلى اليسار وسطر من اليسار إلى اليمين. وظل الأمر كذلك حتى دخل اليمانية فى الإسلام وعرفوا لغة القرآن العدنانية المضرية القرشية، ومحيت محواً تاماً اللهجات الجنوبية التى كانت قد ضعفت[1].

عرف العرب اليمانية الشعر منذ عصر ما قبل الإسلام، ولم يعرفوا الكتابة النثرية إلا منذ القرن الرابع الهجرى. ومن أقدم شعراء اليمن فى فجر الإسلام عمرو بن معدى كرب الزبيدى ووضاح اليمن، وهو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال، كان يتقن شعر الغزل، وقد تغزل فى أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، فأمر الوليد بقتله[2]، ويأتى بعد ذلك شعراء محليون لم يكن لهم مكانة مرموقة.

أما الكتابات الأدبية فى اليمن، فقد بدأت فى القرن الرابع الهجرى بكتابات محمد ابن حسن بن عمير اليمنى (ت ٤٠٠هـ) عن كتاب كليلة ودمنة، يأتى بعده الحسن بن محمد بن علقمة فى كتابه «جواهر الأخبار وملح الأشعار» وهو من نوع كتب المحاضرات والأسمار، والكتاب مثل كتاب الأغانى وكتاب الإمتاع والمؤانسة، والكامل للمبرد والعقد الفريد، فيه القطع الأدبية والنوادر والطرائف ومسائل فقهية وكلامية ولغوية، أما الأديب اليمنى الكبير على بن القم- كاتب الرسائل فى الدولة الصليحية- فجمع رسائله فى كتابه الخاص وعاصره فى هذه الفترة الأديب أحمد بن محمد الأشعرى الذى صنف فى فن الأسمار وهو كتاب «اللباب فى الأدب»[3].

(١) محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام ص ٧٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١. ص ٢٦٦.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء جـ٦ ص ١٤٦.

كذلك بحث اليمانية فى اللغة، فكتب فى القرن السادس حسن بن إسحاق بن عباد كتابه المعروف «مختصر ابن عباد فى النحو» ويلغ من أهمية هذا الكتاب أنه ظل يدرس لأهل اليمن زمنا طويلا. ومن علماء اللغة محمد بن يحيى الزبيدى، وعلى بن سليمان بن حيدرة، ومن مصنفاته «كشف المشكل فى النحو».

ويقول نشوان[1] الحميرى: العرب مخصوصة بأمور منها، البيان الذى ليس مثله بيان، واللغة التى ليس مثلها فى السعة لغة، وللعرب الشعر الذى لم يشاركهم فيه أحد من العجم.

الشعر والشعراء فى بلاد اليمن

من شعراء اليمن الحسين بن على القمى، من زبيد وتثقف بها، وكان شاعراً فى أيام الداعى على بن محمد الصليحى، وولى أبوه الوزارة لأسعد بن شهاب- والى زبيد- خمسة عشر سنة، وفوضت الملكة أروى له النظر فى أعمال تهامة بعد انتقال المكرم من صنعاء إلى ذى جبلة، فكان الحسين هذا شاعراً مترسلا يكتب عن الملكة أروى إلى الديار المصرية والأقطار الأخرى، وكان من علو الهمة وسمو القدر فيما يلبسه ويمتطبه، على غاية منيفة وجملة شريفة طريفة[2]. وقد ذاع شعره فى البلاد الإسلامية، وجمع فى ديوان وكان الناس يتسابقون على شرائه بأغلى الأثمان.

ومن شعراء اليمن المجيدين سليمان بن أبى الحفاظ، وأخوه الخطاب بن أبى الحفاظ، وديوان الخطاب مخطوط محفوظ بالمكتبة المحمدية الهمدانية[3].

ومن شعراء اليمن الوزير خلف بن أبى طاهر الأموى- وزير الملك جياش بن نجاح صاحب زبيد. كان نبيلا فاضلا وصحب جياش حين زال ملكه، ودخل معه الهند، وعاهده على أن يقاسمه الأمر إن ملك، ونعته جياش قسيم الملك، ولولا الوزير خلف ما تم لجياش ماتم من رجوع الأمر إليه[4]، وقد طرب لغناء بشعر استحسنه جاء فيه:

لو كان حولى بنى أميـــة لم ينطق رجـال إذا هم نطقوا

إن جولسوا لم تضق مجالسهم أو ركبوا ضاق عنهم الأفق

(١) الحور العين ص ٢١٧.

(٢) عمارة: المفيد ص ٢٤١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ٢٦٧.

وقد طرب الوزير وخلع على من كان فى مجلسه ثلاث مرات ثم وصلهم ولم يزل يستعيد الصوت ويغنيه إلى أن أصبح، ونقل المجلس إلى جياش، فتولهم منه، واستوحش خلف فافترقا. ومن شعره قوله يجيب جياشاً حين كتب إليه يستعطفه[1].

إذا لم تكن أرضى لعرضى معزة فلســـت وإن نـــادت إلى أجيبـــها
ولو أنها كانت كروضـــة جنة من الطيب لم يحسن من الذل طيبها
وسرت إلى أرض ســواها تعزنى وإن كــان لا يعوى من الجدب ذيبها

ومن شعراء اليمن محمد بن زياد المأربى كان مداحاً للملوك محسنا، يفد عليهم بكثرة ويكرمون وفادته، وكان أكرم الناس بما ملك، ومدح المفضل بن أبى بركات الحميرى، فوصله بألف دينار، فقال فى قصيدة يشكره فيها:

ووهبت لى الألف التى لوأنها وزنت بصم الصخر كانت أبهرا

وقد نوه باسم الشريف الأمير عيسى بن حمزة السليمانى ثم الحسنى- صاحب عثر- فإنه وصله بصلات جزيلة، وأكرمه وأنعم عليه[2]. وتآمر يحيى بن حمزة على أخيه عيسى فقتله لأنه نافسه فى الحكم فرثى محمد بن زياد عيسى فى قصيدة، ونعى على يحيى قتل أخيه، وكان محمد بن زياد هذا لكثرة وجده على عيسى، نذر أن لا يرى الدنيا إلا بعين واحدة، فغطى إحدى عينيه بخرقة إلى أن مات، وقال قرب موته:

قرت عيون الشامتين وأسخنت عينى على من كان قرة عينى

ولما انتهى الشعر الذى رثى به المأربى عيسى إلى أخيه يحيى القاتل، غضب وتوعد المأربى بالقتل، فقال المأربى:

نبئت أنك قد أقســمت مجتهدا لتسـفكن على حر الوفـــاء دمـى
ولو تجلدت جلدى ما عذرت ولا أصبحت ألأم من يمشى على قدم

وقال يمدح أبا السعود بن زريع:

ياناظرى قل لى تراه كما هو إنى لأحســـبه تقمـص لؤلوه
ما أن بصرت بزاخر فى شامخ حتى رأيتك جالساً فى الدملوه

(١) عمارة: المفيد ص ٢٦٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٠.

ومن قوله في مدح جياش بن نجاح:

عد إلى الاغتباق والاصطباح واغ في القصف من نصيح ولاح

قهوة طال عمرها فهي مما عتقتها الدنان للوضاح

ما يزيل الهموم مثل اصطباح في صباح لدى وجوه صباح[1]

ومنهم الشريف الأمير السيد العالم علي بن عيسى بن حمزة السليماني وكان رأس الزيدية، وعلم في الحرم أن قوما من الزيدية من حاج اليمن زجهم في السجن شريف مكة الأمير هاشم بن فليتة بن قاسم فكتب إليه أبياتا يشفع فيهم فوافقه وأفرج عنهم:

على أي ما أمر تساق عصابة إلى السجن والوا جدك المتخيرا

لك الله جارا من قلوب تطايرت حشاه ومن دمع جرى فتحدرا[2]

ومن شعراء اليمن الملك جياش بن نجاح- صاحب زبيد- وهو من المكثرين المجيدين. وذكر عمارة أنه رأى عيون شعره في مجلد ضخم، وله رسائل جيدة في كتاب يقع في عدة مجلدات.

ويقول في ذم أصحابه:

وتحسدني قومي وأكرمهم فهل سواي حوى الإكرام منه حسوده

ولو مت قالوا أظلم الجو بعده وغاضت بحار الجود إذ غاض جوده

وله يذم أصحابه:

ما انتظار الدجال إذ أنا ألقى اليوم كم من مداهن دجال

ليس فيهم من سائل عن صلاح لي ولا من مقصر في سؤال[3]

ومن مشاهير شعراء اليمن عمرو بن يحيى بن أبي الغارات شاعر الداعي علي بن محمد الصليحي، وكان له ديوان شعر[4]:

(١) عمارة: المفيد ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٥.

(٣) عمارة: المفيد ص ٢٧٦.

(٤) عمارة: المفيد ٢٧٧.

قال على لسانه:

سلي فرسي عني ودرعي وصعدتي وسيفي إذا ما المشرفية سلت
أنا ابن ربيع المنشد بن محمد إذا المعصرات السود بالماء ضنت
وسميت في قومي عليا لأنني علوت فأحذيت الكواكب همتي

وقال وقد رحل علي بن محمد من صنعاء واستخلف فيها ابنه المكرم:

إن سيف الإمام البحر ذي الموج له في البلاد مد وجزر
ولأن ساءنا فراق علي فلنا في محمد ابنه ما يسر
ذاك بحر سقي به مكة الله وهذا لوفد صنعاء بحر[1]

ومن شعراء اليمن السلطان عبد الله بن يعلى الصليحي- صاحب حصن خدر- وله قصيدة في رجل ادعى أنه شاعر ومدح الملكة أروى بما لم يستحق عليه جائزة فاستشفع به.. ومن قصيدته:

إن الصنائع في الكرام ودائع تبقى ولو فني الزمان بأسره[2]

ومن شعراء اليمن الملك علي بن محمد الصليحي ومن شعره:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها إلا بحيث تطلق الأعمار[3]

ومن شعراء اليمن الشيخ إسماعيل بن محمد المعروف بابن النوقاء، نال وزارة القلم للملك جياش بن نجاح ثم للملوك من أولاده، وهم الفاتك بن جياش بن نجاح والمنصور وعبد الواحد. وما منهم إلا من أكرمه وعظمه، وكان سيداً رئيساً جليل القدر واسع الخير بماله وجاهه مأمون الجانب حاضر البديهة وله في الغزل:

عند روض الربيع لي أوتار تقتضيها الصهباء والأوتار[4]

---

(١) طبقات ابن سمرة ص ١٠٦.
(٢) عمارة: المفيد ص ٢٧٨.
(٣) عمارة: المفيد ص ٢٧٨.
(٤) المصدر السابق ص ٢٨٤.

ومن شعراء اليمن وتهامة بصفة خاصة بنو أبى عقامة وهم أهل رياسة من أيام ابن زياد ولم يزل الحكم فيهم يتوارثونه إلى أن زال عنهم بزوال دولة الحبشة من زبيد سنة ٥٥٤هـ، ومازال فى كل عصر منهم عالم مجد ومصنف وخطيب مصقع وشاعر وإمام مدرس، فمنهم القاضى أبو محمد الحسن بن أبى عقامة، وهو كبير فى بيتهم، وكان فقيهاً شاعراً إماماً فى العربية واللغة، وقتله الملك جياش بن نجاح حلف زبيد وكان قد ولى القضاء فى زمانه وبسبب قتل جياش له يقول ابن القم:

أخطأت ياجياش فى قتل الحسن فقأت به والله عين الزمن[١]

ثم انتقلت رياسة البيت حكما وعلما إلى القاضى الأجل أبى الفتوح بن على بن محمد بن على بن أبى عقامة، وكان عالما جليلا صنف فى الفقه عدة تصانيف على المذهب الإسماعيلى نالت إعجاب وتقدير المعاصرين[٢].

ومن شعراء اليمن المجيدين فى كل فن- أبو الفتوح، ولى القضاء فى الأعمال المضافة لزبيد، وكان جواداً يخلع على الشعراء ويقدرهم[٣].

وقيل فى مدح أبى عقامة (يبدو أنه أبو الفتوح):

أبى عقامة لست مقتصدا فى وصفكم بالمدح ماعشت

ومن شعره قوله فى رزيق الفاتكى:

نفسى إليك كثيرة الأنفاس لولا مقاساة الزمان القاسى[٤]

وممن عاصره عمارة من الشعراء من بنى أبى عقامة القاضى الفاضل الكامل محمد ابن عبد الله، وكان نبيلا فاضلا فقيهاً متكلماً شاعراً مترسلا، وانتهت إليه رياسة المذهب الشافعى فى زبيد، ومن شعراء تهامة، الغرنوق، دخل المدرسة عند الفقيه ابن الأبار بزبيد وقد ضاق المجلس لكثرة الطلب فارتحل يخاطب الفقيه:

مجلسك الرحب من تزاحمه لا يسع المرء فيه مقعده
كل على قدر ينال فذا يلقط منه وذاك يحصده[٥]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٩.

(٤) عمارة: المفيد ص ٢٩٠.

(٥) المصدر السابق ص ٢٩٢.

ومن رآه عمارة من الشعراء شيخ ناهز المائة يسمى ابن مكرمان، وكان أهل تهامة يكرمونه ويعظمونه، وقد مدح الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليمانى بقصيدة فكافأه بألف دينار وردها العامة وحفظوها وأعجبوا بها[1].

ومن شعراء اليمن الفقيه أبو العباس أحمد بن بحارة الحنفى وكان مبرزاً فى علم الكلام والأدب واللغة شاعراً يحذو طريق أبى نواس فى الاشتهار بالخلاعة.

ومن أشعر أهل تهامة على بن أبى الحسين، ورعا دينا جواداً، وأسرته منها شعراء كثيرون مثل إخوته.

ومن الشعراء أبو بكر اليافعى، وكان من جلساء المنصور بن المفضل والداعى محمد ابن سبأ. ومن شعره قوله يصف شعره:

شعر إذا أنشدته فى مجلس فكأننى جمرته بالعود[2]

فكان اليافعى قاضى قضاة اليمن (٢٩٥هـ) وكان إليه أحكام صنعاء وعدن، وزر للدولتين الزريعية، كان خطيباً مصقعاً، يرتجل لساعته متى أراد، عادلا فى أحكامه سخى النفس حسن الأخلاق عالى الهمة، باذلا جاهه فى صالح الإسلام، وله ديوان شعر يقع فى مجلدين، غالبه فى مدح الملك المنصور بن المفضل بن أبى البركات ابن الوليد الحميرى، والملك محمد بن سبأ الزريعى، ويحتوى على الجد والهزل، ولما كان معظم شعره فى مدح الملك المنصور[3] قال يخاطبه:

كثرت ياابن مفضل حسادى بصنائع أسديتها وأيادى
وفعلت لى ما ليس يفعله الأب الحانى على الأولاد للأولاد[4]

ومن أشهر شعراء اليمن نشوان بن سعيد، وهو شاعر فحل قوى الحبك حسن السبك وهو من شعراء أهل الجبل، وهو من العلماء المشهورين فى اللغة والشعر، نهج فى شعره منهجاً خاصاً، وفى الدين مجتهد كبير، وله آراء وأفكار جديدة انفرد بها وله مواقف وطنية كبيرة، نادى بالحرية وبالشورى فى بلده، ولقد تأثر بأفكاره فى الشعر والدين واللغة فريق من

(١) المصدر السابق ص ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٤.
(٣) عمارة: المفيد ص ٢٩٥.
(٤) المصدر السابق ص ٢٩٦.

الناس واعتنقوا آراءه وأفكاره وسموا بالنشوانية، وقد عارضه الكثيرون ورد عليهم بالحجة والبرهان والدليل القاطع فى أشعاره ومقالاته ومقاماته، وعارض بشدة التقليديين فى الدين خصوصاً من الزيدية، ودعاهم إلى التجديد والاجتهاد[١].

وقد انتصر على خصومه بقوة حجته وسعة اطلاعه، ودخل معهم فى مناظرات ومباريات علمية، وكان يحكم بعقله فيما اشتبه عليه من الأمر، حتى ظن البعض أنه معتزلى، لكن الحقيقة أنه كان غير ذلك، إذ وافق المعتزلة على بعض آرائهم وعارضهم فى بعضها[٢].

وكان مذهبه الاجتهاد ومحاربة التقليد، ويدعو إلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ويستنكر انفراد الأسر المالكة بالحكم بطريقة وراثية، كما هو الحال بالنسبة للخلافة العباسية أو الإمامة الزيدية، وألف فى ذلك رسالة أسماها «التبصر فى الدين للمتبصرين فى الرد على الظلمة المنكرين» تضمنت أفكاره فى الحكم وفى ذلك يقول:

أيها السائل عنى إننى ... مظهر من مذهبى ما أبطن

مذهبى التوحيد والعدل الذى ... هو فى الأرض الطريق البين[٣]

وفى ذلك يقول:

حصر الإمامة فى قريش معشر ... هم باليهود أحق بالإلحاق

جهلا كما حصر اليهود ضلالة ... أمر النبوة فى بنى إسحاق[٤]

وقوله:

حصر الإمامة ظالم فى ظالم ... وكلاهما فى مثله محصور

ولما نبغ فى مجال المعرفة تتوق إلى الملك، وفعلا استطاع أن يملك بعض البلاد، ولكنه هزم وانحسر سلطانه فى مقاطعة تقع فى جبال خولان الشام[٥]. وكان على اتصال وثيق بملوك اليمن وعلمائها، ولنشوان بن سعيد ديوان شعر مفقود وإنما تظهر قصائده فيما

---

(١) القفطى: أنباء الحكماء جـ٣ ص ٣ وما بعدها.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء جـ١٩ ص ٢١٧ – ٢١٨.

(٣) عمارة: المفيد ص ٣٠١.

(٤) المصدر السابق ص ٣٠١.

(٥) المصدر السابق ص ٣٠٣.

روى عنها فى كتبه ومن مؤلفاته: «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» وهو معجم لغة وموسوعة علمية مفيدة ويقع فى ستة مجلدات، ومن مؤلفاته رسالة الحور العين وشرحها والقصيدة الحميرية المسماة بالنشوانية وشرحها وهى خلاصة السيرة الجامعة لأخبار التبابعة، وكتاب التبيان فى تفسير القرآن، وأحكام صنعاء وزبيد، ووصيته لولده جعفر، وهى أرجوزة مختصرة للأشهر الرومية ومطالع النجوم وأسمائها وخواصها وما يحسن فيها من المأكول والمشروب والملبوس، وله كتب فى القوافى والتصريف وعلم التوحيد ورسالة التبصر فى الدين للرد على الظلمة المنكرين. وديوان شعره وكتب أدبية أخرى. وتوفى سنة ٥٧٣هـ ومن شعراء اليمن السلطان حامد بن أحمد بن عمران صاحب صنعاء ومن شعره قوله:

تركت أناسا فى غضارة عيشـهم   وأمنتهم من طارق الحدثان[1]

وكنت لهم حصنا حصينا ومؤئلا   وأصلت سيفى دونهم ولسانى

ومن شعراء اليمن أبو بكر بن أحمد العندى، وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء.

علم التـاريخ

بدأ اهتمام المسلمين بتدوين التاريخ منذ فجر الإسلام، فقد احتاجوا إلى معرفة تفاصيل ما تضمنه القرآن الكريم من إشارات تاريخية إلى الأمم الغابرة وإلى الأحداث التى حدثت فى عهد الرسول الكريم، ومن ثم لجأ المسلمون إلى اليهود والنصارى لمعرفة تاريخ الأمم الغابرة، وكان لعلمائهم معرفة واسعة بهذه الأحداث من التوراة والإنجيل، وكانت مشوبة بطابع أسطورى أو ما يسمى بالإسرائيليات. ومن أشهر هؤلاء الإخباريين كعب الأحبار (ت ٣٤هـ) ووهب بن منبه (ت ١١٠هـ).

ولما اتسعت الدولة الإسلامية، وفتح المسلمون إمبراطورية الفرس وأجزاء من إمبراطورية الروم، واجه العرب مشكلات كبيرة فى بداية حكمهم، فقد قام ملكهم فى بلاد فيها حضارة عريقة، واحتاجوا إلى تنظيم سياسى وإدارى واجتماعى واقتصادى، يكون أساساً لملكهم، فتطلعوا إلى معرفة تاريخ الأمم الغابرة والملوك السابقين، والأسس الحضارية للأمم التى سبقتهم حتى يستعينوا بهذه المعلومات على السير قدماً فى ركب الحضارة.

(١) عمارة: المفيد ص ٢٣٠.

وقد بلغ من حرص معاوية لسير الأقدمين أنه استدعى عبيد بن شربة من اليمن– وهو من الإخباريين القدماء– ليسـامره ويقص عليه أخبار الأبطـال الغابرين[1] وذكر المسعودى أن معاوية كان يسمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة «جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات» وازداد اهتمام العرب بتدوين تاريخهم لما عرف عن اهتمامهـم الكبير بالأنساب، وهذا يعطى للشعراء مادة خصبة فى مجال المفاخرات، كما أن العرب رأوا ضرورة تدوين تاريخهم، ويتضمن أخبار العرب قبل الإسلام وسيرة الرسول ومغازيه، ثم ما تلا ذلك من حركة تاريخية على مسرح الحياة الإسلامية.

ومهما يكن من أمر، فقد بدأ تدوين التاريخ فى أوراق فى عهد معاوية ابن أبى سفيان، وأقدم كتاب تاريخى كتبه يمنى هو كتاب دغفل النسابة ت ٦٠هـ وليس من السهل تأكيد أسبقية هذا المؤلف، وكتابه مجالس وأسمار فى دمشق فى قصر الخليفة معاوية– الذى كان شغوفاً بمعرفة أخبار الأوائل والملوك الماضين، ويسمى هذا الكتاب[2] «التظافر والتناصر» وينسب إلى دغفل كتاب «السيرة» وهو يروى أخبار ملوك حمير ومن سبقهم من الأمم الغابرة أمثال عاد وثمود، وقد ذاع صيت هذا الكتاب وعرفه المسلمون بعد وفاته بسنوات طوال، حتى أن الخليفة الرشيد أمر أحد كتابه بأن ينسخ له نسخة من هذا الكتاب. وبذلك برز فى القرن الأول الهجرى ثلاثة مؤرخين يمنيين كتبوا عن تاريخ بلادهم القديم وهم دغفل وعبيد بن شربة ووهب بن منبه.

وأقدم من كتب عن التاريخ فى اليمن فى فجر الإسلام، عبيد بن شربة، فقد صنف فى بلاد معاوية كتابه المشهور «الملوك وأخبار الماضين[3]»، ويتضمن أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، وهذا الكتاب عبارة عن أحاديث عبيد لمعاوية ودونه كتاب معاوية، ونسبوه إليه، ولذلك فإن هذا الكتاب ليس كتابا تاريخيا وإنما مجالس سمر عن أحداث تاريخية وأخبار سالفة.

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص ٥١.

(٢) التحفة البهية ص ٣٨.

(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٨٩.

ويبدأ الكتاب بالحديث عن ولاية معاوية على بلاد الشام، وأخبار ولايته حتى توليته الخلافة، ثم يتحدث عن الإنجازات التى أنجزها معاوية سواء فى ولايته أو خلافته، ويواصل الحديث عن استدعاء معاوية له لمسامرته وشغف معاوية بحديثه وإصداره أمرا لكتابه وعماله بتدوين أحاديثه. ويتضمن الكتاب أخبار اليمن منذ فجر التاريخ والحديث عن ملوكهم وحروبهم فى داخل اليمن وخارجها ورواياته التاريخية يغلب عليها الطابع الأسطورى، والبعد عن الواقع[1] فهو يدون قصص العرب قبل الإسلام التى كانت متواترة بينهم ويحرص على إبراز نسب الأشخاص الذين يتعرض لهم، وحينما يتعرض للأنبياء، يعتمد - إلى حد ما- على القرآن الكريم، ويعتمد- كما يعتمد الأقدمون- على الإسرائيليات عند الحديث عن الأمم الغابرة.

ومن المؤرخين القدامى فى القرن الأول الهجرى، وهب بن منبه وهو من ذمار، وقد تناول سيرة الرسول ومغازيه، كذلك عنى وهب بجمع أخبار اليمن فى كتاب «العباد» وتحدث عن بدء الخليقة وأخبار أهل الكتاب وقصص الأنبياء، ويعنى بصفة خاصة بأخبار المسيحيين واليهود ويعتمد فى معلوماته على المسيحيين واليهود الذين عاشوا فى اليمن، وقد خصص وهب كتاباً له عن تاريخ اليمن يسمى «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»[2]. وقد فقد هذا الكتاب، على كل حال فالأخبار التى أوردها وهب عن ملوك اليمن وأقيالها وغزواتهم فى الأرض كلها أخبار خيالية، وقصص من نسج الخيال، وبعيد كل البعد عن الحقيقة. ولا يمكن الاعتماد عليها فى الحصول على مادة تاريخية؛ وتتضح الأساطير فى حديثه عن بدء الخليقة والطوفان ويأجوج ومأجوج، ويستشهد بالآيات القرآنية والشعر، ويترجم عبارات عن لغات سامية كالعبرية والسريانية والحميرية والآرامية، ويتبع نفس المنهج القصصى والخيالى لعبيد بن شربة، وهو لا يعتمد على التوراة والإنجيل فحسب، بل يستند إلى أقوال أهل الكتاب أنفسهم، ويستخرج معلوماته منهم، فى كثير من الأمور. ويمكن القول بأن هذا الكتاب كتاب تاريخى قصصى لبلاده. ويصفه ابن خلكان بأنه صاحب الأخبار والقصص إذ كانت له معرفة بأخبار الأوائل، وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء وسير الملوك، وقرأ الكتب القديمة السماوية، وذكر ابن قتيبة[3] أنه رأى

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣١٣ - ٣١٦.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٣٢.

(٣) المعارف ص ٦٣٨.

له تصنيفاً ترجمة بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم فى مجلد واحد.

وعلى الرغم من أن تاريخ كل من عبيد بن شربة ووهب بن منبه يبعد عن الحقيقة فى كثير من موضوعاته، إلا أن محاولتهما، تعتبر أول بداية قام بها اليمانية لدراسة تاريخهم القديم.

ومن المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ اليمن القديم، محمد بن السائب الكلبى ت ٢٠٦هـ، كتب عن ملوك اليمن قبل الإسلام، والدول التى تعاقبت على حكم اليمن خصوصاً معين وسبأ وحمير، وكتب عن القبائل العربية وأنسابها وقد اندثرت كتبه، وهى - على ما قيل- مائة وخمسون كتاباً.

وينسب إلى الأصبعى ت ٢١٣هـ كتاب تاريخ ملوك العرب الأولين وإلى مؤرخ مجهول ينسب كتاب «أسرار السير» وكتاب «الإكليل الجامع لأخبار كثير من العرب ووقائعها وأشعارها» وكتاب «الفاصل بين الحق والباطل فى مفاخرة بنى قحطان» وكتاب لابن الوشاء يسمى «وصايا الملوك وأبناء الملوك من أبناء قحطان».

وقد أعقب هذه المحاولات، محاولات أخرى ناضجة، ونمت مع تطور الفكر الإنسانى، واقتربت من الواقع والحقيقة، والجدير بالذكر أن المؤرخين اليمنيين القدامى، حرصوا أن يبدأوا بالحديث عن تاريخ اليمن القديم، ويلى ذلك بالضرورة سيرة الرسول ومغازيه ثم تطور الحياة الإسلامية، ومن أبرز العلماء اليمنيين المؤرخ والجغرافى والعالم الموسوعى الهمدانى، كان يشتغل هو وأسرته فى حمل التجار والحجاج إلى مكة من صعدة وطلب العلم فى مكة، ودرس الفقه على يد الخضر بن داود، ودرس شطراً من علم الحديث، وروى عن شيخه ابن داود السيرة. واقتنى فى مكة الكثير من الكتب كدواوين الشعر ومؤلفات ابن الكلبى فى الأنساب، وغيرها مما نجده منقولا فى كتبه. وصنف كتاباً عن تاريخ اليمن اعتمد فيه على شيخه أبى نصر محمد بن عبدالله البهرى الحميرى وقد أثنى على شيخه كثيراً فى كتبه، فوصفه بأنه شيخ حمير وناسبها وعلامتها، ووارث ماادخرته ملوك حمير فى خزائنها من مكنون علمها، وقارئ مساندها، والمحيط بلغاتها. وقد استفاد فى مؤلفاته التاريخية من شيوخ اليمن، وأحب وطنه وقومه كثيراً، وظهر ذلك واضحاً جليا فى كتبه[١].

---

(١) الهمداانى: صفة جزيرة العرب- انظر المقدمة ص ١١ - ١٢.

وما أورده الهمدانى من معلومات تاريخية فى كتبه دقيق فيما يتعلق باليمن. أما معلوماته عن خارج اليمن فغير دقيقة، لأنه يعتمد على الشعر والشعراء، حينما يتحدث عن القبائل العربية ومنازلها وأنسابها. ووصفه القفطى[1] بأنه- أى الهمدانى- الأديب النحوى الطبيب المنجم الإخبارى اللغوى نادرة زمانه، وفاضل أوانه الرفيع القدر الكبير الذكر صاحب الكتب الجليلة والمؤلفات الجميلة.

حرص الهمدانى على الاتصال بعلماء عصره، فكاتبهم وراسلهم، واتصل بمن استطاع الاتصال به، وقد استقر فى صعدة- مقر الأئمة الزيدية، وخاض معارك شعرية فى صنعاء- ضد الإمام الناصر، لأنه دافع عن القحطانية، وتعرض للعدنانية، وقد حث الناصر - أسعد بن يعفر - والى صنعاء - على القبض عليه فزج فى السجن، وكانت له أشعار فى السجن، أضعفت من مركز الناصر وأوجدت معارضة ضده وأدت إلى زوال ملك الناصر، وقتل أخيه الحسين بن يحيى[2].

صنف الهمدانى كتاب «شرح الدامغة» وقد اعترض الزيديون على هذا الكتاب واعتبروه موجها ضدهم، ورموه بالكذب والنفاق، وزجوه فى السجن، ولما أفرج عنه، اشترك فى ثورة ضد الإمام الناصر، وحارب ضده[3].

وكتاب الإكليل من أشهر كتب الهمدانى، أبرز فيه أنساب القبائل اليمانية. ومعلوماته عن اليمن القديم صحيحة إلى حد كبير لأنه كان يقرأ النقوش الحميرية فى علم الطبيعة والنجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوثه، واختلافهم فى أدواره، وتناسل الناس، وتقرير أعمارهم وأصول أنساب العرب والعجم ونسب ولد حمير، ويقع فى عشرة أجزاء[4]، وهو يهتم بالتاريخ القديم أكثر من التاريخ الإسلامى مع أنه من كتاب القرن الرابع الهجرى.

ومن المؤرخين اليمنيين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الرازى ت ٤٦٠ هـ ومعلوماتنا عنه قليلة، وكل مانعرفه عنه ورد فى ترجمة له فى كتاب «السلوك فى طبقات العلماء والملوك» لبهاء الدين الجندى، ويبدو أن الرازى غير يمنى الأصل ويرجع أنه من أصل فارسى، صنعائى المولد، وعاشت أسرته فى اليمن. ولكننا لانعرف تماما هل قدمت

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٣٠.

(٢) الهمدانى: صفة جزيرة العرب انظر المقدمة ص ١٤.

(٣) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ١٥.

(٤) المصدر السابق ص ٢١.

هذه الأسرة من فارس إلى اليمن قبل الإسلام فى القرن السادس الميلادى، أم قدمت بعد الإسلام مع الإمام الزيدى.

والرازى كان عالما محدثاً فقيها، يتبع مذهب أهل السنة والجماعة، واسع المعرفة، وهذا يتضح بجلاء فى كتابه « تاريخ صنعاء » ولم يظهر للرازى غير هذا الكتاب، وذكر الجندى بأن هذا الكتاب متداول بين الناس فى زمانه- أى فى القرن الثامن الهجرى - وقد اعتمد عليه الجندى فى كتابه « السلوك »[1]. والرازى إمام عارف بالفقه والحديث، واقترب الرازى فى كتابه أواخر القرن الخامس الهجرى ويذكر سهيل زكار أن أسرة الرازى قدمت مع الطبرانيين من طبرستان فى رحلة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وحاربت معه واستوطن بعض أفرادهاصنعاء وحضرموت وقدمت أسرة فارسية أخرى إلى اليمن بعد قيام دولة الهادى إلى الحق حتى يضمنوا لأنفسهم الحماية فى ظل المذهب الزيدى، ويفروا بمذهبهم المضطهد فى بلادهم[2].

وتأتى أهمية كتاب الرازى، أنه الكتاب الوحيد المعروف عن تاريخ هذه المدينة، والكتاب لايترجم لكثير من الرجال، وإنما ترجم لبعض من قدم إلى صنعاء من أصحاب الرسول والولاة ورجال العلم والحديث، وأورد بعض الأحداث التاريخية وأخبار الرسول والصحابة والتابعين والفتوحات الإسلامية وتفسير بعض آيات القرآن الكريم. ويورد المؤرخ فى كتابه بعض الأساطير، حينما يتحدث عن بداية الخلق وعدد سكان صنعاء وعدد دورها ومساجدها، ويورد المؤرخ فى كتابه بعض الأحداث التاريخية المعروفة، دون جديد فيها، ولكنه انفرد ببعض الأخبار، وأصبح كتابه مصدراً لمؤرخين لاحقين مثل الجندى[3] ولم ينس الرازى أنه من أصل فارسى، فقد ترجم للكثير من الأبناء المقيمين فى اليمن.

كان جياش بن نجاح- أمير زبيد وتهامة- أديباً شاعراً له ديوان شعر ضخم وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيد»[4] قال عنه بامخرمة «هو كتاب عزيز الوجود بل هو من زمن مفقود» وذكر أن سبب ندرته أن جياشا ذكر مثالب بعض الأقوام، وكشف أنسابهم، فكانوا يشترون ماوجدوه منه، بأغلى ثمن، ثم يتلفونه، حتى فقد وندر وجوده[5].

---

(١) تاريخ صنعاء ص ٢٢.

(٢) تاريخ صنعاء ص ٢٢.

(٣) الرازى: تاريخ صنعاء ص ٢٩.

(٤) ابن سمره: طبقات الفقهاء ص ١٠٤.

(٥) تاريخ ثغر عدن جـ٢. ص ٤٧.

يأتي بعد ذلك مؤرخ مشهور هو عمارة اليمنى وهو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى المذحجى الملقب نجم الدين الشافعى ولد سنة ٥١٥هـ فى وادى السباع : ورحل إلى زبيد سنة ٥٣١هـ حيث تلقى العلم فى مدارسها أربع سنوات على كثير من العلماء، وتلقى أصول المذهب عن ابن الأبار، واشتغل بعد ذلك بالتجارة، وسافر إلى عدن، والتقى فيها بالأديب أبو محمد...، وبرزت موهبته الشعرية، ونال تقدير الملوك والأمراء فى اليمن، ونال حظوة آل زريع بصفة خاصة حتى كان من أشهر وأبرز شعرائهم.

ودخل عمارة فى خدمة شريف مكة قاسم بن هاشم بن فليتة سنة ٥٤٩هـ وأوفده رسولا إلى الخليفة الفاطمى الفائز فى القاهرة، ونال تقدير الخليفة بعد أن مدحه بقصيدة شعرية رائعة، ونال تقدير الوزير رزيك وعاش فى مصر فى أرغد عيش وأعز جانب، وعاد إلى مكة ومنها إلى زبيد. وأوفده صاحب مكة ثانية سنة ٥٥١هـ إلى مصر، وبقى بها ولم يفارقها، وكان شافعى المذهب، شديد التعصب للسنة. أديبا ماهرا مجيدا محدثا ممتعا. وعلى الرغم من تمسكه بمذهب السنة طوال حياته، إلا أن عرا الصداقة والمودة، استمرت بينه وبين الحكومة الفاطمية فى مصر التى كان يدين خلفاؤها ووزراؤها بالمذهب الشيعى[1].

وقد أخلص عمارة للفاطميين، فنظم قصائد شتى فى مدحهم، وأحسن الملك الصالح رزيك وبنوه لعمارة كل الإحسان، وله فيهم مدائح كثيرة، وكانت بينه وبين الكامل بن شاور صحبة. وظل على ولائه للفاطميين حتى زوال دولتهم، فلما ملك صلاح الدين مصر، مدحه عمارة، كما مدح جماعة من أهل بيته، ويتضمن ديوانه جميع هذه القصائد. وفى أثناء إقامته فى مصر صنف كتاباً عن تاريخ اليمن هو المعروف باسم «المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد» بدأ تأليفه سنة ٥٦٣هـ. وهذا الكتاب من المراجع الرئيسية فى تاريخ اليمن، اعتمد عليه الكثير من المؤرخين المسلمين أمثال ابن الأثير وابن خلكان وأبى الفدا وابن الديبع ويحيى بن الحسين وإدريس عماد الدين.

ولعمارة اليمنى كتاب «النكت العصرية فى أخبار الديار المصرية» نشره المستشرق الفرنسى دير نيورج فى مدينة شالون بفرنسا سنة ١٨٩٧م. وله كتاب (نموذج ملوك اليمن).

ولما كان عمارة متعلقا بحب الفاطميين، فقد ظهر هذا فى شعره وكتاباته، الأمر الذى أدى إلى اضطهاد الأيوبيين له على الرغم من مديحه لهم، وقد عرض عمارة حياته

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان: جـ٣ ص ١٠٩.

للخطر بسبب حبه للفاطميين، وعدم ارتياحة للأيوبيين. لذلك تعرض لعقاب صلاح الدين يوسف بن أيوب، ودافع عنه القاضى الفاضل، واتهم بالانضمام إلى عدد من أهل مصر فى قلب نظام الحكم الأيوبى، وكشف صلاح الدين المؤامرة، وقبض على المتآمرين سنة٥٦٩هـ، وأمر بإعدامهم، ونسب إليهم تدبير مؤامرة للتخلص من صلاح الدين، ومكاتبتهم الفرنج، ليجلسوا ولد العاضد، ويعيدو الحكم الفاطمى إلى مصر، بعد أن يزيلوا ملك بنى أيوب ولم ينكر المتآمرون المؤامرة[1].

ويعتبر كتاب عمارة المفيد من أهم المصادر التاريخية عن دولة بنى زياد ودولة بنى يعفر والدولة الصليحية والدولة النجاحية ودولة بنى زريع. كما أنهى الكتاب بفصل ممتع عن شعراء اليمن فى تلك الفترة.

وقد أدى ظهور المذاهب فى اليمن وتنازع قادتها فيما بينهم واستنكار كل فريق لمذهب الفريق الآخر، إلى سعى قادة هذه المذاهب إلى المؤرخين لكتابة تراجم عنهم، وإبراز مناقبهم وسيرهم، ومن هؤلاء المؤرخين، على بن محمد العلوى العباسى الذى ألف كتاب «خبر الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وانتشارالمذهب الزيدى فى اليمن، من رواية محمد بن سليمان الكوفى وغيره» وهو تاريخ لجهود هذا الإمام فى نشر المذهب الزيدى والصعاب التى واجهته، والمعارك التى خاضها والإصلاحات التى أنجزها، وبث الروح الإسلامية بين أتباعه ورعاياه، ثم ظهر المؤرخ عبد الله بن محمد الهمدانى، فكتب «سيرة الناصر أحمد بن يحيى بن الحسين» ت ٣٢٥هـ، وفقد هذا الكتاب، ووصلتنا موضوعات منه عن طريق علماء قرءوه.

ومن كتب سير الأئمة الزيدية كتاب «درر نحور الحور العين فى سيرة الإمام المنصور على بن العباس» ويتناول مؤلف هذا الكتاب الحياة السياسية فى عصر هذا الإمام، ولايتحدث عن سيرة هذا الإمام إلا قليلا.

وفى القرن الرابع الهجرى صنف المؤرخ الحسين بن أحمد بن يعقوب اليمنى كتابا عن سيرة الإمام المنصور القاسم بن على العيانى ت ٣٩٣هـ، وأتى بعده المؤرخ سليمان الثقفى، فكتب عن سيرة الإمام المتوكل سليمان بن أحمد بن سليمان ت ٥٦٦هـ فى مجلد كبير. وللمؤرخ نشوان الحميرى ٥٧٣هـ «سيرة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣، ص ١١٢. انظر ترجمة عن عمارة فى مقدمة كتابه.

ت ٦١٤هـ» فى أربعةمجلدات، وله كتاب «منتخبات فى أخبار اليمن» من كتاب «شمس العلوم ودواءكلام العرب من الكلوم» وله مختصر كتاب «الإكليل» للهمدانى.

كذلك صنف أحمد بن على بن أبى بكر العرشانى من أهل القرن السادس «ذيل تاريخ الطبرى » وذيل تاريخ القضاعى، من زمن الحاكم حتى زمن المستنصر. إلى غير ذلك من المؤلفات عن الأئمة الزيدية والأئمة الأربعة[1].

وأول الكتب التاريخية فى تاريخ اليمن الإسلامى والتى عبرت عن اتجاه شخص معاد، كتاب «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» تأليف الفقيه أبى عبد الله محمد بن مالك ابن أبى الفضائل الحمادى اليمانى – من فقهاء السنة باليمن – فى أواسط المائة الخامسة الهجرية، وقد اختلط بالصليحيين الشيعة، حتى ألم بمذهبهم، وعرف أسراره، وخبر أغواره، وكشف فى هذا الكتاب أسرارهم غير أنه يتحامل بشدة على الدعاة الإسماعيلية لدرجة أنه يتجاهل كل حسناتهم ويبالغ فى ذكر سيئاتهم ويرميهم بالكفر والإلحاد، وحذر المسلمين من اعتناق مذهبهم والاغترار بأفكارهم.

وفى مجال العلوم الأخرى كالجغرافيا والفلسفة نأخذ مثالا واحداً وهو الهمدانى الذى سبقت الإشارة إليه – فقد تأثر بأفكار اليونان والهند فى كتابه «سرائر الحكمة» وقال عنه القفطى[2]: الأديب النحوى الطبيب المنجم. وللهمدانى كتاب «صفة جزيرة العرب» ويدل هذا الكتاب على سعة معلوماته فى علم الجغرافيا، ولقد نقب عن غرائبه ونوادره، ويكتب عن اليمن عن رؤية ومعرفة، وينقل فيما يختص بالأجزاء البعيدة عن اليمن ويوضح كتاب سرائر الحكمةمدى إحاطته بمبادئ الفلسفة عن أصل العالم وقواعد المنطق والكلام، وقد اشتهرت كتبه فى عالم الإسلام وتداولها الأندلسيون، وسبقت غيرها من كتب المشرق[3].

قلنا أن مجال اشتغال اليمنيين بالعلوم الطبيعية كان محدوداً جداً، وقد روى ابن المجاور أن أهل ذمار لهم دراية كافية بمعرفة الجواهر وعلم الكيمياء وعلم النجوم والنحو والمنطق.

ومن علماء الهندسة القاضى الرشيد أحمد بن أبى الحسين الغسانى الأسوانى المجرى[4]، وقد استغل مواهبه الهندسية فى تخطيط مدينة زبيد. ويسر دخول الماء إليها من

---

(١) انظر كتاب أعلام الفكر الإسلامى فى اليمن.

(٢) أخبار العلماء ص ١٣٠.

(٣) تاريخ ابن المجاور جـ٢ ص ١٩٢.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٦٤.

عين قريبة منها تسقى البساتين حول المدينة. وفى مجال علم الفلك كتب الهمدانى كتاب زيج الهمدانى واعتمد عليه أهل اليمن، وكتب «أسماء الشهور والأيام» – «الطالح والمطارح». ولنشوان بن سعيد الحميرى أرجوزة فى معرفة الشهور اليمنية، ولابن المبردع كتاب «اليواقيت فى المواقيت» ويعتمد عليه أهل اليمن كثيراً.

كذلك ظهرت مؤلفات فى الطب، فكتب الهمدانى «القوى فى الطب» وكتب محمد بن أبى بكر فى القرن السابع الهجرى «مادة الحياة وحفظ الناس من الآفات» وكتاب «الدرة المنتخبة فى الأدوية المجربة»[1].

والدراسة فى اليمن شأنها شأن البلاد الإسلامية تبدأ فى الكتاتيب ويتعلم فيها التلاميذ القرآن الكريم والكتابة والقراءة والحساب. أما الدراسة المتخصصة فمقرها المسجد، وتعقد فى المسجد حلقات للدرس في التفسير والحديث وعلم الكلام، والطالب يتردد على الحلقة التى تتناسب مع ميوله. كذلك اهتم طلاب العلم بالرحيل إلى المدن الأخرى لطلب العلم من الشيوخ المعروفين، والسبب فى ذلك أن الناس يأخذون معارفهم تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة، وتلقينا بالمباشرة، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، «فالرحلة لابد منها لطلب العلم، واكتساب الفوائد»[2].

أما المدرسة فقد ظهرت بالمعنى المعروف لأول مرة فى بلاد اليمن فى ظل الحكم الأيوبى، فينسب إلى المعز إسماعيل بأنه أول من شيد المدارس فى اليمن، وأول مدرسة كانت فى زبيد، وأسماها السيفية، نسبة إلى ابنه سيف الإسلام طغتكين، وكان المعز إسماعيل شاعراً له ديوان شعر. ولما ولى سيف الدين سنقر تربية الناصر بن سيف الإسلام– وكان طفلا– بعد مقتل المعز إسماعيل، أغلق مدرسة المعز، وأخرج الفقهاء الشافعية منها، وحول وقفها إلى الأحناف فى مكة، وشيد مدرسة كبيرة فى زبيد[3].

(١) الحبشى: اعلام الفكر الإسلامى ص ٤٩٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ٥٤١.

(٣) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٧٦.

الحركة الفكرية فى اليمن في عصر دولة بنى رسول

تمهيد :

لما دخل اليمنيون في دين الاسلام، أصبحت بلاد اليمن ولاية إسلامية يحكمها الولاة المسلمون من قِبَلِ الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين حتى عصر الخليفة المأمون.

اضطربت بلاد اليمن كل الاضطراب في عصر الولاة، ودارت على الساحة اليمنية صراعات قبلية وحروب بين القوى المحلية، فأسند الخليفة المأمون إلى بنى زياد حكم تهامه وزبيد، واستقلوا بهذه البلاد استقلالا ذاتيا فى ظل الحكم العباسى، ومنذ أن قامت دولة بنى زياد فى اليمن شهدت هذه البلاد عصر الدول المستقلة، وكان يحكم بلاد اليمن أكثر من دولة، وقامت دول بنى يعضر ودولة الأئمة الزيدية، وكذلك دولة بنى نجاح والدولة الاسماعيلية الأولى، أيضا دولة الصليحية ودولة بنى زريع وغيرها. ولم تستقر أحوال البلاد فى ظل حكم هذه الدول بل قضت هذه الدولة أيامها فى حروب وصراعات مع القوى المنافسة بدلا من العمل على تحقيق الحياة الكريمة لمواطنيهم، فساءت أحوال البلاد الاقتصادية، وقاسى المواطن اليمنى الكثير من الشدائد، لأنه وقود هذه المعارك.

وظل أمر اليمن كذلك حتى غزا بنوأيوب اليمن، وقضوا على هذه الدول؛ وتوحدت بلاد اليمن فى ظل الحكم الأيوبى، الذى حكم البلاد فى الفترة مابين سنة ٥٦٩هـ حتى سنة ٦٢٦ هـ.

كان نور الدين عمر بن رسول نائب الملك المسعود – آخر ملوك بنى أيوب فى اليمن– يضمر الاستقلال بهذه البلاد، فلما توفى الملك المسعود، حكم نور الدين عمر بن رسول البلاد نيابة عنهُ إلى أن يتمكن من السيطرة على البلاد، وظل فترة من الوقت يدعم نفوذه فى البلاد حتى دانت له بالولاء والطاعة وتوطد فيها سلطانه، وأرسل إلى الخليفة العباسى الهدايا حتى يحصل منه على تقليد بحكم اليمن. وفى سنة ٦٣٢ تحققت أمنيته، ووصّل إلى غايته، فأرسل اليه الخليفة العباسى[1]، العقد والخلع وبذلك اكتسب حكمه لليمن الصفة الشرعية.

١– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٩ – ٥٤.

اختلف المؤرخون فى نسب بنى رسول، فيذكر بعضهم أنهم تركمان لأن جدهم محمد بن هارون كان يتكلم التركمانية، ويعتقد آخرون أنهم من أبناء الغساسنة، ويوفق البعض بين الرأيين ويقول أنهم غساسنة تركمان بمعنى أن أجدادهم الغساسنة، نزحوا إلى بلاد التركمان واستوطنوا فيها، ويرى البعض أنهم فرس لأن جدهم يسمى رستم، ولكن ليست هذه التسمية دليلا كافيا على أنهم فرس، ولكننا نرجح أنهم تركمان، بدليل أن جدهم محمد بن هارون كان يتكلم التركمانية، كما أن عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك فى مصر، كان يلقب بالتركمانى، وهو أصلا من مماليك محمد بن هارون. أما القول بأنهم غساسنة، فيبعد عن الحقيقة ونسبهم مؤرخوهم إلى الغساسنة، تمشيا مع الاتجاه السائد فى العالم الاسلامى آنذاك، وهو أن تنسب الأسر غير العربية التى وصلت الى حكم بعض الولايات أصلها إلى عائلات عربية عريقة كالغساسنة أو بنى أمية، كما فعل الأيوبيون[1].

حكم بنو رسول اليمن فى الفترة مابين سنة ٦٢٦ هـ حتى سنة ٨٥٨ هـ، وكانت بلاد اليمن مقسمة إلى قسمين، يحكم الرسوليون بلاد اليمن الأسفل، أما الزيديون فيحكمون صنعاء وما يليها، ومن الناحية الاقتصادية يعتبر عهد بنى رسول عهد ازدهار. ذلك لأهمية العلاقات التجارية بين اليمن وكل من الهند والصين عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى، وخاصة فيما يتعلق بالتوابل، وقد زادوا الضرائب على البضائع المارة بعدن والهند والصين الأمر الذى أدى إلى عدول أصحاب المراكب الآتية من هذه البلاد عن الاستراحة فى ميناء عدن، والاستراحة فى جده.

وكانت العلاقات بين دولة بنى رسول ودولة المماليك فى مصر تدور حول تنافس البلدين حول امتلاك بلاد الحجاز، ذلك أن المماليك حرصوا على نيل شرف امتلاك الأراضى المقدسة، وحماية الحرمين الشريفين، والسيطرة على طريق البحر الأحمر. وكان بنو رسول ينافسوهم حول السيطرة على الحرمين الشريفين وعلى تجارة البحر الأحمر.

١ - عصام الدين عبد الرءوف: اليمن فى فجر الإسلام ص ٢٢٦.

أسباب ازدهار الحركة الفكرية فى بلاد اليمن فى عصر بنى رسول:

ازدهرت الحركة الفكرية فى بلاد اليمن فى عصر بنى رسول ازدهارا لم تعرفه بلاد اليمن من قبل، ذلك أن هذه الدولة حكمت بلاد اليمن فى مستهل القرن السابع الهجرى، وهى فترة كافية أتاحت لليمانية الفرصة لاستيعاب الفكر الإسلامى والتعبير عنه. حقيقة جاءت هذه الفترة متأخرة عن فترة نهضة البلاد الإسلامية الأخرى – التى بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى – فالحياة السياسية فى هذه البلاد كانت أكثر استقرارا منها فى اليمن، وهذه البلاد ورثت تراثا ثقافيا كبيرا عبرت عنه بعد أن اندمجت فى الحياة الإسلامية، وصاغته فى قالب إسلامى، وهضمت الفكرين العربى والاسلامى وعبرت عنهما فيما عرف بالعلوم العقلية والنقلية.

أما بلاد اليمن فقد قضت القرون السابقة فى صراعات قبلية مريرة، وخلافات مذهبية، وقامت دول علي الساحة اليمنية تحارب بعضها بعضا حول السيطرة على البلدان اليمنية. والفرد اليمنى هو وقود هذه الحرب. وهذه القلاقل والاضطرابات شغلت الفرد اليمنى عن مسايرة الحركة الثقافية فى عالم الإسلام. كما أن اليمانية قد أغراهم طيب الحياة ورغدها فى الأرض الخضراء التى دخلت فى حوزة الدولة الإسلامية فهاجروا إليها حرصا منهم على المعيشة فى مستوى أفضل.

شجع ملوك بنى رسول الحركة الفكرية فى اليمن، وعملوا على نموها وازدهارها، وكانوا يحرصون على التزود بـ العلم، فوفدوا على العلماء والفقهاء فى القرى، وقرأوا عليهم بعض الكتب واستمعوا إليهم، وذكر الخزرجى[1] أن نور الدين عمر بن رسول، طلب من ابن مضمون – المدرس بالمدرسة الوزيرية – أن يتردد على حصنه فى أوقات معينة ليدرس له الفقه واللغة، واستمع نور الدين والمظفر الحديث على الشيخ أبو عبد الله محمد الفشلى ٦٦٦ هـ، واستدعى الملك المظفر إلى تعز عالم النحو واللغة أبو الحسن[2] على بن أبى المسعود بن الحسن ليعلم ابنه الملك الأشرف[3]. واستمع الملك الأشرف إسماعيل إلى

١– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٦ – ٥٧.

٢– ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٨٣. طبقات الخواص ص ٦

٣– السيوطى: بغية الوعاه جـ١ ص ١٦٧.

صحيح البخارى وكتب الحديث الأخرى على الفيروزإبادى[1] ؛ وملوك بنى رسول علماء لهم مصنفات فى فروع شتى من العلم، فالملك المظفر تفقه فى الحديث والفقه والنحو واللغة والمنطق، وجمع أربعين حديثا من أحاديث الرسول، عشرون فى الترغيب، وعشرون فى الترهيب، وله مصنفات فى الفلك والأدب[2]. أما ابنه الأشرف فقد صنف كتابا فى الطب يسمى الجامع وله كتب فى الفلك والنجوم والأدوية والبيطرة والزراعة والأنساب[3]، ولأخيه المؤيد كتاب فى الأدب، واهتم الملك المجاهد على بن داود ٧٦٤هـ، بدراسة طب الحيوان[4]. وللسلطان الأفضل ٧٧٨هـ مؤلفات عديدة فى التاريخ والأنساب والتراجم[5]. أما الأشرف أسماعيل فينسب إليه العديدة من المؤلفات التاريخية[6]. وكان إذا وضع مسودة كتابه يرسلها إلى بعض العلماء لمراجعتها لغويا وعلميا، ويعدل المسودة على ضوء الملاحظات، ثم يأمر بنسخها.

اجتذب ملوك بنى رسول إلى بلاطهم علماء الحديث والأدب والتاريخ من اليمن وخارجها، ويسروا للعلماء الذين وفدوا عليهم من خارج اليمن الإقامة فى رغد العيش. ويقول العمرى : إن صاحب اليمن يرغب دائما فى استقدام الغرباء.

ومما لاشك فيه أن قدوم هؤلاء العلماء إلى اليمن، أفاد كثيرا من الدارسين، وأدى إلى انتعاش الحركة الفكرية، لأن بلاد اليمن – وهى تنهض فكريا – كانت فى حاجة إلى الاستفادة من دراسات هؤلاء العلماء، وأغرى سلاطين بنى رسول العلماء بالعطايا السندية والصلات الجمة، وطلبوا منهم تصنيف الكتب القيمة فى فروع تخصصهم، وعقد الندوات العلمية، ومنهم العماد الاسكندرى والقطب العسقلانى وابن حشيش واسحاق الطبرى، وعنه أخذ غالب فقهاء تعز كتب الحديث، وشغف الدارسون بنسخ كتبه واقتنائها[7].

١– بامخرمه : المختار فى تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص٢٧.

٢– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٧٧.

٣– المصدر السابق.

٤– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ١٢٤.

٥– بامخرمه : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٥.

ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٩٩

٦– بامخرمه: المختار فى تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٧.

٧– السخاوى: الضوء اللامع جـ٥ ص ٢١.

وقدم إلى اليمن أبو الحسن على بن سيرين إسماعيل بن الحسن الواسطى، واجتمع إليه الفقهاء فى تعز واستفادوا من دروسه فى علم الحديث[1].

واستدعى الملك المؤيد الأمير الدين الحسن بن أحمد بن المختار، وهو فيلسوف وعالم فى الهيئة والهندسة الرياضيات «وكان مشاركا فى كل فن وضاربا فى كل علم بنصيب»، وقد قدر السلطان جهده وعلمه[2].

كذلك أستقدم الملك الأشرف اسماعيل الى اليمن، مجد الدين الفيروزأبادى، وهو من أئمة اللغة والأدب، ولد فى كازرون من أعمال شيراز، وانتقل الى العراق، وجال فى مصر والعلم وبلاد الروم والهند، وانتهي به المطاف في زبيد سنة ٧٩٦ هـ، فأكرم الملك الأشرف وفادته، وقرأ عليه وولاه قضاء زبيد[3] وانتشر اسمه فى الآفاق حتى كان مرجع عصره فى اللغة والحديث والتفسير، ولما اعتزم الفيروزابادى مغادرة اليمن إلى مكة المكرمة، رفض الملك الأشرف وقال : « إن هذا شئ لاينطق به لساني، ولا يجرى به قلبى، فقد كانت اليمن عمياء فاستنارت .. أنى أرى فراق الدنيا ، ولافراقك أنت اليمن وأهله[4]» وهذا يدل على مدى تقدير ملوك بنى رسول للعلماء وتمسكهم بتزيين بلاطهم بأفكارهم ودراساتهم، بل رفعوا من قدرهم، وأعفوا ممتلكاتهم من الضرائب.

وأدى انتشار المكتبات العامة فى المدن وفى بيوت الشيوخ وكبار رجال الدولة إلى إقبال طلاب العلم عليها للقراءة والتزود من المعرفة من بطون الكتب وجمع المادة العلمية الضرورية لهم، ومن أمثلة هذه المكتبات، مكتبة مسجد الأشاعر التى أوقف كتبها للقراءة الفقيه محمد بن عبد الله الحضرمى[5]. كما اشترى الشيخ احمد بن محمد الشكيل الطوسى العديد من الكتب، وكون مكتبة فى بلده، وأوقفها لصالح طلاب العلم[6].

وكانت مكتبة الملك المظفر تضم أمهات الكتب، فكان يضبطها بخط يده حتى أن من رآها يقول : لم يكن له شغل طول عمره مع كثرة اشتغاله بالعلم فى فنون شتى،

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٥٧.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٤٣٥.

٣- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٩٤.

٤- السخاوى: الضوء اللامع جـ١ ص ٨٤.

٥- ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٨٥.

٦- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ١٨٨.

واشتغاله بأمور المملكة، وكان الملك المظفر يأذن للمقربين إليه من أقاربه ومن العلماء ومن كبار رجال الدولة والاستفادة من المكتبة[1].

ومن أهم المكتبات فى اليمن مكتبة الملك المؤيد، وكان بها نساخ ينسخون الكتب حتى تتعدد نسخ الكتاب الواحد « وترفع إلى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها » وقد ضمت مكتبة هذا الملك نحو مائة ألف مجلد، وحرص على أن يزود مكتبته بالكتب التى يراها ضرورية مهما ارتفع ثمنها، ومهما بعد مكان بيعها، فاشترى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى بمائتى دينار وقيل بأكثر من ذلك[2].

تعددت المكتبات فى بيوت العلماء وتضمنت العديد من الكتب، ومن أهم هذه المكتبات الخاصة مكتبة أحمد بن محمد الشكيل ٦٥٤هـ، كان ينسخ بيده عدة كتب فى مكتبته، ويضيف إليها الكتب التى يشتريها، ووقفها لصالح طلبة العلم[3]. ومن المكتبات الخاصة مكتبة عبد الله بن العباس الحجاجى ٦٧٠هـ، وتضمنت مكتبته أكثر من خمسة آلاف مجلد. وتضمنت مكتبة أبى الخير منصور الشماخى ٦٨٠ هـ مائة أصل سوى المختصرات، وتضمنت مكتبة الأديب عمر بن على العلوى ٧٠٣ هـ مجموعة نادرة من الكتب بلغ مافيها من الدواوين الشعرية نحو خمسمائة ديوان[4].

وبلغ شغف ملوك بنى رسول وطلاب العلم فى اليمن بالعلم أنهم أرسلوا مندوبين عنهم إلى البلاد الإسلامية لشراء أمهات الكتب حتى يزودوا مكتباتهم بها، فكان الملك الأشرف يقبل على دراسة علم التفسير، وقد علق على كتاب التفسير للفخر الرازى فقال : لقد طلبت أربع نسخ من مصر للفخر الرازى، ووجدت فيها نقصانا، فأرسلت بطلب نسخة من مدينة هراة فى خراسان فرأيت فيها نفس النقصان، فأكملته[5].

وبرزت فى اليمن طائفة النساخ يعملون بنسخ الكتب، ومنهم علماء، فتعدد نسخ الكتاب الواحد[6] فيكون فى متناول الدارسين وطلاب العلم، وخوفا على الكتب من

١- الجندى: السلوك ورقة ١٧٨.

٢- المصدر السابق ورقة ١٨٠.

٣- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ٨٨.

٤- المصدر السابق جـ٢ ص ١٢٦.

٥- المصدر السابق جـ١ ص ٢٧٨.

٦- المصدر السابق جـ٢ ص ٥٦.

الضياع، كان العالم يوقف كتبه أما على ورثته، أو على أفراد مذهبه أو على طلابه. وبذلك يمكن تجنب تسرب الكتب وفقدانها. ويكتب بذلك وصية يروى فيها شروطه، وتتضمن عدم التصرف فى الكتب وبيعها وكان يوم الانتهاء من تصنيف كتاب فى اليمن يوم عيد، يحتفل به العلماء والطلاب، ويقدمون نسخة إلى السلطان فى موكب علمى كبير يدل دلالة واضحة على تقدير أهل اليمن للعلم وأهله ودليلنا على ذلك أن الملك الأشرف الثانى إسماعيل بن العباس حمل إليه فى أيامه، مصنف قاضى القضاء جمال الدين الريمى المسمى «التفقيه فى شرح التنبيه» ويقع فى أربعة وعشرين مجلدا – بالزف والطبل – وسارت بين يديه القضاة والعلماء والأمراء من باب السلطان، يحمله الطلبة فى أطباق الفضة ملفوفة بالثوب الحرير والديباج، وأجازه السلطان عليها باثنى عشر ألف دينار «حفاظا للعلم، ورفعا لدرجته، إذ هو بركة الدنيا والآخرة »[1].

وفى منتصف شعبان سنة ٧٩٨هـ انتهى الفيروزابادى من تصنيف كتاب ألاصفاد فى الاجتهاد» وحمل إلى باب السلطان الأشرف فى موكب حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة يطبلون ويغنون والكتاب يقع فى ثلاثة مجلدات يحمله ثلاثة رجال على رءوسهم. وقد سر السلطان بالكتاب وتصفحه وكافأ الفيروزابادى بثلاثة آلاف دينار[2].

ومن أسباب النهضة الفكرية فى بلاد اليمن فى عصر بنى رسول، استتباب الأمن والنظام فى هذه الدولة، وسيطرة بنى رسول الكاملة على هذه البلاد.

وجد العلماء الأمن والطمأنينة الأمر الذى شجعهم على التأليف والتصنيف، وبلاد اليمن لم تشهد هذا الاستقرار من قبل، فقد رأينا قبل الحكم الرسولى، كيف كانت القوى الطامعة فى الحكم، تتنازع فيما بينها حول السيطرة والنفوذ، وتختلف مذاهبها، ويتعرض علماء المذهب المخالف للاضطهاد، الأمر الذى يؤدى إلى هجرة العلماء، أو عرقلة جهودهم الفكرية.

ومن عوامل ازدهار الحركة الفكرية فى اليمن فى ذلك العصر تعدد المذاهب الدينية فى اليمن، والتنافس بين أهل هذه المذاهب، مما دفع علماء كل مذهب إلى الرد على رجال المذهب المخالف، وخير وسيلة للرد هى التأليف والتصنيف. وصنف الأئمة الزيدية وشيوخ

---

١ – ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٩٤ ، ص ١٠١.

٢ – الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ٢٩٧.

المذهب العديد من الكتب المتضمنة لآراء وأفكار المذهب والرد على المذاهب الأخرى، على حين رأى علماء الشافعية والحنفية ضرورة إبراز أصول ماذهبوا إليه، الأمر الذى أدى إلى ظهور العديد من المؤلفات القيمة، وجمع بين علماء الزيدية والسنة عداء مشترك للإسماعيلية وآرائهم فى الظاهر والباطن، فصنفوا المصنفات العديدة لدحض آراء الإسماعيلية، وجدير بالذكر أنه بقيت باليمن فئة قليلة منهم بعد سقوط دولتهم الصليحية.

وقد أقبل الناس على طلب العلم بحماس منقطع النظير، فتعددت وتنوعت الرحلات العلمية، فطلاب يرحلون إلى شيوخ وفقهاء اليمن فى القرى والمدن، يأخذون عنهم العلم، وطلاب يرحلون إلى خارج اليمن فى مصر والشام والعراق للالتقاء بشيوخ هذه البلاد، وكانوا يقضون السنين الطوال فى طلب العلم ولايعودون إلى بلادهم إلا بعد أن يرتفع مستواهم العلمى، وينشرون رسالتهم العلمية بين طلابهم، والجدير بالذكر أن الرحلة لطلب العلم من أسباب التقدم الفكرى فى بلاد اليمن وغيرها من بلاد الإسلام، لأن الرحلة تؤدى إلى احتكاك الثقافات فى البلاد المختلفة وامتزاجها فى النهاية، وتؤدى الرحلة إلى نشر ماتوصل إليه العلماء الكبار فى بحوثهم، وذلك عن طريق الطلاب الذين يرحلون إليهم، وقد تكون هذه البلاد فى حاجة إلى دراسات هؤلاء العلماء، فتستطيع أن تغطى حاجتها الثقافية من خلال رحلات طلاب العلم.

ولاننسى أن البلاد الإسلامية المجاورة لليمن - وخاصة مصر والشام والعراق - كان لها دور كبير فى ازدهار الحركة الفكرية فى اليمن فى عصر بنى رسول، فدولة المماليك فى مصر، عاصرت دولة بنى رسول فى اليمن، وغدت محورا لنشاط علمى متعدد الأطراف، فلما انتكس المسلمون فى بغداد والأندلس على أيدى المغول والأسبان، وبلاد الشام على أيدى الصليبيين والمغول، لم يعد علماء المشرق والمغرب بلدا آمنا مسلما تطيب لهم الحياة فيه سوى مصر التى انتقلت إليها الخلافة العباسية بعد سقوطها فى بغداد، وصارت مستقرا ومقاما للعلماء ورجال الفكر. من هنا أصبحت مصر محط أنظار العلماء والدارسين، فأقبل عليها اليمانية للتزود بالعلم وشراء أمهات الكتب التى اشتهرت فى مصر فى ذلك العصر، والعودة إلى بلادهم مزودين بالعلم وبالكتب، مثل صبح الأعشى للقلقشندى، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى، وكتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل، وكتاب نهاية الأريب فى فنون العرب للنويرى، وكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى، وهذه الكتب

تتضمن فنونا شتى، شغف اليمانية بقراءتها والاستفادة منها. وقام بعض علمائهم بتأليف كتب معتمدين عليها أو سائرين على منوالها، أو ملخصين لها.

وفى نفس الوقت عرف العلماء المصريون المؤلفات اليمنية من خلال رحلات طلاب العلم إلى مصر، وترجموا لهم، ففى كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر، وكتاب الضوء اللامح للسخاوى تراجم لعلماء اليمن ، وإبراز مؤلفاتهم.

ومن أسباب النهضة الثقافية فى اليمن، عقد المجالس العلمية فى بيوت العلماء أو فى قصور الملوك والأمراء، فيتناقش العلماء فى قضية علمية، وكل يحاول أن يقنع زميله بحجته، والكل يحرص أن يكون معدا إعدادا كاملا للمناظرة للخروج من المعركة العلمية ظافرا منتصرا، وفى ذلك خدمة للعلم. ومن أمثلة هذه المجالس، ندوة علمية عقدها علماء الزيدية لمناظرة الامام أحمد بن الحسين حول آرائه المذهبية، وانتصروا عليه فى المناقشة، وكان أبو الفدا اسماعيل يحضر المجالس العلمية للسلطان المظفر، ويفيد الحاضرين بآرائه ودراساته فى الحديث.

ويلاحظ أن النهضة الفكرية التى شهدتها اليمن فى عصر بنى رسول اعتمدت إلى حد كبير على المراجع غير اليمنية فى مصر والشام والعراق. ولم يكن لدى اليمنيين قبل عصر بنى رسول تراث فكرى يعتمدون عليه، اللهم إلا تراث الأئمة الزيدية وشيوخهم، ولما أفاق اليمنيون من عزلتهم ومن صراعاتهم القبلية والسياسية، وجدوا البلاد الإسلامية المحيطة بهم، قد سبقتهم فى مضمار العلم والفكر، فأقبلوا بشغف شديد للسير قدما فى طريق المعرفة، وملاحقة مسيرة النور، فصنفوا الكتب القيّمة، ولخصوا أمهات الكتب الاسلامية، واعتمدوا عليها فى تصنيف كتب تحمل فكرا جديراً ومنهجاً فيه إضافة، وفيه أصالة.

وكان محور الحركة الثقافية فى اليمن، علوم الدين واللغة؛ أما العلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا والموسيقا والفلك والطب والكيمياء فالمؤلفات فيها قليلة إذا قيست بعلوم الدين واللغة، كما نلاحظ عدم التخصص فى فرع من فروع العلم. فالمؤلف يكتب فى علوم الدين واللغة والتاريخ والطب ونحو ذلك.

وأسس الرسوليون المدارس لنشر العلم، وأقبل عليها الطلاب من أنحاء البلاد، بالإضافة إلى ذلك ظل الشيوخ والعلماء يعقدون حلقات دروسهم فى المساجد، ولم يكن العلم مصدرا للتكسب، إنما كان لذاته، فمن العلماء من كان يتاجر ويزرع أرضه ويقوم بمهمته العلمية.

دور العلم فى اليمن فى عصر بنى رسول

كانت المراكز الرئيسية لتلقى العلم عادة فى الدولة الاسلامية، المساجد؛ وكانت بلاد اليمن - شأنها شأن البلاد الإسلامية الأخرى - يبدأ التعليم فيها بالكتاتيب، وهى أشبه بالمدارس الابتدائية فى يومنا هذا، يتعلم فيها التلاميذ القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب، أما الدراسة المتخصصة فمقرها المسجد، وتعقد فى المسجد حلقات للدرس فى الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام وعلوم اللغة، والطالب يتردد على الحلقة التى تتناسب مع ميوله، وبرز من المساجد شيوخ أجلاء درسوا للطلبة بإخلاص، وتخرج على أيديهم علماء، صنفوا المصنفات العديدة، وأخرجوا بدورهم أجيالا من العلماء. ومن أمثلة هؤلاء العلماء، أحمد بن الفقيه ابراهيم بن أبى عمران، التزم بتعليم طلابه فى المسجد إحدى عشرة سنة، لايكاد يفارق الجامع، ويدرس النحو والفقه والأصول والحديث واللغة[1]. ونسخ بيده كتبا كثيرة وكتب على كل منها أبياتا من شعره، وبلغ من علو مكانته أن السلطان نور الدين عمر بن رسول كلفه بالتدريس له، ولما بلغ هذا الشيخ التاسعة والعشرين من عمره وشعر بدنو أجله قال :

ولما مضت تسع وعشـرون حجة	من العمر غرتنى وغرت الى الصبا
وأنذرنى شـيبى بحتـفى معجلا	فقلت له أهـلا وسـهلا ومرحـبا
وسمعا لداعى الحق منك وطاعة	وإن كنت بطـالا وان كنت مذنبا

وتصدى للتدريس فى المساجد شيوخ أجلاء، طبقت شهرتهم الآفاق، ومنهم أبو الحسن على بن قاسم بن العليف الشراحيلى، رحل إليه طلاب العلم فى كافة أنحاء اليمن للدراسة، وتخرج على يديه فقهاء فى اليمن[3].

ومن أشهر الحلقات الدراسية فى المساجد، حلقة الشيخ أبو الغيث بن جميل، كان اماما جليل القدر، تفقه به الكثير من الناس، وانتشرت آراؤه الفقهية وخلاصة دراساته فى جهة حجة وغيرها انتشارا واسعا، وعرف عنه الزهد والورع، وكانت حلقته تضم ثمانين طالبا معظمهم فقراء انقطعوا للعلم ، ولايجدون قوت يومهم، ولكنهم تعاونوا فيما بينهم فى

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٦.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٥٦.

٣- المصدر السابق جـ١ ص ٦٩ - ٧٠.

السراء، ويؤثر كل واحد منهم أخاه على نفسه فى الطعام واللباس، ولو أوتى أحدهم زادا وزعه على أصحابه، بحيث لايبقى محتاج من زملائه، وكان شعارهم العمل بما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات تدعو إلى التعاون والتعاضد والايثار وتجنب الشح «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ». ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[1]. وهذا يدل دلالة واضحة على تضامن هؤلاء الطلبة والتفافهم حول شيخهم، وحرصهم الشديد على استمرارية حلقتهم، مهما كانت عقبات المعيشة، وأنهم يفضلون العلم والدرس على الانصراف إلى طلب الرزق، ويتفرغون للدراسة تفرغا كاملا. كما أن تعاونهم وتعاضدهم يرجع إلى مكارم الأخلاق التى بثها فيهم شيخهم الجليل.

ومن الشيوخ الذين درسوا فى المساجد، وكان لهم أثر كبير فى نمو الحركة الثقافية، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مصباح الأحول العينى، طلب العلم فى جهله وهو يبيع العطر، وتتلمذ على بديه الكثير من الدارسين، وسعى إليه الطلاب من كل حدب وصوب، وكان يدرس لطلابه فى الدار النجمى الملحق بالمسجد[2]، ولم يزل أبناؤه وأبناء أبنائه يتوارثون التدريس فى المسجد سنين عددا[3].

وكان يحضر حلقة تدريس شيخ الزيدية الكبير، الحسن بن محمد العنسى، ثمانين طالبا، وعرف عن هذا الشيخ الزهد والتقشف، ويدرس لطلابه تطوعا، ويعيش من عمل يده[4].

ظهرت المدرسة بالمعنى المعروف فى اليمن أثناء حكم بنى أيوب، وينسب إلى المعز إسماعيل بأنه أول من شيد المدارس فى اليمن، واسمى هذه المدرسة السيفية، نسبة إلى أبيه سيف الإسلام طفتكين[5].

ولما حكم بنو رسول اليمن، اهتموا بنشر التعليم فى البلاد، وشيدوا العديد من المدارس، وأغلبها لتدريس الفقه على المذهب الشافعى، كما أسس الزيديون فى اليمن مدارس لتدريس الفقه الزيدى، وشيد بعض كبار رجال الدولة والعلماء، مدارس لتدريس علوم الدين

١- الجندى: السلوك ورقة ١٩٢.

٢- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٣٢.

٣- المصدر السابق جـ١ ص ١٢٥.

٤- زيارة: أئمة اليمن ص ٢٧٥.

٥- ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٧٦.

واللغة، بل شاركت النساء فى نشر التعليم وأسست بعضهن مدارس، وقد اعترض بعض رجال العلم على التعليم فى المدارس، على اعتبار أن حلقات العلم يجب أن تعقد فى المساجد، كما هو الحال حتى ذلك العصر، فقال الشاعر :

بيع المدارس لو علمت بدارس يغلو وأخســـر صفقة للمشترى

دعها ولازم للمســـاجد دائما أن شئت تظفر بالثواب الأوفر[1]

عنيت المدارس اليمنية بتدريس علوم الدين مثل الفقه وأصول الفقه والتفسير والحديث وعلم القراءات والفرائض، وعلوم اللغة، ومنها النحو والصرف والمعانى والبيان والعروض والقوافى، وقلما يدرس فى بعض المدارس العلوم العقلية مثل التاريخ والفلك والرياضيات، وتخصصت معظم المدارس فى تدريس المذهب الشافعى لأنه مذهب ملوك بنى رسول، ولكن بقيت مدارس قليلة لتدريس المذهب الحنفى. أما بلاد اليمن الخاضعة للإمام الزيدى، فأسس فيها الأئمة مدارس تقوم بتدريس المذهب الزيدى.

وذكر الخزرجى[2] عن أسباب موافقة بنى رسول على تأسيس مدارس على المذهب الحنفى على الرغم من أنهم شافعية. ذكر أن أبا العتيق أبو بكر بن عيسى بن عثمان الأشعرى المعروف بابن حنكاش – وهو عالم حنفى كبير – بذل قصارى جهده فى نشر هذا المذهب، حتى قيل: لو لم يوجد لمات مذهب أبى حنيفة، وكان يحرص على الحفاظ على هذا المذهب فى اليمن، لأنه يواجه تحديا من المذهب الشافعى، فلما شيد السلطان نور الدين عمر ابن رسول، المدرسة التى فى زبيد لتدريس المذهب الشافعى تصدى له هذا العالم فى الطريق وقال له : يا عمر مافعل بك أبو حنيفة، إذا لم تبن لأصحابه مدرسة، كما أمرت لغيرهم. فاستجاب السلطان نور الدين عمر لطلبه، وأمر ببناء مدرسة فى زبيد لتعليم مذهب أبى حنيفة وجعل فى المدرسة قسطا لتعليم الحديث[3].

واعتمد المدرسون والطلاب فى هذه المدارس على مراجع محددة، فاعتمدوا فى دراسة المذهب الشافعى على كتاب التنمية والمهذب لابن اسحاق الشيرازى وشروحهما وحواشيهما، وكذلك الوسيط والوجيز للغزالى وشروحهما، والحاوى للقزوينى ومختصر الارشاد لمحمد بن

١– الأكوع: المدارس الإسلامية فى اليمن ص ٢٤.

٢– العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٦٩.

٣– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٦٩.

إسماعيل المقرى، والمنهاج للنووى، والبيان ليحيى بن أبى الخير العمرانى، وفى الحديث الأمهات الست، وفى آيات الأحكام تيسير البيان لمحمد بن على الموزعى، ويعتمد على علم الفرائض على كتاب الكافى لاسحاق بن يوسف الصرد فى شروحه. وفى أصول الفقه يعتمد على كتاب اللمع لأبى اسحاق الشيرازى وشروحه، وجمع الجوامع للسبكى وشروحه. وكان المختصر فى علم النحو لابن عباد، هو المعتمد عنه الشافعية. وفى اللغة نظام الغريب لعيسى بن ابراهيم الوحاظى. والكتب لتدريس المذهب الزيدى، هى اللمع لأمير على بن الحسين وشروحه. ثم اعتمد على كتاب التذكرة الفاخرة للحسن بن محمد النحوى وشروحها، ثم حل محلها «متن الأزهار» للامام أحمد بن يحيى المرتضى وشروحه العديدة، وفى الفقه كتاب «البحر الزخار الجامع لمذهب علماء الأمصار » للامام أحمد بن يحيى المرتضى. وفى الحديث اعتمد على شفاء الأوامر للأمير الحسين بن بدر الدين. واعتمد فى أصول الفقه على كتاب المنتهى لابن الحاجب. وكتاب العقود اللؤلؤية لصارم الدين ابراهيم محمد الوزير[1] وكانت الكتب المقررة لتدريس فقه الحنفية، الجوهرة المنيرة، ثم مختصر القدورى وشرحه لأبى بكر الحداد، ودور المهتدى وذخر المقتدى لأبى بكر على بن موسى الهاملى[2].

وأما عن أوقات الدراسة، فيبدأ العام الدراسى ببداية العام الهجرى أى فى أول شهر المحرم – وتستمر الدراسة ستة أشهر حتى أواخر جمادى الآخرة، ثم يحصل الطلبة على اجازة فى شهر رجب تتوقف فيه الدراسة، وكان الطلاب يقضون الأجازة فى قراءة صحيح البخارى، وفى اليمن الأعلى فى قراءة الفرائض. وتتوقف الدراسة نهائياً فى شهرى شعبان ورمضان وحتى نهاية عيد الفطر ينصرف الطلاب خلال هذه الفترة إلى بلادهم، والمدرسون كذلك[3]. ثم تستأنف الدراسة فى شهرى شوال وذى القعدة. وتتوقف الدراسة ثانية فى شهر ذى الحجة أى أن مدة الدراسة ثمانية أشهر. ويتفرغ الطلاب للمذاكرة شهرا واحدا، ويحصلون على أجازة لمدة ثلاثة أشهر.

أما عن طريقة التدريس، فالشيخ يقرأ التدريس على طلاب من الكتاب، ثم يسألهم عما أغمض عليهم منه بعد شرحه، ويناقشهم ويجيب على استفساراتهم، وأحيانا يعهد إلى أحد الطلبة المجتهدين بالقراءة، ويتولى هو الشرح، وأحيانا يقوم المعيد بالقراءة، وبعد أن

١– الأكوع: المدارس الإسلامية فى اليمن ص ١٠.

٢– المصدر السابق.

٣– الخزرجى: العقود اللؤلؤية ص ١١٢.

ينصرف الشيخ أو ينتهى من الدرس، ينفرد الطلاب بالمعيد لسؤاله عما غمض عليهم من الدرس، وكان المدرسون يتقاضون أجرهم سنويا، وأحيانا يهب المدرس راتبه لطلابه.

ونشير إلى أهم المدارس التى شيدت فى اليمن فى عصر بنى رسول فشيد السلطان نور الدين عمر بن رسول فى تعز مدرستين، تعرف أحداهما بالوزيرية، نسبة إلى مدرسها الوزيرى، والثانية الغرابية، نسبة إلى مؤذنها الصالح غراب[1]، وشيد مدرسة فى عدن، وثلاث مدارس فى زبيد تعرف بالمنصوريات، واحدة لتدريس المذهب الشافعى، والثانية لتدريس مذهب أبى حنيفة، وثالثة لتدريس الحديث النبوى الشريف. ورتب فى كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومؤذنا ومعلما وأيتاما يحفظون القرآن الكريم، ووقف على كل مدرسة أوقافا تعطى كل نفقاتها من مرتبات المدرسين والعمال الذين ييسرون وصول الماء إلى المدرسة ومن مال ينفق على الأيتام المحدد عددهم فى الوقف[2].

وأسس الطواش تاج الدين بدر بن عبد الله المظفرى، مدرسة بنواحى زبيد، وتسمى مدرسة المبردعين، لأن البرادع كانت تعمل عندها. والمدرسة مختصة بتدريس الفقه، وأسس مدرسة القراء بزبيد، وخصصها لتعليم قراءة القرآن الكريم بالقراءات السبع، كما شهد مدرسة الحديث النبوى الشريف، ورتب فى كل مدرسة من المدارس الثلاث مدرسا وطلبة وأمام ومؤذنين فى أوقات الصلوات الخمس، وأوقف عليها وقفا يتناسب مع احتياجات المدرسين والمدرسة والطلاب. ولم يكتف بذلك بل أسس فى الجبل مدرسة فى قرية الوجيز[3].

وأسس الطواشى نظام الدين مختص المظفرى – مؤدب المظفر – عدة مدارس منها المدرسة النظامية فى زبيد، ومدرسة فى زى هريم – من نواحى تعز – ومدرسة فى ذى جهلة الوحص[4]. وبذلك أدى هذا الرجل دورا كبيرا فى النهضة بالعلم، وأنفق المال الكثير فى سبيل ذلك.

١– ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٨٢.

٢– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨٤.

٣– ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٨٤.

٤– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٥١.

وشيد المظفر مدرسة فى زبيد، يشرف عليها الفقيه سراج الدين أبو بكر بن عمر بن ابراهيم بن دعاس، وسميت الدعاسية، نسبة إليه، وشيد الشيخ عبد الوهاب بن سيف بن عزان العزنقى مدرسة فى حصن الطفر، ورتب فيها مدرسا، وأوقف عليها وقفا[1].

كما أسس الملك المظفر مدرسة كبيرة فى تعز تسمى المظفرية عين لها مدرسا ومعيدا، وخصص لها عشرة من الطلاب، ورتب فيها اماما ومؤذنا ومعلما، وعشرة أيتام يحفظون القرآن الكريم وقيما، ووقف عليها وقفا يقوم بكفاية الجميع منهم[2].

وشيد الأمير أسد الدين محمد بدر الدين الحسن مدرسة فى آب، وأسس محمد بن نجاح مدرسة فى تعز، وأخرى فى الجند، تسمى النجاحية ورتب لها الأوقاف، وأقام عمر بن عاصم بن عيسي البعلى المدرسة العاصمية فى زبيد، وشيد الأمير شرف الدين مرسى بن على ابن على بن رسول المدرسة الشرفية فى جبلة[3].

ومن مدارس الفقه على مذهب أبى حنيفة، مدرسة جمال الدين محمد بن ابراهيم فى زبيد، وهذه المدرسة اختلفت منهجها عن سائر مدارس اليمن التى كان يدرس فيها علوم الدين واللغة فقط. أما المدرسة التى نشير إليها فكان يدرس فيها بالإضافة إلى العلوم التى ذكرناها، الفلك والحساب[4].

ولما تقادم الزمن بالمدارس اليمنية، تلاعب المتلاعبون بالأوقاف الخاصة بها، وعبثوا بالأموال، الأمر الذى أدى إلى تعطيل هذه المدارس عن العمل وإغلاقها، وظل الأمر كذلك حتى ولى القضاء سراج الدين عبد اللطيف بن محمد بن سالم فعهد إلى الوقف بنظار عرف عنهم الورع والتقوى والأمانة وأمرهم بإدارة وقف المدارس بحزم ونزاهة، وإعادة بناء ماتخرب من هذه المدارس حتى تعود إليها الحياة من جديد، وتؤدى رسالتها، كما كان الأمر من قبل، وتم فعلا تعمير بعض هذه المدارس، مثل المدرسة المنصورية الحنفية، وعادت فيها من جديد دراسة مذهب أبى حنيفة، ودراسة الحديث أيضا[5].

١- ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٨٤.

٢- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٥١.

٣- المصدر السابق جـ٢ ص ١٧٥.

٤- المصدر السابق جـ١ ص ٨٤.

٥- ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٩٩.

وأمر السلطان المؤيد ببناء المدرسة المؤيدية فى تعز، ورتب فيها مدرسا وإماما ومؤذنا وقيما ومعلما وأيتاما، يتعلمون القرآن الكريم، ويتفقهون بفقه الإمام الشافعى، ومعيدا ومقرئا، يقرأ القرآن الكريم للطلاب بالقراءات السبع، ووقف عليها من الأراضى والكروم ما يسد نفقات المدرسة، ولم يكتف بذلك بل زود المدرسة بكتب نفيسة، شكلت مكتبة قيمة، وأوقف هذه الكتب لصالح مدرسى وطلاب المدرسة[١].

وشيد الملك الأفضل مدرسة فى تعز[٢]، وأقام لها منارة لم يكن فى البلاد مثلها على ثلاث طبقات، الطبقة الأولى مربعة الشكل صحيحة الأركان، والطبقة الثانية مثلثة الأركان قائمة الحروف، والطبقة الثالثة مسدسة الشكل، وللمدرسة أمام ومؤذن وقيما ومعلما وإماما ومحدثا وشيخا ونقيبا ومتصوفين (فقراء)، وللمدرسة وقف يسد نفقات المتصوفين (الفقراء) وسائر الموظفين والطلاب، وطعام للصوفية (الفقراء) الواردين؛ وشيخا صوفيا، يعلم الصوفية، ويتعبد معهم. ووقف المدرسة أطيان نخل وكروم[٣].

قام بالتدريس فى المدارس المذكورة، مدرسون اشتهر أمرهم بين الناس، ومن بينهم على بن الحسين الاحبالى ت سنة ٦٥٦ هـ، وهو أول من درس فى مدارس تعز، وأقبل عليه الطلاب من كل مكان للاستفادة منه، وطبقت شهرته الآفاق؛ ولما توفى، خلد طلاب العلم ذكراه، فاعتنوا ببناء قبره، وترددوا على زيارته فى كل مناسبة[٤].

ومن أشهر مدرسى الدين أبو الخطاب عمر بن مسعود بن محمد بن سالم الحميرى، اشتغل بالتدريس فى ذى هريم بالمدرسة النظامية، وتفقه على يديه الكثير من الدارسين، وتخرج على يديه أربعون مدرسا، ولما توفى خلفه تلميذه سعيد بن منصور الحبيشى، وكان عالما جليلا، خلف شيخه فى التدريس بالمدرسة النظامية إلى أن توفى سنة ٦٧٤ هـ، ثم خلفه ابن شيخه عبد الله بن الفقيه عمر بن مسعود، فلم تطل مدته، وتوفى سنة٦٧٥هـ[٥].

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٤٣.

٢- ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٩٧.

٣- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٥٩.

٤- المصدر السابق جـ١ ص ١٢٩.

٥- المصدر السابق جـ١ ص ١٣٢.

وبلغ من مكانه المدرس أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أسعد ابراهيم الوزيرى سنة ٦٦٢ هـ، أن المدرسة التى كان يدرس بها سميت باسمه لطول إقامته بها[١].

وقد أشرنا إلى أن كل مدرسة لها وقف، ونستطيع أن نلم بتفاصيل ماتضمنته هذه الأوقاف من وقف المدرسة الأشرفية الكبرى، يحدد الوقف اختصاص الإمام، فعليه أن يصلى بالناس الصلوات الخمس والصلوات الأخرى؛ كصلاة العيدين والتراويح وليلة النصف من شعبان وصلوات الخسوف والكسوف، وتضمنت المدرسة قيمان، يتوليان تنظيف مسجد المدرسة وجناحيه، والمدرسة ورحابها وملحقاتها، وفرش مايحتاج إلى فراشه وتنظيف البركة والفسقية ومواضع الماء فى المدرسة من الطحلب والتراب المجتمع فيها المغير للماء، وإشعال مصابيح المسجد والجناحين، وسائر الأماكن التى تحتاج إلى الإضاءة بعد غروب الشمس حتى شروقها، واشعال الشمع والقناديل فى المدرسة داخلها وخارجها فى ليلة الختمة فى شهر رمضان، كجارى عادة المدارس فى تلك الليلة، ويتوليان حفظ أدوات المدرسة المعدة لها من البسط والحصير والقناديل، وعليها تنظيف الأسقية وإعدادها، وتنظيف المطاهر وأمكنة قضاء الحاجة وإزالة الأذى عنها، وإزالة النجاسات الراكدة.

أما المدرس فيقوم بتدريس المذهب الشافعى، ويلقى دروسه على الطلاب فى فروع الفقه وأصوله ويدرس لعشرة من الطلبة يوميا، وقبل الدرس يعرض الطلبة الدرس السابق على المعيد لاستبيان ماغمض عليهم. وعلى مدرس الحديث والتفسير أن يدرس لخمسة طلاب فى كل يوم. ويقوم المقرئ المتخصص فى القراءات السبع علما ونطقا بالتدريس لخمسة طلاب يوميا وتحفيظهم، والمدرسة تتضمن عالما فى النحو بصيرا فى فروعه وفنونه، ذاكرا لشواذه وغوامضه مفيدا للطلبة، مصلحا لألسنتهم ركيكها، يجلو عن صدورهم شكوكها. ومعلم بارع يعلم القرآن الكريم، واشترط الوقف أن يكون بالمدرسة خمسة عشر يتيما، يحفظون القرآن الكريم. وعلى شيخ صوفى من السالكين المنقطعين يباشر ويعلم عشرة من المريدين السالكين يفضل اثنين منهم لتعلم الفقه، بشرط أن يقوما بخدمة المتصوفين (الفقراء) الواردين، وقيامهما على الطعام والإطعام المعد للخانقاه بالمدرسة المذكورة من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وعلى نائب أمين يشرف ويباشر الأرض الموقوفة، ويؤجرها ويحصل على ثمارها، ويسوق المحاصيل، ويعمر الأرض، ويغطى نفقاتها من زراعة ورى وغير ذلك، وينفق الباقى على متطلبات المدرسة التى ذكرناها.

١ – المصدر السابق.

واشترط فى الوقف أربعة قراء للقرآن الكريم فى كل يوم كل واحد نصف الختمة على مقبرة الطفل المتوفى الظافرين الأشرف.

إذن نستنتج من تلخيص وثيقة وقف المدرسة الأشرفية، أن الوقف غطى كل نفقات احتياجات المدرسة من واعظ ومدرسين وقيمين وطلاب وصوفية وأيتام وفرش وحصر وإضاءة ونظافة وطعام للمتصوفين والأيتام، وإحياء المناسبات الدينية.

أعلام الفكر في اليمن في عصر بني رسول

ظهر في بلاد اليمن علماء أجلاء في عصر بني رسول، ساهموا مساهمة فعالة في ازدهار الحركة الفكرية. ومعظم هؤلاء العلماء تخصصوا في علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ، أما الفروع الأخرى كالطب والرياضيات والفلك وغيرها فبرز فيها قلة من العلماء. ونلاحظ عدم تخصص العالم في فرع معين من فروع العلم، فالعالم يكتب في علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ وأحيانا في الطب والموسيقى. وظهر علماء موسوعيون كتبوا في علوم شتى، واعتمدوا في كتاباتهم على المراجع المتاحة لهم في مصر والشام والعراق بل يكتفي بعضهم بتلخيص ماتيسر له من هذه الكتب.

ومن أبرز هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن القلعي، كان فقيها عالما وله مصنفات قيمة ومتنوعة، انتفع بها طلاب العلم. ومن بينها قواعد المهذب، ومنها، إيضاح الغوامض في علم الفرائض ويقع في مجلدين جمع فيه مذهب الشافعي وغيره وأورد فيه طرفا من الجبر والمقاقلة والوصايا. ومن مؤلفاته «احتراز المهذب» فضائل الأنوار في فضل الصحابة الأبرار» وله «كنز الحفاظ في غرائب الألفاظ» يعني ألفاظ المهذب كما صنف في السياسة «تهذيب الرياسة في تهذيب السياسة» ومن مؤلفاته كتاب «أحكام القضاة»[١]. وانتشرت مؤلفاته في حضرموت انتشارا واسعا، وأقبل الحضارمة على دراستها، والاستفادة منها، وبذلك يمكن القول بأن هذا العالم المفكر قد أدى خدمة جليلة للعلم، بفضل مؤلفاته الكثيرة في فروع متعددة، وجمع في مؤلفاته بين الدين واللغة والسياسة والتاريخ والرياضيات.

ومن كبار المؤلفين في ذلك العصر، أبو العباس أحمد بن مقبل بن عثمان العلبي، استقر في قرية عرج. ومن مؤلفاته كتاب في أصول الفقه، أسماه «الايضاح» أفاد معاصريه. والجدير بالذكر أن أسرة هذا الفقيه علماء، صنفوا المصنفات العديدة[٢].

ومن كبار فقهاء الدولة الرسولية أبو الحسن علي بن القاسم العليف الشراحيلي ٦٤٠ هـ، شد إليه طلاب العلم الرحال من كافة أنحاء اليمن، وتخرج على يديه فقهاء كثيرون، وله مؤلفات منها كتاب «الدرر في الفرائض» واختصره في كتاب «الدرر» وكان فقيرا يعيش في شظف من العيش، ومن أشهر تلاميذه إبراهيم بن علي القلقل، اعتمد عليه الناس في

١- الجندي: السلوك ورقة ١٩٥.

٢- الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٨.

توضيح ما التبس عليهم في الفقه، وبلغ من علو مكانته أن نسبت إليه القرية التي كان يلتقى فيها بمريديه وطلابه فسميت محل القلقل-غربي زبيد[1].

وأدى الخلاف في الرأى بين أنصار المذهبين الشافعى والزيدى في اليمن، إلى ظهور مؤلفات يؤيد فيها مؤلفوها ماذهبوا اليه من آراء. ومن أمثلة ذلك كتاب أبي الحسن على بن الحسين للرد على الزيدية. وأقبل الشافعية بشغف كبير للرد على هذا الكتاب، ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة ودعما لآراء مذهبهم.

ومن أصحاب التخصصات المتنوعة في اليمن، والثقافات المتعددة، العالم محمد بن أبي بكر بن محمد بن حسن بن على الفارسى، صنف مصنفات في الفقه وغيره من علوم الدين، وصنف كتاباً في الموسيقى أسماه «دائرة الطرب ورسالة فيها» وله كتاب في وضع الألحان. وصنف كتاباً في الطب أسماه.. «التبصرة في علم البيطرة». ومن كتبه الطبية كتاب في معرفة السموم. كما صنف في الفلك كتاب «آيات الاناق في خواص الأوفاق». وله مؤلفات في المنطق والأصول واللغة[2].

ومن الكتب التي صدرت في عصر بني رسول حول مذاهب الشيعة كتاب، «عقائد أهل البيت» لمؤلفه محمد بن حسن الديملى ت٧١١هـ. وله كتاب «الصراط المستقيم» وكتاب «المشكاة». وكتاب في الزهد اسمه «التصفية».

وكتابه في عقائد أهل البيت من أهم كتب الزيدية، اشتمل على فضائلهم، وذكر مذاهب الشيعة وآراءها، وفندها وناقشها مناقشة مستفيضة، وأبطل مذهب الامامية، وكفر الإسماعيلية ومعتقداتها الباطنية، وأوضح مميزات المذهب الزيدى ومنها عدم إنكار خلافه أبي بكر وعمر، لأنه يجوز خلافة المفضول مع وجود الأفضل، ولأنهم ولوا فعدلوا، ولم يقل فيهما الرسول إلاخيرا. وأوضح مدى مطابقة عقيدة المعتزلة لمعتقدات الزيدية. وأبرز ماللاجتهاد في المذهب الزيدى من مميزات.

ومن مؤلفات إدريس بن على الحمزى ت ٧١٤هـ «السيول في فضائل البتول» وجمع أحاديث أصول الأحكام في ٣٣١٢ حديثا. وذكر مسائل رد فيها على آراء الجبرية

١- المصدر السابق جـ١ ص ٦٩ - ٧٠.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٢٠٤.

٣- زبارة: أئمة اليمن ص ٢١٧.

وأدحضها، وأبرز أخطاءهم، وكان على اتصال وثيق بملوك عصره، وقيل إنه تاب بعد ذلك عن مخالطة الملوك توبة نصوحا وقال :

ونحن لمن يبغى الهدى ويريده   سفينة نوح عصمة للخلائق[1]

ومن الكتب المذهبية الهامة «الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار» فى ثمانية عشر مجلدا لمؤلفه الإمام يحيى بن حمزة ٧٤٩ هـ. وكتاب العمدة فى ست مجلدات، اشتمل على جميع آراء المذهب، واستشهد على كل رأى بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأدلة قياسية، ومن مؤلفاته كتاب «العدة فى مدخل الى العمدة» ويقع فى جزءين، وهو مختصر فى الفقه، وشرح الأحاديث النبوية فى كتاب «الأنوار المضيئة» فى مجلدين. وكتاب الديباج تضمن كلام الشريف الرضى، وشرح فيه البلاغة مستشهدا بكلام الشريف الرضى، ويقع فى ثلاثة مجلدات.

ولهذا العالم الموسوعى مصنفات فى أصول الفقه منها كتاب «الشامل» فى ثلاثة مجلدات، «نهاية الوصول إلى علم الأصول» فى ثلاثة مجلدات. التمهيد فى علم العدل والتوحيد» فى ثلاثة مجلدات. وكتاب «التحقيق فى الاكفار والتفسيق». و «المعالم الدينية» فى مجلد واحد. وكتاب «المحاوى» فى ثلاثة مجلدات. و«المعيار» فى مجلد واحد. و«القسطاس» فى مجلدين.

ولهذا العالم مؤلفات عديدة فى اللغة والأدب والتصوف والمنطق وقيل إن مصنفاته بلغت مائة مجلد. ويروى أن كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره[2].

وهذا العالم الموسوعى نموذج لكبار علماء عصره فى الدولة الإسلامية الذين أفنوا أيامهم فى القراءة والبحث والتأليف. ولم يتخصص هذا العالم- شأنه شأن علماء عصره- فى فرع من فروع العلم، بل كتب المصنفات القيِّمة فى مجلدات متعددة فى علوم مختلفة تدل على تنوع اهتماماته ومعارفه. وبعض مؤلفاته، أما البعض الآخر فموجود على شكل مخطوطات، يحتفظ بها الشيوخ.

ولشيوخ الزيدية نشاط علمى كبير - كما رأينا - ومن علمائهم محمد بن ادريس الحمزى ت٧٣٦ هـ، الذى صنف كتاب «التيسير فى التفسير» وكتاب «الاكسبير العزيز فى

١- زيارة: أئمة اليمن ص ٢١٨.

٢- زيارة: أئمة اليمن ص ٢٣٠.

تفسير القرآن العزيز»، وكتاب «الحسام المرهف فى تفسير غريب المصحف»وكتاب «الدرة المضيئة فى الآيات المنسوخة الفقهية» وله في الفقه الزيدى«شفاء نحلة الضاد فى فقه الامام الهادى»[2]، وكتاب «الذخيرة الفاخرة فى مناقب العترة الطاهرة». وله فى التفسير «النهج القويم فى تفسير القرآن الكريم»[3].

ومن المؤلفات التى تتضمن معلومات متنوعة كتاب«البركة فى فضل السعى والحركة» لمؤلفه محمد بن عبد الرحمن الحسنى الوصابى ت٧٨٢هـ، ويقع الكتاب فى أربعمائة صفحة. وفيه الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ذكرها وشرح كل منها، ويتضمن الكتاب فصلا فى مزايا السعى على الأولاد، وفصل فى الوسائل التى تنمى المال، وفصل فى الطب، وفصل فى وسائل الوقاية من السوء ومن الكوارث والأهوال والمحن»[4].

ومن كبار علماء الزيدية، الحسن بن محمد العنسى ت٧٩١هـ، ومن مصنفاته «التذكرة الفاخرة فى فقه العترة الطاهرة» شرح فيه مسائل عديدة فى الفقه، وله كتاب التيسير فى التفسير»، وكتاب «علم المعادلة» وكتاب «منتهى الآمال فى مشاكل الأقوال» واختصر كتاب الانتصار للامام يحيى بن حمزة فى مجلد واحد[5].

وتوفى عبد الله الدوارى فى سعده سنة ٨٠٠هـ، ومن مؤلفاته فى أصول الفقه «شرح جوهرة الرصاص»، و «الروض النضير شرح لمع الأمير».

وهناك عالم آخر له لون مختلف، فهو يراجع مؤلفات معاصريه وينقدها ويبدى رأيه فيها، ومن مؤلفاته «كفاية القانع فى معرفة الصانع»، و «هدايا الراغبين فى مذاهب أهل البيت الطيبين»، و «التفصيل فى التفضيل» وكتاب «كاشف الهمة فى الذب عن سيرة إمام الأمة». وله قصيدة فى ٢٦ بيتا تسمى رياضة الأبصار فى ذكر الأئمة الأقمار والعلماء الأبرار» تغنى فيها بأئمة آل البيت وفضائلهم وشيوخ الزيدية وعلماء المعتزلة ومآثرهم[6].

١- المصدر السابق ص ٢٣٠.

٢- هو الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين الذى أقام دولة الأئمة الزيدية فى صعده.

٣- زيارة: أئمة اليمن ص ٢٤٥.

٤- المصدر السابق ص ٢٦٩.

٥- زيارة: أئمة اليمن ص ٢٧٥.

٦- المصدر السابق ص ٦٨.

وللامام أحمد بن يحيى المرتضى ت٨٤٠هـ مؤلفات دينية عديدة نخص منها «البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأبصار» ويسمي «الأحكام فى فقه أئمة الاسلام »وطبع فى خمسة مجلدات ومن مؤلفاته كتاب «الأزهار فى فقه الأئمة الأطهار» وكتاب «الانتقاد فى الآيات المعتبرة فى الاجتهاد»، وكتاب «المستجار فى شرح كتاب الانتقاد». وله فى علم الكلام وأصول الدين «نكت الفرائد فى معرفة الملك الواحد»وشرحه فى كتاب أسماه «عزر القلائد» شرح نكت الفرائد» وكتاب «القلائد فى تصحيح العقائد» وشرحه فى كتاب «الورد الفرائد» وشرح كتاب الملل والنحل. وله كتاب «الافهام فى لطيف الكلام».وله كتب فى اللغة والتصوف والمنطق والتاريخ، وله قصائد فى الوعظ والارشاد[1].

يتضح لنا من ابراز مؤلفات هذا العالم أنه متعدد الاهتمامات متنوع مجالات العلم، وألف فى علوم شتى، ولم يتخصص فى فرع أو فرعين. وبمراجعة مؤلفات هذا الكاتب يتضح لنا أنه لم يبتكر، ولم يأت بجديد فى مصنفاته العديدة، إنما اعتمد على النقل من الكتب وتلخيصها.

تعددت اهتمامات العلماء فى اليمن، ورأينا أن اهتماماتهم بالدرجة الأولى كانت بعلوم الدين، ويأتى التأليف فى علوم اللغة وآدابها فى الدرجة الثانية. ونلاحظ أن معظم الذين صنفوا فى الدين قد صنفوا فى علوم اللغة وآدابها.

ومن أبرز علماء اللغة بالاضافة إلى الدين – ادريس بن على الحمزى–الذى أشرنا اليه من قبل وله مؤلفات فى النحو والمعانى والبيان ومنها الحاضر شرح مقدمة طاهر فى مجلد و«المنهاج شرح كلام الزجاج» فى مجلدين، و «الأنهار الصافية شرح مقدمة الكافية» و«الانتصار فى مجلد، و «المحصل شرح أسرار المفصل «فى أربعة مجلدات، و «الطراز فى علوم البلاغة والاعجاز» و «الاعجاز فى علوم المعانى والبيان» «فى مجلدين»[2].

ومن مؤلفات الامام أحمد بن يحيى المرتضى ت ٨٤٠ هـ فى اللغة «تاج علوم الأدب» وكتاب «قانون كلام العرب»و «أكليل التاج وجوهرة الوهاج»[3].

١- زيارة: أئمة اليمن ص ٣٢٦.

٢– المصدر السابق ص ٣٣٠.

يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٢٨٠.

٣– زيارة: أئمة اليمن ص ٢٣٠.

ومن أشهر علماء اللغة فى عصر بنى رسول فى اليمن الفيروزابادى – الذى أشرنا إليه من قبل – ومن أشهر كتبه فى اللغة «البلغة فى تاريخ أئمة اللغة وكتاب« تحجيز الموشين فيما يقال بالسين والشين» و «المثلث» المتفق المعنى»[1].

على أن الفيروزابادى انفرد بمعجمه «القاموس المحيط» ولم يسبقه فيه أحد، وألف كتابه بعد أن عكف على دراسة كتب اللغة السابقة عليه، واستطاع أن يضيف عشرين ألف مادة فوق أربعين ألفا سبقه بها صاحب الصحاح.

قسم الفيروزابادى كتابه إلى سبعة وعشرين بابا بعدد الحروف الهجائية بإدماج بابى الواو والياء فى باب واحد، وباعتبار الحرف الأخير من المادة الأصلية. ثم قسم كل باب إلى ثمانية وعشرين فصلا، وفق الحرف الأول من حروف المادة الأصلية. ورتب مواد كل فصل حسب الحرف الثانى إن كانت المادة ثلاثية، فالثالث فالرابع إن كانت المادة رباعية أو خماسية[2].

ويحاول الفيروزابادى أن يتعقب المادة ومشتقاتها بالضبط والشرح مع حسن الاختصار وتقريب العبارة، وتهذيب الكلام، واختيار رموز تغنى عن كلمات كثيرة التردد.

ويعرف الفيروزابادى بالأعلام، والأماكن والمدن فى إيجاز، ويذكر النبات والحيوان مع شئ من التعريف بهما، وكثيرا مايعنى بالحديث عن منافعها الطبية فى دقة ملحوظة. ولا مزيد على القاموس المحيط فى حسن الاختصار والدراسات اللغوية[3].

وصنف الفيروزابادى فى علوم الدين «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» و «الدرر الغوالى فى الأحاديث العوالى «وكتاب» سفر السعادة «فى الحديث والسيرة النبوية، وكتاب «المزكاة الوفية فى طبقات الحنفية» وكتاب «الاشارات الى ما فى كتب الفقه من الأسماء والأماكن واللغات»[4].

وفى المجال العلمى ساهم المؤلفون اليمنيون بنصيب فى تأليف كتب فى الفلك والطب والرياضيات والزراعة والسياسة، تخص بالذكر منها فى مجال الفلك، كتاب «اليواقيت

١– المصدر السابق ص ٣١٦.

٢– الزركلى: الإعلام جـ٨ ص ١٩.

٣– المعاجم العربية – محمد عبد السميع محمد أحمد

٤– المصدر السابق.

في علم المواقيت» لأبي اسحاق ابراهيم بن على ابن المبردع ت٦٦٠هـ، واعتمد عليه الناس في علم المواقيت، ونسب إلى الملك المظفر كتاب «تيسير المطالب فى تسيير المواكب «ولابنه الأشرف «التبصرة في علوم النجوم».

كما صنف الفلكى الكبير محمد بن أبي بكر الفارس كتاب «نهاية الإدراك في أسرار علم الأفلاك» وكتاب «الزيج المظفرى «وكتاب» مصارع الفكر البهيج فى حلل مشكلات الزيج» كذلك كتب العلامة الفلكى أبو العقول كتاب «الزيج المختار» ويشمل هذا الكتاب على جداول فلكية في غاية الدقة[1]. كذلك كتب الحسن المقرآى المذحجى ت٨٥٠هـ كتابا فى الفلك يتضمن معلومات غزيرة ودقيقة حتى أقبل الناس على نسخ وقراءة هذا الكتاب، واعتمد المؤلفون عليه – فيما بعد – على تصنيف كتبهم فى الفلك.

وظهرت مصنفات فى الرياضيات منها كتاب أحمد بن عمر بن هاشم المزيجفى ت٦٨٠هـ، ويسمى«جواهر الحساب» وكتاب «شرح مختصر الخوارزمى»، وهو من أهم الكتب اليمنية في الرياضيات، واعتمد عليه أساتذة وطلاب الرياضة.

ومن كتب الحساب الهامة كتاب «مفيد الطلاب فى معرفة الحساب» لمؤلفه أبو بكر ابن الهاملى، وكتب أيضا فى الحساب محمد بن عبد الله بن سلم ت ٨٠٥هـ عدة كتب منها «لوامع طوالع السعدى فى شرح الهندى» وكتاب «كفاية المهتدى فى شرح الهندى»[2].

ومن الكتب التى وضعها مصنفوها فى الزراعة والفلاحة كتاب «التفاحة فى علم الفلاحة «وألف الملك الأفضل كتاب «بغية الفلاحين فى الأشجار المثمرة والفلاحين» وكتاب «كشف القناع فى أحكام الزراع«وكتاب «حدائق الرياض»[3].

وصنف علماء بنى رسول كتبا فى السياسة وقوانين الدول، نخص بالذكر منها «كتاب تهذيب الرياسة فى ترتيب السياسة» لمحمد بن على القلعى ت٦٣٠ هـ وكتب الملك الأفضل الرسولى كتاب «نزهة للظرفاء وتحفة الخلفاء» ومنها كتاب أحكام الرئاسة فى آداب السياسة «لعبد الرحمن بن محمد الحبيشى، وكتاب «التحفة المدونة فى أحكام السلطنة»

١- الزركلى: الإعلام جـ٨ ص ١٩.

٢- عبد الله الحبشى: حياة الأدب اليمنى فى عصر بنى رسول ص ٨٧.

٣- المصدر السابق ص ٨٧.

وكتاب «النصائح الايمانية لذوى الولايات السلطانية » لمحمد بن عبد الله الناشرى ت٨٢١هـ[1].

ومن الكتب الطبية كتاب «التبصرة فى علم البيطرة» وكتاب فى معرفة السموم.

١- المصدر السابق ص ٨٩.

أدب الصوفية

الحياة فى بلاد اليمن صعبة شاقة بسبب تعقيد التضاريس، والصراعات القبلية التى لاتنقطع، فلجأ بعض اليمانية إلى الزهد فى الحياة، والعيش فى تقشف، والهروب من شهوات النفس، وكان زهدا خالصا فى بادئ الأمر ثم دخل عليه بالتدريج عناصر من التصوف. ومن هنا ظهرت الصوفية فى بلاد اليمن، ولهم فلسفتهم الخاصة وتقاليدهم، وقد تأثروا بالحركة الصوفية فى سائر بلاد الاسلام، ووفد على بلاد اليمن فى عصر بنى رسول صوفية لعبوا دورا كبيرا فى ازدهار الحركة الصوفية.

قرب ملوك بنى رسول الصوفية إليهم، وقدموا لهم كل عون ممكن، وتفاءلوا بهم، وأحسن كل من نور الدين عمر والمظفر للصوفية، واعتقد فيهم، بل تعددت زياراتهم السرية لهم، لالتماس الدعاء منهم. وكان الملك الظفر، وابنه يرحلان الى الصوفى الكبير ابراهيم الفشلى، وقد تفاءل المظفر من الصوفى الكبير ابراهيم بن الحسن الشيبانى الذى بشره بالملك له ولورثته من بعده فقال له: أبشر أن الملك لك ولذويك، لا أسد الدين ولا فخر الدين (من أولاد عمه) ولذلك أعفاه وأهله من ضرائب أرضهم[1].

كما أن الملك المجاهد كان يعتقد فى الصوفى إسماعيل الجبرتى ويحسن الظن به، ويذهب متنكرا هو وأصحابه إلى مسجد الشيخ للاستماع إليه، وقد استجاب الأشرف إسماعيل للشيخ حينما طلب منه طرد الشيخ صالح المكى من اليمن[2].

وكان الملك الأفضل يكرم الصوفى الجبرتى ويرعاه ويحضر جلساته الصوفية، وتقرب ملوك بنى رسول إلى العامة بإظهار محبتهم للصوفية حتى يؤيدوا سياستهم ويطيعوهم.

تأثر المتصوفة اليمنيون بفلسفة ابن عربى فى التصوف التى تسربت إلى اليمن، وتأثر به كبار الصوفية مثل أبو الغيث بن جميل، وأحمد بن علوان، وشهدت مدينة زبيد حركة صوفية مزدهرة على طريقة ابن عربى، وأكرم الصوفى الجبرتى وفادة اتباع ابن عربى القادمين إلى اليمن، وينسب إلى المقدس الذى قدم إلى اليمن من الشام إليه إرساء تعاليم ابن عربى فى اليمن، وكان شيوخ الصوفية يتنافسون فى الحصول على كتب ابن عربى خصوصا

١- انظر

٢- الشرحى: طبقات الخواص ص ٨.

كتاب «الفتوحات المكية» ويشدون الرحال إلى بعض أقطار العالم الاسلامى لشرائه. ويغلب على الظن أن هؤلاء الصوفية لم يستوعبوا آراء وأفكار ابن عربى لأنها مطبوعة بطابع فلسفى، ومعقدة كل التعقيد.

ومن عوامل انتشار فكر ابن عربى فى اليمن، إقبال الدراويش على اليمن من البلاد الإسلامية المجاورة، وانبثوا بين العامة ينشرون أفكارهم من خلال كتب ابن عربى، وأقبل اليمانية على اقتنائها، وانقسم الصوفية فى اليمن حول فلسفة ابن عربى فى التصوف، وكتب بعض المتصوفة كتبا، هاجموا فيها ابن عربى، وذكروا منها عقائد زائفة ومسائل خارقة لاجماع المسلمين، وأيد متصوفة آخرون - كما قلنا - فلسفة ابن عربى.

عارض الفقهاء أفكار الصوفية، ورأوا أنها بدعة ليست من الإسلام فى شيء، وصنف بعضهم كتبا لتفنيد أراء الصوفية والرد عليها، منها كتاب «نصيحة المتكلفين وفضيحة المتكلفين» للفقيه محمد بن موسى الدوالى ت ٧٩٠هـ أرخص فيها ما ذهب إليه الصوفية، وأوضح أن المسلم يجب أن يحذو فى العبادة حذو الرسول، ولا يلجأ إلى البدع التى أدخلها الصوفية فى العبادة[١] وكتب الفقيه على بن موسى الدوالى كتابا فى الرد على الصوفية وبلغ هذا الكتاب من الأهمية حدا، جعل الفقهاء يستعينون به للرد على الصوفية، ذلك أن هذا الكتاب لم يدع صغيرة ولاكبيرة من آراء الصوفية إلا رد عليه بالدليل القاطع مستشهدا فى ذلك بالقرآن الكريم والحديث الصحيح وآراء السلف الصالح[٢]. وصنف الفقيه أحمد بن أبى بكر الناشرى ٨١٥هـ كتاباً فى مهاجمة الصوفية أسماه «بيان مذهبا بن عربى» ثم تلاه أبو بكر محمد بن الخياط ت ٨١١هـ وهاجم الصوفية ورد على آرائه، والعالم اللغوى الفيروزابادى فى كتاب «الاغتباط لمعالجة ابن الخياط»[٣].

وانتقد محمد على بن نور الدين الموزعى ت ٨٢٥هـ الصوفية فى كتاب «كشف الظلمة عن هذه الأمة» حلل فيها فلسفة ابن عربى، ورد عليها وأظهر مدى مخالفتها وتعارضها مع السنة الشريفة.[٤]

وقد استطاع المقرى أن ينشر آراء ضد الصوفية بقصائد شعرية رائعة، انتشرت فى طول البلاد وعرضها، وحفظها السنيون الزيديون على السواء، واتخذوا منها عادة للرد على

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ٢٧٣.

٢- السيوطى: بغية الوعاه ص ١٠٨.

٣- عبد الله الحبشى: الصوفية والفقهاء فى اليمن ص ٩٩.

٤-

الصوفية[1] وبذلك استطاع هذا الشاعر أن يقلل من شأن الصوفية بالشعر أكثر من المؤلفين الذين تحدثنا عنهم، والذى لا يتيسر إلا للقليل من الناس قراءة مؤلفاتهم.

ومن مؤلفات الحسين بن عبد الرحمن الأهدل ت ٨٥٥هـ، كتاب «كشف الغطاء» وهو من أهم كتب الفقهاء فى الرد على الصوفية، ووصف، مذهبهم بأنه «أخبث النحل وأكفر الملل» وذكر أنه لم يصل إلى هذا الرأى إلا بعد أن قضى أيام عمره يقرأ أفكارهم ومعتقداتهم[2].

ازدهرت الحركة الصوفية فى بلاد اليمن فى عصر بنى رسول، وكان لهم أشعار وحكم وأمثال، سرت بين الناس، ورددوها فى مجالسهم وساهمت أقوالهم المنثورة والمنظومة فى ازدهار الحركة الفكرية، ومن هؤلاء الصوفية أبو الغيث بن جميل، الملقب بشمس الشموس، وكان فى بداية حياته قاطع طريق، ولكنه تاب إلى الله وذهب إلى زبيد، وتتلمذ على أحد الصالحين، وخدم زاوية بزبيد ورحل فى طلب العلم، ثم طلع الجبال الشامية «فظهر له فيها أحوال خارقة» فالتف حوله الناس، وتنافسوا فى صحبته، ثم نزل إلى تهامه[3]، ومن أقواله «شكوتك إلى مافى يديك دليل على قلة ثقتك بالله، ورجوعك فى حالة الشدة إلى المخلوقين دليل على أنك لا تعرف الله، وفرحك بشيء تناله من الدنيا دليل على بعدك من الله» وسئل عن المستحق للقب صوفى، فقال: «هو من صفا سره من الكدر، وامتلأ قلبه من العبر، وانقطع إلى الله عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر»[4]. وقال: الوفى من بعهد الله موف. ومن دعائه: (اللهم انى أسألك يا روح روح الروح، ويا لب لب اللب، ويا قلب قلب القلب، هيىء لى قلبا أعيش به معك، فقد خلفت كلما هو دونك لأجلك، فاجعلنى ممن شئت من هذه الجملة)[5].

ومن كبار الصوفية فى اليمن، الشيخ أحمد بن علوان ت ٦٦٥، وصنف كتاب فتوح[6] وهو مخطوط، يتضمن آراء وأفكار الصوفية؛ وبدأ الكتاب بقوله: (فتح من الفتوح

١-

٢- الأهدل: كشف الغطاء ص ٢١٣.

٣- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٠٧.

٤- المصدر السابق جـ١ ص ١٠٧.

٥- المصدر السابق جـ١ ص ١٠٧.

٦- المصدر السابق جـ١ ص ١٠٧.

المصونة والأسرار المكنونة المخزونة ... وسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، وهم الذين يزهدون فى الدنيا ومتاعبها وملذاتها ... وهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار العلم الباطن[1].

نشأ ابن علوان مترفا كعادة أولاد الكتاب، وكان عالما بعلوم اللغة خصوصا النحو، وله شعر ومأثورات فى التصوف نالت إعجاب المعاصرين، ويروى أنه تصوف فجأة، وهو فى طريقة إلى الدخول فى خدمة السلطان نور الدين عمر، ونسبت إليه كرامات كثيرة، وأقبل عليه الناس وأحبوه، ثم ارتحل إلى الشيخ أبى الغيث بن جميل، فألبسه الخرقة الشريفة وكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، ولا يخاف فى الله لومة لائم، وله شعر يحث فيه السلطان على الفضيلة فيقول:

يا ثالث العمرين افعل كفعلهما وليتفق منك السر والعلن

واستبد عدلا يقول الناظرون له نعم المليك ونعم البلدة اليمن

عار عليك قصورات مشيدة وللرعية دوركلها دمن

وصنف كتبا فى الوعظ سار فيها على منوال ابن الجوزى، حتى سمى جوزى اليمن، وله فى التصوف كتابات كثيرة، يكتبها بعدة لغات كالفارسية. وقد دهش العوام لذلك، وقالوا إنه لم يتعلم اللغات، وإنما روحه تتصل بالأولياء فى أم شتى[3].

وتعددت الكتب التى وضعها مؤلفوها عن شيوخ الصوفية، منها كتاب الشيخ أحمد ابن أبى الخير الصياد الذى كتب عن سيرة الصوفى ابراهيم الفشلى وهو الذى دله على الطريق الى الله تعالى، فقال لما فتح الله على بما فتح لم يسلم لى الفقهاء والمشايخ غير هذا الشيخ ابراهيم الفشلى، فإنه أخى ونسيمى فى الدنيا والآخرة، ومن علماء الصوفية أبو بكر محمد ابن يعقوب، وهو من علماء الحقيقة مشايخ الطريقة، كان صالحا يطعم الصوفية الفقراء، ويعول اليتامى والأرامل[5] ومن علمائهم محمد بن حسن الديلمى ت ٧١١هـ، صنف كتاب« التصفية فى الزهد»[6] وكتب إدريس بن على الحمزى ت ٧١٤هـ، كتاب

١- هذا المخطوط فى متبتى الخاصة

٢- ورقة ٢

٣- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٦٢ـ.

٤- المصدر السابق جـ١ ص ١٤٢.

٥- المصدر السابق جـ٢ ص ٩٣.

٦- زيارة: أئمة اليمن ص ٢١٧.

تصفية القلوب وكتاب «عقد اللآلىء فى الرد على أبى حامد الغزالى» وكتب الامام يحيى ابن حمزة بن على الحسينى ت ٧٤٩هـ وكتاب « تصفية القلوب من درن الأوزار والعيوب»[١].

واشتغل قطب الدين ابراهيم الكنعى ت٧٩٣ هـ بالعبادة والمعاملة الربانية، وكان أحسن خلق الله وجها، قد غشيه نور الإيمان، وإذا خرج تزاحم عليه الناس يقبلون يديه، وكان يتكسب بالتجارة، مع قنوع وعفاف، ومال إلى الانعزال عن الناس، وصام الدهر إلا العيدين والتشريق، وأحيا ليله بالقيام لمناجاة ربه، وتناقل الناس عنه مأثورات نافعة مثل «ليس الزاهد من لا يملك شيئا إنما الزاهد من لا يملكه شيء. وقد ترجم له يحيى بن مهدى الحسنى فى كتابه «سيرة الامام ابراهيم الكنيعى» ويقع فى مجلد ضخم[٢]، أما الامام أحمد ابن يحيى المرتضى ت ٨٤٠هـ فقد صنف العديد من المؤلفات فى التصوف منها (تكملة الأحكام) و(التصفية من بواطن الآثام)، ومنها (حياة القلوب فى إحياء عبادة علام الغيوب).

انتشرت الربط فى اليمن يقيم فيها الصوفية، وحرص أهل الصلاح والتقوى على تقديم ما يلزمهم من طعام وكساء، وكان شيخ الرباط يعهد لمن يخلفه من بعده، وكان الصوفية يعقدون حفلات السماع والرقص، وينشد فيها المنشدون قصائد الصوفية، ويتذوقها الدراويش ويرقصون لسماعها وقد تأثر الصوفية فى اليمن بالطرق الصوفية فى البلاد الاسلامية المجاورة كالطريقة الرفاعية والنقشبندية والجيلانية .

ولم تكن حياة الصوفية فى الرباط للعبادة فقط بل تدارسو كتب الصوفية وأشعارهم ومأثوراتهم سواء اليمنية أوغير اليمنية، مما أدى إلى رواج الأدب الصوفى وازدهاره.

١- المصدر السابق ص ٢٣٠.

٢- المصدر السابق ص ٢٧٩.

الشعر والشعراء في اليمن في عصر بني رسول

عرف اليمنيون الشعر منذ عصر ما قبل الاسلام، وشغفوا به، وتطور شعرهم خلال مراحل تاريخهم الإسلامي، على أن الشعر اليمنى بلغ درجة كبيرة من التقدم والازدهار فى عصر بنى رسول، فتعدد شعراؤهم، .. وأنشدوه فى كل المناسبات، وحفظ اليمنيون الشعر واستشهدوا به فى أمور حياتهم اليومية، وكان البعض يحفظ عشرة آلاف بيت، ودون الشعراء أشعارهم فى دواوين نسخها النساخ، حتى تتعدد نسخ الديوان الواحد، وانتشرت فى سائر بلاد اليمن، وأقبل اليمنيون على قراءتها، وحفظها، ولم يكتف اليمنيون بذلك، بل اشتروا الدواوين من البلاد الإسلامية، واستفادوا من أشعارالمتنبى وأبى تمام لأنهما من أصل يمنى.

أما عن منهج اليمنيين فى الشعر فيمكن القول بأنه مقتبس تماما من منهج الشعراء فى البلاد الإسلامية المجاورة، ولم يكن لديهم ما يعدلون فى هذا المنهج، أو يضيفون اليه.

أنشد اليمنيون الشعر فى سائر الموضوعات التى ينشدها غيرهم من الشعراء كالمدح والهجاء والتفاخر والرثاء والغزل ونحو ذلك. وكان تفاخر الشعراء اليمنيين بقحطانيتهم، والنيل من العدنانية. وعبروا بذلك عن الموقف العدائى بين المضريين واليمنيين منذ العصر الأموى، وكان سلاطين بنى رسول يؤيدون هذا الاتجاه، للنيل من أشراف مكة والمدينة، الذين كانوا يظهرون لهم الولاء تارة وينشقون عليهم ويوالون سلاطين المماليك فى مصر تارة أخرى، على أن قلة من الشعراء اليمنيين عارض هذا الاتجاه، بل مدح قريش وذم الغسساسنة الذين يدعى بنورسول انتسابهم اليهم، وعبر ابن هتيمل عن الاتجاه الأول بقوله للمظفر:

أحببيى التبايع والاذواء فاشتملت   بالعدل دولة قحطان على مضر[٢].

وهذه المعركة الشعرية بين هذين الفريقين من الشعراء أدت إلى ازدهار الشعر اليمنى فى عصر بنى رسول، فكل شاعر يحاول أن ينتصر على عدوه، ويأتى بالحجج القوية التى تؤيد وجهة نظره، وينشد فى ذلك الشعر البليغ.

شغف ملوك بنى رسول بالشعر، وحفظوا منه الكثير، وتذوقوه، ومن ثم ميزوا بين الشعر الطيب والشعر الردىء، ونقدوا الشعر وصنفوا الشعراء طبقات، وقدروا الشعر الجيد، وكافأوا عليه بسخاء، حتى قيل إن الملك الطاهر الرسولى، كافأ أحد الشعراء على البيت الواحد بألف دينار[٣].

١- زيارة أئمة اليمن ص ٣١٦.

٢- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٥٩.

٣- عبد الله الحبشى: حياة الأدب اليمنى فى عصر بنى رسول ص ١٧١.

ومن شعراء اليمن فى عصر بنى رسول ابن العليف، وغلب عليه الشعر المديح المملوك والرؤساء والوزراء وكبار رجال الدولة، ونال من ذلك الجوائز والأموال الكثيرة. ومن شعراء المظفر الحسن بن على بن عقبه الزيادى الخولانى، وكان المظفر يمنحه راتبا[١] سنويا.

ومن كبار شعراء اليمن علوان بن عبد الله بن سعيد الحجورى، كان قيلا من أقيال اليمن «وأحد أعيان مشايخ الزمن مجتهدا فى طلب الأجر والثناء». ملك ناحية عظيمة من شرق اليمن، وتغلب على حصون كثيرة وحارب سلاطين بنى أيوب محاولا تحرير بلاده من سيطرتهم، ولم يظفروا منه بطائل، وله قصيدة فى التأليب على حرب الملك الرسولى نور الدين عمر يقول فيها:

من تاب عن حرب نور الدين من جزع　　　فاننى عنه ما عمـــرت لم أتب

وكتب الى السلطان الأيوبى فى مصر الملك الكامل يسأله أن يعاونه فى حرب نور الدين عمر. وجدير بالذكر أن هذا الأمير الشاعر غيور على وطنه فلم تكد بلاده تتخلص من الحكم الأيوبى حتى حكمها بنو رسول الدخلاء فسعى إلى تحرير بلاده من الحكم الدخيل، ولكن السلطان نور الدين عمر الرسولى، ألقى القبض على الأمير الشاعر، واعتقله فى حصن حب، ثم أفرج عنه[٢]. ولهذا الشاعر قصائد جمة:

لا آمن الليالى وهى معـارة　　　وكذا الليالى السود وهى هموم

وإذا الليالى أخنقتنى بالذى　　　فوق التراب فحســبى القــيوم

ومن شعره:

إذا كان قول الحق والحـق قولــه　　　بمحكــمة والملــك فى آية الملــك

ونفسك فاتركها عن الهم والأذى　　　فراحتك العظمى لك الله فى الترك

فما الأمر الا للــذى صير الورى　　　وتســـييرهم فى لجـة البحر بالفلك

ولما تاب وحسنت توبته قال يعاتب نفسه:

١- المصدر السابق ص ٢٠٢.

٢- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٣٨ - ١٣٩.

وقد كان ظنى الغى واللهو وإنما   يكونان فى عصـر الشـباب العرانق

فلما أتانى الشيب وانقرض الصبى   نظـرت وذاك الغـى غير مفـارق

فقلت له لى منـك جـار يجيرنى   فقال ومن هو قلت ذو الطول خالقى

وديوان شعره جمع فى مجلد كبير، ولكن روى الرواة المعاصرون بعض أشعاره، وسجل بعض المؤلفين عدة قصائد له، بقيت معروفة ومنسوبة إليه وتوفى سنة ٦٦٠هـ[١].

ومن شعراء اليمن سراج الدين أبو بكر بن دعاس، وكان شاعرا ماهرا نحويا لغويا فقيها، وكان أحد جلساء المظفر وخصيصا به، وأثنى عليه المظفر وفضله على غيره من الشعراء، وكان ابن دعاس واسع العلم، وهو من أهل زبيد ونسب إليه سرقة الشعر، وقيل إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى بابن دعاس للحساب، فيقول هذا البيت لفلان، وهذا الصدر لفلان، وهذا العجز لفلان، فيخرج بينا[٢].

ويروى أنه لما عاد السلطان المظفر من الحج، استأذن الشاعر بن دعاس من المظفر، فى الذهاب إلى زبيد، فقال له المظفر، أتريد أن تتقدم لتجمع شعراء من الدواوين، وتلقانا به، واستقبل ابن دعاس المظفر فى زبيد وأنشده:

ليس فى قدرة ولا امكان   نيل ما نلت يا مليك الزمان

ومن قوله:

هاك شعرا منظما لم أغز   فيه لا مصحف ولا ديوان

فقال له السلطان نهيناك عن الدواوين، فتعديت الى المصحف.

ومما يجدر ذكره أنه قدم الى اليمن من مصر عالم فى المنطق فأراد المظفر دراسة المنطق منه. فنهاه ابن دعاس، وقال للسلطان أماعلمت أن الرسول ﷺ يقول البلاء موكل بالمنطق[٣].

١- المصدر السابق جـ١ ص ١٤٠.
٢- المصدر السابق جـ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٣.
يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٢٩٥.
٣- العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

ومن شعراء الملك المظفر، القاسم بن هتيمل - شاعر المخلاف السليماني - وكان فصيحا حسن الشعر مداحا، وله في سلطان المظفر عدة قصائد، وحفظ الرجال والنساء شعره واستشهدوا به وتغنوا به. ومن شعره :

ودالت على الاسلام للشرك دولة　　　حنين وأحد فيض بدر وخيبر

ولا أبي لاذقت راحة عيشة　　　اذا أنا لم أظفر بعفو المظفر

فتى ورث الاذواء غير مدافع　　　وأحرز فضل الأسدين ومنذر[١]

ومن أشهر شعراء اليمن محمد بن حمير، وقد هنأ الملك المظفر، لما عاد من أحدى غزواته بقوله :

هنئت بالنصر لما جئت في لجب　　　مظللا بالردينيات والقصب

ومرحبا يا رسولي الملوك وإن　　　غاب السماء كان والجوزاء لم تغب

وقد عاصر هذا الشاعر وكل من نور الدين، عمر، الملك المظفر وكان مجلس نور الدين عمر يضم من الشعراء،ابن حمير والتاج ابن العطار - وهو من فضلاء أهل مصر، وقد أثنى نور الدين عمر على ابن حمير، ووصفه بأنه حاضر القريحة سريع البديهة. وجدير بالذكر أن نور الدين عمر طلب من ابن حمير أن يقول شعرا، فالتفت ابن حمير الى ابن العطار، فقال :

تشعر بعمامة معقودة　　　لو بعثرت ملت الفضاء خميرا

وأبوك عطار فما بال ابنه　　　يهدى الحنان الى الرجال بخورا

وقد فاخر ابن حمير بشعره وسعة معرفته فقال:

أنا البحر فياض بكل غريبة　　　أحلى بها المنصور درا وجوهرا

وما أن أبالي عن علي بن أحمد　　　وعن شعره دون ابن أحمد في المسك[٢]

فقال ابن حمير في مدح نور الدين عمر:

قد قيل جاور لتغنى البحر أو ملكا　　　أنت المليك وأنت البحر ياعمر

١- المصدر السابق جـ١ ص ٦٠.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٨٦.

والكـــل أنت وفيك السر أجمعه فلا يغرنك إن غابوا وإن حضروا[1]

ولما تسلم المظفر حصن حب في سنة ٦٤٨ هـ قال ابن حمير:

ونادت زبيد يا مظفر مرحبا أضـاء بك النادى وقربك المقر

وسار الى حب وحب يحبه وما حب يعصيه ولوشاء ما قدر

وتوفى هذا الشاعر سنة ٦٩٢هـ، وهو أفضل شعراء عصره، وله ديوان شعر، فقد كان كما قال المعاصرون

ومن شعراء العصر الرسولى محمد بن إبراهيم بن رتقل، ويتميز شعره بسهولة الألفاظ، وخفة الأوزان، وكان مقربا الى الملك المجاهد وانفرد بمدحه وله معرفة بفنون الأدب وأيام العرب، وبرع فى شعر الموشحات والشعر الفصيح ويكثر فى شعره وصف الورود والزهور والبساتين ومظاهر الطبيعة الجذابة ممايدل على ذوقه الفنى[2].

ومما يجدر ذكره أن الملك المؤيد كان دارسا للشعر وفنونه، فشرح قصيدة أبى فراس الحمدانى شرحا شافيا وهى التى أولها:

ما العمر ما طالت به الدهور العمر ماتم به السرور

ونقل جانبا من أشعار الجاهليين المخضرمين والمولدين فى كتاب وعلق على هذه الأشعار وشرحها[3].

وكان الملك المجاهد شاعرا فصيحا، أهدى العالم الجليل جمال الدين محمد بن عبد الله الريمى أربع قطع من ذهب، منقوش على وجه كل منها: (إذا جاءت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تنفلت، فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا الشح يبقيها اذا هى ولت).

ومن شعره:

قلت أنا العز بأطراف القنا ليس بالعجـــز المعالى تجتنا

١- المصدر السابق جـ١ ص ٨٧.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٩٥ ، ص ٢١٢.

٣- الجندى: السلوك ورقة ٢٠١.

نحن بالسيف ملكنا اليمنا

كل فخر تدعى الناس لنا   أعرق العالم في الملك أنا[1]

وهى قصيدة طويلة تحمل نمطا جديدا فى الشعر .

ومن شعراء اليمن البارزين، مطهر بن محمد ت ٧٩١هـ، وهو ابن الامام محمد بن المطهر بن يحيى، وقد برع فى نظم الشعر، وقصد الملك الأفضل، ومدحه بعدة قصائد، وكان أكثر شعره فى نظام الموضحات وكان عمر بن على العلوى شاعرا وله ديوان كبير، وتضم مكتبته خمسمائة ديوان من الشعر[2]. وذاع بين الناس شعر اسماعيل بن أبى بكر المقرى خصوصا الصوفية، والعوام ذوى المزاج الدينى القوى، ومن روائع شعره قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، واتصل بملوك بنى رسول ومدحهم خصوصا الأشرف، وكان فقيها وله مؤلفات فى الفقه، لذلك تظهر الروح الدينية فى شعره، وله شعر فى فنون أخرى. وللمؤرخ الخزرجى ديوان شعر كبير.

وشهدت بلاد اليمن سنة ٧٣٨هـ بداية ظهور الشعر الحمينى الذى ولع به المتأخرون، ولم يسبق إليه الأولون، وله بحور مختلفة، وأول من أظهره فى اليمن أحمد بن فليته بن ابى بكر[3].

وبذلك يمكن القول بأن بلاد اليمن شهدت نهضة شعرية كبيرة فى عصر بنى رسول، وتعدد الشعراء اليمنيون، ونالوا مراكز كبيرة فى بلاط الملوك وحصلوا على الصلات الجمة ونالوا تقدير الناس، وحفظ الناس الشعر وأنشدوه فى كل مناسبة. وهذا يدل دلالة واضحة على مدى تذوق الناس الفنى وارتقاء مستواهم الثقافى، وقدراتهم الأدبية .

١- العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ١٢٤.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٣٥٢.

٣- زبارة: أئمة اليمن ص ٣٠٩.

المؤرخون فى عصر بنى رسول

تنشط حركة كتابة التاريخ دائما وبالضرورة فى البلاد التى تزدهر فيها الحركة الثقافية على اعتبار أن ازدهار الثقافة يؤدى إلى حرص المثقفين على دراسة تاريخهم. كما أن الملوك فى مثل هذه الدول يشجعون المؤرخين على الكتابة التاريخية، ويحثونهم على الكتابة عنهم وعن أسرتهم ودولتهم وتنطبق هذه القاعدة على دولة بنى رسول التى ازدهرت فيها الدراسات التاريخية بفضل جهود المثقفين فيها، وتشجيع ملوك بنى رسول للمؤرخين .

وقد عنى المؤرخون فى عصر بنى رسول بدراسة تاريخ اليمن منذ عصر ما قبل الاسلام حتى عصرهم الرسولى، وأبرزوا تراجم للعلماء فى اليمن، وبعضهم يكتب عن تاريخ الدولة الإسلامية. ويتجاهل المؤرخون الزيديون بنى رسول الشافعية، ويكتبون عن آل البيت والأئمة الزيدية .

من أهم الكتب التاريخية التى صنفها مؤرخون زيديون «الحدائق الوردية فى مناقب وتراجم الأئمة الزيدية» صنفه أحمد بن محمد المحلى ت٦٥٢هـ، ويقع فى مجلدين، يبدأ المجلد الأول بمقدمة فى بعض ما ورد فى السيرة النبوية، يلى المقدمة تراجم مفيدة للأئمة العلويين ابتداء من على بن أبى طالب فالحسن فالحسين والامام زيد وابنه يحيى، والإمام محمد بن عبد الله الحسن ذو النفس الزكية وإخوانه ابراهيم ويحيى وإدريس، والأئمة الزيدية حتى عصره وينتهى كتابه بترجمة للمنصور بالله عبد الله بن حمزة ت٧١٤هـ، ثم خاتمة مفيدة لموضوع الكتاب[٢] .

وكتب الامام المنصور بالله الحسن بدر الدين محمد بن أحمد ت ٦٧٠هـ، كتاب «أنوار اليقين فى فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب» وهو شرح أرجوزة له فى مجلد ضخم، وفيه جملة مسائل أصول الدين[٣] .

وصنف ادريس بن على الحمزى كتاب «كنز الأخبار فى السير والأخبار» وهو أربعة أجزاء، الأول فى سيرة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، والثانى فى أخبار الخلفاء حتى قرب انتهاء المائة الثانية، والثالث فى أخبار بنى العباس وملوك الدول الإسلامية المستقلة، كما

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٤٢.

٢- زيارة: أئمة اليمن ص ١١٦.

٣- المصدر السابق ص ٢١٨.

يتناول أخبار الدولة الفاطمية والقرامطة، ويشير إلى الحروب الصليبية فى الشرق، وفى آخر الكتاب نبذة مختصرة عن أخبار اليمن وملوكها إلى زمنه. والرابع فى ذكر ملوك حمير. وقد اعتمد المؤلف على كتاب الأمم والملوك للطبرى، ومروج الذهب للمسعودى والكامل فى التاريخ لابن الأثير وغيرهم. وفقد هذا الكتاب، وأشار إليه صاحب كتاب «مطلع البدور ومجمع البحور» وأشار إلى أنه صنف كتابا آخر فى التاريخ أسماه «السيول فى فضائل البتول»[١].

ومن المؤرخين اليمنيين فى عصر بنى رسول بدر الدين محمد بن حاتم اليامى الهمدانى، صنف كتاب «السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن»، عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، وتاريخ وفاته غير معروف تماما، ذلك أن المؤرخين الذين أرخوا لليمن من بعده لم يعنوا بعمل ترجمة له، ويمكن ترجيح وفاته فى السنوات الأولى من القرن الثامن الهجرى، ذلك أننا نقرأ فى كتب التاريخ إشارات عنه نهاية القرن السابع بل وحتى سنة ٧٠٢هـ. فقد أرسله الملك المؤيد إلى حصن ظفار لتسوية بعض الخلافات مع الأشراف الزيدية، وكان مقربا إلى ملوك بنى رسول، وعهدوا إليه بمهمات إخضاع بعض القلاقل والاضطرابات فى البلاد[٢].

وكتاب السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن «لمؤلفه بدر الدين محمد بن حاتم الهمدانى من أهم مصادر تاريخ اليمن، يتناول المؤرخ فيه تاريخ أيوب وبنى رسول - حتى زمنه - فى اليمن، ويبدأ كتابه بالحديث عن الغزو الأيوبى فى اليمن على يد توران شاه. ثم يتبع الأحداث السياسية فى بلاد اليمن فى العصر الأيوبى، ويشير إلى الصعاب التى واجهت بنى أيوب فى حكمهم لليمن. وموقفهم من الأئمة الزيدية وعلاقاتهم مع مصر وسائر البلاد الإسلامية، ثم ينتقل إلى ذكر قيام دولة بنى رسول، ويتحدث عن نسبهم، وعن حكم نور الدين عمر بن رسول - أول سلاطينهم فى اليمن - وينتقل إلى وصف حكم السلطان المظفر، والصعاب التى واجهت حكمه، وسيطرته الكاملة على اليمن، وعلاقته بمصر والحجاز، ومع حرصه على ذكر الأحداث التاريخية لسلاطين بنى أيوب وبنى رسول فى اليمن، إلا أنه يختتم كتابه بذكر تولية السلطان الأشرف عمر بن يوسف دون أن يشير إلى أعماله.

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية ص ٣٣٤ - ٤١٠.

٢- يحيى بن الحسين: غاية الأمانى جـ١ ص ١٨٠ وما بعدها.

والمؤرخ هنا لا يكتفى بسرد الأحداث التاريخية، ولكنه يبدى رأيه فيها ويناقشها ويرجح رواية عن رواية، ويكذب الرواية التى يعتقد فى عدم صحتها، وهو بهذا يختلف عن كثير من المؤرخين الذين سبقوه، والذين يدونون كل ما يقع تحت أيديهم من معلومات دون مناقشة.

ويبلغ من دقة هذا المؤرخ أن الرواية التى يراها راجحة يذكرها منسوبة إلى صاحبها، ويقول: حدثنى من أثق به. والحدث اذا شاهده يقول: كنت ممن حضروا الروايات التى لا يستطيع ترجيحها لعدم توصله إلى قائلها، يوردها على علاتها.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ اليمن فى زمن بنى أيوب وشطر من حكم بنى رسول، لذلك اعتمد عليه المؤرخون الذين تلوه، ومن بينهم ابن عبد المجيد والجندى والوصابى والخزرجى وابن الربيع وغيرهم. وقد ذكر عن سبب تأليف كتابه «فلما كانت الأخبار والسير مما تضطلع النفوس النفيسة إليها وتشتاق أن تقف عليها لا سيما أخبار الملوك، فإنها أشرف الأخبار، وعليها يقع اختيار الأخبار.. ولم يكن أحد يصرف همته إلى أخبار الغزو باليمن وتخليدها فى كتاب يتداول إلى آخر الزمن، أحببت أن أكون السابق إلى ذلك. وأسلك فى سياقه أخبارهم أحسن المسالك على ما وقع من أخبار الرواة باختلاف واتفاق واجتماع فى طرق الأخبار وافتراق.. »[1].

ومن المؤرخين اليمنيين فى عصر بنى رسول أبو المحاسن تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى، نشأ بمكة المكرمة، ورحل منها فى شبابه إلى عدن، وكان يتطلع إلى شغل وظيفة كاتب ديوان الإنشاء فى عهد الملك المؤيد داود بن يوسف بن محمد بن على ابن رسول، ولكن تصدى له بعض منافسيه. ولم يستطع شغلها، فكرة البقاء فى اليمن، ورحل إلى مصر. ولم تطل إقامته بها، فغادرها إلى الشام، واشتغل بالتدريس فى بعض المساجد والعروض والمقامات، وفى سنة ٧١٦ هـ عاد إلى اليمن، وتحققت أمنيته الكبرى فشغل وظيفة كاتب ديوان الإنشاء للملك المؤيد، ولما توفى الملك المؤيد سنة ٧٢١ هـ تنافس أبناء البيت الرسولى حول الحكم، واضطربت البلاد، ولم يستطع الملك المجاهد ابن الملك المؤيد الاستمرار فى الحكم، فخلعه الملك الظاهر، واستقر فى الحكم وانحاز ابن عبد المجيد فى هذا النزاع إلى الملك الظاهر، وكان من أبرز ومن أوائل مؤيديه ومناصريه ، فكافأه الملك

١ - السمط الغالى الثمن - تحقيق محمد عبد العال أحمد.

الظاهر بأن أسند اليه الوزارة، ولكن الأيام لم تصف لهذا الرجل الطموح، فلم يلبث أن استرد الملك المجاهد ملكه فصب نار غضبه على ابن المجيد وصادر أمواله وشرع فى القبض عليه، فلما أحس ابن عبد المجيد أنه من الأفضل له مغادرة اليمن، رحل إلى مكة المكرمة، ومنها إلى مصر، واستقر بها، وشغل بها بعض الوظائف مثل إدارة البيمارستان والتدريس فى بعض مساجد مصر، ثم شد الرحال إلى بلاد الشام، وقضى ما تبقى له من عمر فى التنقل بين حلب ودمشق وطرابلس والقدس. وتوفى سنة ٧٤٣هـ[1].

وكان المؤرخ ابن عبد المجيد عالما فى اللغة وآدابها، ومما يجدر ذكره أنه هنأ الملك المؤيد بعد عودته إلى اليمن سنة ٧٠٨هـ فى الحفل الذى أقامه بعد أن انتهى من بناء قصر المعقلى بثعبات بقوله:

تجد القصور الشامخات على السها	شرفا تريك العـز فى شـــرفاتها
تلك الجنـــــان أما ترى أنهـــارها	قد أعربت بالطيب عن ثمراتهـا
تجلى زواهـــــرها ويشرق زهـــرها	فكأنها الأقمار فـــى هالاتها[2]

ولمؤرخنا عدة مؤلفات منها :

١ – تاريخ النحاة.

٢– مطرب السمع فى حديث أم زرع[3].

٣– تذبيل على تاريخ ابن خلكان.. ويتضمن ترجمة لثلاثين رجلا.

٤– لقطة العجلان المختصر من وفيات الأعيان.

٥– مختصر الصحاح.

٦– بهجة الزمن فى تاريخ اليمن[4].

ويذكر ابن حجر أن لمؤرخنا مؤلفات غير المؤلفات التى ذكرناها، ووصفت مؤلفاته

١– ابن حجر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ٢ ص ٣١٥.

٢– الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٧٩.

٣– ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ١ ص ١٣٨.

٤– ابن شاكر: فوات الوفيات ص ٥١٢.

وأشعاره بالجودة، ويصفة الخزرجى[1]، أنه أوحد عصره وفريد دهره فصاحه وفضلا وسؤددا ونبلا، واعتمد فى مؤلفاته التاريخية على المراجع العربية المعروفة، الا أنه كان يفضل ابن الأثير على غيره، ولا يعتمد على مؤلفات القاضى الفاضل على الرغم من أنه عاصر الكثير من الأحداث التى كتب عنها[2].

ومن المراجع الهامة فى تاريخ اليمن كتاب «بهجة الزمن»، بدأ بالحديث عن عمال اليمن فى عهد الراشدين والأمويين والعباسيين. ثم انتقل إلى سرد تاريخ اليمن فى عصر الدولة الإسلامية المستقلة التى حكمت هذه البلاد، وهى دولة بنى زياد ودولة يعفر ودولة الأئمة الزيدية والدولة النجاحية والدولة الصلحية والدولة الزريعية ودولة بنى مهدى، ثم يتحدث عن الغزو الأيوبى لليمن، وتاريخ حكم بنى أيوب لهذا البلد، ثم يتحدث عن قيام دولة بنى رسول، ونسب الرسوليين، ويعرف تاريخ هذه الدولة حتى عصر الملك المجاهد[3].

ومن المؤرخين اليمنيين الجندى، كان عالما فاضلا نبيلا ذا تقوى وورع فصيحا قوى البيان، أمينا فيما يكتب وينقل ضليعا فى علوم شتى، منها الفقه والحديث والنحو والصرف والأدب والشعر والأنساب، نشأ من بيت علم وتقوى وشرف فى مدينة الجند، ولد فى مدينة زبيد حيث كان والده مدرسا فى إحدى مدارسها الكبرى، ولم يلبث أن رحل مع والده الى تعز، ثم عاد الى الجند - وطنهم الأصلى - واستفاد من علماء البلدين، ودرس على بعضهم وأرسله والده الى مصنعه سير من بلد صهبان - وكانت إذ ذاك موئل القاصدين والوافدين عامرة بالعلماء والأعلام، والتقى بالكثير من علماء زمانه، واستفاد منهم فى تصنيف كتابه «السلوك فى طبقات العلماء والملوك» وكان إذا سمع عن عالم أو فقيه، رحل إليه للأخذ منه، والاستفاده ولم يكتف بذلك بل كان يرحل إلى الشيوخ والعلماء الوافدين على اليمن لطلب العلم ومدراسته، لذلك تكونت لديه حصيلة علميه كبيرة، ومادة غزيرة، وعبر عنها، بتصنيف الكتب المفيدة التى لاتزال محفوظة إلى يومنا هذا، وتمثل مراجع رئيسية، وكتبه متقنة مضبوطة، وكان يستصحب بعضها فى سفره، وشغل بعض الوظائف الهامة فى عدن وزبيد كالقضاء والحسبة، وعرف بالنزاهة والعدالة والأمانه فى كل مهامه التى شغلها.

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٧٩.

٢- ابن شاكر: فوات الوفيات ص ٥١٢.

ابن حجر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ٢ ص ٣١٥.

٣- انظر كتاب بهجة الزمن لابن عبد المجيد.

وكتاب «السلوك فى طبقات العلماء والملوك» للجندى من أهم المراجع التاريخية التى تعتمد عليها فى دراسة تاريخ الاسلام فى اليمن، لأمانته فى رواية الأحداث التاريخية، ودقته فى عرضها، ويزيد بعض رواياته أهمية آنه عاصرها بل شاهدها أحيانا فى رحلاته الكثيرة فى طول بلاد اليمن وعرضها، ولم يكتف بعرض الأحداث التاريخية، بل يترجم للعلماء والشيوخ والأدباء وكبار رجال الدولة، ويتبع فى تاريخه طريقة ذكر الأحداث التاريخية فى كل سنة، ثم يتبعها بترجمة للعلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وكبار رجال الدولة الذين توفوا فى هذا العام، واهتم بضبط أسماء الأعلام والأماكن والبلدان، ولما كان هذا المؤرخ شافعى المذهب، فقد عنى بالترجمة للعلماء والفقهاء الشافعية، ونادرا ما يترجم لعلماء زيدية.اذن فقد أفاد كتاب هذا المؤرخ فى دراسة التاريخ السياسى لليمن، كما أفاد فى دراسة الحركة الفكرية فى اليمن من خلال تراجمه للعلماء والفقهاء[1].

ولكن يؤخذ على هذا المؤرخ إنه ينقل فى كتابه بعض الروايات التاريخية دون تحقيق.، ويروى قصص الصوفية التى كانت رائجة فى أيامه.

وكان الجندى يجمع مادته العلمية من علماء عصره فى اليمن مهما بعدت المسافات، ويرحل اليهم، ويركب دابته مجتازا الفيافى والقفار، ومتعرضا لأخطار الطريق خصوصا قطاع الطرق، ويحمل معه فى رحلاته مسودات كتبه، ويستمع الى العلماء، وينقل منهم فى أوراقه.

وأما البلاد التى لا يستطيع الوصول إليها، فيراسل علماءها ويطلب منهم الاجابة عن أسئلته عن علماء هذه البلاد وجهودهم الفكرية. لذلك جاءت تراجمه عن العلماء مفيدة جدا. ويبدأ كتابة مقدمة تدل دلالة واضحة على حبه لوطنه فيقول : لما كان علم التاريخ من العلوم المفيدة والقلايد الفريدة موصلا علم السلف إلى من خلف مميزا لذوى الهداية عن أهل السلف، يعيد الاعصار بعد ذهابها وينبه على خطئها وصوابها، وتجديد أخبارها وآثارها ويميز أخبارها عن أشرارها، وفيه يستفيد الاخر عقل الأول.. فأحببت حينئذ وضع كتاب أجمع فيه غالب علماء اليمن، وأذكر مع كل ما يثبت من حاله مولدا ومنعتا ووفاة بعد أن أضم إلى ذلك إشادة من اعتقد أن إشادته حكم، وطاعته غنم[2].

١- انظر كتاب الجندى

الشيبانى: قرة العيون ص ١٦ - ١٧.

٢- عبد الله الحبشى: حياة الأدب اليمنى فى عصر بنى رسول ص ٥٣.

واعتمد الجندى فى كتبه على المراجع اليمنية والعربية مثل كتب المفيد لعمارة وتاريخ صنعاء للرازى وطبقات ابن سمره ووفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب بهجة الزمن لابن عبد المجيد وكتاب الفقيه الشرعى ت ٧١٨هـ وفيه تراجم عن علماء تعز، وكتاب السمط الغالى لمحمد بن حاتم. واعتمد بالاضافة إلى ذلك فى جمع مادته العلمية على رحلاته الكثيرة – كما قلنا.

ومن المؤسف حقا أن المؤرخين اليمنيين لا يترجمون له على الرغم من أنه ترجم للكثير من العلماء. والخزرجى يعتمد على الجندى فى الكثير من رواياته، ونقرأ فى كتابه «العقود اللؤلؤية» قال الجندى.. فى كثير من صفحات كتابه. ومن المرجح أنه توفى سنة ٧٣٠هـ.

وصنف السلطان الأفضل الرسولى ت ٧٧٨هـ عددا من كتب التاريخ منها كتاب «نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون» وله أيضا كتاب «العطايا السنية فى المناقب اليمنية» يحتوى على طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها. وله كتاب «نزهة الأبصار فى اختصار كنز الأخبار» واختصر تاريخ وفيات الأعيان لابن خلكان، وله كتاب «بغية ذوى الهمم فى أنساب العرب والعجم»[1].

ومن المؤرخين اليمنيين فى العصر الرسولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحبيشى الوصابى ت ٧٨٢هـ، وصنف كتاب «الاعتبار فى تاريخ وصاب» كتب هذا الكتاب فصلا عن تاريخ اليمن بصفة عامة فى عصره، وأفرد جزءا من كتابه عن تاريخ وصاب وعلمائها وأعيانها.

نشأ الحبيشى فى بيئة علمية خالصة، ووالده أحد أعلام عصره فى الفقه والتصوف، وعمه واحد من كبار الصوفية. اذن نشأ الحبيشى فى بيئة علمية خالصة وتلقى دراسته على أيدى أبيه وجده، ولم يصف الحبيشى سوى هذا الكتاب وتوفى والكتاب لا يزال مسودة، وأكمله أحد أولاده، وأضاف إليه زيادات تنتهى إلى حوالى سنة ٨٤٨هـ.

وقد بدأ صاحبنا الكتاب بالحديث عن أهمية علم التاريخ فقال: اعلم.. أن علم التاريخ من العلوم الجليلة، وحفظه من الخصال النبيلة وفائدته الاعتبار لذوى العقول والأبصار والتفكر فى تقلب الزمان وخراب المعاقل والديار.. وأن الدنيا قد سارت بأهلها وعلمائها

١ – الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ٩٢.

وملوكها وسلاطينها، «فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» وقد وضع المؤلف مقدمة كتابه عن فضائل اليمن مستشهدا بالأحاديث النبوية وأقوال السلف الصالح، وخصص الجزء الأول من كتابه عن ملوك بنى زياد، ثم انتقل إلى الحديث عن الدولة الصليحية، فدولة بنى نجاح، ثم تحدث عن علماء وصاب وفقهائها، ويختتم هذا الجزء عن دولة بنى نجاح فى عصرها الثانى – أى عصر نفوذ الوزراء – ويتكلم عن دولة بنى زريع فى عدن[1].

أما الجزء الثانى من الكتاب، فخصصه عن أخبار وصاب، يدل على محبته لبلده، وذكر أسباب تسميتها وحدودها وفضائلها ومدنها ومعاقلها وملوكها المتقدمين إلى ملوك بنى رسول، ويختتم هذا الجزء بالحديث عن بقية الفقهاء الوصابين[2].

ومن الكتب التاريخية التى تكتب عن إقليم يمنى، كتاب عن تاريخ سنحان لمؤلفه عبد الله بن زيد العنسى ت ٦٦٧هـ ويسمى **«مناهج البيان لرجال سنحان»**.

ومن أبرز مؤرخى اليمن فى عصر بنى رسول، على بن الحسن بن أبى بكر بن الحسن بن على بن وهاس الخزرجى – من مواليد زبيد – وعاصر بعض ملوك بنى رسول، وهم الملك المجاهد على والملك الأفضل عباس والملك الأشرف اسماعيل، والناصر أحمد بن الأشرف، فى نهاية القرن الثامن الهجرى وأوائل القرن التاسع، وتوفى سنة ٨١٢هـ، وبدأ حياته يعمل مهندس ديكور فى المدارس والقصور الملكية، وعرف منذ نعومة أظافره بالإقبال الشديد على طلب العلم ومدارسته ولم يلبث أن تفرغ للتصنيف فى التاريخ والأنساب والأدب، وكان شاعرا فذا تتجلى فى شعره نزعته القحطانية، والتقى مؤرخنا بابن حجر العسقلانى – الذى زار اليمن – واستفاد منه ومن علمه فى التراجم الذى اشتهر بها[3].

فطن الملك الأشرف اسماعيل الى مكانه الخزرجى العلمية، فقربه اليه، وشجعه على الكتابة والتصنيف، وعهد إليه ببعض المهام العلمية[4]. واستفاد الخزرجى فى كتبه التاريخية من صلته بالملوك حيث اطلع على أسرار السياسة، واتجاهات الدولة، وعلاقتها بالدول الأخرى.

١– انظر الكتاب.

٢– انظر الكتاب.

٣– السخاوى: الضوء اللامع جـ٢ ص ٢٩٩.

٤– بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٠.

أرخ الخزرجي لبلاد اليمن بصفة عامة ولبنى رسول بصفة خاصة فى مؤلفات يؤرخ بعضها حسب السنين، وبعضها بترتيب وتعاقب الدول وبعضها حسب ترتيب الحروف والأسماء وكتابه الأول « الكفاية والأعلام فى من ولى اليمن وسكنها من أهل الإسلام» أو «العسجد المسبوك والزبرجد المحبوك فيمن ولى اليمن من الملوك»، وضعه حسب السنين.

أما التاريخ الذى وضعه الخزرجي على حروف الهجاء، فيشتمل هذا الكتاب على ثلاثين بابا، وضعه على غرار كتاب السلوك للجندى.

وهذا الكتاب يحمل اسمين مختلفين «العقد الفاخر الحسن فى طبقات أعيان اليمن»، طراز أعلام الزمن فى طبقات أعيان اليمن وقد أوضح لنا السخاوى ذلك[١].

أما الكتاب الذى خصصه لتاريخ الدول والملوك فهو «العقود اللؤلؤية فى أخبار الدولة الرسولية» وقد صنفه بتشجيع من الملك الأشرف اسماعيل. وللخزرج أيضا كتاب «الحصول فى أنساب بنى رسول» وأشار إليه فى كتابه «العقود اللؤلؤية» بقوله قال: على الحسن الخزرجي تجاوز الله عنه وقد كنت شرحت هذه العقيدة التى قالها الحارث الرائش فى جزء لطيف وسميته «الحصول فى أنساب بنى رسول» وذاك لما شاهدت به من صحة انتسابهم، وقل أن يوجد دليل على صحة أحد من الناس كصحة هذا النسب»[٢].

ودرس الخزرجي فى هذا الكتاب نسب بنى رسول، فيقول فى أول كلامه فى كتاب «العقود اللؤلؤية» أعرق ملوك اليمن فى الملك فى الجاهلية والاسلام، ملوك حمير وملوك غسان، ولهذا يقال حمير أرباب العرب. وغسان أرباب الملوك، وذلك أن سبأ الأكبر لما حضرته الوفاة طلب ابنيه حمير وكهلان، وكان حمير هو الأكبر، وأقعده عن يمينه، وأقعد كهلان عن شماله، ثم طلب سائر بنيه وبنى عمه ووجوه قومه. وأوصاهم أن يعطوا لحمير ما يصلح لليمن ويعطوا كهلان ما يصلح لليسار[٣].

وكتاب العقود اللؤلؤية يذكر فيه الأحداث السياسية ويترجم للعلماء والفقهاء والصالحين الذين توفوا فى التاريخ الذى يذكره، وقسم المؤلف كتابه الى جزءين: الجزء

١- السخاوى: الضوء اللامع جـ٥ ص ٢١٠.

الأكوع: أضواء جديدة على كتاب العسجد ص ١٢٣ - ١٢٩.

٢- الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٦.

٣- المصدر السابق.

الأول يتناول في بابه الأول انتساب بنى رسول، والسبب في دخولهم اليمن، واستقلالهم بالملك، والباب الثانى فى ذكر قيام الدولة المنصورية وأسبابها والباب الثالث فى أخبار الدولة المظفر واتساعها، والباب الرابع فى ذكر قيام الدولة الاشرافية الصغرى. والباب الخامس فى ذكر قيام أخبار الدولة المؤيدية. أما الجزء الثانى فبدأ بالباب السادس وهو أخبار الدولة المجاهدية، والباب السابع فى ذكر قيام الدولة الأفضلية ووقائعها. والباب الثامن فى ذكر قيام الدولة الأشرفية الكبرى وبعض أيامها[1].

ويختم الكتاب بأحداث سنة ٣٠٨هـ، ومن أبرزها وفاة الأشرف اسماعيل ويقول: (وكان رحمه الله خير ملك وسيرته أحسن سيرة جوادا كريما هماما حليما رحيما رءوفا مشفقا عطوفا، ولم يكن فى ملوك العصر مثله). ويذكر مآثره الدينية وذكره قصيدة رثاء فيه لأحد الشعراء مطلعها:

هو الدهر كرت بالخطوب كتائبه   وعضـت بأنياب حـداد نوائبه

فإن كان هذا الدهر مالا صـروفه   على دكها الطود المنيع جوانبه

وكتاب «العقود اللؤلؤية» من أهم المصادر فى تاريخ دولة بنى رسول، لأن المؤلف عاصر فترة طويلة لهذه الدولة، وكان مقربا إلى ملوكها لذلك يعتمد عليه كل من يكتب أو يقرأ عن دولة بنى رسول.

رتب الخزرجى كتابه «الكفاية والاعلام» حسب الدول التى حكمت اليمن، ويبدأ بالباب الرابع، فى ذكر من ملك اليمن من ملوك صنعاء وعدن رتبه على عشرة فصول من ظهور الإسلام الى قيام دولة بنى زريع، والباب الخامس خصصه فى تاريخ مدينة زبيد ومن حكمها، وأرخ من عصر بنى زياد إلى عصر الملك الأشرف إسماعيل وبمقارنة ذلك بخطة كتاب العسجد المسبوك، يتبين لنا أن الكفاية والاعلام، ليس الاالبابين الرابع والخامس منه، وبمراجعة المخطوطات المتوفرة يتضح أن عنوان الكتاب الخاص بالتاريخ العام هو العسجد المسبوك فى أخبار الخلفاء والملوك، أما عنوان الكتاب الخاص باليمن فهو العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك «والنسخة هذه التى تكتب عن اليمن تبدأ بالباب الرابع فى ذكر ملوك صنعاء وعدن، وفيه عشرة فصول. الفصل الأول فى فضل اليمن. والثانى فى إسلام

١- انظر كتاب العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ٣١٨.

الزركلى: الاعلام ٨٣٥.

أهل اليمن. والثالث فى ذكر علماء اليمن بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. والرابع فى ذكر عمال اليمن فى عصر بنى أمية. والخامس فى ذكر عمال اليمن فى عصر الدولة العباسية والسادس فى ذكر القرامطة فى اليمن والسابع فى ذكر العلماء المتغلبين على صنعاء، والثامن فى ذكر الدولة الصليحية. والتاسع فى ذكر ملوك صنعاء بعد الصليحية. والتاسع فى ذكر ملوك صنعاء بعد الصليحيين. والعاشر فى ذكر أخبار الدولة الزريعية واستيلاء الزريعيين على عدن.

أما الباب الخامس فيبدأ بذكر اختطاط مدينة زبيد وتملك بنى زياد، وذكر دولة بنى نجاح، ويخصص فصلا لوزراء بنى نجاح، ثم يتكلم عن دولة بنى مهدى والغزو الأيوبى لليمن، واستيلاء الأيوبيين عليها، والفصل السادس فى ذكر الدولة الرسولية وملوك آل الرسول. ويخصص فصلا لكل ملك من ملوكها حتى يختتم الكتاب بالحديث عن الملك ورثاه بقوله:

فيا ناصـر الأسـلام صبـروا فإنـه   متى مر طعم الصبر سرت عواقبه
لقد كنت نعم الجبر للكسر بعده   فيالك ضد عالم فلقيـه شاعيـة
سقى قبره الفياض بالجود والندى   سحاب ملث ليس يقلـع راتبـه

وأما الكتاب العام وهو «العسجد المسبوك فى طبقات الخلفاء والملوك» فينقسم الى قسمين: فى القسم الأول يكتب عن الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أميه، ثم يتلوذلك خلفاء بنى العباس، ويخصص فصلا من هذا القسم عن الأئمة الزيدية من أولاد الحسن، ويقع فى تسعة عشر فصلا، ويختتم هذا القسم بذكر أئمة الشيعة الاثنى عشرية والأئمة الاسماعيلية من أولاد الحسين، وذكر أسباب أحقية كل منهم بالخلافة[1].

والقسم الثانى يذكر ملوك الدول المستقلة فى مصر والشام وإفريقية والقيروان ثم ملوك المغرب والأندلس، ثم ملوك صنعاء وعدن، ويختتم هذا القسم بذكر زبيد وملوكها ووزرائها[2].

وهذا الكتاب-كما أشرنا-من تصنيف الخزرجى ولا صحة لما ذكره بعض الكتاب من أن هذا الكتاب من تصنيف الملك الأشرف الرسولى، فالمعروف أن الخزرجى نسب بعض كتبه للأشرف، ولما توفى عاد فنسبها اليه. ومع ذلك فللأشرف بعض المؤلفات، منها «فاكهة الزمن

١- الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٥٠٦.

٢- منشورات الجامعة التونسية. راضى دفقوس: اليمن فى عصر الولاة ص ٢٠ - ٢١.

ومفاكهة الأدب والفن فى أخبار ملوك اليمن» وهو تلخيص أو اعتماد على كتاب «العسجد المسبوك» وله كتاب«مرآة الزمن فى تاريخ زبيد وعدن»[١].

وكان الأشرف يقوم بكتابة أصول الكتاب الأولى، ثم يعطيها لأحد العلماء لضبطها وتصحيحها وتنقيحها، وتعاد إلى الأشرف فيراجع النسخة بعد التعديل ويأمر بنسخها[٢].

ويؤخذ على أنه مؤرخ للملوك بمعنى أنه يعنى بالدرجة الأولى بالحديث عن حياة الملوك وسياستهم، وأحوال اليمن لا يبرزها الا من خلال حديثه عن الملوك. ولايهتم بالكتابة عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية، وانما اقتصرت كتاباته التاريخية عن الحياة السياسية وجهود العلماء الثقافية، ومع ذلك فكتبه التاريخية على جانب كبير من الأهمية لأنه عاصر الأحداث أواقترب منها.

ومن مؤرخى اليمن فى العصر الرسولى، الحسين بن عبد الرحمن بن على بن أبى بكر بن على الأهدل، وهو من أسرة شهيرة من العلماء والفقهاء، والأهدل عالم محقق وله صفات متعددة فى فروع مختلفة، تتلمذ على شيوخ عصره فى الفقه وسائر علوم الدين واللغة، وكان يقول: لم أر أحسن ولا أوثق من كتب الشرع والتفسير، وترجم لنفسه، وهو فى ذلك من العلماء القلائل. ويقول بأنه ألم بعقائد الأشعرية وغيرهم من الحنفية والحنابلة وغيرها، كما أحاط بمصطلحات العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين والأصوليين وحقق علوم الصوفية ودرس مذاهب الفلاسفة وهكذا تعددت مواهبه العلمية وتنوعت دراساته.

وأشرنا من قبل إلى مؤلفاته الدينية، أما كتبه فى التاريخ فهى قيمة فى بابها وهى إضافة على تاريخ الجندى، وذيل بعده تاريخ العلماء الذين تلوا العلماء الذين ترجم لهم الجندى وتوفى سنة ٨٥٥هـ.

وبذلك يمكن القول بأن عصر بنى رسول شهد نشاطا كبيرا فى تصنيف الكتب التاريخية سواء عن اليمن أو عن الدولة الاسلامية الكبرى، لذلك فإن الباحث لايجد صعوبة فى جمع المادة العلمية عن دولة بنى رسول، لأن المؤرخين الذين أشرنا اليهم عاصروا أحداث هذه الدولة، وكتبوا عنها. ونستطيع أن نجزم بأن الدول التى حكمت اليمن قبل عصر بنى رسول لم تتمتع بمؤرخين عديدين عاصروا الأحداث وألقوا الأضواء على تطوير الحياة السياسية فى هذه الدولة بعكس دولة بنى رسول.

١- ذيل كشف الظنون جـ٢ ص ٤٥٨.

٢- السخاوى: الضوء اللامع.

المرأة وأثرها فى الحياة الفكرية

ساهمت المرأة اليمنية فى ازدهار الحركة الفكرية فى عصر بنى رسول فشيدت الادر الكريمة والدة السلطان الملك المجاهد المدرسة الصلاحية فى زبيد، ورتبت فيها اماما ومؤذنا وقيما وتارحا للماء الى المطاهر ومدربا للشرع ومدرسا فى الحديث النبوى الشريف ومدرسا فى النحو وطلبه فى كل فن من الفنون ومعلما وأيتاما، وأوقفت من خيار ما تملكه ما يغطى نفقات المدرسة، وشيدت أمام المدرسة خانقاه ورتبت فيها قيما ونقيبا وصوفية «وأوقفت عليهم وقفا مناسبا، كما شيدت مدرسة فى قرية المسلب من وادى زبيد، وجعلت بها مؤذنا وقيما ونازحا ومعلما وأيتاما، يتعلمون القرآن الكريم، ومدرسا على مذهب الامام الشافعى ومدرسا على مذهب الامام أبى حنيفة وطلبه فى المذهبين وسبيلا لشرب الدواء، وشيدت فى قرية السلامة مدرسة ورتبت فيها اماما وخطيبا ومؤذنا وقيما ونزاحا للماء على المطاهر والى السبيل هنالك ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن الكريم ومدرسا للفقه على المذهب الشافعى ومدرسا للحديث وطلبة مع كل مدرس وأوقفت على الجميع وقفا يغطى نفقات المدرسين والطلبة[1].

أما الجهة الكريمة ماء السماء ابنة السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف ابن عمر بن على بن رسول، فكانت محسنة الى أهلها وشيدت فى زبيد، مدرسة، عرفت بالواثقية ملحقة ببيت أخيها الملك الواثق، ورتبت فيها اماما ومؤذنا وقيما ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن الكريم، ومدرسا وطلبه، ووقفت على المدرسة من أماكنها ما يغطى نفقاتها[2].

وكانت زهراء بنت الأمير بدر الدين من أعيان النساء وشيدت المدرسة المنسوبة الى بنى خضر بقرية الحبال[3].

أما الدار الشمسى ابنة السلطان نور الدين، فعرف عنها الحزم وحب العلم، وجدير بالذكر، أنها حرصت على أن يتولى أخوها الملك المظفر بعد أبيه نور الدين عمر، وبذلت فى سبيل ذلك الأموال للرجال وحفظت زبيد حتى قدم أخوها من المهجم فمكنته من أملاكها

١- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١١٩.

٢- المصدر السابق جـ٢ ص ٢٣.

٣- المصدر السابق جـ١ ص ٩٨.

وأسست المدرسة المعروفة بالشمسية بذى عدينه، وأوقفت لها وقفا يكفيها، ورتبت للمدرسة إماما ومدرسا وقيما ومؤذنا وطلبة ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن الكريم، وشيدت مدرسة فى زبيد عرفت بالشمسية[1] أيضا، وشيدت مريم الحرة بنت الشيخ العفيف زوجة المظفر مدرسة فى زبيد، وتعرف بمدرسة مريم أو بالسابقية، ورتبت لها مدرسا يقصده الطلاب من البلدان المجاورة، ويقرأون عليه المهذب، ورتبت للمدرسة إماما ومؤذنا وقيما وأيتاما يتعلمون القرآن الكريم، ووقفت على الجميع وقفا يقوم بكفايتهم وأسست مدرسة فى تعز، ولها مدرسة فى ذى عقيب، ودفنت فيها[2].

وشيدت نبيلة ابنة السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن عمر على ابن رسول مدرسة بمدينة تعز ومسجدا فى جبل صبر ومدرسة فى الأشرفية، وأوقفت على الجميع أوقافا[3] ت٧٨٨هـ، وكانت الشريفة صفية بنت المرتضى دارسة وباحثة منذ صغرها، درست على والدها حتى تفوقت فى الفقه والأصول والعربية، ولم يكن هناك ما يشغلها غير العلم والاجتهاد، وكانت كاتبة فصيحة، ولها أشعار جيدة، تصدت للتدريس والفتوى، ولها مؤلفات عديدةمنها «الرسالة المرسومة بالجواب الوجيز على صاحب التجويز» ولها رسالة بديعة جعلتها وصية لابنتها حورية. وبلغ من مقدرتها العلمية أنها كثيرا ما ناظرت الفقهاء من أفراد أسرتها حتى قالوا بأنها فائقة نساء زمانها، خارجة عن النظراء والأشباه، وتزوجت من محمد بن يحيى القاسمى لا رغبة فى الزواج، ولكن لتدرس عليه علم الكلام، وأخذ عنها علم النحو، وأفادته[4].

وتوفيت دهماء بنت يحيى المرتضى سنة ٧٣٧هـ بمدينة ثلا ولها مؤلفات مفيدة منها كتاب «الأنوار فى شرح كتاب الأزهار فى فقة الأئمة الأطهار»،ويقع فى أربعة مجلدات، ولها شرح منظومة الكوفى فى الفقه والفرائض، وشرح «مختصر المنتهى» فى أصول الفقه، وكتاب «الجوهر» فى علم الكلام، وكانت تجلس للتدريس فى ثلا، ومما يجدر ذكره أنها أثنت على كتاب أخيها الامام المهدى أحمد يحيى، ويسمى الأزهار بقولها:

١- المصدر السابق جـ١ ص ١٩٥.

٢- المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

٣- زيارة: أئمة اليمن ص ٣٠٨.

٤- الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٢٩.

يا كتابا فيه شفاء النفـوس   أنتجته أفكار من فى الحبوس

أنت للعلم فى الحقيقة نور   وضياء وبهجة كالشموس(٥)

وصفوة القول أن مساهمة المرأة فى الحركة الفكرية اقتصر–كما رأينا– على نساء الأسر العريقة التى أتيحت لهن الفرصة للتزود بالعلم والتصنيف والتدريس دون المرأة من عامة الشعب فقد بقيت لاحظ لها من العلم، وعاشت فى حياتها البيتية المنعزلة، وقد تشارك زوجها أو أبيها أو أخيها العمل فى الزراعة والرى........

(هذا وبالله التوفيق....)

٥– زيارة: أئمة اليمن ص ٢٥٩.

الجداول والمصادر والفهارس

قوائم الولاة والحكام والأئمة

قائمة عمال النبى ﷺ والخلفاء الراشدين على اليمن

١- الإمام على بن أبى طالب.

٢- معاذ بن جبل (إبان بن سعيد بن العاص، زياد بن لبيد البياضى).

٣- أبو موسى الأشعرى.

٤- خالد بن الوليد.

٥- البراء بن عازب.

٦- سعيد بن لبيد الأنصارى.

٧- خالد بن سعيد بن العاص.

٨- الطاهر بن أبى هالة.

٩- يعلى بن أمية.

١٠- عمرو بن حزم الأنصارى.

١١- عكاشه بن ثور.

١٢- جرير بن عبد الله البجلى.

١٣- عامر بن شهر.

١٤- شهر بن بادام.

١٥- وبر بن يحنس.

١٦- أبو سفيان بن الحارث.

١٧- فيروز الديلمى.

١٨- قيس بن المكشوح.

١٩- ابن مسيك المرادى.

٢٠- عبد الله بن العباس.

٢١- سعيد بن سعد بن عبادة.

عمال بنى أمية

٤٠ - ١٣٢هـ

١- عثمان بن عفان الثقفى.

٢- عتبة بن أبى سفيان.

٣- النعمان بن بشير الأنصارى.

٤- بشير بن سعد الأعرج.

٥- الضحاك بن فيروز الديلمى.

٦- بحير بن ريشان الحميرى.

٧- عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى.

٨- عبد الله بن عبد المطلب بن وداعة السهمى.

٩- حسن بن عبد الله الفقيه.

١٠- قيس بن يزيد السعدى.

١١- محمد بن يوسف الثقفى.

١٢- واجد بن مسلمة الثقفى.

١٣- أيوب بن محمد الثقفى.

١٤- عروة بن محمد السعدى.

١٥- وهب بن منبه الأنبارى.

١٦- مسعود بن عوف الكلبى.

١٧- يوسف بن عمر الثقفى.

١٨- الصلت بن يوسف بن عمر الثقفى.

١٩- الضحاك بن واصل.

٢٠- مروان بن محمد الجعدى.

٢١- الضحاك بن واصل السكسكى.

٢٢- القاسم بن عمر الثقفى.

٢٣- الوليد بن عروة.

عمال خلفاء بنى العباس

١٣٢ هـ - ٢٠٣هـ

١- عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.

٢- محمد بن زيد بن عبد المدان الحارثى.

٣- عبد الله بن مالك الحارثى.

٤- على بن الربيع بن عبد الله بن المدان.

٥- عبد الله بن الربيع الحارثى.

٦- معن بن زائدة الشيبانى.

٧- زائدة بن معن.

٨- الفرات بن سالم العبسى.

٩- يزيد بن منصور الحارثى.

١٠- رجاء بن حيوة الجذانى.

١١- على بن سليمان بن العباس.

١٢- واسع بن عصمة.

١٣- عبد الله بن سليمان بن العباس.

١٤- منصور بن يزيد الحميرى.

١٥- عبد الله بن سليمان النوفلى.

١٦- عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن على بن عبد الله بن العباس.

١٧- الربيع بن عبد الله الحارثى.

١٨- الغطريف.

١٩- أيوب بن جعفر بن سليمان.

٢٠- العباس بن محمد الهاشمى.

٢١- عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الزبير.

٢٢- أحمد بن إسماعيل الهاشمى.

٢٣- إبراهيم بن عبيد الله بن عبد الله بن طلحة بن أبى طلحة.

٢٤- محمد بن خالد بن برمك.

٢٥- حماد البربرى.

٢٦- محمد بن سعيد بن السرح الكنانى.

٢٧- يزيد بن جرير بن خالد بن عبد الله القسرى.

٢٨- عمر بن إبراهيم بن واجد.

٢٩- إسحاق بن موسى.

٣٠- حمدويه بن عيسى بن ماهان.

٣١- عيسى بن يزيد الجالودى.

٣٢- محمد عبد الله بن زياد.

الدول المستقلة فى اليمن

١– دولة بنى زياد (مركزها زبيد)

٢٠٥ – ٤٠٢هـ، ٨٢٠ – ١٠١١م

	هجرية	ميلادية
١– محمد بن عبد الله بن زياد	٢٠٥ – ٢٤٢	٨٢٠ – ٨٥٦
٢– إبراهيم بن محمد بن عبد الله	٢٤٢ – ٢٨٩	٨٥٦ – ٩٠٢
٣– إسحق بن إبراهيم بن محمد	٢٨٩ – ٣٩١	٩٠٢ – ١٠٠١
٤– الحسين بن سلامة	٣٩١ – ٤٠٢	١٠٠١ – ١٠١١

٢– دولة بنى يعفر (مركزها شبام ثم صنعاء)

(٢٢٥ – ٣٩٣هـ ، ٨٣٩ – ١٠٠٣م)

	هجرية	ميلادية
١– إبراهيم بن يعفر	٢٢٥ – ٢٦٠	٨٣٩ – ٨٧٣
٢– (ابنه) عبد الرحيم بن إبراهيم		
٣– يعفر بن عبد الرحيم	٢٦٠ – ٢٨٢	٨٧٣ – ٨٩٥
٤– أسعد بن أبى يعفر	٢٨٢ – ٣٣١	٨٩٥ – ٩٤٣
٥– عبد الله محمد بن قحطان	٣٣١ – ٣٨٧	٩٤٣ – ٩٩٧
٦– أسعد بن عبد الله	٢٨٧ – ٣٩٣	٩٩٧ – ١٠٠٣

٣- دولة بنى نجاح (خلفت دولة بنى زياد فى زبيد)

٤٠٣ - ٥٥٥هـ ، ١٠١٢ - ١١٦٠م

	هجرية	ميلادية
١- الأمير نجاح	٤٠٣ - ٤٥٢	١٠١٢ - ١٠٦٠
٢- سعيد بن نجاح (الأحول)	٤٥٢ - ٤٨١	١٠٦٠ - ١٠٨٨
٣- جياش بن نجاح	٤٨٣ - ٤٩٨	١٠٩٠ - ١١٠٤
٤- فاتك بن جياش	٤٩٨ - ٥٠٣	١١٠٤ - ١١٠٩
٥- منصور بن فاتك	٥٠٣ - ٥٢١	١١٠٩ - ١١٢٧
٦- فاتك بن منصور	٥٢١ - ٥٤٠	١١٢٧ - ١١٤٥
٧- فاتك بن محمد بن فاتك	٥٤٠ - ٥٥٥	١١٤٥ - ١١٦٠

٤- دولة بنى الصليحى

٤٣٩ - ٥٣٢هـ ، ١٠٤٧ - ١١٣٨م

	هجرية	ميلادية
١- على بن محمد الصليحى	٤٣٩ - ٤٥٨	١٠٤٧ - ١٠٦٦
٢- المكرم بن على بن محمد	٤٥٨ - ٤٨٤	١٠٦٦ - ١٠٩١
٣- سبأ بن أحمد بن المظفر	٤٨٤ - ٤٩٢	١٠٩١ - ١٠٩٩
٤- أروى بنت أحمد الصليحى	٤٩٢ - ٥٣٢	١٠٩٩ - ١١٣٨

٥- دولة بنى زريع (فى عدن)

٤٧٠ - ٥٦٩هـ ، ١٠٧٧ - ١١٧٣م

	هجرية	ميلادية
١- العباس بن المكرم (فى حصن التعكر)	٤٧٠ - ٤٧٧	١٠٧٧ - ١٠٨٤
٢- المسعود بن المكرم (فى حصن الخضراء وعدن)	٤٧٠ - ٤٨٠	١٠٧٧ - ١٠٨٧
٣- زريع بن العباس	٤٧٧ - ٤٨٠	١٠٨٤ - ١٠٨٧
٤- أبو الغارات بن المسعود	٤٨٠ - ٤٨٥	١٠٨٧ - ١٠٩٢
٥- أبو السعود بن زريع	٤٨٠ - ٤٩٤	١٠٨٧ - ١١٠١
٦- محمد بن أبى الغارات	٤٨٥ - ٤٨٨	١٠٩٢ - ١٠٩٥
٧- على بن محمد بن أبى الغارات	٤٨٨ - ٤٨٩	١٠٩٥ - ١٠٩٦
٨- الداعى سبأ بن أبى السعود	٤٨٩ - ٥٣٣	١٠٩٦ - ١١٣٨
٩- محمد بن سبأ	٥٣٣ - ٥٥٠	١١٣٨ - ١١٥٥
١٠- عمران بن محمد بن سبأ	٥٥٠ - ٥٦٠	١١٥٥ - ١١٦٥
١١- أبو الدر جوهر المعظمى	٥٦٠ - ٥٦٩	١١٦٥ - ١١٧٢

٦- دولة بنى حاتم (فى صنعاء)

٤٩٢ - ٥٦٩هـ ، ١٠٩٩ - ١١٧٣م

	هجرية	ميلادية
١- حاتم بن على الهمدانى	٤٩٢ - ٥٠٢	١٠٩٩ - ١١٠٨
٢- عبد الله بن حاتم بن على	٥٠٢ - ٥٠٥	١١٠٨ - ١١١١
٣- معن بن حاتم	٥٠٥ - ٥١٠	١١١١ - ١١١٦
٤- هشام بن القتيب	٥١٠ - ٥١٨	١١١٦ - ١١٢٤
٥- حماس بن القتيب	٥١٨ - ٥٢٧	١١٢٤ - ١١٣٣
٦- حاتم بن أحمد بن عمر اليامى	٥٣٣ - ٥٥٦	١١٣٨ - ١١٦١
٧- على بن حاتم بن أحمد	٥٥٦ - ٥٦٩	١١٦١ - ١١٧٣

٧- دولة بنى مهدى (مركزها زبيد)

٥٥٣ - ٥٦٩هـ ، ١١٥٨ - ١١٧٣م

	هجرية	ميلادية
١- على بن مهدى	٥٥٣	١١٥٨
٢- مهدى بن على بن مهدى	٥٥٣ - ٥٥٨	١١٥٨ - ١١٦٣
٣- عبد النبى بن على	٥٥٨ - ٥٦٩	١١٦٣ - ١١٧٣
٤- عبد الله بن على		

٨- دولة بنى أيوب

٥٦٩ - ٦٢٦هـ ، ١١٧٣ - ١٢٢٩م

	هجرية	ميلادية
١- المعظم توران شاه بن أيوب	٥٦٩ - ٥٧٠	١١٧٣ - ١١٧٤
٢- العزيز طغتكين بن أيوب	٥٧٩ - ٥٩٠	١١٨٢ - ١١٩٤
٣- المعز إسماعيل بن طغتكين	٥٩٤ - ٥٩٩	١١٩٨ - ١٢٠٣
٤- الناصر بن طغتكين	٥٩٩ - ٦١١	١٢٠٣ - ١٢١٤
٥- المسعود يوسف بن الكامل	٦١٢ - ٦٢٦	١٢١٥ - ١٢٢٩

٩- دولة بنى رسول (فى تعز)

٦٢٦ - ٨٥٨هـ ، ١٢٢٩ - ١٤٥٤م

	هجرية	ميلادية
١- المنصور عمر بن على رسول	٦٢٦ - ٦٤٧	١٢٢٩ - ١٢٤٩
٢- المظفر يوسف بن عمر	٦٤٧ - ٦٩٤	١٢٤٩ - ١٢٩٥
٣- الأشرف (الأول) عمر بن يوسف	٦٩٤ - ٦٩٦	١٢٩٥ - ١٢٩٧
٤- المؤيد داود بن يوسف	٦٩٦ - ٧٢١	١٢٩٧ - ١٣٢١
٥- المجاهد على بن المؤيد	٧٢١ - ٧٦٤	١٣٢١ - ١٣٦٣
٦- الأفضل عباس بن المجاهد	٧٦٤ - ٧٧٨	١٣٦٣ - ١٣٧٦
٧- الأشرف (الثانى) إسماعيل بن العباس	٧٧٨ - ٨٠٣	١٣٧٦ - ١٤٠٠
٨- الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل	٨٠٣ - ٨٢٩	١٤٠٠ - ١٤٢٦
٩- المنصور بن الناصر أحمد	٨٢٩ - ٨٣٠	١٤٢٦ - ١٤٢٧
١٠- الأشرف (الثالث) إسماعيل ابن المنصور	٨٣٠ - ٨٤٢	١٤٢٧ - ١٤٣٨
١١- الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل	٨٤٢ - ٨٥٠	١٤٣٨ - ١٤٤٦
١٢- المسعود أبو القاسم بن الأشرف إسماعيل	٨٥٠ - ٨٥٨	١٤٤٦ - ١٤٥٤

قائمة الأئمة ومدد حكمهم

مسلسل	الاســــــم	محل الوفاة	مدة الحكم بالهجرى	مدة الحكم بالميلادى
١	الهادى يحيى بن الحسين	صعدة	٢٨٤ – ٢٩٨	٨٩٧ – ٩١١
٢	المرتضى محمد بن الهادى	صعدة	٢٩٨ – ٣٠١	٩١١ – ٩١٣
٣	الناصر أحمد بن الهادى	صعدة	٣٠١ – ٣٢٥	٩١٣ – ٩٣٦
٤	المنصور يحيى بن الهادى	ريدة	٣٢٥ – ٣٦٦	٩٣٦ – ٩٧٦
٥	الداعى يوسف بن المنصور يحيى	صعدة	٣٦٦ – ٤٠٣	٩٧٦ – ١٠١٢
٦	المنصور القاسم بن علي العياني	عيان	٣٨٩ – ٣٩٣	٩٩٩ – ١٠٠٢
٧	المهدى الحسين بن القاسم	زبيده	٣٩٣ – ٤٠٣	١٠٠٢ – ١٠١٢
٨	أبو هاشم الحسين عبد الرحمن	ناعط	٤٢٦ – ٤٣١	١٠٣٥ – ١٠٤٠
٩	أبو الفتح الديلمى	عنس	٤٣٧ – ٤٤٤	١٠٤٥ – ١٠٥٢
١٠	المتوكل أحمد بن سليمان	حميدان	٥٣٢ – ٥٦٦	١١٣٨ – ١١٧١
١١	المنصور عبد الله بن حمزة	ظفار	٥٨٣ – ٦١٤	١١٨٧ – ١٢١٧
١٢	المعتضد يحيى بن المحسن	ساقين	٦١٤ – ٦٣٦	١٢١٧ – ١٢٣٨
١٣	المهدى أحمد بن الحسين	شوابة	٦٤٦ – ٦٥٦	١٢٤٨ – ١٢٥٨
١٤	يحيى بن محمد السراجى	صنعاء	٦٥٦ – ٦٦٠	١٢٥٨ – ١٢٦٢
١٥	المنصور الحسن بن بدر الدين	رغافة	٦٦١ – ٦٧٠	١٢٦٣ – ١٢٧١
١٦	المهدى إبراهيم بن تاج الدين	تعز	٦٧٠ – ٦٧٤	١٢٧١ – ١٢٧٥
١٧	المتوكل المطهر بن يحيى	ذروان حجة	٦٧٦ – ٦٩٧	١٢٧٧ – ١٢٩٨
١٨	المهدى محمد بن المطهر	صنعاء	٦٩٧ – ٧٢٨	١٢٩٨ – ١٣٢٨
١٩	المؤيد يحيى بن حمزة	ذمار	٧٢٩ – ٧٤٩	١٣٢٩ – ١٣٤٨
٢٠	الواثق المطهر بن محمد	صنعاء	٧٣٠ – ٧٥٠	١٣٣٠ – ١٣٤٩
٢١	المهدى على بن صلاح	السودة	٧٣٠	١٣٣٠
٢٢	الداعى أحمد بن على الفتحى	رغافة	٧٣٠ – ٧٥٠	١٣٣٠ – ١٣٤٩
٢٣	المهدى على بن محمد	صعدة	٧٥٠ – ٧٧٣	١٣٤٩ – ١٣٧٢
٢٤	الناصر صلاح الدين بن المهدى	صنعاء	٧٧٣ – ٧٩٣	١٣٧٢ – ١٣٩١
٢٥	المنصور على بن صلاح الدين	صنعاء	٧٩٠ – ٨٤٠	١٣٩١ – ١٤٣٦
٢٦	المهدى أحمد بن يحيى المرتضى	الظفير	٧٩٣	١٣٩١

المصادر والمراجع

أولا: مصادر مخطوطة:

١- إدريس عماد الدين بن الحسن القرشى (ت ٨٧٠هـ).

«نزهة الأفكار وروضة الأخبار» فى ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار. صنعاء.

٢- روضة الأخيار- جامعة ليدن رقم ١٩٧٢.

٣- الأزدى بن ظافر، جمال الدين أبو الحسن على (ت ٦٢٣).

«أخبار الدولة المنقطعة» - مخطوط مصور من المتحف البريطانى بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ.

٤- الأهدل، أبو عبد الرحمن الحسين بن عبد الرحمن (ت ٨٨٥هـ)

«تحفة الزمن فى تاريخ سادات اليمن» مخطوط بدار الكتب رقم ٧٧٥هـ تاريخ تيمور.

٥- الجندى، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢هـ)

«السلوك فى طبقات العلماء والملوك» مخطوط بدار الكتب رقم ٩٩٦ تاريخ- ومكتبة الجامع الكبير بصنعاء.

٦- ابن حاتم، بدر الدين محمد (توفى أوائل القرن الثامن الهجرى) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤١١ تاريخ.

٧- الخزرجى، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢).

«طراز الزمن فى طبقات أعيان اليمن» مخطوط بدار الكتب رقم ١٢٦٥٧ تاريخ.

٨- «العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك»

مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.

انظر مقدمة كتاب غاية الأمانى للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

٩- ابن رسول، الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل (ت ٨٠٣هـ)

«فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفتن فى أخبار من ملك اليمن» مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور.

١٠- الشرفى، أحمد بن محمد صلاح (ت ١٠٥٥هـ).
«للآلىء المعتنية فى أخبار أئمة الزيدية ومقتصدى العترة ومن عارضهم من سائر البرية» مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.
١١- الصعيدى، بدر الدين محمد بن يوسف (من شيوخ الزيدية فى القرن العاشر) «الأبرار فى تفصيل مجلات جواهر الأخبار» مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.
١٢- العامرى، أبو زكريا يحيى بن أبى بكر الحرضى (ت ٨٩٣هـ).
«غربال الزمان فى وفيات الأعيان» مكتبة الجامع بصنعاء.
١٣- أبو القاسم، السيد إبراهيم بن القسم بن المؤيد بالله محمد (ومن شيوخ القرن الثانى عشر الهجرى). طبقات العلماء الزيدية- مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.
١٤- الكبسى، محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨هـ).
«اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية» مخطوط عند أحد علماء صنعاء.
١٥- المحلى الشهيد، حسام الدين أبى عبد الله حميد بن أحمد (ت ٦٥٢هـ).
«الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٨٧٥ تاريخ.
١٦- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥هـ)
«أنباء الزمن فى تاريخ اليمن» مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

١٧- الأنسى الصنعانى، عبد الملك بن حسين:
(إتحاف ذوى الفطن بمختصر أنباء الزمن» العدد الثالث من مجلة كلية الآداب- جامعة صنعاء - ١٩٨١.
١٨- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن على:
«الكامل فى التاريخ».
١٩- بدر الجمالى: (ت ٤٨٧هـ):
«المجالس المستنصرية» تحقيق محمد كامل حسين.

٢٠- البغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ):
«الفرق بين الفرق».
١٢- ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف (ت ٨٧٤هـ):
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة ١٩٣٥).
٢٢- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى (ت ٦١٤هـ):
رحلة ابن جبير تحقيق حسين نصار.
٢٣- الجرافى، القاضى عبد الله بن عبد الكريم:
«المقتطف فى تاريخ اليمن» القاهرة.
٢٤- جعفر الحاجب:
«سيرة جعفر الحاجب» تحقيق إيفانو- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٣٦.
٢٥- جعفر بن منصور اليمنى (عاش فى القرن الرابع الهجرى):
«الشواهد والبيان» مخطوط بالمكتبة التيمورية بالقاهرة.
٢٦- الجندى، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢هـ):
«أخبار القرامطة باليمن» المنقول من كتاب السلوك فى طبقات العلماء والملوك. نشره هنرى كاى ضمن كتاب تاريخ اليمن لعمارة- لندن - ١٨٩٢.
٢٧- الجوذرى، أبو على منصور العزيزى:
«سيرة الأستاذ جوذر» تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة ١٩٥٤.
٢٨- حاجى خليفة، مصطفى كاتب شلبى (ت ١٠٦٧هـ):
«كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» الأستانة ١٩٤١.
٢٩- ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد (ت ٤٥٦هـ):
«جمهرة أنساب العرب» تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال القاهرة ١٩٤٨.
٣٠- الحمادى، محمد بن مالك بن أبى الفضائل اليمانى (توفى فى أواسط القرن الخامس الهجرى).
«كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» القاهرة ١٩٣٩.

٣١- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ):
«المسالك والممالك» (ليدن).
٣٢- الخزرجى، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ).
«الكفاية والإعلام» تحقيق الفصول الخمسة من هذا الكتاب، وهو نفس كتاب «العسجد» منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩.
٣٣- «العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية»
القاهرة ١٩١١.
٣٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ):
«المقدمة».
٣٥- «العبر وديوان المبتدأ والخبر» (القاهرة ١٢٨٤).
٣٦- «العبر، مختصر كاى» (لندن ١٨٩٢).
٣٧- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى (ت ٦٨١هـ).
«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» نشره محمد محيى الدين عبد الحميد- القاهرة ١٩٤٨.
٣٨- ابن الديبع، عبد الرحمن بن على بن محمد بن عمر (ت ٩٤٤هـ):
«قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون» تحقيق الأكوع.
٣٩- «بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد» تحقيق عبد الله الحبشى- مركز الدراسات والبحوث اليمنية.
٤٠- الذهبى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٠٨هـ):
«دول الإسلام» حيدر آباد.
٤١- الرازى، أحمد بن عبد الله الرازى (ت ٤٦٠هـ):
«تاريخ مدينة صنعاء» تحقيق العمرى وزكار.

٤٢- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى تحقيق زكى حسن، وحسن محمود.

٤٣- سبط ابن الجوزى، شمس الدين أبو المظفر بن قيزو غلى (ت ٦٥٤هـ).
«مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» حيدر آباد ١٩٠٨.

٤٤- ابن مسعد، محمد (ت ٣٣٠هـ):
«كتاب الطبقات الكبير» (القاهرة ١٣٥٨هـ).

٤٥- ابن سمرة، أبو حفص عمر بن على (عاش فى القرن السادس الهجرى):
«طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن» تحقيق فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٧).

٤٦- السيوطى، عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ):
«حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» (القاهرة ١٣٢٧هـ).

٤٧- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):
«تاريخ الأمم والملوك» دار المعارف (القاهرة).

٤٨- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. (ت ٢٥٧هـ):
«فتوح مصر والمغرب» (ليدن ١٩٢٠).

٤٩- ابن عبد المجيد، تاخ الدين عبد الباقى (ت ٧٤٣هـ):
«تاريخ اليمن» المسمى «بهجة الزمن فى تاريخ اليمن»- تحقيق مصطفى حجازى.

٥٠- العبدلى. أحمد فضل بن على محسن العبدلى:
«هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن» بيروت ١٩٨١.

٥١- العرشى، حسين بن أحمد الزيدى (عاش فى القرن الرابع)
«بلوغ المرام فى شرح ومسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام» (مصر ١٩٣٩).

٥٢- عمارة، نجم الدين محمد الحكمى اليمنى (ت ٥٦٩هـ):
«تاريخ اليمن» مختصر كاى.

٥٣- «المفيد فى تاريخ صنعاء وزبيد» (تحقيق الأكوع).

٥٤- «النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية» (باريس ١٨٩٩).

٥٥- العلوى، على بن محمد بن عبيد الله العباسى «سيرة الهادى يحيى بن الحسن» تحقيق سهيل زكار- بيروت.

٥٦- أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على (ت ٧٣٢).

«المختصر فى أخبار البشر».

٥٧- ابن الغوطى، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق البغدادى (ت ٧٢٣)

«الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة» نشره مصطفى جواد. بغداد.

٥٨- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦):

«الإمامة والسياسة» القاهرة.

٥٩- القلقشندى، أبو العباس أحمد (ت ٨٢٠هـ):

«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» القاهرة.

٦٠- القمى، الحسين بن على (القرن السادس):

«رسائل القمى» مخطوط عند أحد شيوخ صنعاء.

٦١- ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ):

«البداية والنهاية» القاهرة.

٦٢- ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقى (ت ٦٩٠هـ):

«صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» ويسمى «تاريخ المستبصر» نشر أوسكار لوفقرين.

٦٣- بامخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ):

«تاريخ ثغر عدن» نشره أوسكار لوفقرين.

٦٤- المستنصر بالله (ت ٤٨٧هـ):

«السجلات المستنصرية» نشرها عبد المنعم ماجد- القاهرة ١٩٥٤.

٦٥- المقدسى، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٨٨هـ):
«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم».
٦٦- المقريزى، تقى الدين بن أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ):
«اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» نشر جمال الدين الشيال- القاهرة ١٩٥٥.
٦٧- «السلوك لمعرفة دول الملوك» نشر محمد مصطفى زيادة.
٦٨- «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار».
٦٩- ابن ميسر، محمد بن على بن يوسف بن جلب (ت ٦٧٧هـ):
«تاريخ مصر» القاهرة ١٩٤٩.
٧٠- ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت نحو ٣٨٢هـ):
«الفهرست» تحقيق فلوغل- ليبسك ١٨٧١.
٧١- نشوان الحميرى (ت ٥٧٣هـ):
«الحور العين» القاهرة ١٩٤٨.
٧٢- «منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» تحقيق عظيم الدين أحمد- ليدن ١٩١٦.
٧٣- الهمدانى، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤هـ):
«الإكليل» جـ٨ تحقيق الكرملي- بغداد ١٩٣١- جـ١ تحقيق محب الدين الخطيب.
٧٤- «صفة جزيرة العرب» القاهرة ١٩٥٢.
٧٥- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ):
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» نشر محمد جمال الشيال.
٧٦- ابن الوردى؛ زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ):
«تاريخ ابن الوردى» القاهرة.
٧٧- الوصابى، وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد الوصابى (ت ٧٨٢هـ):
«الاعتبار فى التواريخ والآثار» تحقيق عبد الله الحبشى.

٧٨- ياقوت: شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦هـ):
«معجم البلدان».
٧٩- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥هـ):
«غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى» تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور- القاهرة ١٩٦٥.

ثالثاً: مراجع عربية حديثة:

٨٠- أحمد حسين شرف الدين:
«تاريخ اليمن الثقافى».
٨١- «اليمن عبر التاريخ».
٨٢- أحمد صبحى:
«الزيدية».
٨٣ - أحمد فخرى:
«اليمن ماضيها وحاضرها».
٨٤- بروكلمان، كارل.
«تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكى».
٨٥- حسن إبراهيم حسن:
«تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى».
٨٦- «الدولة الفاطمية».
٨٧- عبد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب - القاهرة- ١٩٤٧.
٨٨- حسن سليمان محمود:
«الصليحيون وعلاقتهم بالفاطميين.
٨٩- حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود:
«الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن» القاهرة ١٩٥٥.

٩٠- زبارة، محمد بن محمد يحيى الحسنى الصنعائى) ت ١٣٨٠هـ):
«أئمة اليمن».
٩١- سعيد عبد الفتاح عاشور «الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام».
٩٢- «الحركة الصليبية».
٩٣- السيد عبد العزيز سالم:
«تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام» - بيروت- ١٩٧٢.
٩٤- صالح بن حامد العلوى:
«تاريخ حضرموت».
٩٥- عبد الله الحبشى:
«أعلام الفكر الإسلامى فى اليمن».
٩٦- عبد المنعم ماجد:
«الدولة الفاطمية».
٩٧- «نظم الفاطميين ورسومهم».
٩٨- عصام الدين عبد الرؤوف الفقى:
«بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى».
٩٩- الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق.
١٠٠- بلاد الهند فى العصر الإسلامى.
١٠١- الحواضر الإسلامية الكبرى.
١٠٢- متز، آدم:
«الحضارة الإسلامية» ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده.
١٠٣- محمد أبو زهرة:
«مناقب الإمام الشافعى».
١٠٤- الإمام زيد:
«المذاهب الإسلامية».

١٠٥- محمد جمال الدين سرور:
«الدولة الفاطمية».
١٠٦- «سياسة الفاطميين الخارجية».
١٠٧- «قيام الدولة العربية الإسلامية».
١٠٨- محمد حسن:
«قلب اليمن».
١٠٩- محمد سعيد العطار:
«التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن».
١١٠- محمد عبد الله ماضى:
«دولة اليمن الزيدية».
١١١- محمد عبد العال أحمد:
«الأيوبيون فى اليمن» القاهرة ١٩٨٠.
١١٢- محمد عبد الفتاح عليان:
«قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة».
١١٣- محمد على الأكوع:
«الوثائق السياسية اليمنية» بغداد ١٩٧٦.
١١٤- محمد كامل حسين:
«طائفة الإسماعيلية».
١١٥- الواسعى، عبد الواسع بن يحيى اليمانى:
«تاريخ اليمن» القاهرة ١٩٤٧.
١١٦- «البدر المزيل للحزن فى فضائل اليمن ومحاسن صنعاء» القاهرة (١٣٤٥هـ).
١١٧- الويسى، الحسين بن على:
«اليمن الكبرى» القاهرة ١٩٦٢.

رابعاً: مراجع أوربية:

١١٨- Arnold: The Califate.

١١٩- Ency: Of Islam.

١٢٠- Hitti: Hist Of the Arabs.

١٢١- Hogerth: A Hist. of Arabia.

١٢٢- Kay: Yaman Its Early Medival History.

١٢٣- Lane Poole: A Hist. Of Egypt in the Middle Ages.

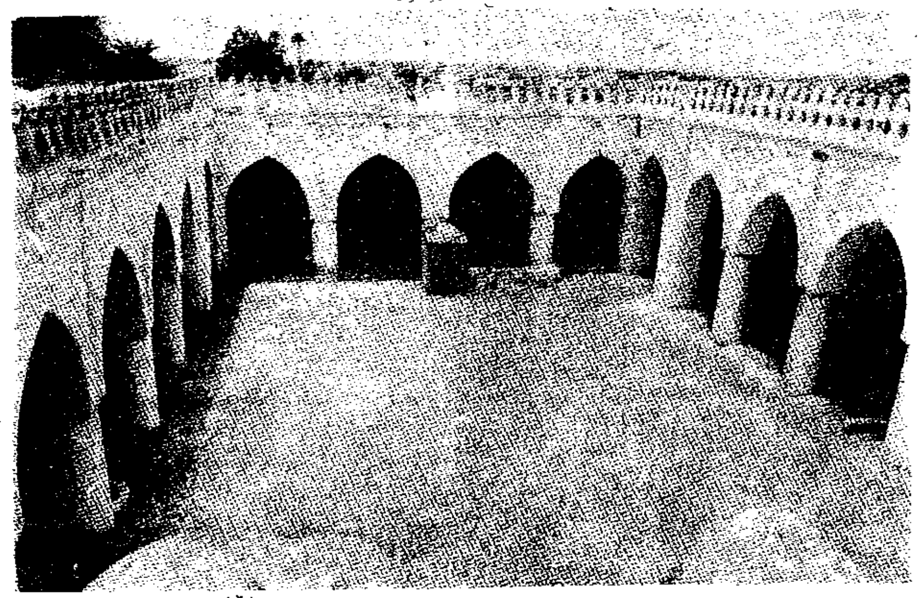
١٢٤- Scott: In the High Yamen.

ملحق
المساجد والمدارس وبعض المشاهد
الأثرية فى اليمن بعد ظهور الإسلام





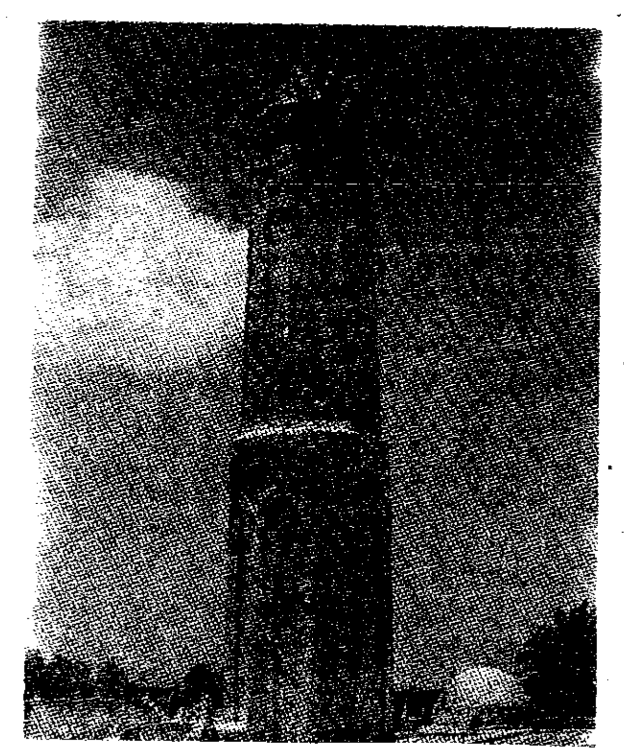
الجامع الكبير بزبيد[1] .



البائكات المطلة على الصحن بالجامع الكبير بزبيد[2] .

١ – مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية ص ١٧٥ .

٢ – مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية ص ١٧٥ .



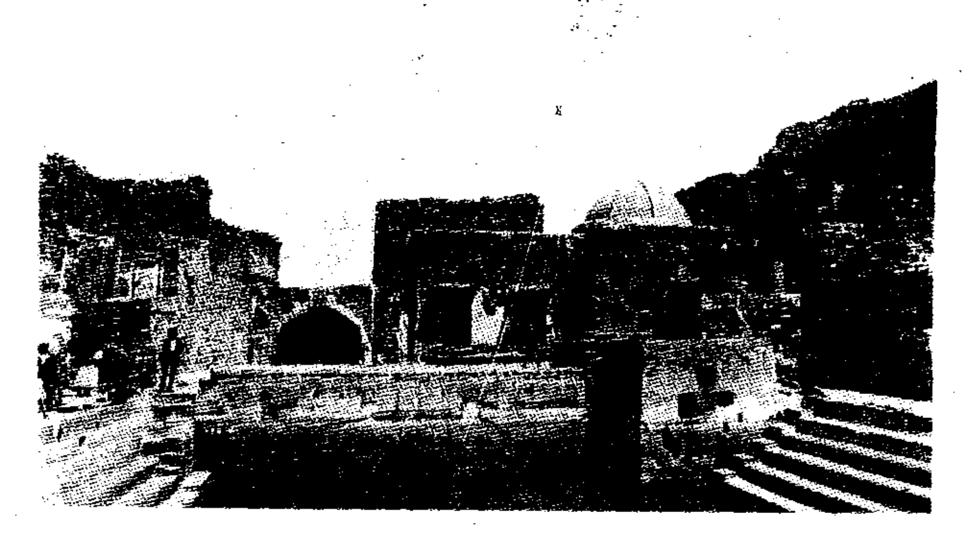
مئذنة الجامع الكبير بزبيد[1].



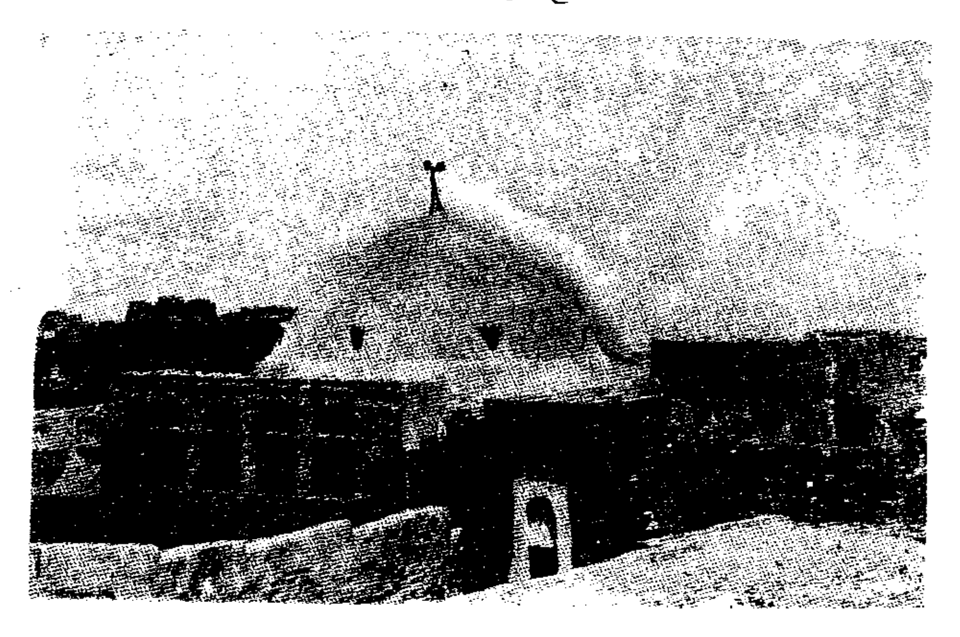
الجامع الكبير بذمار[2].

١ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.

٢ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.



جامع المدرسة بثلا[١] .



قبة الهادى بثلا[٢] .

١ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.

٢ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.

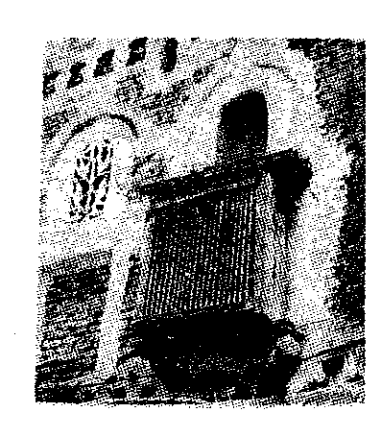


شمعدان من النحاس المكفت بالفضة

المتحف الوطنى بصنعاء[1].

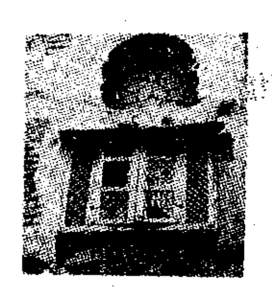
---

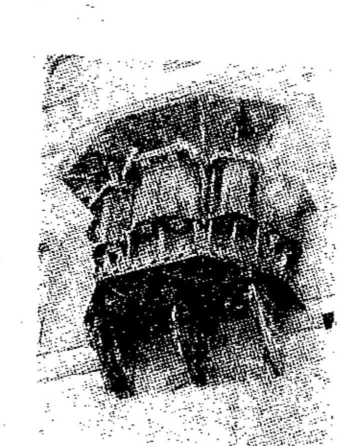
١ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.

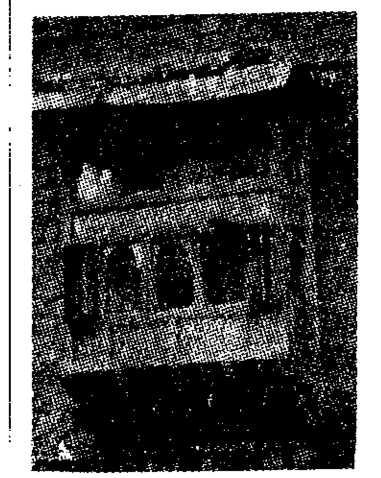


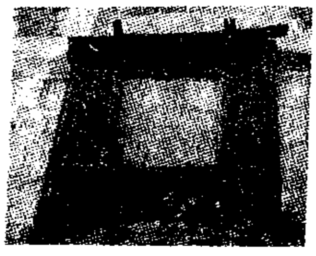


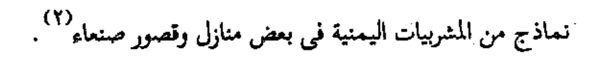










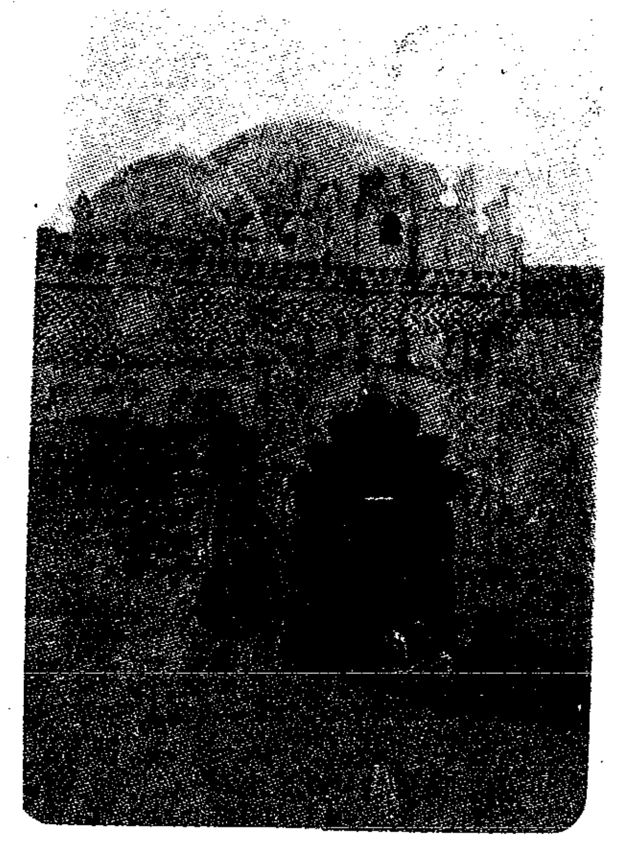


نماذج من المشربيات اليمنية فى بعض منازل وقصور صنعاء[٢] .

١ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.



المدرسة المظفرية بتعز[1].

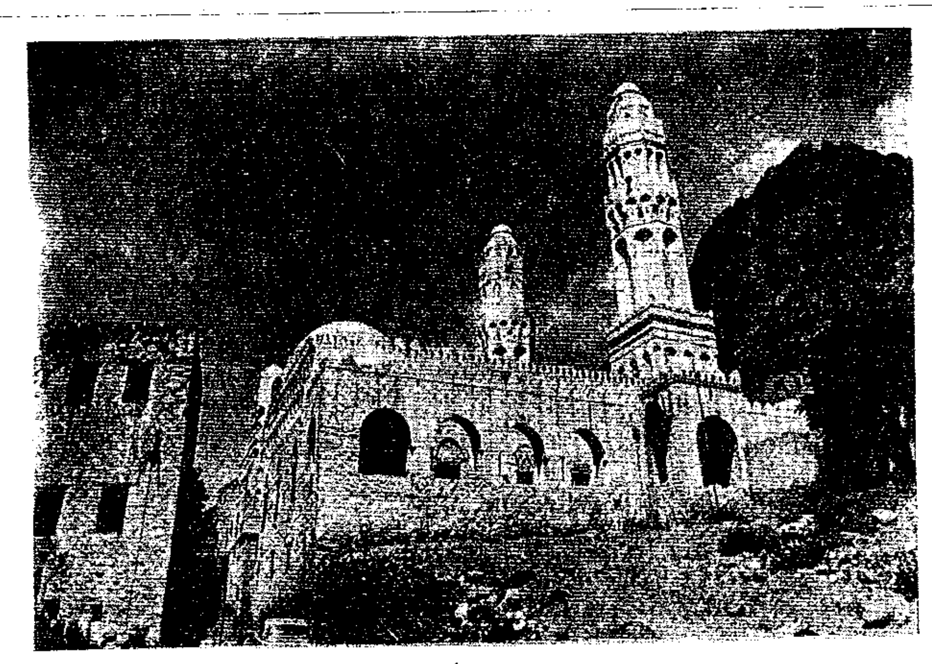


المدخل الغربى للمدرسة المظفرية[2].

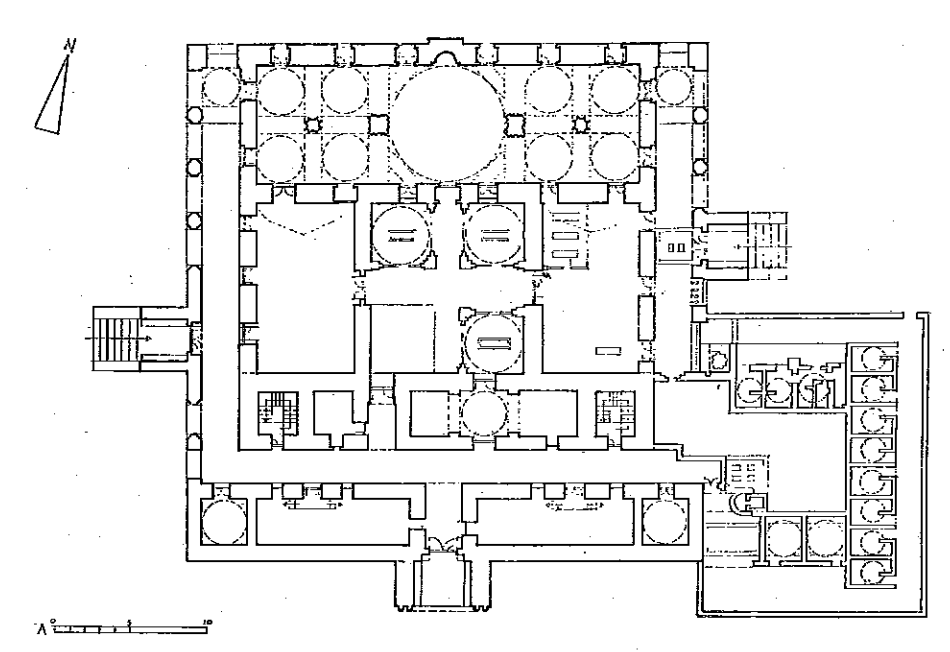
---

١ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.

٢ – مصطفى شيحه: المصدر السابق.

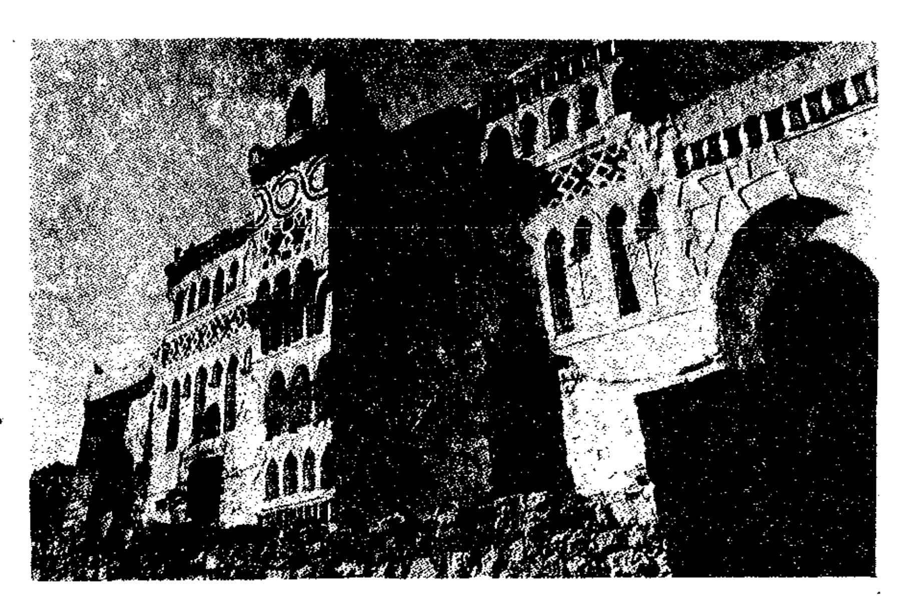


المدخل الغربى للمدرسة الأشرفية الكبرى فى تعز

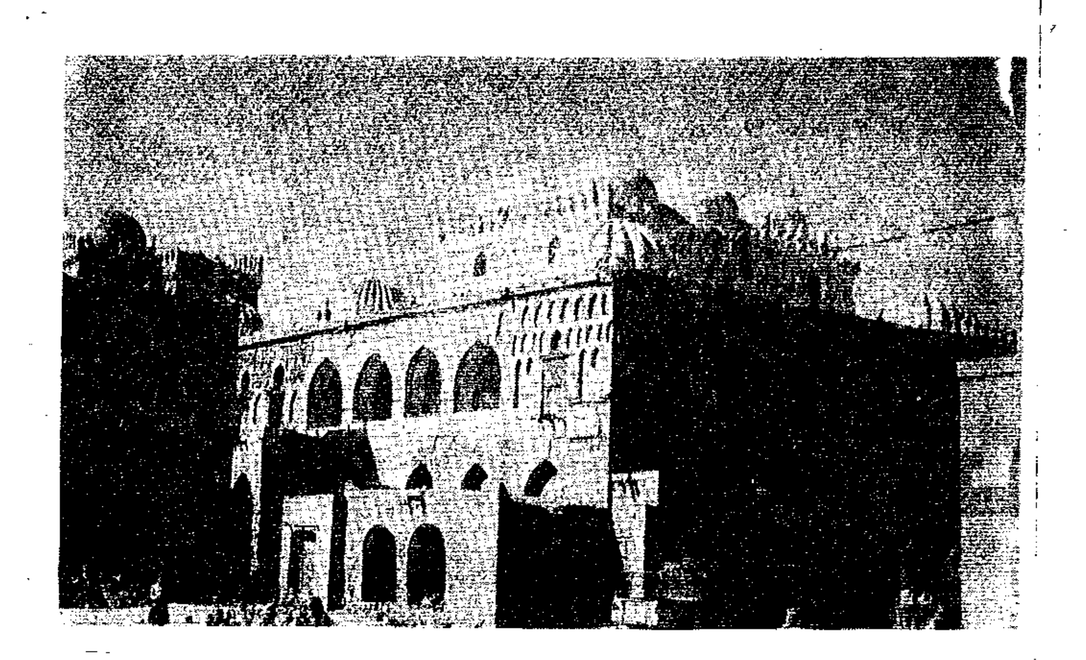


مخطط للمدرسة الأشرفية الكبرى

١- إسماعيل بن على الأكوع: المدارس الإسلامية فى اليمن.



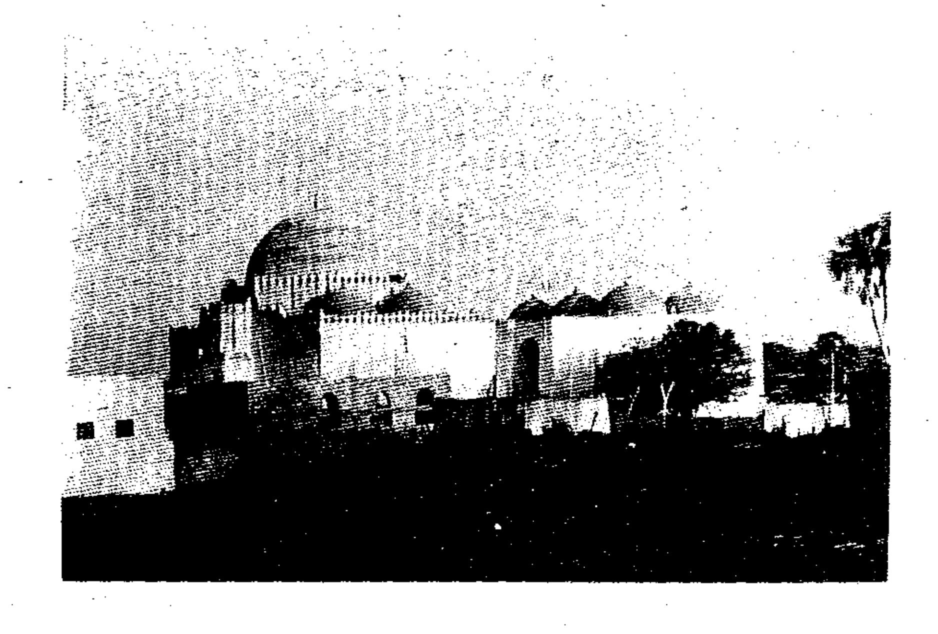
المدرسة المنصورية في جبن



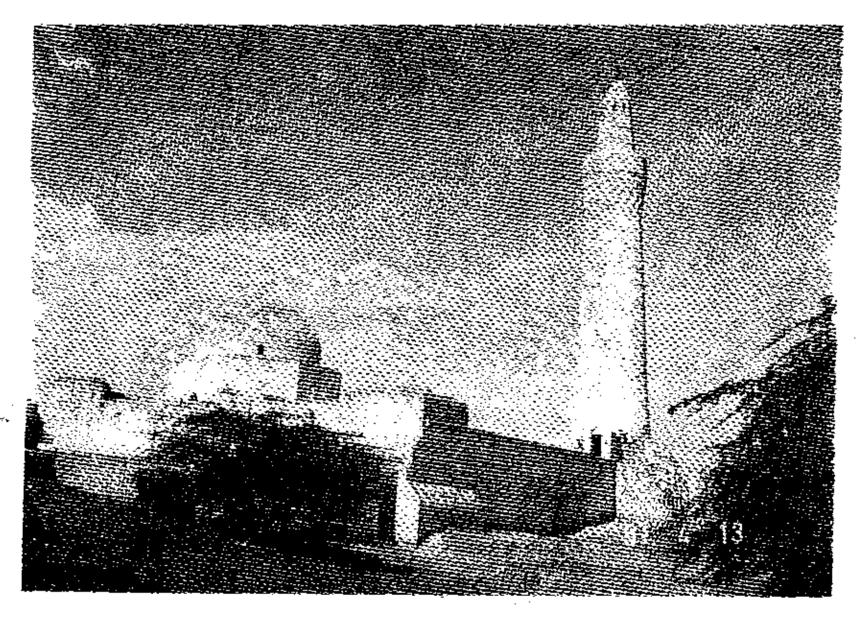
المدرسة العامرية في رداع

١- إسماعيل بن علي الأكوع: المصدر السابق.

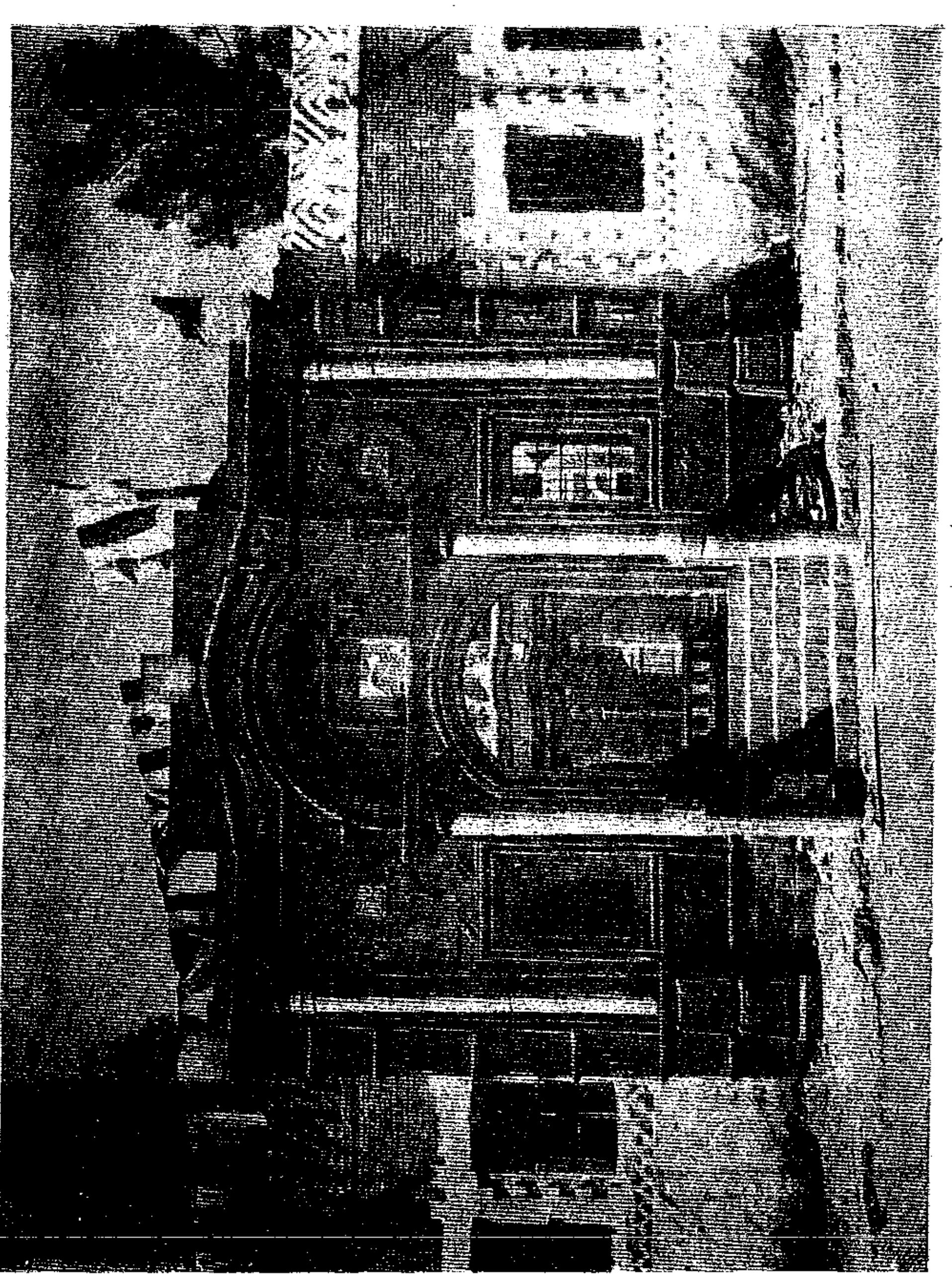
٢- إسماعيل بن علي الأكوع: المصدر السابق.



المدرسة الكمالية بزبيد

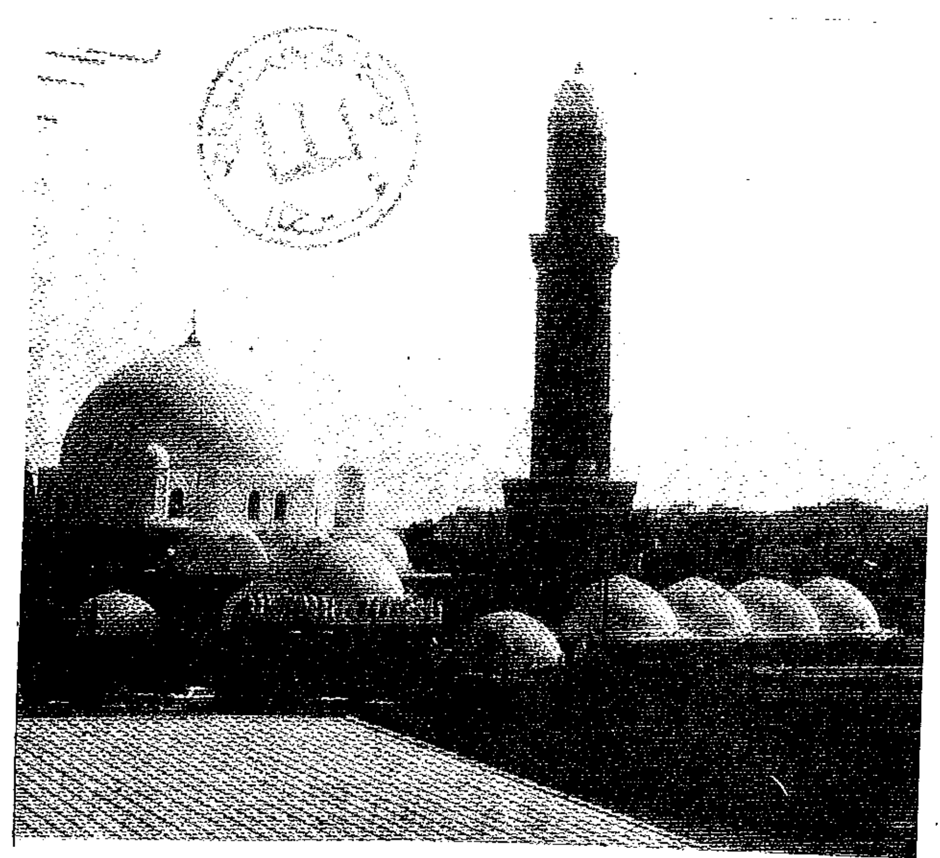


المدرسة السكندرية بزبيد

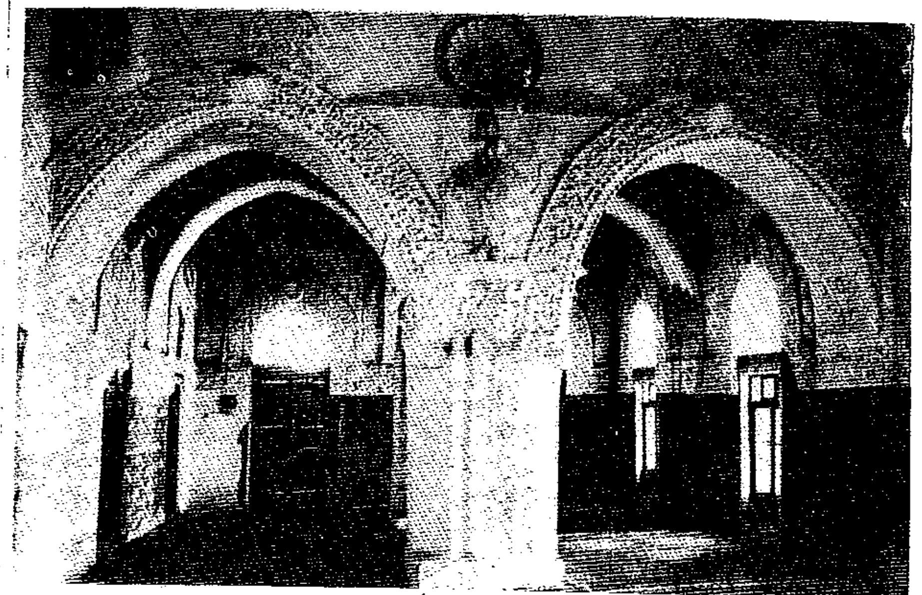


باب المدرسة العلمية فى صنعاء

١- إسماعيل بن على الأكوع - المصدر السابق.



مدرسة البكيرية بصنعاء



بيت الصلاة بالمدرسة الأشرفية

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث

مظاهر الحضارة فى بلاد اليمن

منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بنى رسول

الجداول والمصادر والفهارس

كتب للمؤلف

١ – كتاب «تاريخ الإسلام فى العصر التركى». الناشر دار الفكر العربى.

٢ – «الحواضر الإسلامية الكبرى». الناشر دار الفكر العربى.

٣ – «بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى». الناشر دار الفكر العربى.

٤ – «اليمن فى ظل الإسلام». الناشر دار الفكر العربى.

٥ – «الهند فى العصر الإسلامى».

٦ – «الإسلام وعالم الفكر».

٧ – «الدولة الإسلامية المستقلة فى الشرق». الناشر دار الفكر العربى.

٨ – «الدولة العباسية».

٩ – «تاريخ المغرب والأندلس».

١٠ – «الدولة الإسلامية وحضارتها».

١١ – «معالم التاريخ الإسلامى». الناشر دار الفكر العربى.

١٢ – «الحركة الفكرية فى بلاد اليمن فى عصر بنى رسول».

شارك فى إعداد أطلس العالم الإسلامى. يضاف إلى ذلك العديد من البحوث والدراسات فى تاريخ الإسلام وحضارته.

رقم الايداع	٩٤ / ٤٣٧٦
الرقم الدولى I.S.B.N	977-10-0671-1